الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد الثالث

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحیم

الميزان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبايى

نشرت فى الطباعة:

علامه طباطبايى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

تفسیر المیزان المجلد ۳

اشاره

سرشناسه : طباطبائی، سیدمحمدحسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدیدآور : تفسیر المیزان/ محمدحسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی ؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجا: امیرکبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ریال(دوره کامل)

یادداشت : جلد۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمدباقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج.۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج.۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص :۱

اشاره

(۳)سوره آل عمران مدنيه و هى مائتا آيه(۲۰۰)

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۱ الى ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ

الم (۱) اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ اَلْحَيُّ اَلْقَيُّومُ (۲) نَزَّلَ عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ اَلتَّوْرٰاةَ وَ اَلْإِنْجِيلَ (۳) مِنْ قَبْلُ
هُدىً لِلنّٰاسِ وَ أَنْزَلَ اَلْفُرْقٰانَ إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اَللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ اَللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو اِنْتِقٰامٍ (۴) إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي
اَلْأَرْضِ وَ لاٰ فِي اَلسَّمٰاءِ (۵) هُوَ اَلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي اَلْأَرْحٰامِ كَيْفَ يَشٰاءُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۶)

بيان

غرض السوره دعوه المؤمنين إلى توحيد الكلمه فى الدين،و الصبر و الثبات فى حمايه حماه بتنبيههم بما هم عليه من دقه الموقف لمواجهتهم أعداء كاليهود و النصارى و المشركين و قد جمعوا جمعهم و عزموا عزمهم على إطفاء نور الله تعالى بأيديهم و بأفواههم.

و يشبه أن تكون هذه السوره نازله دفعه واحده فإن آياتها و هى مائتا آيه- ظاهره الاتساق و الانتظام من أولها إلى آخرها،متناسبه آياتها،مرتبطه أغراضها.

و لذلک كان مما يترجح فى النظر أن تكون السوره إنما نزلت على رسول الله ص و قد استقر له الأمر بعض الاستقرار و لما يتم استقراره،فإن فيها ذكر غزوه أحد،و فيها ذكر المباهله مع نصارى نجران و ذكرا من أمر اليهود،و حثا على

المشـركين،و دعوه إلى الصبر و المصابره و المرابطه،و جميع ذلك يؤيد أن السوره نزلت أيام كان المسلمون مبتلين بالدفاع عن حمى الـدين بعـامه قواهم و جميع أركـانهم، فمن جـانب كـانوا يقاومون الفشل و الفتور اللـذين يـدبان فى داخل جماعتهم بفتنه اليهـود و النصـارى،و يحـاجونهم و يجـاوبونهم،و مـن جـانب كـانوا يقـاتلون المشـركين،و يعيشـون فى حـال الحرب و انسـلاب الأمن،فقـد كان الإسـلام فى هـذه الأيام قد انتشـر صـيته فثارت الدنيا عليه من اليهود و النصارى و مشـركى العرب، و وراء ذلك الروم و العجم و غيرهم.

و الله سـبحانه يـذكر المؤمنين فى هـذه السوره من حقـائق دينه الـذى هـداهم به ما يطيب به نفوسـهم،و يزول به رين الشـبهات و الوساوس الشـيطانيه و تسويلات أهل الكتاب عن قلوبهم،و يبين لهم:أن الله سـبحانه لم يغفل عن تـدبير ملكه،و لم يعجزه خلقه،و إنمـا اختـار دينه و هـدى جمعا من عباده إليه على طريقه العاده الجاريه،و السـنه الـدائمه،و هى سـنه العلل و الأسـباب،فالمؤمن و الكافر جاريان على سنه الأسباب،فيوم للكافر و يوم للمؤمن،فالدار دار الامتحان،و اليوم يوم العمل،و الجزاء غدا.

قوله تعـالى اَللّٰهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ،قـد مر الكلام فيه فى تفسـير آيه الكرسـى،و تحصل من هناك أن المراد به بيان قيامه تعالى أتم القيام على أمر الإيجاد و التـدبير،فنظام الموجودات بأعيانها و آثارها تحت قيمومه الله لا مجرد قيمومه التأثير كالقيمومه فى الأسـباب الطبيعيه الفاقـده للشـعور بل قيمومه حياه تسـتلزم العلم و القـدره، فالعلم الإلهى نافـذ فيها لا يخفى عليه شـىء منها و القدره مهيمنه عليها لا يقع منها إلا ما شاء وقوعه و أذن فيه،و لذلك عقبه بقوله بعد آيتين: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ فِي السَّمٰاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحٰامِ كَيْفَ يَشٰاءُ .

و لما كانت هذه الآيات الست فى أول السوره على طريق براعه الاسـتهلال مشـتمله على إجمال ما تحتويه السوره من التفصيل-و قـد مر ذكر غرض السوره-كانت هذه الآيه بمنزله تصدير الكلام بالبيان الكلى الذى يسـتنتج به الغرض،كما أن الآيتين الأخيرتين أعنى قوله: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَيْهِ «إلـخ»بمنزله التعليل بعـد البيان،و على هـذا فالكلام التى يتم به أمر براعه الاسـتهلال هما الآيتان المتوسـطتان أعنى قـوله: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ إلى قوله عَزِيزٌ ذُو انْتِقٰامٍ. و على هـذا فيعود المعنى إلى أنه يجب على المؤمنين أن يتذكروا أن الله الذى آمنوا به واحد فى ألوهيته قائم على الخلق و التدبير قيام حياه،لا

يغلب فی ملكه و لا ـ يكون إلا ما شاء و أذن فيه فإنهم إذا تـذكروا ذلك علموا أنه هو المنزل للكتاب الهادی إلی الحق،و الفرقان المميز بين الحق و الباطـل،و أنه إنما جری فی ذلك علی ما أجری عليه عالم الأسـباب،و ظرف الاختيار،فمن آمن فله أجره،و من كفر فإن الله سيجزيه لأنه عزيز ذو انتقام،و ذلك أنه الله الـذی لا إله غيره حتی يحكم فی هـذه الجهات،و لا يخفی عليه أمرهم،و لا يخرج عن إرادته و مشيئته فعالهم و كفرهم.

قوله تعالی: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ، قد مر أن التنزيل يدل علی التدريج كما أن الإنزال يدل علی الدفعه.

و ربما ينقض ذلك بقول: «لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً» :الفرقان-۳۲، و بقوله تعالی: «أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنٰا مٰائِدَةً» :المائده-۱۱۲، و قوله تعالی: «لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ» :الأنعام-۳۷،و قوله تعالی: «قُلْ إِنَّ اللّٰهَ قٰادِرٌ عَلیٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً» :الأنعام -۳۷،و لذلك ذكر بعض المفسرين:أن الأولی أن يقال:إن معنی نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ :أنزله إنزالا بعد إنزال دفعا للنقض.

و الجواب:أن المراد بالتدريـج فی النزول ليس هو تخلل زمان معتـد به بين نزول كل جزء من أجزاء الشـیء و بين جزئه الآخر بل الأشـياء المركبه التی توجـد بوجود أجزائها لوجودها نسـبه إلی مجموع الأجزاء و بذلك يصـير الشـیء أمرا واحدا غير منقسم، و التعبير عنه من هـذه الجهه بـالنزول كقوله تعالی: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً» :الرعـد-۱۷ و هـو الغيث.و نسـبته من حيث وجوده بوجود أجزائه واحدا بعد واحد سواء تخلل بينهما زمان معتد به أو لم يتخلل و هو التدريج،و التعبير عنه بالتنزيل كقوله تعالی:

«وَ هُوَ الَّذِی يُنَزِّلُ الْغَيْثَ» :الشوری-۲۸.

و من هنـا يظهر:أن الآيـات المـذكوره للنقض غير نـاقضه-فإن المراد بقوله لَوْ لاٰ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وٰاحِدَةً الآيه:أن ينزل عليه القرآن آيـه بعـد آيه فی زمـان متصـل واحـد من غير تخلـل زمـان معتـد به كمـا كـان عليه الأـمر فی نزول القرآن فی الشـئون و الحوادث و الأوقات المختلفه،و بذلك يظهر الجواب عن بقيه الآيات المذكوره.

و أما ما ذكره البعض المزبور فهو علی أنه استحسان غير جائز فی اللغه البته،

لا يدفع شيئا من النقض بالآيات المذكوره،بل هی بحالها و هو ظاهر.

و قد جری کلامه تعالی أن يعبر عن إفاضه الکتاب علی النبی ص بالتنزيل و النزول،و النزول يستلزم مقاما أو مکانا عاليا رفيعا يخرج منه الشیء نوعا من الخروج و يقصد مقاما أو مکانا آخر أسفل فيستقر فيه،و قد وصف نفسه تعالت ذاته بالعلو و رفعه الدرجات و قد وصف کتابه أنه من عنده،قال تعالی: «إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ» :الشوری-۵۱،و قال تعالی: «وَ لَمّٰا جٰاءَهُمْ كِتٰابٌ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَهُمْ» :البقره -۸۹ ،فصح بذلک استعمال لفظ النزول فی مورد استقرار الوحی فی قلب رسول الله ص،و قد ذکروا أن الحق هو الخبر من حيث إن بحذائه خارجا ثابتا کما أن الصدق هو الخبر من حيث إنه مطابق للخارج،و علی هذا فإطلاق الحق علی الأعيان الخارجيه و الأمور الواقعيه کما يطلق علی الله سبحانه:أنه حق،و علی الحقائق الخارجيه أنها حقه إنما هو من جهه أن کلا منها حق من جهه الخبر عنها،و کيف کان فالمراد بالحق فی الآيه:الأمر الثابت الذی لا يقبل البطلان.

و الظاهر أن الباء فی قوله: بِالْحَقِّ للمصاحبه و المعنی:نزل عليک الکتاب تنزيلا يصاحب الحق و لا يفارقه،فيوجب مصاحبه الحق أن لا يطرأ عليه و لا يخالطه باطل فهو فی أمن من جهه ظهور الباطل عليه،ففی قوله: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ استعاره بالکنايه،و قد قيل فی معنی الباء وجوه أخر لا يخلو عن سقم.

و التصديق من الصدق يقال صدقت مقالا کذا أی قررته علی الصدق و اعترفت بکونه صدقا و صدقت فلانا أی اعترفت بصدقه فيما يخبر به.

و المراد مما بين يديه التوراه و الإنجيل کما قال تعالی: «إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً Xإلی أن قالX: وَ آتَيْنٰاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً Xإلی أن قالX: وَ أَنْزَلْنٰا إِلَيْكَ الْكِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتٰابِ:» XالآيهXالمائده-۴۸،و الکلام لا يخلو عن دلاله علی أن ما بأيدی اليهود و النصاری من التوراه و الإنجيل لا يخلو عن بعض ما أنزله الله علی موسی و عيسی(ع)،و إن کانا لا يخلوان عن السقط و التحريف،فإن الدائر بينهم فی عصر رسول الله ص هو التوراه الموجوده اليوم و الأناجيل الأربعه المشهوره، فالقرآن يصدق التوراه و الإنجيل الموجودين،لکن فی الجمله لا بالجمله لمکان الآيات

الناطقه بالتحريف و السقط فيهما قال تعالى: «وَ لَقَدْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ بَنِي إِسْرٰائِيلَ Xإلى أن قالX: وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ Xإلى أن قالX: وَ مِنَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنّٰا نَصٰارىٰ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّٰا ذُكِّرُوا بِهِ XالآيهX:المائده-۱۴.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ التَّوْرٰاةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنّٰاسِ ، التوراه كلمه عبرانيه بمعنى الشريعه،و الإنجيل لفظ يونانى،و قيل فارسى الأصل معناه البشاره، و سيجىء استيفاء البحث عن الكتابين فى قوله تعالى: «إِنّٰا أَنْزَلْنَا التَّوْرٰاةَ فِيهٰا هُدىً وَ نُورٌ:» XالآياتXالمائده-۴۴.

و مما أصر عليه القرآن تسميه كتاب عيسى(ع)بالإنجيل بصيغه الإفراد و القول بأنه نازل من عند الله سبحانه مع أن الأناجيل كثيره،و المعروفه منها أعنى الأناجيل الأربعه كانت موجوده قبل نزول القرآن و فى عهده،و هى التى ينسب تأليفها إلى لوقا و مرقس و متى و يوحنا،و لا يخلو ما ذكرناه من إفراد الاسم و التوصيف بالنزول عن دلاله على التحريف و الإسقاط،و كيف كان لا يخلو ذكر التوراه و الإنجيل فى هذه الآيه و فى أول السوره من التعريض لليهود و النصارى على ما سيذكره من أمرهم و قصص تولد عيسى و نبوته و رفعه.

قوله تعالى: وَ أَنْزَلَ الْفُرْقٰانَ ، الفرقان ما يفرق به بين الحق و الباطل على ما فى الصحاح،و اللفظ بمادته يدل على الأعم من ذلك،و هو كل ما يفرق به بين شىء و شىء.

قال تعالى: «يَوْمَ الْفُرْقٰانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعٰانِ:» الأنفال-۴۱،و قال تعالى: «يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقٰاناً» :الأنفال-۲۹.و إذا كان الفرق المطلوب عند الله فيما يرجع إلى معنى الهدايه هو الفرق بين الحق و الباطل فى العقائد و المعارف و بين وظيفه العبد و ما ليس بوظيفه له بالنسبه إلى الأعمال الصادره عنه فى الحياه الدنيا انطبق معناه على مطلق المعارف الأصليه و الفرعيه التى أنزلها الله تعالى على أنبيائه بالوحى،أعم من الكتاب و غيره.

قال تعالى: «وَ لَقَدْ آتَيْنٰا مُوسىٰ وَ هٰارُونَ الْفُرْقٰانَ» :الأنبياء-۴۸،و قال تعالى:

«وَ إِذْ آتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ وَ الْفُرْقٰانَ» :البقره-۵۳،و قال تعالى «تَبٰارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقٰانَ عَلىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰالَمِينَ نَذِيراً» :الفرقان-۱.

و قد عبر تعالى عن هذا المعنى بالميزان فى قوله: «لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ

وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ» :الحديد-۲۵.و هو فى وزان قوله: «كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ :البقره-۲۱۳. فالميزان كالفرقان هو الدين الذى يحكم بين الناس بالعدل مع ما ينضم إليه من المعارف و وظائف العبوديه، و الله أعلم.

و قيل:المراد بالفرقان القرآن.و قيل:الدلاله الفاصله بين الحق و الباطل.

و قيل:الحجه القاطعه لرسول الله ص على من حاجه فى أمر عيسى.و قيل النصر.

و قيل:العقل.و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللّهِ إلى قوله ذُو انْتِقامٍ ، الانتقام على ما قيل مجازاه المسىء على إساءته،و ليس من لازم المعنى أن يكون للتشفى،فإن ذلك من لوازم الانتقامات التى بيننا حيث إن إساءه المسىء يوجب منقصه و ضررا فى جانبنا فنتدارك ذلك بالمجازاه الشديده التى توجب تشفى قلوبنا،و أما هو تعالى فأعز ساحه من أن ينتفع أو يتضرر بشىء من أعمال عباده لكنه وعد-و له الوعد الحق-أن سيقضى بين عباده بالحق إن خيرا فخيرا و إن شرا فشرا.قال تعالى: «وَ اللّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ» :المؤمن-۲۰،و قال تعالى: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» :النجم-۳۱. كيف و هو عزيز على الإطلاق منيع الجانب من أن ينتهك محارمه.و قد قيل إن الأصل فى معنى العزه الامتناع.

و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ،من حيث إطلاق العذاب و عدم تقييده بالآخره أو يوم القيامه ربما تضمن الوعيد بالعذاب فى الدنيا كما فى الآخره.و هذا من الحقائق القرآنيه التى ربما قصر الباحثون فى استيفاء البحث عنه و ليس ذلك إلا لكوننا لا نعد شيئا عذابا إلا إذا اشتمل على شىء من الآلام الجسمانيه، أو نقص أو فساد فى النعم الماديه كذهاب الأموال و موت الأعزه و نقاهه الأبدان،مع أن الذى يعطيه القرآن بتعليمه أمر وراء ذلك.

كلام فى معنى العذاب فى القرآن

القرآن يعد معيشه الناسى لربه ضنكا و إن اتسعت فى أعيننا كل الاتساع.

قال تعالى: «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً» :طه-۱۲۴،و يعد الأموال و الأولاد عذابا و إن كنا نعدها نعمه هنيئه قال تعالى: «وَ لاٰ تُعْجِبْكَ أَمْوٰالُهُمْ وَ أَوْلاٰدُهُمْ إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهٰا فِي الدُّنْيٰا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كٰافِرُونَ» :التوبه-۸۵.

و حقيقه الأمر كما مر إجمال بيانه فى تفسير قوله تعالى: «وَ قُلْنٰا يٰا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ» :البقره-۳۵،أن سرور الإنسان و غمه و فرحه و حزنه و رغبته و رهبته و تعذبه و تنعمه كل ذلك يدور مدار ما يراه سعاده أو شقاوه ،هذا أولا.

و أن النعمه و العذاب و ما يقاربهما من الأمور تختلف باختلاف ما تنسب إليه فللروح سعاده و شقاوه و للجسم سعاده و شقاوه و كذا للحيوان منهما شىء و للإنسان منهما شىء و هكذا، و هذا ثانيا.و الإنسان المادى الدنيوى الذى لم يتخلق بأخلاق الله تعالى،و لم يتأدب بأدبه يرى السعاده الماديه هى السعاده و لا يعبأ بسعاده الروح و هى السعاده المعنويه.

فيتولع فى اقتناء المال و البنين و الجاه و بسط السلطه و القدره.و هو و إن كان يريد من قبل نفس هذا الذى ناله لكنه ما كان يريد إلا الخالص من التنعم و اللذه على ما صورته له خياله و إذا ناله رأى الواحد من اللذه محفوفا بالألوف من الألم.فما دام لم ينل ما يريده كان أمنيه و حسره و إذا ناله وجده غير ما كان يريده لما يرى فيه من النواقص و يجد معه من الآلام و خذلان الأسباب التى ركن إليها و لم يتعلق قلبه بأمر فوقها فيه طمأنينه القلب و السلوه عن كل فائته فكان أيضا حسره فلا يزال فيما وجده متألما به معرضا عنه طالبا لما هو خير منه لعله يشفى غليل صدره و فيما لم يجده متقلبا بين الآلام و الحسرات.

فهذا حاله فيما وجده،و ذاك حاله فيما فقده.

و أما القرآن فإنه يرى أن الإنسان أمر مؤلف من روح خالد و بدن مادى متحول متغير،و هو على هذا الحال حتى يرجع إلى ربه فيتم له الخلود من غير زوال، فما كان فيه سعاده الروح محضا كالعلم و نحو ذلك فهو من سعادته،و ما كان فيه سعاده جسمه و روحه معا كالمال و البنين إذا لم تكن شاغله عن ذكر الله،و موجبه للإخلاد إلى الأرض فهو أيضا من سعادته و نعمت السعاده.و كذا ما كان فيه شقاء الجسم و نقص لما يتعلق بالبدن و سعاده الروح الخالد كالقتل فى سبيل الله و ذهاب المال و اليسار لله تعالى فهو أيضا من سعادته بمنزله التحمل لمر الدواء ساعه لحيازه الصحه دهرا.

و أما ما فيه سعاده الجسم و شقاء الروح فهو شقاء للإنسان و عذاب له و القرآن

يسـمى سعاده الجسم فقط متاعا قليلا لا ينبغى أن يعبأ به قال تعالى: «لاَ يَغُرَّنَّکَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ کَفَرُوا فِی الْبِلاٰدِ مَتٰاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهٰادُ» :آل عمران- ۱۹۶ ۱۹۷.

و کـذا ما فيه شـقاء الجسم و الروح معا يعده القرآن عذابا کما يعدونه عذابا لکن وجه النظر مختلف،فإنه عذاب عنده لما فيه من شقاء الروح و عـذاب عندهم لما فيه من شـقاء الجسم،و ذلک کأنواع العذاب النازله على الأمم السالفه،قال تعالى: «أَ لَمْ تَرَ کَيْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعٰادٍ إِرَمَ ذٰاتِ الْعِمٰادِ الَّتِی لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهٰا فِی الْبِلاٰدِ وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جٰابُوا الصَّخْرَ بِالْوٰادِ وَ فِرْعَوْنَ ذِی الْأَوْتٰادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِی الْبِلاٰدِ فَأَکْثَرُوا فِيهَا الْفَسٰادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّکَ سَوْطَ عَذٰابٍ إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصٰادِ» :الفجر-۶ ۱۴.

و السـعاده و الشـقاوه لذوى الشـعور يتقومان بالشـعور و الإدراک فإنا لا نعد الأمر اللذيذ الذى نلناه و لم نحس به سـعاده لأنفسنا کما لا نعـد الأمر المؤلم غير المشـعور به شـقاء، و من هنا يظهر أن هـذا التعليم القرآنى الذى يسـلک فى السـعاده و الشـقاوه غير مسـلک المـاده،و الإنسـان المولع بالماده لا بـد من أن يسـتتبع نوع تربيه يرى بها الإنسان السـعاده الحقيقيه التى يشخصـها القرآن سعاده و الشـقاوه الحقيقيه شـقاوه،و هو کذلک، فإنه يلقن على أهله:أن لا يتعلق قلوبهم بغير الله،و يروا أن ربهم هو المالک الذى يملک کل شىء فلا يستقل شىء إلا به،و لا يقصد شىء إلا له.

و هذا الإنسان لا يرى لنفسه فى الدنيا إلا السـعاده بين ما کان فيه سعاده روحه و جسمه،و ما کان فيه سعاده روحه محضا،و أما ما دون ذلـک فـإنه يراه عـذابا و نکالاـ و أمـا الإنسـان المتعلق بهوى النفس و ماده الـدنيا فإنه و إن کان ربما يرى ما اقتناه من زينه الـدنيا سـعاده لنفسه و خيرا و لـذه فـإنه سوف يطلع على خبطه فى مشـيه،و انقلبت سـعادته المظنونه بعينها شـقاوه عليه قال تعالى: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّٰى يُلاٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِی يُوعَدُونَ :المعارج-۴۲،و قال تعالى: «لَقَدْ کُنْتَ فِی غَفْلَهٍ مِنْ هٰذٰا فَکَشَفْنٰا عَنْکَ غِطٰاءَکَ فَبَصَرُکَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» :ق-۲۲،و قال تعالى: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلّٰى عَنْ ذِکْرِنٰا وَ لَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيٰاهَ الـدُّنْيٰا ذٰلِکَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ» :النجم-۳۰،على أنهم لا يصفو لهم عيش إلا و هو منغص بما يربو عليه من الغم و الهم.

و من هنا يظهر:أن الإدراک و الفکر الموجود فى أهل الله و خاصه القرآن

غيرهما فى غيرهم مع كونهم جميعا من نوع واحد هو الإنسان،و بين الفريقين وسائط من أهل الإيمان ممن لم يستكمل التعليم و التربيه الإلهيين.

فهذا ما يتحصل من كلامه تعالى فى معنى العذاب و كلامه تعالى مع ذلك لا يستنكف عن تسميه الشقاء الجسمانى عذابا لكن نهايته أنه عذاب فى مرحله الجسم دون الروح،قال تعالى حكايه عن أيوب(ع): «أَنِّی مَسَّنِیَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ» :_ص-۴۱،و قال تعالى: «وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِی ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» :الأعراف-۱۴۱، فسمى ما يصنعون بهم بلاء و امتحانا من الله و عذابا فى نفسه لا منه سبحانه.

[بيان]

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی السَّماءِ إلخ،قد علل تعالى عذاب الذين كفروا بآياته بأنه عزيز ذو انتقام لكن لما كان هذا التعليل لا يخلو عن حاجه إلى ضميمه تنضم إليه ليتم المطلوب فإن العزيز ذا الانتقام يمكن أن يخفى عليه كفر بعض من كفر بنعمته فلا يبادر بالعذاب و الانتقام،فعقب لذلك الكلام بقوله:

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ

،فبين أنه عزيز لا يخفى عليه شيء ظاهر على الحواس و لا غائب عنها،و من الممكن أن يكون المراد مما فى الأرض و ما فى السماء الأعمال الظاهره القائمه بالجوارح و الخفيه الكامنه فى القلوب على حد ما نبهنا عليه فى قوله تعالى: «لِلّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِی أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ XالآيهX:

البقره-۲۸۴.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِی يُصَوِّرُكُمْ فِی الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ ، التصوير إلقاء الصوره على الشيء و الصوره تعم ما له ظل كالتمثال و ما لا ظل له.و الأرحام جمع رحم و هو مستقر الجنين من الإناث.

و هذه الآيه فى معنى الترقى بالنسبه إلى ما سبقها من الآيتين،فإن محصل الآيتين:

أن الله تعالى يعذب الذين كفروا بآياته لأنه العزيز المنتقم العالم بالسر و العلانيه فلا يغلب فى أمره بل هو الغالب و محصل هذه الآيه أن الأمر أعظم من ذلك،و من يكفر بآياته و يخالف عن أمره أذل و أوضع من أن يكفر باستقلال من نفسه و اعتماد على قدرته من غير أن يأذن الله فى ذلك فيغلب هو على أمره تعالى،و يبطل النظام الأحسن الذى نظم الله سبحانه عليه الخلقه فتظهر إرادته على إراده ربه بل الله سبحانه هو أذن

له فی ذلک،بمعنی أنه نظم الأمور نوع نظم یؤدی إلی وجود الاختیار فی الإنسان، و هو الوصف الـذی یمکنه به رکوب صـراط الإیمـان و الطـاعه أو الـتزام طریـق الکفر و المعصـیه،لیتم بـذلک أمر الفتنه و الامتحـان،فمن شـاء فلیؤمن و من شـاء فلیکفر، و ما یشاءون إلا أن یشاء الله رب العالمین.

فمـا من کفر و لا إیمان و لا غیرهما إلا عن تقـدیر،و هو نظم الأشـیاء علی نحو یتیسـر لکل شـیء ما یتوجه إلیه من مقاصـده التی سوف یسـتوفیها بعمله بتصویره بصورته الخاصه التی تمهد له السلوک إلی ما یسلک إلیه.فالله سبحانه هو الغالب علی أمره القاهر فی إرادته المهیمن علی خلقه،یظن الإنسان أنه یفعل ما یشاء و یتصـرف فیما یریـد، و یقطع بـذلک النظم المتصل الذی نظمه الله فی الکون فیسبق التقدیر،و هذا بعینه من القدر.

و هذا هو المراد بقوله: یُصَوِّرُکُمْ فِی الْأَرْحامِ کَیْفَ یَشاءُ ،أی ینظم أجزاء وجودکم فی بدء الأمر علی نحو یؤدی إلی ما یشاؤه فی ختمه مشیه إذن لا مشیه حتم.

و إنما خص الکلام بالتقـدیر الجاری فی الإنسان و لم یـذکر التقـدیر العام الجاری فی العالم کله لینطبق علی المورد،و لما مر أن فی الآیـات تعریضـا للنصـاری فی قـولهم فی المسـیح(ع)و الآیـات منتهیـه إلی مـا هـو الحق مـن أمره،فـإن النصـاری لا ینکرون کینونته(ع)فی الرحم و أنه لم یکون نفسه.

و التعمیم بعـد التخصـیص فی الخطاب أعنی قوله: یُصَوِّرُکُمْ بعـد قوله: نَزَّلَ عَلَیْکَ ، للـدلاله علی أن إیمان المؤمنین أیضا ککفر الکافرین غیر خارج عن حکم القدر،فتطیب نفوسهم بالرحمه و الموهبه الإلهیه فی حق أنفسهم،و یتسلوا بما سمعوه من أمر القدر و من أمر الانتقام فیما یعظم علیهم من کفر الکافرین.

قـوله تعـالی: لا إِلهَ إِلاّ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ ،فیه عود إلی مـا بـدئ به الکلام فی الآیـات من التوحیـد،و هو بمنزله تلخیص الـدلیل للتأکید.

فإن هذه الأمور المذکوره أعنی هدایه الخلق بعد إیجادهم،و إنزال الکتاب و الفرقان،و إتقان التدبیر بتعذیب الکافرین أمور لا بد أن تستند إلی إله یدبرها و إذ لا إله إلا الله تعالی شأنه فهو الذی یهدی الناس و هو الذی ینزل الکتاب و الفرقان،

و هو يعذب الكافرين بآياته،و إنما يفعل ما يفعل من الهدايه و الإنزال و الانتقام و التقدير بعزته و حكمته.

بحث روائی

فی المجمع،عن الكلبی و محمد بن إسحاق و الربيع بن أنس: نزلت أوائل السوره إلى نيف و ثمانين آيه فی وفد نجران،و كانوا ستين راكبا،قدموا على رسول الله ص- و فيهم أربعه عشر رجلا من أشرافهم،و فی الأربعه عشر ثلاثه نفر يئول إليهم أمرهم:

العاقب أمير القوم و صاحب مشورتهم-الذی لا يصدرون إلا عن رأيه،و اسمه عبد المسيح و السيد ثمالهم و صاحب رحلهم،و اسمه الأيهم،و أبو حارثه بن علقمه أسقفهم-و حبرهم و إمامهم و صاحب مدارسهم،و كان قد شرف فيهم و درس كتبهم،و كانت ملوك الروم قد شرفوه و مولوه-و بنوا له الكنائس لعلمه و اجتهاده،فقدموا على رسول الله ص المدينه-و دخلوا مسجده حين صلى العصر،عليهم ثياب الحبرات:-جبب و أرديه فی جمال رجال بلحرث بن كعب،يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله ص:-ما رأينا وفدا مثلهم،و قد حانت صلاتهم،فأقبلوا يضربون بالناقوس، و قاموا فصلوا فی مسجد رسول الله ص،فقالت الصحابه:يا رسول الله هذا فی مسجدك؟ فقال رسول الله ص:دعوهم،فصلوا إلى المشرق،فكلم السيد و العاقب رسول الله ص،فقال لهما رسول الله ص:أسلما،قالا:قد أسلمنا قبلك.قال:كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا-و عبادتكما الصليب و أكلكما الخنزير.قالا إن لم يكن ولدا لله فمن أبوه؟و خاصموه جميعا فی عيسى،فقال لهما النبی ص:أ لستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا و يشبه أباه؟قالوا:بلى،قال:أ لستم تعلمون-أن ربنا حی لا يموت و أن عيسى يأتيه الفناء؟قالوا:بلى،قال:أ لستم تعلمون-أن ربنا قيم على كل شیء و يحفظه و يرزقه؟قالوا:بلى،قال:فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟قالوا:لا، قال:أ لستم تعلمون-أن الله لا يخفى عليه شیء فی الأرض و لا فی السماء؟قالوا:بلى، قال:فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم؟قالوا:لا،قال:فإن ربنا صور عيسى فی الرحم كيف شاء،و ربنا لا يأكل و لا يشرب و لا يحدث قالوا:بلى،قال:أ لستم تعلمون أن عيسى حملته أمه-كما تحمل المرأه ثم وضعته كما تضع المرأه ولدها-ثم غذی كما

يغذی الصبی-ثم كان يطعم و يشرب و يحدث؟قالوا:بلی،قال فكيف يكون هذا كما زعمتم؟فسكتوا فأنزل الله فيهم صدر سوره آل عمران-إلی بضع و ثمانين آيه.

أقول:و روی هذا المعنی السيوطی فی الدر المنثور،عن أبی إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير و عن ابن إسحاق عن محمد بن سهل بن أبی أمامه، أما القصه فسيجیء نقلها،و أما نزول أول السوره فی ذلک فكأنه اجتهاد منهم و قد تقدم:أن ظاهر سياقها نزولها دفعه.

عن النبی ص: الشقی من شقی فی بطن أمه،و السعيد من سعد فی بطن أمه.

و فی الكافی،عن الباقر(ع)قال: إن الله إذا أراد أن يخلق النطفه-التی هی مما أخذ عليه الميثاق من صلب آدم-أو ما يبدو له فيه و يجعلها فی الرحم-حرک الرجل للجماع-و أوحی إلی الرحم أن افتحی بابک-حتی يلج فيک خلقی و قضائی النافذ و قدری، فتفتح بابها،فتصل النطفه إلی الرحم،فتردد فيه أربعين يوما،ثم تصير علقه أربعين يوما،ثم تصير مضغه أربعين يوما،ثم تصير لحما تجری فيه عروق مشتبكه،ثم يبعث الله ملكين خلاقين يخلقان فی الأرحام-ما يشاء الله،يقتحمان فی بطن المرأه من فم المرأه،فيصلان إلی الرحم-و فيها الروح القديمه المنقوله-فی أصلاب الرجال و أرحام النساء،فينفخان فيها روح الحياه و البقاء- و يشقان له السمع و البصر و الجوارح-و جميع ما فی البطن بإذن الله تعالی،ثم يوحی الله إلی الملكين:اكتبا عليه قضائی و قدری و نافذ أمری-و اشترطا لی البداء فيما تكتبان.فيقولان:يا رب ما نكتب؟فيوحی الله عز و جل إليهما:أن ارفعا رءوسكما إلی رأس أمه،فيرفعان رءوسهما فإذا اللوح يقرع جبهه أمه،فينظران فيه،فيجدان فی اللوح صورته و زينته-و أجله و ميثاقه سعيدا أو شقيا و جميع شأنه،فيملی أحدهما علی صاحبه-فيكتبان جميع ما فی اللوح- و يشترطان البداء فيما يكتبان،ثم يختمان الكتاب و يجعلانه بين عينيه،ثم يقيمانه قائما فی بطن أمه،قال:فربما عتا فانقلب،و لا يكون ذلک إلا فی كل عات أو مارد، و إذا بلغ أوان خروج الولد تاما أو غير تام-أوحی الله إلی الرحم:أن افتحی بابک حتی يخرج خلقی إلی أرضی-و ينفذ فيه أمری فقد بلغ أوان خروجه،قال:فتفتح الرحم باب الولد-فينقلب فتصير رجلاه فوق رأسه و رأسه فی أسفل البطن-ليسهل الله علی المرأه و علی الولد الخروج،فبعث الله عز و جل إليه ملكا يقال له:زاجر فيزجره زجره

فيفزع منها الولد-فإذا احتبس زجره الملك زجره أخرى فيفزع منها،فيسقط الولد إلى الأرض باكيا فزعا من الزجره.

أقول:قوله:إذا أراد أن يخلق النطفه،أى يجعلها بشرا تاما سويا،و تقييدها بقوله:التى هى مما أخذ عليها الميثاق إشاره إلى ما سيجىء بيانه:أن الإنسان الذى فى هذه النشأه الدنيويه و أحواله مسبوقه الوجود بنشأه أخرى سابقه عليه تجرى هذه على صراط تلك،و هى المسماه فى لسان الأخبار بعالم الذر و الميثاق،فما أخذ عليه الميثاق لا بد من أن يخلق فى هذه النشأه الدنيويه،و ما يخلق فى هذه النشأه هو مما أخذ عليه الميثاق من غير أن يقبل التغيير و التبديل فذلك من القضاء المحتوم.و لذلك ردد الكلام بينه و بين قوله:أو ما يبدو له فيه أى يبدو له البداء فى تمام خلقه،فلا يتم، و يعود سقطا،فالقسم المقابل له لا بداء فيه كما ذكرنا.و قوله و يجعلها فى الرحم عطف على قوله:يخلق النطفه.

قوله(ع)يقتحمان فى بطن المرأه من فم المرأه،يمكن أن يكون قوله من فم المرأه من كلام الراوى كما يؤيده وضع الظاهر موضع المضمر.و على ظاهر الحال من كونه من كلام الإمام(ع)هو من الشواهد على كون دخولهما و اقتحامهما فى بطن المرأه من غير سنخ دخول الجسم،فى الجسم إذ لا طريق إلى الرحم من غير الفرج إلا العروق، و منها العرق الذى يدر منه دم الحيض فينصب فى الرحم،و ليس هذا المنفذ بأسهل للدخول من جدران الرحم،فللدخول من الفم سبب غير سهوله الطريق و هو ظاهر.

قوله(ع):و فيها الروح القديمه المنقوله فى أصلاب الرجال و أرحام النساء،كأنها الروح النباتيه التى هى المبدأ للتغذى و التنمى.

قوله(ع):فينفخان فيها روح الحيوه و البقاء،ظاهره رجوع الضمير إلى الروح القديمه،فروح الحيوه و البقاء منفوخه فى الروح النباتيه،و لو فرض رجوعه إلى المضغه مثلا كانت منفوخه فى المضغه الحيه بالروح النباتيه فتصير المضغه النباتيه منفوخه فيها،و على أى حال يفيد الكلام أن نفخ الروح الإنسانى إنما هو نوع ترق للروح النباتيه بالاشتداد(على ما يقتضيه القول بالحركه الجوهريه).

ص :١٧

و بـذلک یظهر معنی انتقال الروح القدیمه فی أصـلاب الرجال و أرحام النساء، فالروح متحد الوجود مع البدن بوجه و هو النطفه و ما یمـدها من دم الحیض و هی المتحـده مع بدنی الأبوین و هما مع النطفه و هلم جرا،فما یجری علی الإنسان متعین فی الجمله فی وجود آبائه و أمهاته،مشهود فی صور أشخاصهم،و هو بوجه کالفهرس المأخوذ من الکتاب الموضوع قبله.

و به یظهر معنی قوله(ع):فیوحی الله عز و جل إلیهما أی إلی الملکین أن ارفعا رءوسکما إلی رأس أمه،و ذلک أن الذی لأبیه من شرح قضـائه و قـدره قـد انقطع عنه بانفصـال النطفه،فمـا بقی متصـلا به إلاـ أمه،و هو قوله(ع):فإذا اللوح یقرع جبهه أمه و الجبهه مجتمـع حـواس الإنسـان و طلیعـه وجهه فینتظران فیه فیجـدان فی اللـوح صـورته و زینته و أجله و میثـاقه سـعیدا أو شـقیا و جمیع شأنه،فیملی أحدهما علی صاحبه فنسبتهما شبیهه نسبه الفاعل و القابل فیکتبان جمیع ما فی اللوح.

قوله(ع):و یشترطـان البـداء فیمـا یکتبان،و ذلک لعـدم اشـتمال صورته علی تمام علل حوادثه المسـتقبله،فإن الصوره و إن کانت مبدأ لجمیع ما یجری علی الإنسان من أحواله و الحوادث المختصه به لکن لیست بالمبدإ کله بل للأمور و الحوادث الخارجه عنه دخاله فی ذلک،و لذلک کان الذی یتراءی منها من الحوادث غیر حتمی الوقوع، فکانت مظنه للبداء.

و اعلم:أن نسبه تفاصـیل الولاده إلی تحریک الله سـبحانه الرجل،و وحیه إلی الرحم،و إرسال الملکین الخلاقین و الملک الزاجر إلی غیر ذلک لا ینافی اسـتناد هـذه الحوادث و منها الولاده إلی أسـبابها الطبیعیه،فإن هذین القبیلین من الأسـباب أعنی الأسـباب المعنویه و الأسـباب المادیه واقعان أحـدهما فی طول الآخر لا فی عرضه حتی یبطل أحـدهما الآخر،أو یتدافعا فیبطلا معا،أو یعود الأمر إلی ترکب العله التامه من مجموع السببین،بل کل منهما عله تامه لکن فی مرتبته.

فمن أقامه الله سـبحانه لهـدایه الناس إلی سـعادتهم المعنویه و سـلوکهم إلی مرضاته و هم الأنبیاء(ع)و الطریق طریق الباطن-فإنما وظیفته أن یکلم الناس بلسان یسـلک بهم مسـلک الباطن و یذکرهم مقام ربهم فی جمیع بیاناته،و هو توسـیط الملائکه و اسـتناد الحوادث إلی أعمالهم،و نسبه السعاده إلی تأییدهم،و نسبه الشقاء

بخصوصیاته إلی الشیاطین و تسویلهم،و نسبه الجمیع إلی الله سبحانه علی ما یلیق بساحه قدسه و حضره ربوبیته،لیستنتج من ذلک صور الهدایه و الضلال و الربح و الخسران، و بالجمله جمیع شئون الحیوه الآخره ،و هم مع ذلک لم یهملوا أمر الأسباب الطبیعیه و لم یضیعوا حقها،فإنها أحد رکنی حیوه الإنسان و الأساس الذی تستند إلیه الحیوه الدنیا،و لا بد للإنسان أن یعرف جمله أمرها کما لا بد له أن یعرف جمله الأمر فی الأسباب المعنویه حتی یتم له معرفه نفسه فیعرف ربه.

[سوره آل عمران (٣): الآیات ٧ الی ٩]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ اَلْکِتٰابَ مِنْهُ آیٰاتٌ مُحْکَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ اَلْکِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ فَأَمَّا اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ اِبْتِغٰاءَ اَلْفِتْنَهِ وَ اِبْتِغٰاءَ تَأْوِیلِهِ وَ مٰا یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلاَّ اَللّٰهُ وَ اَلرّٰاسِخُونَ فِی اَلْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا وَ مٰا یَذَّکَّرُ إِلاّٰ أُولُوا اَلْأَلْبٰابِ (٧) رَبَّنٰا لاٰ تُزِغْ قُلُوبَنٰا بَعْدَ إِذْ هَدَیْتَنٰا وَ هَبْ لَنٰا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَهً إِنَّکَ أَنْتَ اَلْوَهّٰابُ (٨) رَبَّنٰا إِنَّکَ جٰامِعُ اَلنّٰاسِ لِیَوْمٍ لاٰ رَیْبَ فِیهِ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُخْلِفُ اَلْمِیعٰادَ (٩)

بیان

قوله تعالی: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتٰابَ ،عبر تعالی بالإنزال دون التنزیل لأن المقصود بیان بعض أوصاف مجموع الکتاب النازل و خواصه،و هو أنه مشتمل علی آیات محکمه و أخر متشابهه ترجع إلی المحکمات و تبین بها،فالکتاب مأخوذ بهذا النظر أمرا واحدا من غیر نظر إلی تعدد و تکثر فناسب استعمال الإنزال دون التنزیل.

قوله تعالی: مِنْهُ آیٰاتٌ مُحْکَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ ،ماده حکم

تفید معنی کون الشیء بحیث یمنع ورود ما یفسده أو یبعضه أو یخل أمره علیه،و منه الإحکام و التحکیم،و الحکم بمعنی القضاء،و الحکمه بمعنی المعرفه التامه و العلم الجازم النافع،و الحکمه بفتح الحاء لزمام الفرس،ففی الجمیع شیء من معنی المنع و الإتقان، و ربما قیل:إن الماده تدل علی معنی المنع مع إصلاح.

و المراد هاهنا من إحکام المحکمات إتقان هذه الآیات من حیث عدم وجود التشابه فیها کالمتشابهات فإنه تعالی و إن وصف کتابه بإحکام الآیات فی قوله: «کِتَابٌ أُحْکِمَتْ آیَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ» :هود-۱ ،لکن اشتمال الآیه علی ذکر التفصیل بعد الإحکام دلیل علی أن المراد بالإحکام حال من حالات الکتاب کان علیها قبل النزول و هی کونه واحدا لم یطرأ علیه التجزی و التبعض بعد بتکثر الآیات،فهو إتقانه قبل وجود التبعض،فهذا الإحکام وصف لتمام الکتاب،بخلاف وصف الإحکام و الإتقان الذی لبعض آیاته بالنسبه إلی بعض آخر من جهه امتناعها عن التشابه فی المراد.

و بعباره أخری لما کان قوله مِنْهُ آیَاتٌ مُحْکَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتَابِ وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ مشتملا علی تقسیم آیات الکتاب إلی قسمی المحکم و المتشابه علمنا به أن المراد بالإحکام غیر الإحکام الذی وصف به جمیع الکتاب فی قوله: کِتَابٌ أُحْکِمَتْ آیَاتُهُ الآیه و کذا المراد بالتشابه فیه غیر التشابه الذی وصف به جمیع الکتاب فی قوله:

« کِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِیَ» :الزمر-۲۳.

و قد وصف المحکمات بأنها أم الکتاب،و الأم بحسب أصل معناه ما یرجع إلیه الشیء،و لیس إلا أن الآیات المتشابهه ترجع إلیها فالبعض من الکتاب و هی المتشابهات ترجع إلی بعض آخر و هی المحکمات و من هنا یظهر أن الإضافه فی قوله أم الکتاب لیست لامیه کقولنا:أم الأطفال،بل هی بمعنی من،کقولنا نساء القوم و قدماء الفقهاء و نحو ذلک،فالکتاب یشتمل علی آیات هی أم آیات أخر،و فی إفراد کلمه الأم من غیر جمع دلاله علی کون المحکمات غیر مختلفه فی أنفسها بل هی متفقه مؤتلفه.

و قد قوبلت المحکمات فی الآیه بقوله: وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ،و التشابه توافق أشیاء مختلفه و اتحادها فی بعض الأوصاف و الکیفیات،و قد وصف الله سبحانه جمیع القرآن

بهذا الوصف حيث قال: «كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» XالآيهX:الزمر-۲۳،و المراد به لا محاله كون آيات الكتاب ذات نسق واحد من حيث جزاله النظم،و إتقان الأسلوب،و بيان الحقائق و الحكم،و الهدايه إلى صريح الحق كما تدل عليه القيود المأخوذه فى الآيه،فهذا التشابه وصف لجميع الكتاب،و أما التشابه المذكور فى هذه الآيه،أعنى قوله: وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ،فمقابلته لقوله: مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ،و ذكر اتباع الذين فى قلوبهم زيغ لها ابتغاء الفتنه و ابتغاء التأويل،كل ذلك يدل على أن المراد بالتشابه كون الآيه بحيث لا يتعين مرادها لفهم السامع بمجرد استماعها بل يتردد بين معنى و معنى حتى يرجع إلى محكمات الكتاب فتعين هى معناها و تبينها بيانا،فتصير الآيه المتشابهه عند ذلك محكمه بواسطه الآيه المحكمه،و الآيه المحكمه محكمه بنفسها،كما أن قوله: «الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ» :طه-۵،يشتبه المراد منه على السامع أول ما يسمعه،فإذا رجع إلى مثل قوله تعالى:

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» :الشورى-۱۱،استقر الذهن على أن المراد به التسلط على الملك و الإحاطه على الخلق دون التمكن و الاعتماد على المكان المستلزم للتجسم المستحيل على الله سبحانه،و كذا قوله تعالى: «إِلىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» :القيامه-۲۳،إذا أرجع إلى مثل قوله: «لاٰ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» :الأنعام-۱۰۳،علم به أن المراد بالنظر غير النظر بالبصر الحسى ،و كذا إذا عرضت الآيه المنسوخه على الآيه الناسخه تبين أن المراد بها حكم محدود بحد الحكم الناسخ و هكذا.

فهذا ما يتحصل من معنى المحكم و المتشابه،و يتلقاه الفهم الساذج من مجموع قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ،فإن الآيه محكمه بلا شك و لو فرض جميع القرآن غيرها متشابها.

و لو كانت هذه الآيه متشابهه عادت جميع آيات القرآن متشابهه و فسد التقسيم الذى يدل عليه قوله: مِنْهُ آيَاتٌ إلخ،و بطل العلاج الذى يدل عليه قوله: هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ،و لم يصدق قوله: «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَ نَذِيراً» :حم السجده-۴،و لم يتم الاحتجاج الذى يشتمل عليه قوله: «أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاٰفاً كَثِيراً» :النساء-۸۲،إلى غير ذلك من الآيات الداله على أن القرآن نور و هدى و تبيان و بيان و مبين و ذكر و نحو ذلك.

على أن كل من يرعى نظره فى آيات القرآن من أوله إلى آخره لا يشك فى أن ليس بينها آيه لها مدلول و هى لا تنطق بمعناها و تضل فى مرادها،بل ما من آيه إلا و فيها دلاله على المدلول:إما مدلول واحد لا يرتاب فيه العارف بالكلام،أو مداليل يلتبس بعضها ببعض،و هذه المعانى الملتبسه لا تخلو عن حق المراد بالضروره و إلا بطلت الدلاله كما عرفت ،و هذا المعنى الواحد الذى هو حق المراد لا محاله لا يكون أجنبيا عن الأصول المسلمه فى القرآن كوجود الصانع و توحيده و بعثه الأنبياء و تشريع الأحكام و المعاد و نحو ذلك،بل هو موافق لها و هى تستلزمه و تنتجه و تعين المراد الحق من بين المداليل المتعدده المحتمله،فالقرآن بعضه يبين بعضا،و بعضه أصل يرجع إليه البعض الآخر.

ثم إن هذا الناظر إذا عثر بعد هذه النظره على قوله تعالى: مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَ أُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ،لم يشك فى أن المراد بالمحكمات هى الآيات المتضمنه للأصول المسلمه من القرآن و بالمتشابهات الآيات التى تتعين و تتضع معانيها بتلك الأصول.

فإن قلت:رجوع الفروع إلى الأصول مما لا ريب فيه فيما كان هناك أصول متعرقه و فروع متفرقه سواء فيه المعارف القرآنيه و غيرها،لكن ذلك لا يستوجب حصول التشابه،فما وجه ذلك؟ قلت:وجهه أحد أمرين،فإن المعارف التى يلقيها القرآن على قسمين:فمنها معارف عاليه خارجه عن حكم الحس و الماده،و الأفهام العاديه لا تلبث دون أن تتردد فيها بين الحكم الجسمانى الحسى و بين غيره كقوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» :الفجر-۱۴ و قوله تعالى: «وَ جَاءَ رَبُّكَ» :الفجر-۲۲،فيتبادر منها إلى الذهن المستأنس بالمحسوس من الأحكام معان هى من أوصاف الأجسام و خواصها،و تزول بالرجوع إلى الأصول التى تشتمل على نفى حكم الماده و الجسم عن المورد،و هذا مما يطرد فى جميع المعارف و الأبحاث غير الماديه و الغائبه عن الحواس،و لا يختص بالقرآن الكريم بل يوجد فى غيره من الكتب السماويه بما تشتمل عليه من المعارف العاليه من غير تحريف،و يوجد أيضا فى المباحث الإلهيه من الفلسفه،و هو الذى يشير إليه القرآن بلسان آخر فى قوله تعالى:

«أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا» Xالآيه X:الرعد-۱۷،و قوله: »إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» :الزخرف-۴

و منهـا مـا يتعلق بـالنواميس الاجتماعيه و الأحكام الفرعيه،و اشـتمال هـذا القسم من المعارف على الناسـخ و المنسوخ بالنظر إلى تغير المصالـح المقتضـيه للتشـريعات و نحوهـا من جهه،و نزول القرآن نجومـا من جهه أخرى يوجب ظهور التشـابه فى آياتهـا،و يرتفع التشابه بإرجاع المتشابه إلى المحكم،و المنسوخ إلى الناسخ.

قوله تعـالى: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ ابْتِغٰاءَ الْفِتْنَهِ وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ ، الزيغ هو الميل عن الاسـتقامه،و يلزمه اضـطراب القلب و قلقه بقرينه مـا يقابله فى ذيل الآيه من قوله: وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا ، فإن الآيه تصف حال الناس بالنسـبه إلى تلقى القرآن بمحكمه و متشابهه،و أن منهم من هو زائغ القلب و مائله و مضطربه فهو يتبع المتشابه ابتغاء للفتنه و التأويل،و منهم من هو راسخ العلم مسـتقر القلب يأخذ بالمحكم و يؤمن بالمتشابه و لا يتبعه،و يسأل الله تعالى أن لا يزيغ قلبه بعد الهدايه.

و من هنـا يظهر:أن المراد باتبـاع المتشـابه اتبـاعه عملاـ لاـ إيمانـا،و أن هـذا الاتبـاع المـذموم اتبـاع للمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم،إذ على هذا التقدير يصير الاتباع اتباعا للمحكم و لا ذم فيه.

و المراد بابتغاء الفتنه طلب إضلال الناس،فإن الفتنه تقارب الإضلال فى المعنى، يقول تعالى:يريدون باتباع المتشابه إضلال الناس فى آيـات الله سـبحانه،و أمرا آخر هـو أعظم من ذلـك،و هو الحصول و الوقوف على تأويـل القرآن و مآخـذ أحكـام الحلاـل و الحرام حتى يستغنوا عن اتباع محكمات الدين فينتسخ بذلك دين الله من أصله.

و التأويل من الأول و هو الرجوع فتأويل المتشابه هو المرجع الذى يرجع إليه، و تأويل القرآن هو المأخذ الذى يأخذ منه معارفه.

و قد ذكر الله سـبحانه لفظ التأويل فى موارد من كلامه فقال سـبحانه: «وَ لَقَدْ جِئْنٰاهُمْ بِكِتٰابٍ فَصَّلْنٰاهُ عَلىٰ عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَهً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَـلْ يَنْظُرُونَ إِلاّٰ تَـأْوِيلَهُ يَوْمَ يَـأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَـدْ جٰاءَتْ رُسُلُ رَبِّنٰا بِالْحَقِّ» :الأعراف-۵۳، أى بالحق فيما أخبروا به و أنبئوا أن الله هو مولاهم الحق،و أن ما يدعون من دونه هو الباطل،و أن النبوه حق،و أن الدين حق،و أن الله يبعث من فى القبور،و بالجمله

كل ما يظهر حقيقته يوم القيامه من أنباء النبوه و أخبارها.

و من هنا ما قيل:إن التأويل فى الآيه هو الخارج الذى يطابقه الخبر الصادق كالأمور المشهوده يوم القيامه التى هى مطابقات(اسم مفعول)أخبار الأنبياء و الرسل و الكتب.

و يرده:أن التأويل على هذا يختص بالآيات المخبره عن الصفات و بعض الأفعال و عن ما سيقع يوم القيامه،و أما الآيات المتضمنه لتشريع الأحكام فإنها لاشتمالها على الإنشاء لا مطابق لها فى الخارج عنها،و كذا ما دل منها على ما يحكم به صريح العقل كعده من أحكام الأخلاق فإن تأويلها معها،و كذا ما دل على قصص الأنبياء و الأمم الماضيه فإن تأويلها على هذا المعنى يتقدمها من غير أن يتأخر إلى يوم القيامه مع،أن ظاهر الآيه يضيف التأويل إلى الكتاب كله لا إلى قسم خاص من آياته.

و مثلها قوله تعالى: «وَ مٰا كٰانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ Xإلى أن قالX: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرٰاهُ Xإلى أن قالX: بَلْ كَذَّبُوا بِمٰا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمّٰا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الظّٰالِمِينَ» :يونس-٣٩،و الآيات كما ترى تضيف التأويل إلى مجموع الكتاب.

و لذلك ذكر بعضهم أن التأويل هو الأمر العينى الخارجى الذى يعتمد عليه الكلام،و هو فى مورد الأخبار المخبر به الواقع فى الخارج،إما سابقا كقصص الأنبياء و الأمم الماضيه،و إما لاحقا كما فى الآيات المخبره عن صفات الله و أسمائه و مواعيده و كل ما سيظهر يوم القيامه،و فى مورد الإنشاء كآيات الأحكام المصالح المتحققه فى الخارج كما فى قوله تعالى: «وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذٰا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطٰاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً» :إسراء-٣٥،فإن تأويل إيفاء الكيل و إقامه الوزن هو المصلحه المترتبه عليهما فى المجتمع و هو استقامه أمر الاجتماع الإنسانى.

و فيه أولا:أن ظاهر هذه الآيه:أن التأويل أمر خارجى و أثر عينى مترتب على فعلهم الخارجى الذى هو إيفاء الكيل و إقامه الوزن لا الأمر التشريعى الذى يتضمنه قوله. وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذٰا كِلْتُمْ وَ زِنُوا الآيه،فالتأويل أمر خارجى هو مرجع و مآل لأمر خارجى آخر فتوصيف آيات الكتاب بكونها ذات تأويل من جهه حكايتها

عن معان خارجيه(كما فى الإخبار)أو تعلقها بأفعال أو أمور خارجيه(كما فى الإنشاء) لها تأويل،فالوصف وصف بحال متعلق الشىء لا بحال نفس الشىء.

و ثانيا:أن التأويل و إن كان هو المرجع الذى يرجع و يئول إليه الشىء لكنه رجوع خاص لا كل رجوع،فإن المرئوس يرجع إلى رئيسه و ليس بتأويل له،و العدد يرجع إلى الواحد و ليس بتأويل له،فلا محاله هو مرجع بنحو خاص لا مطلقا.يدل على ذلك قوله تعالى فى قصه موسى و الخضر(ع): «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مٰا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً» :الكهف-٧٨،و قوله تعالى: «ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مٰا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً» :الكهف-٨٢،و الذى نبأه لموسى صور و عناوين لما فعله(ع)فى موارد ثلاث كان موسى(ع)قد غفل عن تلك الصور و العناوين،و تلقى بدلها صورا و عناوين أخرى أوجبت اعتراضه بها عليه،فالموارد الثلاث:هى قوله تعالى: «حَتّٰى إِذٰا رَكِبٰا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهٰا» :الكهف-٧١،و قوله تعالى: «حَتّٰى إِذٰا لَقِيٰا غُلاٰماً فَقَتَلَهُ» :الكهف-٧٤، و قوله تعالى: «حَتّٰى إِذٰا أَتَيٰا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمٰا أَهْلَهٰا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمٰا فَوَجَدٰا فِيهٰا جِدٰاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقٰامَهُ» :الكهف-٧٧.

و الذى تلقاه موسى(ع)من صور هذه القضايا و عناوينها قوله: «أَ خَرَقْتَهٰا لِتُغْرِقَ أَهْلَهٰا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً» :الكهف-٧١،و قوله: «أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً» :الكهف-٧٤،و قوله: «لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» :الكهف-٧٧.

و الذى نبأ به الخضر من التأويل قوله: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكٰانَتْ لِمَسٰاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهٰا وَ كٰانَ وَرٰاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً وَ أَمَّا الْغُلاٰمُ فَكٰانَ أَبَوٰاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينٰا أَنْ يُرْهِقَهُمٰا طُغْيٰاناً وَ كُفْراً فَأَرَدْنٰا أَنْ يُبْدِلَهُمٰا رَبُّهُمٰا خَيْراً مِنْهُ زَكٰاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً، وَ أَمَّا الْجِدٰارُ فَكٰانَ لِغُلاٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ،وَ كٰانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمٰا وَ كٰانَ أَبُوهُمٰا صٰالِحاً فَأَرٰادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغٰا أَشُدَّهُمٰا وَ يَسْتَخْرِجٰا كَنزَهُمٰا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» :الكهف -٨٢،ثم أجاب عن جميع ما اعترض عليه موسى(ع)جمله بقوله: «وَ مٰا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» :الكهف-٨٢،فالذى أريد من التأويل فى هذه الآيات كما ترى هو رجوع الشىء إلى صورته و عنوانه نظير رجوع الضرب إلى التأديب و رجوع الفصد إلى العلاج، لا نظير رجوع قولنا:جاء زيد إلى مجىء زيد فى الخارج.

و يقرب من ذلک ما ورد من لفظ التأويل فی عده مواضع من قصه يوسف(ع) كقوله تعالی: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّی رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِی سَاجِدِينَ» :يوسف-۴،و قوله تعالی: وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَی الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّی حَقًّا» :يوسف-۱۰۰، فرجوع ما رآه من الرؤيا إلی سجود أبويه و إخوته له و إن كان رجوعا لكنه من قبيل رجوع المثال إلی الممثل،و كذا قوله تعالی: «وَ قَالَ الْمَلِکُ إِنِّی أَرَی سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَابِسَاتٍ،يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِی فِی رُؤْيَایَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ، قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ، وَ قَالَ الَّذِی نَجَا مِنْهُمَا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّهٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا Xإلی أن قالX: قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِی سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِی مِنْ بَعْدِ ذَلِکَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ» :يوسف-۴۸.

و كذا قوله تعالی: «وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّی أَرَانِی أَعْصِرُ خَمْراً،وَ قَالَ الْآخَرُ إِنِّی أَرَانِی أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِی خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاکَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ Xإلی أن قالX: يَا صَاحِبَیِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِی رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِیَ الْأَمْرُ الَّذِی فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ» :يوسف-۴۱.

و كذا قوله تعالی: «وَ يُعَلِّمُکَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» :يوسف-۶۱،و قوله تعالی: «وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» :يوسف-۲۱،و قوله تعالی: وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» :يوسف-۱۰۱،فقد استعمل التأويل فی جميع هذه الموارد من قصه يوسف(ع)فيما يرجع إليه الرؤيا من الحوادث،و هو الذی كان يراه النائم فيما يناسبه من الصوره و المثال،فنسبه التأويل إلی ذی التأويل نسبه المعنی إلی صورته التی يظهر بها،و الحقيقه المتمثله إلی مثالها الذی تتمثل به،كما كان الأمر يجری هذا المجری فيما أوردناه من الآيات فی قصه موسی و الخضر(ع)،و كذا فی قوله تعالی: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ Xإلی قولهX وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً XالآيهX:إسراء-۳۵.

و التدبر فی آيات القيامه يعطی أن المراد هو ذلک أيضا فی لفظه التأويل فی قوله تعالی: بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ الآيه،و قوله تعالی« هَلْ يَنْظُرُونَ

إِلاّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ »الآيه»فإن أمثال قوله تعالى: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هٰذٰا فَكَشَفْنٰا عَنْكَ غِطٰاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» :ق-۲۲،تدل على أن مشاهده وقوع ما أخبر به الكتاب و أنبأ به الأنبياء يوم القيامه من غير سنخ المشاهده الحسيه التى نعهدها فى الدنيا كما أن نفس وقوعها و النظام الحاكم فيها غير ما نألفه فى نشأتنا هذه، و سيجىء مزيد بيان له فرجوع أخبار الكتاب و النبوه إلى مضامينها الظاهره يوم القيامه ليس من قبيل رجوع الإخبار عن الأمور المستقبله إلى تحقق مضامينها فى المستقبل.

فقد تبين بما مر:أولا:أن كون الآيه ذات تأويل ترجع إليه غير كونها متشابهه ترجع إلى آيه محكمه.

و ثانيا:أن التأويل لا يختص بالآيات المتشابهه بل لجميع القرآن تأويل فللآيه المحكمه تأويل كما أن للمتشابهه تأويلا.

و ثالثا:أن التأويل ليس من المفاهيم التى هى مداليل للألفاظ بل هو من الأمور الخارجيه العينيه،و اتصاف الآيات بكونها ذات تأويل من قبيل الوصف بحال المتعلق، و أما إطلاق التأويل و إراده المعنى المخالف لظاهر اللفظ،فاستعمال مولد نشأ بعد نزول القرآن لا دليل أصلا على كونه هو المراد من قوله تعالى: وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ الآيه،كما لا دليل على أكثر المعانى المذكوره للتأويل مما سننقله عن قريب.

قوله تعالى: وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ ،ظاهر الكلام رجوع الضمير إلى ما تشابه، لقربه كما هو الظاهر أيضا فى قوله: وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ ،و قد عرفت أن ذلك لا يستلزم كون التأويل مقصورا على الآيات المتشابهه.و من الممكن أيضا رجوع الضمير إلى الكتاب كالضمير فى قوله: مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ .

و ظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصورا عليه سبحانه و أما قوله: وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ،فظاهر الكلام أن الواو للاستيناف بمعنى كونه طرفا للترديد الذى يدل عليه قوله فى صدر الآيه: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ،و المعنى:أن الناس فى الأخذ بالكتاب قسمان:فمنهم من يتبع ما تشابه منه و منهم من يقول إذا تشابه عليه شىء منه: آمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا ،و إنما اختلفا لاختلافهم من جهه زيغ القلب و رسوخ العلم.

على أنه لو كان الواو للعطف و كان المراد بالعطف تشريك الراسخين فى العلم بالتأويل كان منهم رسول الله ص و هو أفضلهم و كيف يتصور أن ينزل القرآن على قلبه و هو لا يدرى ما أريد به و من دأب القرآن إذا ذكر الأمه أو وصف أمر جماعه و فيهم رسول الله ص أن يفرده بالذكر أولا و يميزه بالشخص تشريفا له و تعظيما لأمره ثم يذكرهم جميعا كقوله تعالى: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ» :البقره-۲۸۵،و قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» :التوبه-۲۶، و قوله تعالى: «لٰكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ» :التوبه-۸۸و قوله تعالى: «وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» :آل عمران-۶۸،و قوله تعالى: «لاٰ يُخْزِي اللّٰهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ» :التحريم-۸،إلى غير ذلك،فلو كان المراد بقوله: وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ،أنهم عالمون بالتأويل-و رسول الله ص منهم قطعا-كان حق الكلام كما عرفت أن يقال:

و ما يعلم تأويله إلا الله و رسوله و الراسخون فى العلم،هذا و إن أمكن أن يقال:إن قوله فى صدر الآيه: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ «إلخ»يدل على كون النبى عالما بالكتاب فلا حاجه إلى ذكره ثانيا.

فالظاهر أن العلم بالتأويل مقصور فى الآيه عليه تعالى،و لا ينافى ذلك ورود الاستثناء عليه كما أن الآيات داله على انحصار علم الغيب عليه تعالى مع ورود الاستثناء عليه كما فى قوله تعالى: «عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضىٰ مِنْ رَسُولٍ» :الجن-۲۷، و لا ينافيه أيضا كون المستثنى الراسخين فى العلم بعينهم،إذ لا منافاه بين أن تدل هذه الآيه على شأن من شئون الراسخين فى العلم،و هو الوقوف عند الشبهه و الإيمان و التسليم فى مقابل الزائغين قلبا و بين أن تدل آيات أخر على أنهم أو بعضا منهم عالمون بحقيقه القرآن و تأويل آياته على ما سيجىء بيانه.

قوله تعالى: وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا ، الرسوخ هو أشد الثبات،و وقوع الراسخين فى العلم فى مقابله الذين فى قلوبهم زيغ ثم توصيفهم بأنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا يدل على تمام تعريفهم،و هو أن لهم علما بالله و بآياته لا يدخله ريب و شك،فما حصل لهم من العلم بالمحكمات ثابت لا يتزلزل،و هم يؤمنون به و يتبعونه أى يعلمون به و إذا وردت عليهم آيه متشابهه لم يوجب تشابهها اضطراب قلوبهم فيما عندهم من العلم الراسخ بل آمنوا بها و توقفوا عن اتباعها عملا.

و فی قولهم: آمَنّٰا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا ذکر الدلیل و النتیجه معا فإن کون المحکم و المتشابه جمیعا من عند الله تعالی یوجب الإیمان بالکل:محکمه و متشابهه،و وضوح المراد فی المحکم یوجب اتباعه عملا،و التوقف فی المتشابه من غیر رده لأنه من عند الله و لا یجوز اتباع ما ینافی المحکم من معانیه المتشابهه لسطوع البیان فی المحکم فیجب أن یتبع من معانیه المحتمله ما یوافق معنی المحکم،و هذا بعینه إرجاع المتشابه إلی المحکم فقوله: کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا بمنزله الدلیل علی الأمرین جمیعا،أعنی:الإیمان و العمل فی المحکم،و الإیمان فقط فی المتشابه و الرجوع فی العمل إلی المحکم.

قوله تعالی: وَ مٰا یَذَّکَّرُ إِلاّٰ أُولُوا الْأَلْبٰابِ ، التذکر هو الانتقال إلی دلیل الشیء لاستنتاجه،و لما کان قولهم: کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا کما مر استدلالا منهم و انتقالا لما یدل علی فعلهم سماه الله تعالی تذکرا و مدحهم به.

و الألباب جمع لب و هو العقل الزکی الخالص من الشوائب،و قد مدحهم الله تعالی مدحا جمیلا فی موارد من کلامه،و عرفهم بأنهم أهل الإیمان بالله و الإنابه إلیه و اتباع أحسن القول ثم وصفهم بأنهم علی ذکر من ربهم دائما فأعقب ذلک أنهم أهل التذکر أی الانتقال إلی المعارف الحقه بالدلیل و أهل الحکمه و المعرفه،قال تعالی: «وَ الَّذِینَ اجْتَنَبُوا الطّٰاغُوتَ أَنْ یَعْبُدُوهٰا وَ أَنٰابُوا إِلَی اللّٰهِ لَهُمُ الْبُشْریٰ فَبَشِّرْ عِبٰادِ الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولٰئِکَ الَّذِینَ هَدٰاهُمُ اللّٰهُ وَ أُولٰئِکَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبٰابِ» :الزمر-۱۸، و قال تعالی: «إِنَّ فِی خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ لَآیٰاتٍ لِأُولِی الْأَلْبٰابِ الَّذِینَ یَذْکُرُونَ اللّٰهَ قِیٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلیٰ جُنُوبِهِمْ» :آل عمران-۱۹۱،و هذا الذکر الدائم و ما یتبعه من التذلل و الخضوع هو الإنابه الموجبه لتذکرهم بآیات الله و انتقالهم إلی المعارف الحقه کما قال تعالی: «وَ مٰا یَتَذَکَّرُ إِلاّٰ مَنْ یُنِیبُ» :الغافر-۱۳، و قد قال: «وَ مٰا یَذَّکَّرُ إِلاّٰ أُولُوا الْأَلْبٰابِ» :البقره-۲۶۹ آل عمران-۷.

قوله تعالی: رَبَّنٰا لاٰ تُزِغْ قُلُوبَنٰا بَعْدَ إِذْ هَدَیْتَنٰا وَ هَبْ لَنٰا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَهً إِنَّکَ أَنْتَ الْوَهّٰابُ ،و هذا من آثار رسوخهم فی العلم فإنهم لما علموا بمقام ربهم،و عقلوا عن الله سبحانه أیقنوا أن الملک لله وحده و أنهم لا یملکون لأنفسهم شیئا فمن الجائز أن یزیغ قلوبهم بعد رسوخ العلم فالتجئوا إلی ربهم،و سألوه أن لا یزیغ قلوبهم بعد إذ هداهم،و أن یهب لهم من لدنه رحمه تبقی لهم هذه النعمه و یعینهم علی السیر فی

صراط الهدایه و السلوک فی مراتب القرب.

و أما سؤال أن یهبهم رحمه بعد سؤال أن لا یزیغ قلوبهم فلأن عدم إزاغه القلب لا یستلزم بقاء الرسوخ فی العلم فمن الجائز أن لا یزاغ قلوبهم و ینتزع عنها العلم فتبقی سدی مهمله لا سعداء بالعلم و لا أشقیاء بالإزاغه بل فی حال الجهل و الاستضعاف،و هم فی حاجه مبرمه إلی ما هم علیه من العلم،و مع ذلک لا تقف حاجتهم فی ما هم علیه من الموقف بل هم سائروا طریق یحتاجون فیه إلی أنواع من الرحمه لا یعلمها و لا یحصیها إلا الله سبحانه،و هم مستشعرون بحاجتهم هذه و الدلیل علیه قولهم بعد: رَبَّنا إِنَّکَ جامِعُ النّاسِ لِیَوْمٍ لا رَیْبَ فِیهِ .

فقولهم: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَیْتَنا ،استعاذه من نزول الزیغ إلی قلوبهم و إزاحته العلم الراسخ الذی فیها و قولهم وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَهً إِنَّکَ أَنْتَ الْوَهّابُ استمطار لسحاب الرحمه حتی تدوم بها حیاه قلوبهم و تنکیر الرحمه،و توصیفها بکونها من لدنه إظهار منهم الجهل بشأن هذه الرحمه،و أنها کیف ینبغی أن تکون غیر أنهم یعلمون أنه لو لا رحمه من ربهم و لو لا کونها من لدنه لم یتم لهم أمر.

و فی الاستعاذه من الزیغ إلی الله محضا و استیهاب الرحمه من لدنه محضا دلاله علی أنهم یرون تمام الملک لله محضا من غیر توجه إلی أمر الأسباب.

قوله تعالی: رَبَّنا إِنَّکَ جامِعُ النّاسِ لِیَوْمٍ لا رَیْبَ فِیهِ إِنَّ اللّهَ لا یُخْلِفُ الْمِیعادَ ،هذا منهم بمنزله التعلیل لسؤال الرحمه و ذلک لعلمهم بأن إقامه نظام الخلقه و دعوه الدین و کدح الإنسان فی مسیر وجوده کل ذلک مقدمه لجمعهم إلی یوم القیامه الذی لا یغنی فیه و لا ینصر أحد إلا بالرحمه کما قال تعالی: «إِنَّ یَوْمَ الْفَصْلِ مِیقاتُهُمْ أَجْمَعِینَ یَوْمَ لا یُغْنِی مَوْلًی عَنْ مَوْلًی شَیْئاً وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ، إِلاّ مَنْ رَحِمَ اللّهُ» :الدخان-۴۲ و لذلک سألوا رحمه من ربهم و فوضوا تعیینها و تشخیصها إلیه لینفعهم فی أمرهم.

و قد وصفوا هذا الیوم بأنه لا ریب فیه لیتجه بذلک کمال اهتمامهم بالسؤال و الدعاء،و عللوا هذا التوصیف أیضا بقولهم: إِنَّ اللّهَ لا یُخْلِفُ الْمِیعادَ لأن شأنهم الرسوخ فی العلم،و لا یرسخ العلم بشیء و لا یستقر تصدیق إلا مع العلم بعلته المنتجه،و عله عدم ارتیابهم فی تحقق هذا الیوم هو میعاد الله سبحانه به فذکروه.

و نظير هذا الوجه جار فى تعليلهم قولهم وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً بقولهم:

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهّابُ

فكونه تعالى وهابا يعلل به سؤالهم الرحمه،و إتيانهم بلفظه أنت و تعريف الخبر باللام المفيد للحصر يعلل به قولهم: مِنْ لَدُنْكَ ،الدال على الاختصاص، و كذا يجرى مثل الوجه في قولهم: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا ،حيث عقبوه بما يجرى مجرى العله بالنسبه إليه،و هو قولهم: بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا ،و قد مر آنفا أن قولهم: آمَنّا بِهِ ، من حيث تعقيبه بقولهم: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا ،من هذا القبيل أيضا.

فهؤلاء رجال آمنوا بربهم و ثبتوا عليه فهداهم الله سبحانه،و كمل عقولهم فلا يقولون إلا عن علم و لا يفعلون إلا عن علم فسماهم الله تعالى راسخين فى العلم،و كنى عنهم بأولى الألباب،و أنت إذا تدبرت ما عرف الله به أولي الألباب وجدته منطبقا على ما ذكره من شأنهم فى هذه الآيات،قال تعالى: وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ» :الزمر-١٨.فوصفهم بالإيمان و اتباع أحسن القول،و الإنابه إلى الله سبحانه،و قد وصف بهذه الأوصاف الراسخين فى العلم فى هذه الآيات.

و أما الالتفات من الخطاب إلى الغيبه فى قوله إِنَّ اللّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ فلأن هذا الميعاد لا يختص بهم بل يعمهم و غيرهم فكان الأولى تبديل قولهم: رَبَّنا ،إلى لفظه الجلاله لأن حكم الألوهيه عام شامل لكل شيء.

كلام تفصيلى فى المحكم و المتشابه و التأويل

اشاره

هذا الذى أوردناه من الكلام فى معنى المحكم و المتشابه و التأويل فيما مر هو الذى يتحصل من تدبر كلامه سبحانه و يستفاد من المأثور عن أئمه أهل البيت(ع) سيجيء فى البحث الروائى.

لكن القوم اختلفوا فى المقام،و قد شاع الخلاف و اشتد الانحراف بينهم، و ينسحب ذيل النزاع و المشاجره إلى الصدر الأول من مفسرى الصحابه و التابعين، و قلما يوجد فى ما نقل إلينا من كلامهم ما يقرب مما مر من البيان فضلا عن أن ينطبق

علیه تمام الانطباق.

و السبب العمده فی ذلک الخلط بین البحث عن المحکم و المتشابه و بین البحث عن معنی التأویل،فأوجب ذلک اختلالا عجیبا فی عقد المسأله و کیفیه البحث و النتیجه المأخوذه منه،و نحن نورد تفصیل القول فی کل واحد من أطراف هذه الأبحاث و ما قیل فیها و ما هو المختار من الحق مع تمییز مورد البحث بما تیسر فی ضمن فصول

۱ المحکم و المتشابه

الإحکام و التشابه من الألفاظ المبینه المفاهیم فی اللغه،و قد وصف بهما الکتاب کما فی قوله تعالی: «کِتٰابٌ أُحْکِمَتْ آیٰاتُهُ» :هود-۱،و قوله تعالی: «کِتٰاباً مُتَشٰابِهاً مَثٰانِیَ» :الزمر-۲۳،و لم یتصف بهما إلا جمله الکتاب من جهه إتقانه فی نظمه و بیانه و من جهه تشابه نظمه و بیانه فی البلوغ إلی غایه الإتقان و الإحکام.

لکن قوله تعالی: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتٰابَ مِنْهُ آیٰاتٌ مُحْکَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ الآیه لما اشتمل علی تقسیم نفس آیات الکتاب إلی المحکمات و المتشابهات علمنا أن المراد بالإحکام و التشابه هاهنا غیر ما یتصف به تمام الکتاب، و کان من الحری البحث عن معناهما و تشخیص مصداقهما من الآیات،و فیه أقوال ربما تجاوزت العشره:

أحدها:أن المحکمات هو قوله تعالی فی سوره الأنعام: «قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُمْ أَلاّٰ تُشْرِکُوا بِهِ شَیْئاً» :Xإلی آخر الآیات الثلاثXالأنعام-۱۵۲ و المتشابهات هی التی تشابهت علی الیهود،و هی الحروف المقطعه النازله فی أوائل عده من السور القرآنیه مثل الم و الر و حم،و ذلک أن الیهود أولوها علی حساب الجمل، فطلبوا أن یستخرجوا منها مده بقاء هذه الأمه و عمرها فاشتبه علیهم الأمر.نسب إلی ابن عباس من الصحابه.

و فیه:أنه قول من غیر دلیل و لو سلم فلا دلیل علی انحصارهما.فیهما،علی أن لازمه وجود قسم ثالث لیس بمحکم و لا متشابه مع أن ظاهر الآیه یدفعه.

لکن الحق أن النسبه فی غیر محلها،و الذی نقل عن ابن عباس:أنه قال إن

الآیات الثلاث من المحکمات لا أن المحکمات هی الآیات الثلاث،

ففی الدر المنثور،أخرج سعید بن منصور و ابن أبی حاتم و الحاکم و صححه و ابن مردویه عن عبد الله بن قیس سمعت ابن عباس یقول": فی قوله مِنْهُ آیاتٌ مُحْکَماتٌ ،قال:الثلاث آیات من آخر سوره الأنعام محکمات: قُلْ تَعالَوْا ،و الآیتان بعدها.

و یؤید ذلک

ما رواه عنه أیضا فی قوله":آیات محکمات قال:من هاهنا:

قُلْ تَعالَوْا إلی آخر ثلاث آیات،و من هاهنا: وَ قَضی رَبُّکَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِیّاهُ إلی آخر ثلاث آیات. فالروایتان تشهدان أنه إنما ذکر هذه الآیات مثالا لسائر المحکمات لا أنه قصرها فیها.

و ثانیها عکس الأول و هو أن المحکمات هی الحروف المقطعه فی فواتح السور و المتشابهات غیرها.نقل ذلک

عن أبی فاخته حیث ذکر فی قوله تعالی": هُنَّ أُمُّ الْکِتابِ:

إنهن فواتح السور منها یستخرج القرآن: الم ذلِکَ الْکِتابُ ،منها استخرجت البقره- و الم اللّهُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ ،منها استخرجت آل عمران

و عن سعید بن جبیر مثله فی معنی قوله": هُنَّ أُمُّ الْکِتابِ ،قال:أصل الکتاب لأنهن مکتوبات فی جمیع الکتب ،انتهی.و یدل ذلک علی أنهما یذهبان فی معنی فواتح السور إلی أن المراد بها ألفاظ الحروف بعنایه أن الکتاب الذی نزل علیکم هو هذه الحروف المقطعه التی تتألف منها الکلمات و الجمل،کما هو أحد المذاهب فی معنی فواتح السور.

و فیه:مضافا إلی أنه مبنی علی ما لا دلیل علیه أصلا أعنی تفسیر الحروف المقطعه فی فواتح السور بما عرفت أنه لا ینطبق علی نفس الآیه فإن جمیع القرآن غیر فواتح السور یصیر حینئذ من المتشابه،و قد ذم الله سبحانه اتباع المتشابه،و عده من زیغ القلب مع أنه تعالی مدح اتباع القرآن بل عده من أوجب الواجبات کقوله تعالی:

«وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ» :الأعراف-۱۵۷،و غیره من الآیات.

و ثالثها:أن المتشابه هو ما یسمی مجملا و المحکم هو المبین.

و فیه:أن ما بین من أوصاف المحکم و المتشابه فی الآیه لا ینطبق علی المجمل و المبین.بیان ذلک:أن إجمال اللفظ هو کونه بحیث یختلط و یندمج بعض جهات

معناه ببعض فلا ينفصل الجهه المراده عن غيرها،و يوجب ذلك تحير المخاطب أو السامع فى تشخيص المراد و قد جرى دأب أهل اللسان فى ظرف التفاهم أن لا يتبعوا ما هذا شأنه من الألفاظ بل يستريحون إلى لفظ آخر مبين يبين هذا المجمل فيصير بذلك مبينا فيتبع فهذا حال المجمل مع مبينه،فلو كان المحكم و المتشابه هما المجمل و المبين بعينهما كان المتبع هو المتشابه إذا رد إلى المحكم،دون نفس المحكم،و كان هذا الاتباع مما لا يجوزه قريحه التكلم و التفاهم فلم يقدم على مثله أهل اللسان سواء فى ذلك أهل الزيغ منهم و الراسخون فى العلم و لم يكن اتباع المتشابه أمرا يلحقه الذم و يوجب زيغ القلب.

رابعها أن المتشابهات هى الآيات المنسوخه لأنها يؤمن بها و لا يعمل بها، و المحكمات هى الآيات الناسخه لأنها يؤمن بها،و يعمل بها و نسب إلى ابن عباس و ابن مسعود و ناس من الصحابه،و لذلك كان ابن عباس يحسب أنه يعلم تأويل القرآن.

و فيه:أنه على تقدير صحته لا- دليل فيه على انحصار المتشابهات فى الآيات المنسوخه فإن الذى ذكره تعالى من خواص اتباع المتشابه من ابتغاء الفتنه و ابتغاء التأويل جار فى كثير من الآيات غير المنسوخه كآيات الصفات و الأفعال،على أن لازم هذا القول وجود الواسطه بين المحكم و المتشابه .

و فيما نقل عن ابن عباس ما يدل على أن مذهبه فى المحكم و المتشابه أعم مما ينطبق على الناسخ و المنسوخ،و أنه إنما ذكرهما من باب المثال

ففى الدر المنثور:أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم من طريق على عن ابن عباس قال": المحكمات ناسخه و حلاله و حرامه-و حدوده و فرائضه و ما يؤمن به،و المتشابهات منسوخه و مقدمه و مؤخره و أمثاله و أقسامه و ما يؤمن به و لا يعمل به ،انتهى.

خامسها:أن المحكمات ما كان دليله واضحا لائحا كدلائل الوحدانيه و القدره و الحكمه،و المتشابهات ما يحتاج فى معرفته إلى تأمل و تدبر.

و فيه:أنه إن كان المراد من كون الدليل واضحا لائحا أو محتاجا إلى التأمل و التدبر كون مضمون الآيه ذا دليل عقلى قريب من البداهه أو بديهى و عدم كونه كذلك كان لازمه كون آيات الأحكام و الفرائض و نحوها من المتشابه لفقدانها الدليل العقلى اللائح الواضح،و حينئذ يكون اتباعها مذموما مع أنها واجبه الاتباع،و إن

كان المراد به كونه ذا دليل واضح لائح من نفس الكتاب و عدم كونه كذلك فجميع الآيات من هذه الجهه على وتيره واحده،و كيف لا-؟و هو كتاب متشابه مثانى، و نور،و مبين،و لازمه كون الجميع محكما و ارتفاع المتشابه المقابل له من الكتاب و هو خلف الفرض و خلاف النص.

سادسها:أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلى أو خفى، و المتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعه و نحوه.

و فيه:أن الإحكام و التشابه وصفان لآيه الكتاب من حيث إنها آيه أى داله على معرفه من المعارف الإلهيه،و الذى تدل عليه آيه من آيات الكتاب ليس بعادم للسبيل، و لا ممتنع الفهم إما بنفسه أو بضميمه غيره،و كيف يمكن أن يكون هناك أمر مراد من لفظ الآيه و لا يمكن نيله من جهه اللفظ؟مع أنه وصف كتابه بأنه هدى،و أنه نور،و أنه مبين،و أنه فى معرض فهم الكافرين فضلا عن المؤمنين حيث قال: «تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ كِتٰابٌ فُصِّلَتْ آيٰاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ» :حم السجده-۴،و قال تعالى: «أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاٰفاً كَثِيراً» :النساء-۸۲،فما تعرضت له آيه من آيات الكتاب ليس بممتنع الفهم،و لا الوقوف عليه مستحيل،و ما لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت قيام الساعه و سائر ما فى الغيب المكنون لم يتعرض لبيانه آيه من الآيات بلفظها حتى تسمى متشابها.

على أن فى هذا القول خلطا بين معنى المتشابه و تأويل الآيه كما مر.

سابعها:أن المحكمات آيات الأحكام و المتشابهات غيرها مما يصرف بعضها بعضا، نسب هذا القول إلى مجاهد و غيره.

و فيه:أن المراد بالصرف الذى ذكره إن كان مطلق ما يعين على تشخيص المراد باللفظ حتى يشمل مثل التخصيص بالمخصص،و التقييد بالمقيد و سائر القرائن المقاميه كانت آيات الأحكام أيضا كغيرها متشابهات،و إن كان خصوص ما لا إبهام فى دلالته على المراد و لا كثره فى محتملاته حتى يتعين المراد به بنفسه ،و يتعين المراد بغيره بواسطته كان لازم كون ما سوى آيات الأحكام متشابهه أن لا يحصل العلم بشىء

من معارف القرآن غير الأحكام لأن المفروض عدم وجود آيه محكمه فيها ترجع إليها المتشابهات منها و يتبين بذلك معانيها.

ثامنها:أن المحكم من الآيات ما لا يحتمل من التأويل إلا وجها واحدا و المتشابه ما احتمل من التأويل أوجها كثيره و نسب إلى الشافعي،و كان المراد به أن المحكم ما لا ظهور له إلا في معنى واحد كالنص و الظاهر القوى في ظهوره و المتشابه خلافه.

و فيه:أنه لا يزيد على تبديل اللفظ باللفظ شيئا،فقد بدل لفظ المحكم بما ليس له إلا معنى واحد،و المتشابه بما يحتمل معانى كثيره،على أنه أخذ التأويل بمعنى التفسير أى المعنى المراد باللفظ و قد عرفت أنه خطأ،و لو كان التأويل هو التفسير بعينه لم يكن لاختصاص علمه بالله،أو بالله و بالراسخين فى العلم وجه فإن القرآن يفسر بعضه بعضا، و المؤمن و الكافر و الراسخون فى العلم و أهل الزيغ فى ذلك سواء.

تاسعها:أن المحكم ما أحكم و فصل فيه خبر الأنبياء مع أممهم،و المتشابه ما اشتبهت ألفاظه من قصصهم بالتكرير فى سور متعدده،و لازم هذا القول اختصاص التقسيم بآيات القصص.

و فيه:أنه لا دليل على هذا التخصيص أصلا،على أن الذى ذكره تعالى من خواص المحكم و المتشابه و هو ابتغاء الفتنه و ابتغاء التأويل فى اتباع المتشابه دون المحكم لا ينطبق عليه،فإن هذه الخاصه توجد فى غير آيات القصص كما توجد فيها،و توجد فى القصه الواحده كقصه جعل الخلافه فى الأرض كما توجد فى القصص المتكرره.

عاشرها:أن المتشابه ما يحتاج إلى بيان و المحكم خلافه،و هذا الوجه منسوب إلى الإمام أحمد.

و فيه:أن آيات الأحكام محتاجه إلى بيان النبى ص مع أنها من المحكمات قطعا لما تقدم بيانه مرارا،و كذا الآيات المنسوخه من المتشابه كما تقدم مع عدم احتياجها إلى بيان لكونها نظائر لسائر آيات الأحكام.

الحادى عشر:أن المحكم ما يؤمن به و يعمل به و المتشابه ما يؤمن به و لا يعمل به،و نسب إلى ابن تيميه،و لعل المراد به:أن الأخبار متشابهات و الإنشاءات

محکمات کما استظهره بعضهم و إلا لم یکن قولا برأسه لصحه انطباقه علی عده من الأقوال المتقدمه.

و فیه:أن لازمه کون غیر آیات الأحکام متشابهات،و لازمه أن لا یمکن حصول العلم بشیء من المعارف الإلهیه فی غیر الأحکام إذ لا یتحقق فیها عمل مع عدم وجود محکم فیها یرجع إلیه ما تشابه منها،و من جهه أخری:الآیات المنسوخه إنشاءات و لیست بمحکمات قطعا.

و الظاهر أن مراده من الإیمان و العمل بالمحکم و الإیمان من غیر عمل بالمتشابه ما یدل علیه لفظ الآیه: فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ ،... وَ الرّٰاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا ،إلا أن الأمرین أعنی الإیمان و العمل معا فی المحکم و الإیمان فقط فی المتشابه لما کانا وظیفتین لکل من آمن بالکتاب کان علیه أن یشخص المحکم و المتشابه قبلا حتی یؤدی وظیفته،و علی هذا فلا یکفی معرفه المحکم و المتشابه بهما فی تشخیص مصداقهما و هو ظاهر.

الثانی عشر:إن المتشابهات هی آیات الصفات خاصه أعم من صفات الله سبحانه کالعلیم و القدیر و الحکیم و الخبیر و صفات أنبیائه کقوله تعالی فی عیسی بن مریم(ع): «وَ کَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلیٰ مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» :النساء-۱۷۱،و ما یشبه ذلک،نسب إلی ابن تیمیه.

و فیه:أنه مع تسلیم کون آیات الصفات من المتشابهات لا دلیل علی انحصارها فیها.

و الذی یظهر من بعض کلامه المنقول علی طوله أنه یأخذ المحکم و المتشابه بمعناهما اللغوی و هو ما أحکمت دلالته و ما تشابهت احتمالاته و المعنیان نسبیان فربما اشتبهت دلاله آیه علی قوم کالعامه و علمها آخرون بالبحث و هم العلماء،و هذا المعنی فی آیات الصفات أظهر فإنها بحیث تشتبه مراداتها لغالب الناس لکون أفهامهم قاصره عن الارتقاء إلی ما وراء الحس،فیحسبون ما أثبته الله تعالی لنفسه من العلم و القدره و السمع و البصر و الرضا و الغضب و الید و العین و غیر ذلک أمورا جسمانیه أو معانی لیست بالحق،و تقوم بذلک الفتن،و تظهر البدع،و تنشأ المذاهب،فهذا معنی المحکم

و المتشابه،و كلاهما مما يمكن أن يحصل به العلم،و الذى لا يمكن نيله و العلم به هو تأويل المتشابهات بمعنى حقيقه المعانى التى تدل عليها أمثال آيات الصفات،فهب أنا علمنا معنى قوله: إِنَّ اللّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ،و إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ و نحو ذلك لكنا لا ندرى حقيقه علمه و قدرته و سائر صفاته و كيفيه أفعاله الخاصه به،فهذا هو تأويل المتشابهات الذى لا يعلمها إلا الله تعالى،انتهى ملخصا،و سيأتى ما يتعلق بكلامه من البحث عند ما نتكلم فى التأويل إن شاء الله.

الثالث عشر:أن المحكم ما للعقل إليه سبيل و المتشابه بخلافه.

و فيه:أنه قول من غير دليل،و الآيات القرآنيه و إن انقسمت إلى ما للعقل إليه سبيل و ما ليس للعقل إليه سبيل،لكن ذلك لا يوجب كون المراد بالمحكم و المتشابه فى هذه الآيه استيفاء هذا التقسيم،و شىء مما ذكر فيها من نعوت المحكم و المتشابه لا ينطبق عليه انطباقا صحيحا،على أنه منقوض بآيات الأحكام فإنها محكمه و لا سبيل للعقل إليها.

الرابع عشر:أن المحكم ما أريد به ظاهره و المتشابه ما أريد به خلاف ظاهره، و هذا قول شائع عند المتأخرين من أرباب البحث،و عليه يبتنى اصطلاحهم فى التأويل :

أنه المعنى المخالف لظاهر الكلام و كأنه أيضا مراد من قال:إن المحكم ما تأويله تنزيله،و المتشابه ما لا يدرك إلا بالتأويل.

و فيه:أنه اصطلاح محض لا ينطبق عليه ما فى الآيه من وصف المحكم و المتشابه فإن المتشابه إنما هو متشابه من حيث تشابه مراده و مدلوله،و ليس المراد بالتأويل المعنى المراد من المتشابه حتى يكون المتشابه متميزا عن المحكم بأن له تأويلا،بل المراد بالتأويل فى الآيه أمر يعم جميع الآيات القرآنيه من محكمها و متشابهها كما مر بيانه.

على أنه ليس فى القرآن آيه أريد فيها ما يخالف ظاهرها،و ما يوهم ذلك من الآيات إنما أريد بها معان يعطيها لها آيات أخر محكمه،و القرآن يفسر بعضه بعضا،و من المعلوم أن المعنى الذى تعطيه القرائن متصله أو منفصله للفظ ليس بخارج عن ظهوره و بالخصوص فى كلام نص متكلمه على أن ديدنه أن يتكلم بما يتصل بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض و يرتفع كل اختلاف و تناف مترائى بالتدبر فيه،قال تعالى:

«أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» :النساء-٨٢

الخامس عشر:ما عن الأصم:أن المحكم ما أجمع على تأويله و المتشابه ما اختلف فيه و كان المراد بالإجماع و الاختلاف كون مدلول الآيه بحيث يختلف فيه الأنظار أو لا يختلف.

و فيه:أن ذلك مستلزم لكون جميع الكتاب متشابها و ينافيه التقسيم الذى فى الآيه إذ ما من آيه من آى الكتاب إلا و فيه اختلاف ما:إما لفظا أو معنى أو فى كونها ذات ظهور أو غيرها،حتى ذهب بعضهم إلى أن القرآن كله متشابه مستدلا بقوله تعالى: «كِتَاباً مُتَشَابِهاً» :الزمر-٢٣،غفله عن أن هذا الاستدلال منه يبتنى على كون ما استدل به آيه محكمه و هو يناقض قوله و ذهب آخرون إلى أن ظاهر الكتاب ليس بحجه أى أنه لا ظاهر له.

السادس عشر:أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره سواء كان الإشكال من جهه اللفظ أو من جهه المعنى،ذكره الراغب.

قال فى مفردات القرآن:و المتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ،أو من حيث المعنى،فقال الفقهاء:المتشابه ما لا ينبئ ظاهره عن مراده،و حقيقه ذلك:أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثه أضرب:محكم على الإطلاق،و متشابه على الإطلاق،و محكم من وجه متشابه من وجه.

فالمتشابه فى الجمله ثلاثه أضرب:متشابه من جهه اللفظ فقط،و متشابه من جهه المعنى فقط،و متشابه من جهتهما.و المتشابه من جهه اللفظ ضربان:أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفرده،و ذلك إما من جهه غرابته نحو الأب و يزفون،و إما من جهه مشاركه فى اللفظ كاليد و العين،و الثانى يرجع إلى جمله الكلام المركب،و ذلك ثلاثه أضرب:ضرب لاختصار الكلام نحو «وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامىٰ فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ »و ضرب لبسط الكلام نحو لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لأنه لو قيل ليس مثله شىء كان أظهر للسامع، و ضرب لنظم الكلام نحو« أَنْزَلَ عَلىٰ عَبْدِهِ الْكِتٰابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً »تقديره الكتاب قيما و لم يجعل له عوجا و قوله: وَ لَوْ لاٰ رِجٰالٌ مُؤْمِنُونَ إلى قوله لَوْ تَزَيَّلُوا .

و المتشابه من جهه المعنى أوصاف الله تعالى و أوصاف يوم القيامه،فإن تلك

الصفات لا تتصور لنا،إذ كان لا يحصل فی نفوسنا صوره ما لم نحسه،أو لم یکن من جنس ما لم نحسه.

و المتشابه من جهه المعنی و اللفظ جمیعا خمسه أضرب:الأول:من جهه الکمیه کالعموم و الخصوص نحو فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ ،و الثانی:من جهه الکیفیه کالوجوب و الندب نحو فَانْکِحُوا مٰا طٰابَ لَکُمْ ،و الثالث من جهه الزمان کالناسخ و المنسوخ نحو اِتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ ، و الرابع:من جهه المکان أو الأمور التی نزلت فیها نحو وَ لَیْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ ظُهُورِهٰا ،و قوله: إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیٰادَهٌ فِی الْکُفْرِ ،فإن من لا یعرف عادتهم فی الجاهلیه یتعذر علیه معرفه تفسیر هذه الآیه،و الخامس:من جهه الشروط التی بها یصح الفعل أو یفسد کشروط الصلوه و النکاح.

و هذه الجمله إذا تصورت علم:أن کل ما ذکره المفسرون فی تفسیر المتشابه لا یخرج عن هذه التقاسیم نحو قول من قال المتشابه الم،و قول قتاده:المحکم الناسخ و المتشابه المنسوخ،و قول الأصم:المحکم ما أجمع علی تأویله و المتشابه ما اختلف فیه.

ثم جمیع المتشابه علی ثلاثه أضرب ضرب لا سبیل للوقوف علیه کوقت الساعه و خروج دابه الأرض و کیفیه الدابه و نحو ذلک.و ضرب للإنسان سبیل إلی معرفته کالألفاظ الغریبه و الأحکام الغلقه و ضرب متردد بین الأمرین،یجوز أن یختص بمعرفه حقیقته بعض الراسخین فی العلم و یخفی علی من دونهم،و هو الضرب المشار إلیه

بقوله (ع)فی علی رضی الله عنه: اللهم فقهه فی الدین و علمه التأویل ،و قوله لابن عباس مثل ذلک،انتهی کلامه و هو أعم الأقوال فی معنی المتشابه جمع فیها بین عده من الأقوال المتقدمه.

و فیه: أولا:أن تعمیمه المتشابه لموارد الشبهات اللفظیه کغرابه اللفظ و إغلاق الترکیب و العموم و الخصوص و نحوها لا یساعد علیه ظاهر الآیه،فإن الآیه جعلت المحکمات مرجعا یرجع إلیه المتشابهات،و من المعلوم أن غرابه اللفظ و أمثالها لا تنحل عقدتها من جهه دلاله المحکمات،بل لها مرجع آخر ترجع إلیه و تتضح به.

و أیضا:الآیه تصف المتشابهات بأنها من شأنها أن تتبع لابتغاء الفتنه،و من المعلوم:أن اتباع العام من غیر رجوع إلی مخصصه،و المطلق من غیر رجوع إلی مقیده

و أخـذ اللفـظ الغريب مع الإـعراض عمـا يفسـره فى اللغه مخـالف لطريقه أهل اللسان لا تجوزه قريحتهم فلا يكون بالطبع موجبا لإثاره الفتنه لعدم مساعده اللسان عليه.

و ثانيا:أن تقسـيمه المتشابه بما يمكن فهمه لعامه الناس و ما لا يمكن فهمه لأحد و ما يمكن فهمه لبعض دون بعض ظاهر فى أنه يرى اختصاص التأويل بالمتشابه،و قد عرفت خلافه.

هذا هو المعروف من أقوالهم فى معنى المحكم و المتشابه و تمييز مواردهما،و قد عرفت ما فيها،و عرفت أيضا أن الذى يظهر من الآيه على ظهورها و سـطوع نورها خلاف ذلك كله،و أن الذى تعطيه الآيه فى معنى المتشابه:أن تكون الآيه مع حفظ كونها آيه دالـه على معنى مريـب مردد لاـ مـن جهـه اللفـظ بحيث يعـالجه الطرق المـألوفه عنـد أهـل اللسـان كإرجـاع العـام و المطلـق إلى المخصص و المقيد و نحو ذلك بل من جهه كون معناها غير ملائم لمعنى آيه أخرى محكمه لا ريب فيه تبين حال المتشابهه.

و من المعلوم أن معنى آيه من الآيات لا يكون على هـذا الوصف إلا مع كون ما يتبع من المعنى مألوفا مأنوسا عند الأفهام العاميه تسرع الأذهان الساذجه إلى تصديقه أو يكون ما يرام من تأويل الآيه أقرب إلى قبول هذه الأفهام الضعيفه الإدراك و التعقل.

و أنت إذا تتبعت البدع و الأهواء و المذاهب الفاسده التى انحرف فيها الفرق الإسـلاميه عن الحق القويم بعد زمن النبى ص سواء كان فى المعارف أو فى الأحكام وجدت أكثر مواردها من اتباع المتشابه،و التأويل فى الآيات بما لا يرتضيه الله سبحانه.

ففرقه تتمسـك من القرآن بآيات للتجسـيم،و أخرى للجبر،و أخرى للتفويض و أخرى لعثره الأنبياء،و أخرى للتنزيه المحض بنفى الصـفات،و أخرى للتشبيه الخـالص و زيـاده الصـفات،إلى غير ذلـك،كـل ذلـك للأخـذ بالمتشـابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه.

و طـائفه ذكرت:أن الأحكـام الـدينيه إنما شـرعت لتكون طريقا إلى الوصول فلو كان هناك طريق أقرب منها كان سـلوكه متعينا لمن ركبه فإنمـا المطلوب هو الوصول بـأى طريق اتفق و تيسـر،و أخرى قالت إن التكليف إنما هو لبلوغ الكمال،و لا معنى لبقائه بعد الكمال بتحقق الوصول فلا تكليف لكامل.

و قد كانت الأحكام و الفرائض و الحدود و سائر السياسات الإسلاميه قائمه و مقامه فی عهد رسول الله ص لا یشذ منها شاذ ثم لم تزل بعد ارتحاله(ص)تنقص و تسقط حکما فحکما،یوما فیوما بید الحکومات الإسلامیه،و لم یبطل حکم أو حد إلا و اعتذر المبطلون:أن الدین إنما شرع لصلاح الدنیا و إصلاح الناس،و ما أحدثوه أصلح لحال الناس الیوم،حتی آل الأمر إلی ما یقال:إن الغرض الوحید من شرائع الدین إصلاح الدنیا بإجرائها،و الدنیا الیوم لا تقبل السیاسه الدینیه و لا تهضمها بل تستدعی وضع قوانین ترتضیها مدنیه الیوم و إجراءها،و إلی ما یقال إن التلبس بالأعمال الدینیه لتطهیر القلوب و هدایتها إلی الفکره و الإراده الصالحتین،و القلوب المتدربه بالتربیه الاجتماعیه،و النفوس الموقوفه علی خدمه الخلق فی غنی عن التطهر بأمثال الوضوء و الغسل و الصلوه و الصوم.

إذا تأملت فی هذه و أمثالها و هی لا تحصی کثره و تدبرت فی قوله تعالی:

فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ ابْتِغٰاءَ الْفِتْنَهِ وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِیلِهِ

الآیه،لم تشک فی صحه ما ذکرناه،و قضیت بأن هذه الفتن و المحن التی غادرت الإسلام و المسلمین لم تستقر قرارها إلا من طریق اتباع المتشابه،و ابتغاء تأویل القرآن.

و هذا و الله أعلم هو السبب فی تشدید القرآن الکریم فی هذا الباب، و إصراره البالغ علی النهی عن اتباع المتشابه و ابتغاء الفتنه و التأویل و الإلحاد فی آیات الله و القول فیها بغیر علم و اتباع خطوات الشیطان فإن من دأب القرآن أنه یبالغ فی التشدید فی موارد سینثلم من جهتها رکن من أرکان الدین فتنهدم به بنیته کالتشدید الواقع فی تولی الکفار،و موده ذوی القربی،و قرار أزواج النبی،و معامله الربا، و اتحاد الکلمه فی الدین و غیر ذلک.

و لا یغسل رین الزیغ من القلوب و لا یسد طریق ابتغاء الفتنه اللذین منشؤهما الرکون إلی الدنیا و الإخلاد إلی الأرض و اتباع الهوی إلا ذکر یوم الحساب کما قال تعالی: «وَ لاٰ تَتَّبِعِ الْهَویٰ فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ إِنَّ الَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِیدٌ بِمٰا نَسُوا یَوْمَ الْحِسٰابِ» :_ص-۲۶،و لذلک تری الراسخین فی العلم المتأبین تأویل القرآن بما لا یرتضیه ربهم یشیرون إلی ذلک فی خاتمه مقالهم حیث یقولون:

رَبَّنٰا إِنَّکَ جٰامِعُ النّٰاسِ لِیَوْمٍ لاٰ رَیْبَ فِیهِ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُخْلِفُ الْمِیعٰادَ

.

۲ ما معنی کون المحکمات أم الکتاب

ذکر جماعه:أن کون الآیات المحکمه أم الکتاب کونها أصلا فی الکتاب علیه تبتنی قواعد الدین و أرکانها فیؤمن بها،و یعمل بها و لیس الدین إلا مجموعا من الاعتقاد و العمل،و أما الآیات المتشابهه فهی لتزلزل مرادها و تشابه مدلولها لا یعمل بها بل إنما یؤمن بها إیمانا.

و أنت بالتأمل فیما تقدم من الأقوال تعلم أن هذا لازم بعض الأقوال المتقدمه، و هی التی تری أن المتشابه إنما صار متشابها لاشتماله علی تأویل یتعذر الوصول إلیه و فهمه،أو أن المتشابه یمکن حصول العلم به و رفع تشابهه فی الجمله أو بالجمله بالرجوع إلی عقل أو لغه أو طریقه عقلائیه یستراح إلیها فی رفع الشبهات اللفظیه.

و قال آخرون:إن معنی أمومه المحکمات رجوع المتشابهات إلیها،و کلامهم مختلف فی تفسیر هذا الرجوع فظاهر بعضهم:أن المراد بالرجوع هو قصر المتشابهات علی الإیمان و الاتباع العملی فی مواردها للمحکم کالآیه المنسوخه یؤمن بها و یرجع فی موردها إلی العمل بالناسخه،و هذا القول لا یغایر القول الأول کثیر مغایره،و ظاهر بعض آخر أن معناها کون المحکمات مبینه للمتشابهات،رافعه لتشابهها.

و الحق هو المعنی الثالث،فإن معنی الأمومه الذی تدل علیه قوله: هُنَّ أُمُّ الْکِتٰابِ الآیه یتضمن عنایه زائده و هو أخص من معنی الأصل الذی فسرت به الأم فی القول الأول،فإن فی هذه اللفظه.أعنی لفظه الأم عنایه بالرجوع الذی فیه انتشاء و اشتقاق و تبعض،فلا تخلو اللفظه عن الدلاله علی کون المتشابهات ذات مدالیل ترجع و تتفرع علی المحکمات،و لازمه کون المحکمات مبینه للمتشابهات.

علی أن المتشابه إنما کان متشابها لتشابه مراده لا لکونه ذا تأویل،فإن التأویل کما مر یوجد للمحکم کما یوجد للمتشابه،و القرآن یفسر بعضه بعضا،فللمتشابه مفسر و لیس إلا المحکم،مثال ذلک قوله تعالی: «إِلیٰ رَبِّهٰا نٰاظِرَهٌ» :القیامه-۲۳، فإنه آیه متشابهه،و بإرجاعها إلی قوله تعالی: «لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ» :الشوری-۱۱، و قوله تعالی لاٰ تُدْرِکُهُ الْأَبْصٰارُ» :الأنعام-۱۰۳،یتبین:أن المراد بها نظره و رؤیه من غیر سنخ رؤیه البصر الحسی،و قد قال تعالی: «مٰا کَذَبَ الْفُؤٰادُ مٰا رَأیٰ

أَ فَتُمَارُونَهُ عَلى مٰا يَرىٰ Xإلى أن قالXلَقَدْ رَأىٰ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِ الْكَبْرىٰ» :النجم-١٨، فأثبت للقلب رؤيه تخصه،و ليس هو الفكر فإن الكفر إنما يتعلق بالتصديق و المركب الذهنى و الرؤيه إنما تتعلق بالمفرد العينى،فيتبين بذلك أنه توجه من القلب ليست بالحسيه الماديه و لا بالعقليه الذهنيه،و الأمر على هذه الوتيره فى سائر المتشابهات.

٣ ما معنى التأويل؟

فسر قوم من المفسرين التأويل بالتفسير و هو المراد من الكلام و إذ كان المراد من بعض الآيات معلوما بالضروره كان المراد بالتأويل على هذا من قوله تعالى وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ الآيه هو المعنى المراد بالآيه،المتشابهه،فلا طريق إلى العلم بالآيات المتشابه على هذا القول لغير الله سبحانه أو لغيره و غير الراسخين فى العلم.

و قالت طائفه أخرى:إن المراد بالتأويل:هو المعنى المخالف لظاهر اللفظ، و قد شاع هذا المعنى بحيث عاد اللفظ حقيقه ثانيه فيه بعد ما كان بحسب اللفظ لمعنى مطلق الإرجاع أو المرجع.

و كيف كان فهذا المعنى هو الشائع عند المتأخرين كما أن المعنى الأول هو الذى كان شائعا بين قدماء المفسرين سواء فيه من كان يقول:إن التأويل لا يعلمه إلا الله، و من كان يقول إن الراسخين فى العلم أيضا يعلمونه كما نقل

عن ابن عباس أنه كان يقول": أنا من الراسخين فى العلم و أنا أعلم تأويله.

و ذهب طائفه أخرى:إلى أن التأويل معنى من معانى الآيه لا يعلمه إلا الله تعالى،أو لا يعلمه إلا الله و الراسخون فى العلم مع عدم كونه خلاف ظاهر اللفظ، فيرجع الأمر إلى أن للآيه المتشابهه معانى متعدده بعضها تحت بعض،منها ما هو تحت اللفظ يناله جميع الأفهام،و منها ما هو أبعد منه لا يناله إلا الله سبحانه أو هو تعالى و الراسخون فى العلم.

و قد اختلفت أنظارهم فى كيفيه ارتباط هذه المعانى باللفظ فإن من المتيقن أنها من حيث كونها مراده من اللفظ ليست فى عرض واحد و إلا لزم استعمال اللفظ فى أكثر من معنى واحد و هو غير جائز على ما بين فى محله،فهى لا محاله معان مترتبه فى

الطول:فقيل:إنها لوازم معنى اللفظ إلا أنها لوازم مترتبه بحيث يكون للفظ معنى مطابقى و له لازم و للازمه لازم و هكذا،و قيل:إنها معان مترتبه بعضها على بعض ترتب الباطن على ظاهره،فإراده المعنى المعهود المألوف إراده لمعنى اللفظ و إراده لباطنه بعين إرادته نفسه كما إنك إذا قلت:اسقنى فلا تطلب بذاك إلا السقى و هو بعينه طلب للإرواء،و طلب لرفع الحاجه الوجوديه،و طلب للكمال الوجودى و ليس هناك أربعه أوامر و مطالب،بل الطلب الواحد المتعلق بالسقى متعلق بعينه بهذه الأمور التى بعضها فى باطن بعض و السقى مرتبط بها و معتمد عليها.

و هاهنا قول رابع:و هو أن التأويل ليس من قبيل المعانى المراده باللفظ بل هو الأمر العينى الذى يعتمد عليه الكلام،فإن كان الكلام حكما إنشائيا كالأمر و النهى فتأويله المصلحه التى توجب إنشاء الحكم و جعله و تشريعه،فتأويل قوله: أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ مثلا هو الحاله النورانيه الخارجيه التى تقوم بنفس المصلى فى الخارج فتنهاه عن الفحشاء و المنكر،و إن كان الكلام خبريا فإن كان إخبارا عن الحوادث الماضيه كان تأويله نفس الحادثه الواقعه فى ظرف الماضى كالآيات المشتمله على أخبار الأنبياء و الأمم الماضيه فتأويلها نفس القضايا الواقعه فى الماضى،و إن كان إخبارا عن الحوادث و الأمور الحاليه و المستقبله فهو على قسمين: فإما أن يكون المخبر به من الأمور التى تناله الحواس أو تدركه العقول كان أيضا تأويله ما هو فى الخارج من القضيه الواقعه كقوله تعالى: «وَ فِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ» :التوبه-۴۷،و قوله تعالى: «غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ» :الروم-۴ و إن كان من الأمور المستقبله الغيبيه التى لا تناله حواسنا الدنيويه و لا يدرك حقيقتها عقولنا كالأمور المربوطه بيوم القيامه و وقت الساعه و حشر الأموات و الجمع و السؤال و الحساب و تطاير الكتب،أو كان مما هو خارج من سنخ الزمان و إدراك العقول كحقيقه صفاته و أفعاله تعالى فتأويلها أيضا نفس حقائقها الخارجيه.

و الفرق بين هذا القسم أعنى الآيات المبينه لحال صفات الله تعالى و أفعاله و ما يلحق بها من أحوال يوم القيامه و نحوها و بين الأقسام الأخر أن الأقسام الأخر يمكن حصول العلم بتأويلها بخلاف هذا القسم،فإنه لا يعلم حقيقه تأويله إلا الله تعالى،نعم يمكن أن يناله الراسخون فى العلم بتعليم الله تعالى بعض النيل على قدر ما تسعه عقولهم،

و أما حقيقه الأمر الذى هو حق التأويل فهو مما استأثر الله سبحانه بعلمه.

فهذا هو الذى يتحصل من مذاهبهم فى معنى التأويل،و هى أربعه.

و هاهنا أقوال أخر ذكروها هى فى الحقيقه من شعب القول الأول و إن تحاشى القائلون بها عن قبوله.

فمن جملتها أن التفسير أعم من التأويل و أكثر استعماله فى الألفاظ و مفرداتها و أكثر استعمال التأويل فى المعانى و الجمل،و أكثر ما يستعمل التأويل فى الكتب الإلهيه،و يستعمل التفسير فيها و فى غيرها.

و من جملتها:أن التفسير بيان معنى اللفظ الذى لا يحتمل إلا وجها واحدا و التأويل تشخيص أحد محتملات اللفظ بالدليل استنباطا.

و من جملتها:أن التفسير بيان المعنى المقطوع من اللفظ و التأويل ترجيع أحد المحتملات من المعانى غير المقطوع بها،و هو قريب من سابقه.

و من جملتها:أن التفسير بيان دليل المراد و التأويل بيان حقيقه المراد،مثاله:

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصٰادِ فتفسيره:أن المرصاد مفعال من قولهم:رصد يرصد إذا راقب،و تأويله التحذير عن التهاون بأمر الله و الغفله عنه.

و من جملتها:أن التفسير بيان المعنى الظاهر من اللفظ و التأويل بيان المعنى المشكل.

و من جملتها:أن التفسير يتعلق بالروايه و التأويل يتعلق بالدرايه.

و من جملتها:أن التفسير يتعلق بالاتباع و السماع و التأويل يتعلق بالاستنباط و النظر.فهذه سبعه أقوال هى فى الحقيقه من شعب القول الأول الذى نقلناه،يرد عليها ما يرد عليه و كيف كان فلا يصح الركون إلى شىء من هذه الأقوال الأربعه و ما ينشعب منها.

أما إجمالا:فلأنك قد عرفت:أن المراد بتأويل الآيه ليس مفهوما من المفاهيم تدل عليه الآيه سواء كان مخالفا لظاهرها أو موافقا،بل هو من قبيل الأمور الخارجيه، و لا كل أمر خارجى حتى يكون المصداق الخارجى للخبر تأويلا له،بل أمر خارجى

مخصوص نسبته إلى الكلام نسبه الممثل إلى المثل بفتحتين و الباطن إلى الظاهر.

و أما تفصيلا فيرد على القول الأول:أن أقل ما يلزمه أن يكون بعض الآيات القرآنيه لا ينال تأويلها أى تفسيرها أى المراد من مداليلها اللفظيه عامه الأفهام، و ليس فى القرآن آيات كذلك بل القرآن ناطق بأنه إنما أنزل قرآنا ليناله الأفهام، و لا مناص لصاحب هذا القول إلا أن يختار أن الآيات المتشابهه إنما هى فواتح السور من الحروف المقطعه حيث لا ينال معانيها عامه الأفهام،و يرد عليه:أنه لا دليل عليه،و مجرد كون التأويل مشتملا على معنى الرجوع و كون التفسير أيضا غير خال عن معنى الرجوع لا يوجب كون التأويل هو التفسير كما أن الأم مرجع لأولادها و ليست بتأويل لهم،و الرئيس مرجع للمرءوس و ليس بتأويل له.

على أن ابتغاء الفتنه عد فى الآيه خاصه مستقله للتشابه و هو يوجد فى غير فواتح السور فإن أكثر الفتن المحدثه فى الإسلام إنما حدثت باتباع علل الأحكام و آيات الصفات و غيرها.

و أما القول الثانى فيرد عليه:أن لازمه وجود آيات فى القرآن أريد بها معان يخالفها ظاهرها الذى يوجب الفتنه فى الدين بتنافيه مع المحكمات،و مرجعه إلى أن فى القرآن اختلافا بين الآيات لا يرتفع إلا بصرف بعضها عن ظواهرها إلى معان لا يفهمها عامه الأفهام،و هذا يبطل الاحتجاج الذى فى قوله تعالى: «أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاٰفاً كَثِيراً» :النساء-۸۲،إذ لو كان ارتفاع اختلاف آيه مع آيه بأن يقال:إنه أريد بإحداهما أو بهما معا غير ما يدل عليه الظاهر بل معنى تأويلى باصطلاحهم لا يعلمه إلا الله سبحانه مثلا لم تنجح حجه الآيه،فإن انتفاء الاختلاف بالتأويل باصطلاحهم فى كل مجموع من الكلام و لو كان لغير الله أمر ممكن،و لا دلاله فيه على كونه غير كلام البشر،إذ من الواضح أن كل كلام حتى القطعى الكذب و اللغو يمكن إرجاعه إلى الصدق و الحق بالتأويل و الصرف عن ظاهره،فلا يدل ارتفاع الاختلاف بهذا المعنى عن مجموع كلام على كونه كلام من يتعالى عن اختلاف الأحوال،و تناقض الآراء،و السهو و النسيان و الخطاء و التكامل بمرور الزمان كما هو المعنى بالاحتجاج فى الآيه،فالآيه بلسان احتجاجها صريح فى أن القرآن معرض لعامه الأفهام،و مسرح للبحث و التأمل و التدبر،و ليس فيه آيه أريد

بها معنى يخالف ظاهر الكلام العربى و لا أن فيه أحجيه و تعميه.

و أما القول الثالث فيرد عليه:أن اشتمال الآيات القرآنيه على معان مترتبه بعضها فوق بعض و بعضها تحت بعض مما لا ينكره إلا من حرم نعمه التدبر،إلا أنها جميعا-و خاصه لو قلنا إنها لوازم المعنى-مداليل لفظيه مختلفه من حيث الانفهام و ذكاء السامع المتدبر و بلادته،و هذا لا يلائم قوله تعالى فى وصف التأويل: وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ ،فإن المعارف العاليه و المسائل الدقيقه لا يختلف فيها الأذهان من حيث التقوى و طهاره النفس بل من حيث الحده و عدمها،و إن كانت التقوى و طهاره النفس معينين فى فهم المعارف الطاهره الإلهيه لكن ذلك ليس على نحو الدوران و العليه كما هو ظاهر قوله وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ .

و أما القول الرابع فيرد عليه:أنه و إن أصاب فى بعض كلامه لكنه أخطأ فى بعضه الآخر فإنه و إن أصاب فى القول بأن التأويل لا يختص بالمتشابه بل يوجد لجميع القرآن،و أن التأويل ليس من سنخ المدلول اللفظى بل هو أمر خارجى يبتنى عليه الكلام لكنه أخطأ فى عد كل أمر خارجى مرتبط بمضمون الكلام حتى مصاديق الأخبار الحاكيه عن الحوادث الماضيه و المستقبله تأويلا للكلام،و فى حصر المتشابه الذى لا يعلم تأويله فى آيات الصفات و آيات القيامه.

توضيحه:أن المراد حينئذ من التأويل فى قوله تعالى: وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ «إلخ»إما أن يكون تأويل القرآن برجوع ضميره إلى الكتاب فلا يستقيم قوله: وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ «إلخ»فإن كثيرا من تأويل القرآن و هو تأويلات القصص بل الأحكام أيضا و آيات الأخلاق مما يمكن أن يعلمه غيره تعالى و غير الراسخين فى العلم من الناس حتى الزائغون قلبا على قوله فإن الحوادث التى تدل عليها آيات القصص يتساوى فى إدراكها جميع الناس من غير أن يحرم عنه بعضهم،و كذا الحقائق الخلقيه و المصالح التى يوجدها العمل بالأحكام من العبادات و المعاملات و سائر الأمور المشرعه.

و إن كان المراد بالتأويل فيه تأويل المتشابه فقط استقام الحصر فى قوله: وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ إلخ،و أفاد أن غيره تعالى و غير الراسخين فى العلم مثلا لا ينبغى لهم ابتغاء تأويل المتشابه،و هو يؤدى إلى الفتنه و إضلال الناس لكن لا وجه لحصر المتشابه الذى لا يعلم تأويله فى آيات الصفات و القيامه فإن الفتنه و الضلال كما يوجد فى تأويلها

يوجـد فی تأویل غیرها من آیات الأحکام و القصـص و غیرهما کأن یقول القائل(و قـد قیل)إن المراد من تشـریع الأحکام إحیاء الاجتماع الإنسانی بإصلاح شأنه بما ینطبق علی الصلاح،فلو فرض أن صلاح المجتمع فی غیر الحکم المشرع،أو أنه لا ینطبق علی صلاح الوقت وجب اتباعه و إلغاء الحکم الدینی المشـرع.و کأن یقول القائل(و قد قیل)إن المراد من کرامات الأنبیاء المنقوله فی القرآن أمور عادیه،و إنما نقل بألفاظ ظاهرها خلاف العاده لصـلاح اسـتماله قلوب العامه لانجذاب نفوسـهم و خضوع قلوبهم لما یتخیلونه خارقا للعاده قاهرا لقوانین الطبیعه.و یوجـد فی المـذاهب المنشـعبه المحـدثه فی الإسـلام شـیء کثیر من هذه الأقاویل،و جمیعها من التأویل فی القرآن ابتغاء للفتنه بلا شک،فلا وجه لقصر المتشابه علی آیات الصفات و آیات القیامه.

إذا عرفت مـا مر علمت:أن الحق فی تفسـیر التأویـل أنه الحقیقه الواقعیه التی تسـتند إلیهـا البیانات القرآنیه من حکم أو موعظه أو حکمه،و أنه موجود لجمیع الآیـات القرآنیه:محکمها و متشابهها،و أنه لیس من قبیل المفاهیم المـدلول علیها بالألفاظ بل هی من الأمور العینیه المتعالیه من أن یحیط بها شـبکات الألفاظ،و إنما قیـدها الله سـبحانه بقید الألفاظ لتقریبها من أذهاننا بعض التقریب فهی کالأمثـال تضـرب لیقرب بهـا المقاصـد و توضـح بحسب مـا یناسب فهم السامع کما قال تعالی: «وَ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْکِتٰابِ لَدَیْنٰا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ» :الزخرف-۴ و فی القرآن تصریحات و تلویحات بهذا المعنی.

علی أنک قد عرفت فیما مر من البیان أن القرآن لم یسـتعمل لفظ التأویل فی الموارد التی-اسـتعملها و هی سـته عشر موردا علی ما عدت-إلا فی المعنی الذی ذکرناه.

۴ هل یعلم تأویل القرآن غیر الله سبحانه

هذه المسأله أیضا من موارد الخلاف الشدید بین المفسـرین،و منشؤه الخلاف الواقع بینهم فی تفسـیر قوله تعالی: وَ الرّٰاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا الآیه،و أن الواو هل هو للعطف أو للاستیناف،فـذهب بعض القـدماء و الشافعیه و معظم المفسرین من الشیعه إلی أن الواو للعطف و أن الراسخین فی العلم یعلمون

تأويل المتشابه من القرآن،و ذهب معظم القدماء و الحنفيه من أهل السنه إلى أنه للاستيناف و أنه لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله و هو مما استأثر الله سبحانه بعلمه.و قد استدلت الطائفه الأولى على مذهبها بوجوه كثيره،و ببعض الروايات.و الطائفه الثانيه بوجوه أخر و عده من الروايات الوارده فى أن تأويل المتشابهات مما استأثر الله سبحانه بعلمه و تمادت كل طائفه فى مناقضه صاحبتها و المعارضه مع حججها.

و الذين ينبغى أن يتنبه له الباحث فى المقام أن المسأله لم تخل عن الخلط و الاشتباه من أول ما دارت بينهم و وقعت موردا للبحث و التنقير،فاختلط رجوع المتشابه إلى المحكم.و بعباره أخرى المعنى المراد من المتشابه بتأويل الآيه كما ينبئ به ما عنونا به المسأله و قررنا عليه الخلاف و قول كل من الطرفين آنفا.

و لذلك تركنا التعرض لنقل حجج الطرفين لعدم الجدوى فى إثباتها أو نفيها بعد ابتنائها على الخلط و أما الروايات فإنها مخالفه لظاهر الكتاب فإن الروايات المثبته، أعنى الداله على أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل فإنها أخذت التأويل مرادفا للمعنى المراد من لفظ المتشابه و لا تأويل فى القرآن بهذا المعنى.كما

روى من طرق أهل السنه:

أن النبى ص دعا لابن عباس فقال:اللهم فقهه فى الدين و علمه التأويل ،

و ما روى من قول ابن عباس": أنا من الراسخين فى العلم و أنا أعلم تأويله ،

و من قوله": إن المحكمات هى الآيات الناسخه-و المتشابهات هى المنسوخه فإن لازم هذه الروايات على ما فهموه أن يكون معنى الآيه المحكمه تأويلا للآيه المتشابهه و هو الذى أشرنا إليه أن التأويل بهذا المعنى ليس موردا لنظر الآيه.

و أما الروايات النافيه أعنى الداله على أن غيره لا يعلم تأويل المتشابهات مثل ما روى:أن ابن عباس كان يقرأ": وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ -و يقول الراسخون فى العلم آمنا به و كذلك كان يقرأ أبى بن كعب.و ما روى أن ابن مسعود كان يقرأ":و إن تأويله إلا عند الله-و الراسخون فى العلم يقولون آمنا به،فهذه لا تصلح لإثبات شىء:أما أولا:فلأن هذه القراءات لا حجيه فيها و أما ثانيا:فلأن غايه دلالتها أن الآيه لا تدل على علم الراسخين فى العلم بالتأويل و عدم دلاله الآيه عليه غير دلالتها على عدمه كما هو المدعى فمن الممكن أن يدل عليه دليل آخر.

و مثل ما فى الدر المنثور،عن الطبرانى عن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول

الله ص يقول: لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خصال-أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتلوا،و أن يفتح لهم الكتاب-فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله- وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ- وَ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ-كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا وَ مٰا يَذَّكَّرُ إِلاّٰ أُولُوا الْأَلْبٰابِ ، و أن يكثر علمهم فيضيعونه و لا يبالون به. و هذا الحديث على تقدير دلالته على النفى لا يدل إلا على نفيه عن مطلق المؤمن لا عن خصوص الراسخين فى العلم و لا ينفع المستدل إلا الثانى.

و مثل الروايات الداله على وجوب اتباع المحكم و الإيمان بالمتشابه.و عدم دلالتها على النفى مما لا يرتاب فيه.

و مثل ما

فى تفسير الآلوسى،عن ابن جرير عن ابن عباس مرفوعا": أنزل القرآن على أربعه أحرف:حلال و حرام لا يعذر أحد بجهالته،و تفسير تفسره العلماء،و متشابه لا يعلمه إلا الله،و من ادعى علمه سوى الله تعالى فهو كاذب. و الحديث مع كونه مرفوعا و معارضا بما نقل عنه من دعوه الرسول له و ادعائه العلم به لنفسه مخالف لظاهر القرآن:أن التأويل غير المعنى المراد بالمتشابه على ما عرفت فيما مر.

و الذى ينبغى أن يقال:أن القرآن يدل على جواز العلم بتأويله لغيره تعالى، و أما هذه الآيه فلا دلاله لها على ذلك.

أما الجهه الثانيه فلما مر فى البيان السابق: أن الآيه بقرينه صدرها و ذيلها و ما تتلوها من الآيات إنما هى فى مقام بيان انقسام الكتاب إلى المحكم و المتشابه،و تفرق الناس فى الأخذ بها فهم بين مائل إلى اتباع المتشابه لزيغ فى قلبه و ثابت على اتباع المحكم و الإيمان بالمتشابه لرسوخ فى علمه،فإنما القصد الأول فى ذكر الراسخين فى العلم بيان حالهم و طريقتهم فى الأخذ بالقرآن و مدحهم فيه قبال ما ذكر من حال الزائغين و طريقتهم و ذمهم،و الزائد على هذا القدر خارج عن القصد الأول و لا دليل على تشريكهم فى العلم بالتأويل مع ذلك إلا وجوه غير تامه تقدمت الإشاره،إليها فيبقى الحصر المدلول عليه بقوله تعالى: وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ من غير ناقض ينقضه من عطف و استثناء و غير ذلك.فالذى تدل عليه الآيه هو انحصار العلم بالتأويل فيه تعالى و اختصاصه به.

لكنه لا ينافى دلاله دليل منفصل يدل على علم غيره تعالى به بإذنه كما فى نظائره

مثل العلم بالغیب قال تعالی قُلْ لاٰ یَعْلَمُ مَنْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَیْبَ إِلاَّ اللّٰهُ» :النمل-۶۵،و قال تعالی: «إِنَّمَا الْغَیْبُ لِلّٰهِ :یونس-۲۰،و قال تعالی: وَ عِنْدَهُ مَفٰاتِحُ الْغَیْبِ لاٰ یَعْلَمُهٰا إِلاّٰ هُوَ» :الأنعام-۵۹،فدل جمیع ذلک علی الحصر ثم قال تعالی:

«عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ :الجن-۲۷،فأثبت ذلک لبعض من هو غیره و هو من ارتضی من رسول،و لذلک نظائر فی القرآن.

و أما الجهه الأولی-و هی أن القرآن یدل علی جواز العلم بتأویله لغیره تعالی فی الجمله-فبیانه:أن الآیات کما عرفت تدل علی أن تأویل الآیه أمر خارجی نسبته إلی مدلول الآیه نسبه الممثل إلی المثل،فهو و إن لم یکن مدلولا للآیه بما لها من الدلاله لکنه محکی لها محفوظ فیها نوعا من الحکایه و الحفظ،نظیر قولک:«فی الصیف ضیعت اللبن»لمن أراد أمرا قد فوت أسبابه من قبل،فإن المفهوم المدلول علیه بلفظ المثل و هو تضییع المرأه اللبن فی الصیف لا ینطبق شیء منه علی المورد،و هو مع ذلک ممثل لحال المخاطب حافظ له یصوره فی الذهن بصوره مضمنه فی الصوره التی یعطیها الکلام بمدلوله.

کذلک أمر التأویل فالحقیقه الخارجیه التی توجب تشریع حکم من الأحکام أو بیان معرفه من المعارف الإلهیه أو وقوع حادثه هی مضمون قصه من القصص القرآنیه و إن لم تکن أمرا یدل علیه بالمطابقه نفس الأمر و النهی أو البیان أو الواقعه الکذائیه إلا أن الحکم أو البیان أو الحادثه لما کان کل منها ینتشی منها و یظهر بها فهو أثرها الحاکی لها بنحو من الحکایه و الإشاره کما أن قول السید لخادمه،اسقنی ینتشی عن اقتضاء الطبیعه الإنسانیه لکمالها،فإن هذه الحقیقه الخارجیه هی التی تقتضی حفظ الوجود و البقاء،و هو یقتضی بدل ما یتحلل من البدن،و هو یقتضی الغذاء اللازم،و هو یقتضی الری،و هو یقتضی الأمر بالسقی مثلا ،فتأویل قوله:اسقنی هو ما علیه الطبیعه الخارجیه الإنسانیه من اقتضاء الکمال فی وجوده و بقائه،و لو تبدلت هذه الحقیقه الخارجیه إلی شیء آخر یباین الأول مثلا لتبدل الحکم الذی هو الأمر بالسقی إلی حکم آخر و کذا الفعل الذی یعرف فیفعل أو ینکر فیجتنب فی واحد من المجتمعات الإنسانیه علی اختلافها الفاحش فی الآداب و الرسوم إنما یرتضع من ثدی الحسن و القبح الذی عندهم و هو یستند إلی مجموعه متحده متفقه من علل زمانیه و مکانیه و سوابق عادات و رسوم مرتکزه فی ذهن الفاعل بالوراثه ممن سبقه و تکرر المشاهده ممن شاهده

من أهـل منطقته،فهـذه العله المؤتلفه الأـجزاء هى تأويـل فعله أو تركه من غير أن تكون عين فعله أو تركه لكنهـا محكيه مضـمنه محفوظه بالفعل أو الترک،و لو فرض تبدل المحيط الاجتماعى لتبدل ما أتى به من الفعل أو الترک.

فالأمر الذى له التأويل سواء كان حكما أو قصه أو حادثه يتغير بتغير التأويل لا محاله،و لذلک ترى أنه تعالى فى قوله: فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مٰا تَشٰابَهَ مِنْهُ ابْتِغٰاءَ الْفِتْنَهِ وَ ابْتِغٰاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ الآيه،لما ذكر اتباع أهل الزيغ ما ليس بمراد من المتشابه ابتغاء للفتنه ذكر أنهم بـذلک يبتغون تأويله الـذى ليس بتأويل له و ليس إلا لأن التأويل الذى يأخذون به لو كان هو التأويل الحقيقى لكان اتباعهم للمتشابه اتباعا حقا غير مـذموم و تبـدل الأمر الذى يدل عليه المحكم و هو المراد من المتشابه إلى المعنى غير المراد الذى فهموه من المتشابه و اتبعوه.

فقد تبين:أن تأويل القرآن حقائق خارجيه تستند إليه آيات القرآن فى معارفها و شرائعها و سائر ما بينته بحيث لو فرض تغير شیء من تلک الحقائق انقلب ما فى الآيات من المضامين.

و إذا أجدت التدبر وجدت أن هذا ينطبق تمام الانطباق على قوله تعالى:

وَ الْكِتٰابِ الْمُبِينِ إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» :الزخرف-۴،فإنه يـدل على أن القرآن النازل كان عنـد الله أمرا أعلى و أحكم من أن يناله العقول أو يعرضه التقطع و التفصل لكنه تعالى عنايه بعباده جعله كتابا مقررا و ألبسه لبـاس العربيه لعلهم يعقلون مـا لا سبيل لهم إلى عقله و معرفته ما دام فى أم الكتاب،و أُمُّ الْكِتٰابِ هـذا هو المـدلول عليه بقوله: «يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ» :الرعد-۳۹،و بقوله: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» :البروج-۲۲.

و يـدل على إجمـال مضـمون الآـيه أيضـا قوله تعـالى: «كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» :هود-۱،فالإحكام كونه عند الله بحيث لا ثلمه فيه و لا فصل،و التفصيل هو جعله فصلا فصلا و آيه آيه و تنزيله على النبى ص.

و يدل على هذه المرتبه الثانيه التى تستند إلى الأولى قوله تعالى: «وَ قُرْآناً فَرَقْنٰاهُ

لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّ ٰاسِ عَلىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْن ٰاهُ تَنْزِيلاً» :إسراء-١٠۶،فقد كان القرآن غير مفروق الآيات ثم فرق و نزل تنزيلا- و أوحى نجوما.

و ليس المراد بذلك أنه كان مجموع الآيات مرتب السور على حال الذى هو عليه الآن عندنا كتابا مؤلفا مجموعا بين الدفتين مثلا- ثم فرق و أنزل على النبى نجوما ليقرأه على الناس على مكث كما يفرقه المعلم المقرئ منا قطعات ثم يعلمه و يقريه متعلمه كل يوم قطعه على حسب استعداد ذهنه.

و ذلك أن بين إنزال القرآن نجوما على النبى و بين إلقائه قطعه قطعه على المتعلم فرقا بينا و هو دخاله أسباب النزول فى نزول الآيه على النبى ص و لا شىء من ذلك و لا ما يشبهه فى تعلم المتعلم فالقطعات المختلفه الملقاه إلى المتعلم فى أزمنه مختلفه يمكن أن تجمع و ينضم بعضها إلى بعض فى زمان واحد،و لا يمكن أن تجمع أمثال قوله تعالى:

«فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ» :المائده-١٣،و قوله تعالى: «قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفّارِ» :التوبه-١٢٣،و قوله تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا» :المجادله-١، و قوله تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً» :التوبه-١٠٣،و نحو ذلك فيلغى سبب النزول و زمانها ثم يفرض نزولها فى أول البعثه أو فى آخر زمان حيوه النبى ص، فالمراد بالقرآن فى قوله: وَ قُرْآناً فَرَقْنَاهُ غير القرآن بمعنى الآيات المؤلفه.

و بالجمله فالمحصل من الآيات الشريفه أن وراء ما نقرؤه و نعقله من القرآن أمرا هو من القرآن بمنزله الروح من الجسد و المتمثل من المثال-و هو الذى يسميه تعالى بالكتاب الحكيم-و هو الذى تعتمد و تتكى عليه معارف القرآن المنزل و مضامينه، و ليس من سنخ الألفاظ المفرقه المقطعه و لا المعانى المدلول عليها بها،و هذا بعينه هو التأويل المذكور فى الآيات المشتمله عليه لانطباق أوصافه و نعوته عليه.و بذلك يظهر حقيقه معنى التأويل،و يظهر سبب امتناع التأويل عن أن تمسه الأفهام العاديه و النفوس غير المطهره.

ثم إنه تعالى قال: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ» :الواقعه-٧٩،و لا- شبهه فى ظهور الآيات فى أن المطهرين من عباد الله هم يمسون القرآن الكريم الذى فى الكتاب المكنون و المحفوظ من التغير،و من التغير تصرف الأذهان

بالورود عليه و الصدور منه و ليس هذا المس إلا نيل الفهم و العلم،و من المعلوم أيضا:

أن الكتاب المكنون هذا هو أم الكتاب المدلول عليه بقوله: يَمْحُوا اللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ ،و هو المذكور فى قوله: وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ .

و هؤلاء قوم نزلت الطهاره فى قلوبهم،و ليس ينزلها إلا الله سبحانه،فإنه تعالى لم يذكرها إلا كذلك أى منسوبه إلى نفسه كقوله تعالى: «إِنَّمٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» :الأحزاب-٣٣ ،و قوله تعالى: «وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ» :المائده-۶،و ما فى القرآن شىء من الطهاره المعنويه إلا منسوبه إلى الله أو بإذنه،و ليست الطهاره إلا زوال الرجس من القلب،و ليس القلب من الإنسان إلا ما يدرك به و يريد به،فطهاره القلب طهاره نفس الإنسان فى اعتقادها و إرادتها و زوال الرجس عن هاتين الجهتين،و يرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحقه من غير ميلان إلى الشك و نوسان بين الحق و الباطل،و ثباته على لوازم ما علمه من الحق من غير تمايل إلى اتباع الهوى و نقض ميثاق العلم و هذا هو الرسوخ فى العلم فإن الله سبحانه ما وصف الراسخين فى العلم إلا ـ بأنهم مهديون ثابتون على ما علموا غير زائغه قلوبهم إلى ابتغاء الفتنه،فقد ظهر أن هؤلاء المطهرين راسخون فى العلم،هذا.

و لكن ينبغى أن لا تشتبه النتيجه التى ينتجها هذا البيان،فإن المقدار الثابت بذلك أن المطهرين يعلمون التأويل،و لازم تطهيرهم أن يكونوا راسخين فى علومهم، لما أن تطهير قلوبهم منسوب إلى الله و هو تعالى سبب غير مغلوب،لا ـ أن الراسخين فى العلم يعلمونه بما أنهم راسخون فى العلم أى إن الرسوخ فى العلم سبب للعلم،بالتأويل فإن الآيه لا تثبت ذلك،بل ربما لاح من سياقها جهلهم بالتأويل حيث قال تعالى: يَقُولُونَ آمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا الآيه،و قد وصف الله تعالى رجالا من أهل الكتاب برسوخ العلم و مدحهم بذلك،و شكرهم على الإيمان و العمل الصالح فى قوله: «لٰكِنِ الرّٰاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» XالآيهX:النساء-١۶٢، و لم يثبت مع ذلك كونهم عالمين بتأويل الكتاب.

و كذلك إن الآيه أعنى قوله تعالى: لاٰ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ لم تثبت للمطهرين إلا مس الكتاب فى الجمله،و أما أنهم يعلمون كل التأويل و لا يجهلون شيئا منه و لا فى وقت فهى ساكته عن ذلك،و لو ثبت لثبت بدليل منفصل.

۵ ما هو السبب فی اشتمال الکتاب علی المتشابه؟

و من الاعتراضات التی أوردت علی القرآن الکریم الاعتراض باشتماله علی المتشابهات و هو أنکم تدعون أن تکالیف الخلق إلی یوم القیامه فیه،و أنه قول فصل یمیز بین الحق و الباطل،ثم إنا نراه یتمسک به کل صاحب مذهب من المذاهب المختلفه بین المسلمین لإثبات مذهبه،و لیس ذلک إلا لوقوع التشابه فی آیاته،أ فلیس أنه لو جعله جلیا نقیا عن هذه المتشابهات کان أقرب إلی الغرض المطلوب،و أقطع لماده الخلاف و الزیغ؟.

و أجیب عنه بوجوه من الجواب بعضها ظاهر السخافه کالجواب بأن وجود المتشابهات یوجب صعوبه تحصیل الحق و مشقه البحث و ذلک موجب لمزید الأجر و الثواب!و کالجواب بأنه لو لم یشتمل إلا علی صریح القول فی مذهب لنفر ذلک سائر أرباب المذاهب فلم ینظروا فیه،لکنه لوجود التشابه فیه أطمعهم فی النظر فیه و کان فی ذلک رجاء أن یظفروا بالحق فیؤمنوا به!و کالجواب بأن اشتماله علی المتشابه أوجب الاستعانه بدلاله العقل،و فی ذلک خروج عن ظلمه التقلید و دخول فی ضوء النظر و الاجتهاد!و کالجواب بأن اشتماله علی المتشابه أوجب البحث عن طرق التأویلات المختلفه،و فی ذلک فائده التضلع بالفنون المختلفه کعلم اللغه و الصرف و النحو و أصول الفقه!.

فهذه أجوبه سخیفه ظاهره السخافه بأدنی نظر و الذی یستحق الإیراد و البحث من الأجوبه وجوه ثلاثه:

الأول:أن اشتمال القرآن الکریم علی المتشابهات لتمحیص القلوب فی التصدیق به،فإنه لو کان کل ما ورد فی الکتاب معقولا واضحا لا شبهه فیه عند أحد لما کان فی الإیمان شیء من معنی الخضوع لأمر الله تعالی و التسلیم لرسله.

و فیه:أن الخضوع هو نوع انفعال و تأثر من الضعیف فی مقابل القوی،و الإنسان إنما یخضع لما یدرک عظمته أو لما لا یدرکه لعظمته و بهوره الإدراک کقدره الله غیر المتناهیه و عظمته غیر المتناهیه و سائر صفاته التی إذا واجهها العقل رجع القهقری لعجزه عن الإحاطه بها،و أما الأمور التی لا ینالها العقل لکنه یغتر و یغادر باعتقاد

أنه يدركها فما معنى خضوعه لها؟كالآيات المتشابهه التى يتشابه أمرها على العقل فيحسب أنه يعقلها و هو لا يعقل.

الثانى:أن اشتماله على المتشابه إنما هو لبعث العقل على البحث و التنقير،لئلا يموت بإهماله بإلقاء الواضحات التى لا يعمل فيها عامل الفكر،فإن العقل أعز القوى الإنسانيه التى يجب تربيتها بتربيه الإنسان.

و فيه:أن الله تعالى أمر الناس بإعمال العقل و الفكر فى الآيات الآفاقيه و الأنفسيه إجمالا فى موارد من كلامه،و تفصيلا فى موارد أخرى كخلق السماوات و الأرض و الجبال و الشجر و الدواب و الإنسان و اختلاف ألسنته و ألوانه،و ندب إلى التعقل و التفكر و السير فى الأرض و النظر فى أحوال الماضين،و حرض على العقل و الفكر، و مدح العلم بأبلغ المدح و فى ذلك غنى عن البحث فى أمور ليس إلا مزالق للأقدام و مصارع للأفهام.

الثالث:أن الأنبياء بعثوا إلى الناس و فيهم العامه و الخاصه،و الذكى و البليد و العالم و الجاهل،و كان من المعانى ما لا يمكن التعبير عنه بعباره تكشف عن حقيقته و تشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع على السواء،فالحرى فى أمثال هذه المعانى أن تلقى بحيث يفهمه الخاصه و لو بطريق الكنايه و التعريض و يؤمر العامه فيها بالتسليم و تفويض الأمر إلى الله تعالى.

و فيه:أن الكتاب كما يشتمل على المتشابهات كذلك يشتمل على المحكمات التى تبين المتشابهات بالرجوع إليها،و لازم ذلك أن لا تتضمن المتشابهات أزيد مما يكشف عنها المحكمات،و عند ذلك يبقى السؤال(و هو أنه ما فائده وجود المتشابهات فى الكتاب و لا حاجه إليها مع وجود المحكمات؟)على حاله،و منشأ الاشتباه أن المجيب أخذ المعانى نوعين متباينين:معان يفهمها جميع المخاطبين من العامه و الخاصه و هى مداليل المحكمات،و معان سنخها بحيث لا يتلقاها إلا الخاصه من المعارف العاليه و الحكم الدقيقه،فصار بذلك المتشابهات لا ترجع معانيها إلى المحكمات،و قد مر أن ذلك مخالف لمنطوق الآيات الداله على أن القرآن يفسر بعضه بعضا و غير ذلك.

و الذى ينبغى أن يقال:أن وجود المتشابه فى القرآن ضرورى ناش عن وجود

التأويل الموجب لتفسير بعضه بعضا بالمعنى الذى أوضحناه للتأويل فيما مر.

و يتضح ذلك بعض الاتضاح بإجاده التدبر فى جهات البيان القرآنى و التعليم الإلهى و الأمور التى بنيت عليها معارفه و الغرض الأقصى من ذلك و هى أمور:

منها:أن الله سبحانه ذكر أن لكتابه تأويلا هو الذى تدور مداره المعارف القرآنيه و الأحكام و القوانين و سائر ما يتضمنه التعليم الإلهى،و أن هذا التأويل الذى تستقبله و تتوجه إليه جميع هذه البيانات أمر يقصر عن نيله الأفهام و تسقط دون الارتقاء إليه العقول إلا نفوس طهرهم الله و أزال عنهم الرجس،فإن لهم خاصه أن يمسوه.و هذا غايه ما يريده تعالى من الإنسان المجيب لدعوته فى ناحيه العلم أن يهتدى إلى علم كتابه الذى هو تبيان كل شىء،و مفتاحه التطهير الإلهى،و قد قال تعالى:

«مٰا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ» :المائده-۷، فجعل الغايه لتشريع الدين هى التطهير الإلهى.

و هذا الكمال الإنسانى كسائر الكمالات المندوب إليها لا يظفر بكمالها إلا أفراد خاصه،و إن كانت الدعوه متعلقه بالجميع متوجهه إلى الكل،فتربيه الناس بالتربيه الدينيه إنما تثمر كمال التطهير فى أفراد خاصه و بعض التطهير فى آخرين،و يختلف ذلك باختلاف درجات الناس ،كما أن الإسلام يدعو إلى حق التقوى فى العمل.قال تعالى:

«اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ» :آل عمران-۱۰۲،و لكن لا يحصل كماله إلا فى أفراد و فيمن دونهم دون ذلك على طريق الأمثل فالأمثل،كل ذلك لاختلاف الناس فى طبائعهم و أفهامهم،و هكذا جميع الكمالات الاجتماعيه من حيث التربيه و الدعوه،يدعو داعى الاجتماع إلى الدرجه القصوى من كل كمال كالعلم و الصنعه و الثروه و الراحه و غيرها لكن لا ينالها إلا البعض،و من دونه ما دونها على اختلاف مراتب الاستعدادات.

و بالحقيقه أمثال هذه الغايات ينالها المجتمع من غير تخلف دون كل فرد منه.

و منها:أن القرآن قطع بأن الطريق الوحيد إلى إيصال الإنسان إلى هذه الغايه الشريفه تعريف نفس الإنسان لنفسه بتربيته فى ناحيتى العلم و العمل:أما فى ناحيه العلم فبتعليمه الحقائق المربوطه به من المبدإ و المعاد و ما بينهما من حقائق العالم حتى يعرف نفسه بما ترتبطه به من الواقعيات معرفه حقيقيه و أما فى ناحيه العمل فبتحميل قوانين

اجتماعیه علیه بحیث تصلح شأن حیوته الاجتماعیه،و لا تشغله عن التخلص إلی عالم العلم و العرفان،ثم بتحمیل تکالیف عبادیه یوجب العمل بها و المزاوله علیها توجه نفسه، و خلوص قلبه إلی المبدإ و المعاد،و إشرافه علی عالم المعنی و الطهاره،و التجنب عن قذاره المادیات و ثقلها.

و أنت إذا أحسنت التدبر فی قوله تعالی: «إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّالِحُ یَرْفَعُهُ» :الفاطر-۱۰،و ضممته إلی ما سمعت إجماله فی قوله تعالی: وَ لٰکِنْ یُرِیدُ لِیُطَهِّرَکُمْ الآیه ،و إلی قوله تعالی: «عَلَیْکُمْ أَنْفُسَکُمْ لاٰ یَضُرُّکُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَیْتُمْ» :المائده - ۱۰۵،و قوله تعالی: «یَرْفَعِ اللّٰهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجٰاتٍ» :المجادله-۱۱،و ما یشابهه من الآیات اتضح لک الغرض الإلهی فی تشریع الدین و هدایه الإنسان إلیه،و السبیل الذی سلکه لذلک فافهم.

و یتفرع علی هذا البیان نتیجه مهمه:هی أن القوانین الاجتماعیه فی الإسلام مقدمه للتکالیف العبادیه مقصوده لأجلها،و التکالیف العبادیه مقدمه للمعرفه بالله و بآیاته،فأدنی الإخلال أو التحریف أو التغییر فی الأحکام الاجتماعیه من الإسلام یوجب فساد العبودیه و فساد العبودیه یؤدی إلی اختلال أمر المعرفه.

و هذه النتیجه-علی أنها واضحه التفرع علی البیان-تؤیدها التجربه أیضا:

فإنک إذا تأملت جریان الأمر فی طروق الفساد فی شئون الدین الإسلامی بین هذه الأمه و أمعنت النظر فیه:من أین شرع و فی أین ختم وجدت أن الفتنه ابتدأت من الاجتماعیات ثم توسطت فی العبادیات ثم انتهت إلی رفض المعارف.و قد ذکرناک فیما مر:أن الفتنه شرعت باتباع المتشابهات و ابتغاء تأویلها،و لم یزل الأمر علی ذلک حتی الیوم.

و منها:أن الهدایه الدینیه إنما بنیت علی نفی التقلید عن الناس و رکوز العلم بینهم ما أستطیع،فإن ذلک هو الموافق لغایتها التی هی المعرفه،و کیف لا؟و لا یوجد بین کتب الوحی کتاب،و لا بین الأدیان دین یعظمان من أمر العلم و یحرضان علیه بمثل ما جاء به القرآن و الإسلام.

و هذا المعنی هو الموجب لأن یبین الکتاب للإنسان حقائق المعارف أولا، و ارتباط ما شرعه له من الأحکام العملیه بتلک الحقائق ثانیا،و بعباره أخری أن یفهمه

أنه موجود مخلوق لله تعالى خلقه بيـده و وسط فى خلقه و بقائه ملائكته و سائر خلقه من سـماء و أرض و نبات و حيوان و مكان و زمان و ما عداها،و أنه سائر إلى معاده و ميعاده سيرا اضطراريا،و كادح إلى ربه كدحا فملاقيه ثم يجزى جزاء ما عمله،أيما إلى جنه،أيما إلى نار فهذه طائفه من المعارف.

ثم يفهمه أن الأعمال التى تؤديه إلى سعاده الجنه ما هى،و ما تؤديه إلى شقوه النار ما هى؟أى يبين له الأحكام العباديه و القوانين الاجتماعيه،و هذه طائفه أخرى.

ثم يبين له:أن هذه الأحكام و القوانين مؤديه إلى السعاده أى يفهمه:أن هذه الطائفه الثانيه مرتبطه بالطائفه الأولى،و أن تشريعها و جعلها للإنسان إنما هو لمراعاه سعادته لاشتمالها على خير الإنسان فى الدنيا و الآخره،و هذه طائفه ثالثه.

و ظـاهر عنـدك أن الطائفه الثانيه بمنزله المقـدمه،و الطائفه الأولى بمنزله النتيجه، و الطائفه الثالثه بمنزله الرابط الـذى يربط الثانيه بالأولى،و دلاله الآيات على كل واحده من هذه الطوائف المذكوره واضحه و لا حاجه إلى إيرادها.

و منها:أنه لما كانت عامه الناس لا يتجاوز فهمهم المحسوس و لا يرقى عقلهم إلى ما فوق عالم الماده و الطبيعه،و كان من ارتقى فهمه منهم بالارتياضـات العلميه إلى الورود فى إدراك المعانى و كليات القواعـد و القوانين يختلف أمره باختلاف الوسائل التى يسـرت لـه الـورود فى عـالم المعـانى و الكليـات كـان ذلـك موجبـا لاختلاـف النـاس فى فهـم المعـانى الخـارجه عـن الحس و المحسوس اختلافا شديدا ذا عرض عريض على مراتب مختلفه،و هذا أمر لا ينكره أحد.

و لا يمكن إلقاء معنى من المعانى إلى إنسان إلا من طريق معلوماته الـذهنيه التى تهيأت عنده فى خلال حيوته و عيشـته،فإن كان مأنوسا بالحس فمن طريق المحسوسات على قـدر ما رقى إليه من مـدارج الحس كما يمثل لـذه النكاح للصبى بحلاوه الحلواء،و إن كـان نائلاـ للمعـانى الكليه فبمـا نـال،و على قـدر مـا نال و هـذا ينال المعانى من البيان الحسـى و العقلى معا بخلاف المأنوس بالحس.

ثم إن الهدايه الدينيه لا تختص بطائفه دون طائفه من الناس بل تعم جميع الطوائف و تشمل عامه الطبقات و هو ظاهر.

ص :۶۰

و هـذا المعنى أعنى اختلاف الأفهام و عموم أمر الهـدايه مع ما عرفت من وجود التأويـل للقرآن هو الموجب أن يساق البيانات مساق الأمثال،و هو أن يتخذ ما يعرفه الإنسان و يعهده ذهنه من المعانى فيبين به ما لا يعرفه لمناسبه ما بينهما نظير توزين المتاع بالمثاقيل و لا مسانخه بينهما فى شكل أو صوره أو حجم أو نوع إلا ما بينهما من المناسبه وزنا.

و الآيات القرآنيه المذكوره سابقا كقوله تعالى: «إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» :الزخرف-۴،و ما يشابهه من الآيات و إن بينت هـذا الأمر بطريق الإشاره و الكنايه،لكن القرآن لم يكتف بـذلك دون أن بينه بما ضربه مثلا فى أمر الحق و الباطل فقال تعالى: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ،فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْأَمْثالَ» :الرعد-۱۷،فبين أن حكم المثل جار فى أفعاله تعالى كما هو جار فى أقواله،ففعله تعالى كقوله الحق إنما قصد منهما الحق الذى يحويانه و يصاحب كلا منهما أمور غير مقصوده و لا نافعه يعلوهما و يربوهما لكنها ستزول و تبطل،و يبقى بالحق الذى ينفع الناس،و إنما يزول و يزهق بحق آخر هو مثله،و هذا كالآيه المتشابهه تتضمن من المعنى حقا مقصودا،و يصاحبه و يعلو عليه بالاستباق إلى الذهن معنى آخر باطل غير مقصود،لكنه سيزول بحق آخر يظهر الحق الأول على الباطل الذى كان يعلوه،ليحق الحق بكلماته و يبطل الباطل و لو كره المجرمون،و الكلام فى انطباق هذا المثل على أفعاله الخارجيه المتقرره فى عالم الكون كالكلام فى أقواله عز من قائل.

و بالجمله:المتحصل من الآيه الشريفه:أن المعارف الحقه الإلهيه كالماء الذى أنزله الله تعالى من السماء هى فى نفسها ماء فحسب،من غير تقييد بكميه و لا كيفيه، ثم إنها كالسيل السائل فى الأوديه تتقدر بأقدار مختلفه من حيث السعه و الضيق، و هذه الأقدار أمور ثابته كل فى محله كالحال فى أصول المعارف و الأحكام التشريعيه، و مصالح الأحكام التى ذكرنا فيما مر أنها روابط تربط الأحكام بالمعارف الحقه.و هذا حكمها فى نفسها مع قطع النظر عن البيان اللفظى.و هى فى مسيرها ربما صحبت ما هو

كالزبد يظهر ظهورا ثم يسرع فى الزوال و ذلك كالأحكام المنسوخه التى تنسخه النواسخ من الآيات،فإن المنسوخ مقتضى ظاهر طباعه أن يدوم لكن الحكم الناسخ يبطل دوامه و يضع مكانه حكما آخر.هذا بالنظر إلى نفس هذه المعارف مع قطع النظر عن ورودها فى وادى البيان اللفظى.

و أما المعارف الحقه من حيث كونها وارده فى ظرف اللفظ و الدلاله فإنها بورودها أوديه الدلالات اللفظيه تتقدر بأقدارها،تتشكل بأشكال المرادات الكلاميه بعد إطلاقها،و هذه أقوال ثابته من حيث مراد المتكلم بكلامه إلا أنها مع ذلك أمثال يمثل بها أصل المعنى المطلق غير المتقدر،ثم إنها بمرورها فى الأذهان المختلفه تحمل معانى غير مقصوده كالزبد فى السيل،لأن الأذهان من جهه ما تخزنه من المرتكزات و المألوفات تتصرف فى المعانى الملقاه إليها،و جل هذا التصرف إنما هو فى المعانى غير المألوفه كالمعارف الأصليه،و مصالح الأحكام و ملاكاتها كما مر،و أما الأحكام و القوانين فلا تصرف فيها مع قطع النظر عن ملاكاتها فإنها مألوفه،و من هنا يظهر أن المتشابهات إنما هى الآيات من حيث اشتمالها على الملاكات و المعارف،دون متن الأحكام و القوانين الدينيه.

و منها:أنه تحصل من البيان السابق أن البيانات اللفظيه القرآنيه أمثال للمعارف الحقه الإلهيه لأن البيان نزل فى هذه الآيات إلى سطح الأفهام العامه التى لا تدرك إلا الحسيات و لا تنال المعانى الكليه إلا فى قالب الجسمانيات،و لما استلزم ذلك فى إلقاء المعانى الكليه المجرده عن عوارض الأجسام و الجسمانيات أحد محذورين:فإن الأفهام فى تلقيها المعارف المراده منها إن جمدت فى مرتبه الحس و المحسوس انقلبت الأمثال بالنسبه إليها حقائق ممثله،و فيه بطلان الحقائق و فوت المرادات و المقاصد و إن لم تجمد و انتقلت إلى المعانى المجرده بتجريد الأمثال عن الخصوصيات غير الدخيله لم يؤمن من الزياده و النقيصه.

نظير ذلك أنا لو ألقى إلينا المثل السائر:عند الصباح يحمد القوم السرى،أو تمثل لنا بقول صخر:

أهم بأمر الحزم لا أستطيعه

و قد حيل بين العير و النزوان

فإنـا من جهه سـبق عهـد الـذهن بـالقصه أو الأـمر الممثل له نجرد المثل عن الخصوصـيات المكتنفه بالكلام كالصـباح و القوم و السـرى،و نفهم من ذلـك أن المراد:أن حسن تأثير عمل و تحسـين فعله إنما يظهر إذا فرغ منه و بـدا أثره،و أما هو ما دام الإنسان مشـتغلا به محسـا تعب فعله فلا يقـدر قـدره،و يظهر ذلك تجريـد ما تمثل به من الشـعر،و أما إذا لم نعهـد الممثل و جمـدنا على الشـعر أو المثـل خفى عنـا الممثـل و عـاد المثل خبرا من الأخبار، و لو لـم نجمـد و انتقلنا إجمالا إلى أنه مثل لم يمكنا تشـخيص المقدار الذى يجب طرحه بالتجريد و ما يجب حفظه للفهم و هو ظاهر.

و لا مخلص عن هذين المحذورين إلا بتفريق المعانى الممثل لها إلى أمثال مختلفه، و تقليبها فى قوالب متنوعه حتى يفسر بعضها بعضـا،و يوضـح بعضـها أمر بعض،فيعلم بالتـدافع الـذى بينهـا أولاـ:أن البيانـات أمثـال و لهـا فى مـا وراءها حقائق ممثله،و ليسـت مقاصـدها و مراداتها مقصوره على اللفظ المأخوذ من مرتبه الحس و المحسوس و ثانيا:بعـد العلم بأنها أمثال:يعلم بذلك المقدار الـذى يجب طرحه من الخصوصـيات المكتنفه بالكلاـم،و ما يجب حفظه منها للحصول على المرام،و إنما يحصل ذلك بأن هـذا يتضمن نفى بعض الخصوصيات الموجوده فى ذلك.و ذاک نفى بعض ما فى هذا.

و إيضـاح المقاصـد المبهمه و المطـالب الـدقيقه بـإيراد القصـص المتعـدده و الأمثال و الأمثله الكثيره المتنوعه أمر دائر فى جميع الألسـنه و اللغات من غير اختصاص بقوم دون قوم،و لغه دون لغه،و ليس ذلك إلا لأن الإنسان يشعر بقريحه البيان مساس حاجته إلى نفى الخصوصـيات المـوهمه لخلاـف المراد فى القصه الواحـده أو المثـل الواحـد بالخصوصـيات النـافيه الموجوده فى قصـه أخرى مناسبه أو مثل آخر مناسب.

فقد تبين أن من الواجب أن يشتمل القرآن الكريم على الآيات المتشابهه،و أن يرفع التشابه الواقع فى آيه بالأحكام الواقع فى آيه أخرى،و اندفع بذلك الإشكال باشتمال القرآن على المتشابهات لكونها مخله لغرض الهدايه و البيان.

[نتائج هذه الأبحاث و هی عشره]

و قد ظهر من جميع ما تقدم من الأبحاث على طولها أمور:

الأـول:أن الآيات القرآنيه تنقسم إلى قسـمين:محكم و متشابه،و ذلك من جهه اشـتمال الآيه وحـدها على مـدلول متشابه و عـدم اشتمالها.

الثانى:أن لجميع القرآن محكمه و متشابهه تأويلا.و أن التأويل ليس من قبيل

المفاهيم اللفظيه بل من الأمور الخارجيه نسبته إلى المعارف و المقاصد المبينه نسبه الممثل إلى المثال،و أن جميع المعارف القرآنيه أمثال مضروبه للتأويل الذى عند الله.

الثالث:أن التأويل يمكن أن يعلمه المطهرون و هم راسخون فى العلم.

الرابع:أن البيانات القرآنيه أمثال مضروبه لمعارفها و مقاصدها،و هذا المعنى غير ما ذكرناه فى الأمر الثانى من كون معارفه أمثالا و قد أوضحناه فيما مر.

الخامس:أن من الواجب أن يشتمل القرآن على المتشابهات،كما أن من الواجب أن يشتمل على المحكمات.

السادس:أن المحكمات أم الكتاب إليها ترجع المتشابهات رجوع بيان.

السابع:أن الإحكام و التشابه وصفان يقبلان الإضافه و الاختلاف بالجهات بمعنى أن آيه ما يمكن أن تكون محكمه من جهه،متشابهه من جهه أخرى فتكون محكمه بالإضافه إلى آيه و متشابهه بالإضافه إلى أخرى.و لا مصداق للمتشابه على الإطلاق فى القرآن،و لا مانع من وجود محكم على الإطلاق.

الثامن:أن من الواجب أن يفسر بعض القرآن بعضا.

التاسع:أن للقرآن مراتب مختلفه من المعنى،مترتبه طولا من غير أن تكون الجميع فى عرض واحد فيلزم استعمال اللفظ فى أكثر من معنى واحد،أو مثل عموم المجاز،و لا هى من قبيل اللوازم المتعدده لملزوم واحد،بل هى معان مطابقيه يدل على كل واحد منها اللفظ بالمطابقه بحسب مراتب الأفهام.

و لتوضيح ذلك نقول:قال الله تبارك و تعالى: «اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقاتِهِ» :آل عمران- ١٠٢،فأنبأ أن للتقوى الذى هو الانتهاء عما نهى الله عنه و الايتمار بما أمر الله به مرتبه هى حق التقوى،و يعلم بذلك أن هناك من التقوى ما هو دون هذه المرتبه الحقه، فللتقوى الذى هو بوجه العمل الصالح مراتب و درجات بعضها فوق بعض.

و قال أيضا: «أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللّهِ وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ» :آل عمران-١٦٣،فبين أن العمل مطلقا سواء كان صالحا أو طالحا درجات و مراتب،و الدليل على أن المراد بها

درجات العمل قوله: وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ ،و نظير الآيه قوله تعالى: «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ» :الأحقاف-١٩،و قوله تعالى: «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ» :الأنعام-١٣٢،و الآيات فى هذا المعنى كثيره،و فيها ما يدل على أن درجات الجنه و دركات النار بحسب مراتب الأعمال و درجاتها.

و من المعلوم أن العمل من أى نوع كان هو من رشحات العلم يترشح من اعتقاد قلبى يناسبه،و قد استدل تعالى على كفر اليهود و على فساد ضمير المشركين و على نفاق المنافقين من المسلمين و على إيمان عده من الأنبياء و المؤمنين بأعمالهم و أفعالهم فى آيات كثيره جدا يطول ذكرها،فالعمل كيف كان يلازم ما يناسبه من العلم و يدل عليه.

و بالعكس يستلزم كل نوع من العمل ما يناسبه من العلم و يحصله و يركزه فى النفس كما قال تعالى: «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» :العنكبوت-٦٩،و قال تعالى: «وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» :الحجر-٩٩، و قال أيضا: «ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّوأى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ» :الروم-١٠،و قال: «فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ» :البراءه-٧٧،و الآيات فى هذا المعنى أيضا كثيره تدل الجميع على أن العمل صالحا كان أو طالحا يولد من أقسام المعارف و الجهالات(و هى العلوم المخالفه للحق ما يناسبه.

و قال تعالى-و هو كالكلمه الجامعه فى العمل الصالح و العلم النافع-: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ» :الفاطر-١٠،فبين أن شأن الكلم الطيب و هو الاعتقاد الحق أن يصعد إلى الله تعالى و يقرب صاحبه منه،و شأن العمل الصالح أن يرفع هذا العلم و الاعتقاد.و من المعلوم أن ارتفاع العلم فى صعوده إنما هو بخلوصه من الشك و الريب و كمال توجه النفس إليه و عدم تقسيم القلب فيه و فى غيره(و هو مطلق الشرك)فكلما كمل خلوصه من الشك و الخطوات اشتد صعوده و ارتفاعه.

و لفظ الآيه لا يخلو عن دلاله على ذلك فإنها عبرت فى الكلم الطيب بالصعود

ص :٦٥

و وصف العمل بالرفع،و الصعود يقابل النزول كما أن الرفع يقابل الوضع،و هما أعنى الصعود و الارتفاع وصفان يتصف بهما المتحرك من السفل إلى العلو بنسبته إلى الجانبين فهو صاعد بالنظر إلى قصده العلو و اقترابه منه،و مرتفع من جهه انفصاله من السفل و ابتعاده منه،فالعمل يبعد الإنسان و يفصله من الدنيا و الإخلاد إلى الأرض بصرف نفسه عن التعلق بزخارفها الشاغله و التشتت و التفرق بهذه المعلومات الفانيه غير الباقيه و كلما زاد الرفع و الارتفاع زاد صعود الكلم الطيب،و خلصت المعرفه عن شوائب الأوهام و قذارات الشكوك،و من المعلوم أيضا كما مر:أن العمل الصالح ذو مراتب و درجات، فلكل درجه من العمل الصالح رفع الكلم الطيب و توليد العلوم و المعارف الحقه الإلهيه على ما يناسب حالها.و الكلام فى العمل الطالح و وضعه الإنسان نظير الكلام فى العمل الصالح و رفعه و قد مر بعض الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» :الحمد-۶.

فظهر أن للناس بحسب مراتب قربهم و بعدهم منه تعالى مراتب مختلفه من العمل و العلم،و لازمه أن يكون ما يتلقاه أهل واحده من المراتب و الدرجات غير ما يتلقاه أهل المرتبه و الدرجه الأخرى التى فوق هذه أو تحتها،فقد تبين أن للقرآن معانى مختلفه مترتبه.

و قد ذكر الله سبحانه أصنافا من عباده و خص كل صنف بنوع من العلم و المعرفه لا يوجد فى الصنف الآخر كالمخلصين و خص بهم العلم بأوصاف ربهم حق العلم،قال تعالى:

«سُبْحَانَ اللّهِ عَمّا يَصِفُونَ إلاّ عِبَادَ اللّهِ الْمُخْلَصِينَ» :الصافات-۱۶۰، و خص بهم أشياء أخر من المعرفه و العلم سيجىء بيانها إن شاء الله تعالى،و كالموقنين و خص بهم مشاهده ملكوت السماوات و الأرض قال تعالى: «وَ كَذٰلِكَ نُرِى إبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» :الأنعام-۷۵،و كالمنيبين و خص بهم التذكر،قال تعالى: «وَ مَا يَتَذَكَّرُ إلاّ مَنْ يُنِيبُ» :المؤمن-۱۳،و كالعالمين و خص بهم عقل أمثال القرآن،قال تعالى: «وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إلاَّ الْعَالِمُونَ» :العنكبوت-۴۳،و كأنهم أولوا الألباب و المتدبرون لقوله تعالى: «أَ فَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» :محمد ص-۲۴،و لقوله تعالى: «أَ فَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً» :النساء-۸۲،فإن مؤدى الآيات

الثلاث يرجع إلى معنى واحد و هو العلم بمتشابه القرآن و رده إلى محكمه،و كالمطهرين خصهم الله بعلم تأويل الكتاب قال تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ» :الواقعه-۷۹،و كالأولياء و هم أهل الوله و المحبه لله و خص بهم أنهم لا يلتفتون إلى شيء إلا الله سبحانه و لذلك لا يخافون شيئا و لا يحزنون لشيء، قال تعالى: «أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللّٰهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» :يونس-۶۲،و كالمقربين و المجتبين و الصديقين و الصالحين و المؤمنين و لكل منهم خواص من العلم و الإدراك يختصون بها،سنبحث عنها في المحال المناسبه لها.

و نظير هذه المقامات الحسنه مقامات سوء في مقابلها،و لها خواص رديئه في باب العلم و المعرفه،و لها أصحاب كالكافرين و المنافقين و الفاسقين و الظالمين و غيرهم، و لهم أنصباء من سوء الفهم و رداءه الإدراك لآيات الله و معارفه الحقه،طوينا ذكرها إيثارا للاختصار،و سنتعرض لها في خلال أبحاث هذا الكتاب إن شاء الله.

العاشر:أن للقرآن اتساعا من حيث انطباقه على المصاديق و بيان حالها فالآيه منه لا يختص بمورد نزولها بل يجري في كل مورد يتحد مع مورد النزول ملاكا كالأمثال التي لا تختص بمواردها الأول،بل تتعداها إلى ما يناسبها،و هذا المعنى هو المسمى بجرى القرآن،و قد مر بعض الكلام فيه في أوائل الكتاب.

بحث روائى

في تفسير العياشي،: سئل أبو عبد الله(ع)عن المحكم و المتشابه قال:المحكم ما يعمل به و المتشابه ما اشتبه على جاهه.

أقول:و فيه تلويح إلى أن المتشابه مما يمكن العلم به.

و فيه،أيضا عنه(ع): أن القرآن محكم و متشابه:فأما المحكم فتؤمن به و تعمل به و تدين،و أما المتشابه فتؤمن به و لا تعمل به،و هو قول الله عز و جل:

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ-فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ-وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ-وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ-كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا

.و الراسخون في العلم هم آل محمد.

أقول:و سيجیء كلام فی معنی قوله(ع):و الراسخون فی العلم هم آل محمد.

و فيه،أيضا عن مسعده بن صدقه قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن الناسخ و المنسوخ-و المحكم و المتشابه قال:الناسخ الثابت المعمول به،و المنسوخ ما قد كان يعمل به ثم جاء ما نسخه،و المتشابه ما اشتبه علی جاهه.

قال:و فی روايه: الناسخ الثابت،و المنسوخ ما مضی،و المحكم ما يعمل به،و المتشابه ما يشبه بعضه بعضا.

و فی الكافی،عن الباقر(ع)فی حديث قال: فالمنسوخات من المتشابهات

و فی العيون،عن الرضا(ع): من رد متشابه القرآن إلی محكمه هدی إلی صراط مستقيم.ثم قال إن فی أخبارنا متشابها كمتشابه القرآن،فردوا متشابهها إلی محكمها، و لا تتبعوا متشابهها فتضلوا.

أقول:الأخبار كما تری متقاربه فی تفسير المتشابه،و هی تؤيد ما ذكرناه فی البيان السابق:أن التشابه يقبل الارتفاع،و أنه إنما يرتفع بتفسير المحكم له.و أما كون المنسوخات من المتشابهات فهو كذلك كما تقدم و وجه تشابهها ما يظهر منها من استمرار الحكم و بقائه،و يفسره الناسخ ببيان أن استمراره مقطوع.و أما ما ذكره (ع)فی خبر العيون:أن فی أخبارنا متشابها كمتشابه القرآن و محكما كمحكم القرآن، فقد وردت فی هذا المعنی عنهم(ع)روايات مستفيضه،و الاعتبار يساعده فإن الأخبار لا تشتمل إلا علی ما اشتمل عليه القرآن الشريف،و لا تبين إلا ما تعرض له و قد عرفت فيما مر:أن التشابه من أوصاف المعنی الذی يدل عليه اللفظ و هو كونه بحيث يقبل الانطباق علی المقصود و علی غيره لا- من أوصاف اللفظ من حيث دلالته علی المعنی نظير الغرابه و الإجمال،و لا من أوصاف أعم من اللفظ و المعنی.

و بعباره أخری:إنما عرض التشابه لما عرض عليه من الآيات لكون بياناتها جاريه مجری الأمثال بالنسبه إلی المعارف الحقه الإلهيه،و هذا المعنی بعينه موجود فی الأخبار ففيها متشابه و محكم كما فی القرآن،

و قد ورد عن النبی ص أنه قال: إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس علی قدر عقولهم

و فی تفسير العياشی،عن جعفر بن محمد،عن أبيه(ع): أن رجلا قال لأمير المؤمنين(ع):هل تصف لنا ربنا نزداد له حبا و معرفه؟ فغضب و خطب

الناس فقال فيما قال-عليك يا عبد الله بما دلك عليه القرآن من صفته" و تقدمك فيه الرسول من معرفته،و استضئ من نور هدايته-فإنما هی نعمه و حكمه أوتيتها،فخذ ما أوتيت و كن من الشاكرين،و ما كلفك الشيطان عليه مما ليس عليك فی الكتاب فرضه،و لا فی سنه الرسول و أئمه الهدی أمره فكل علمه إلی الله،و لا تقدر عظمه الله و اعلم يا عبد الله:أن الراسخين فی العلم-الذين اختارهم الله عن الاقتحام-فی السدد المضروبه دون الغيوب-فلزموا الإقرار بجمله ما جهلوا تفسيره-من الغيب المحجوب،فقالوا آمنا به كل من عند ربنا،و قد مدح الله اعترافهم بالعجز-عن تناول ما لم يحيطوا به علما، و سمی تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه-منهم رسوخا فاقتصر علی ذلك-و لا تقدر عظمه الله علی قدر عقلك فتكون من الهالكين.

أقول:قوله(ع):و اعلم يا عبد الله أن الراسخين فی العلم إلخ ظاهر فی أنه(ع) أخذ الواو فی قوله تعالی: وَ الرّٰاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ يَقُولُونَ ،للاستيناف دون العطف كما استظهرناه من الآيه و مقتضی ذلك أن ظهور الآيه لا يساعد علی كون الراسخين فی العلم عالمين بتأويله،لا أنه يساعد علی عدم إمكان علمهم به،فلا ينافی وجود بيان آخر يدل عليه كما تقدم بيانه و هو ظاهر بعض الأخبار عن أئمه أهل البيت كما سيأتی.و قوله(ع):

الذين أغناهم الله عن الاقتحام فی السدد المضروبه دون الغيوب،خبر أن ،و الكلام ظاهر فی تحضيض المخاطب و ترغيبه أن يلزم طريقه الراسخين فی العلم بالاعتراف بالجهل فيما جهله فيكون منهم،و هذا دليل علی تفسيره(ع)الراسخين فی العلم بمطلق من لزم ما علمه و لم يتعد إلی ما جهله.و المراد بالغيوب المحجوبه بالسدد:المعانی المراده بالمتشابهات المخفيه عن الأفهام العامه و لذا أردفه بقوله ثانيا:فلزموا الإقرار بجمله ما جهلوا تفسيره،و لم يقل بجمله ما جهلوا تأويله فافهم.

و فی الكافی،عن الصادق(ع): نحن الراسخون فی العلم و نحن نعلم تأويله.

أقول:و الروايه لا تخلو عن ظهور فی كون قوله تعالی و الراسخون فی العلم، معطوفا علی المستثنی فی قوله: وَ مٰا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّٰهُ لكن هذا الظهور يرتفع بما مر من البيان و ما تقدم من الروايه،و لا يبعد كل البعد أن يكون المراد بالتأويل هو المعنی المراد بالمتشابه فإن هذا المعنی من التأويل المساوق لتفسير المتشابه كان شائعا فی الصدر الأول بين الناس.

ص :۶۹

و أما قوله(ع):نحن الراسخون فی العلم،و قد تقدم

فی روایه للعیاشی عن الصادق(ع)قوله: و الراسخون فی العلم هم آل محمد ،و هذه الجمله مرویه فی روایات أخر أیضا فجمیع ذلک من باب الجری و الانطباق کما یشهد بذلک ما تقدم و یأتی من الروایات.

و فی الکافی،أیضا عن هشام بن الحکم قال:قال لی أبو الحسن موسی بن جعفر(ع) إلی أن قال:یا هشام إن الله حکی عن قوم صالحین:أنهم قالوا: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَیْتَنا-وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ رَحْمَهً إِنَّکَ أَنْتَ الْوَهّابُ ،علموا أن القلوب تزیغ و تعود إلی عماها و رداها،إنه لم یخف الله من لم یعقل عن الله،و من لم یعقل عن الله-لم یعقد قلبه علی معرفه ثابته ینظرها-و یجد حقیقتها فی قلبه،و لا یکون أحد کذلک إلا من کان قوله لفعله مصدقا،و سره لعلانیته موافقا،لأن الله عز اسمه لم یدل علی الباطن الخفی من العقل-إلا بظاهر منه و ناطق عنه.

أقول:قوله(ع):لم یخف الله من لم یعقل عن الله،فی معنی قوله تعالی:

« إِنَّما یَخْشَی اللّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ »،و قوله(ع):و من لم یعقل عن الله«إلخ»أحسن بیان لمعنی الرسوخ فی العلم لأن الأمر ما لم یعقل حق التعقل لم ینسد طرق الاحتمالات فیه،و لم یزل القلب مضطربا فی الإذعان به و إذا تم التعقل و عقد القلب علیه لم یخالفه باتباع ما یخالفه من الهوی فکان ما فی قلبه هو الظاهر فی جوارحه و کان ما یقوله هو الذی یفعله،و قوله:و لا یکون أحد کذلک إلخ بیان لعلامه الرسوخ فی العلم.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و الطبرانی عن أنس و أبی أمامه و وائله بن أسقف و أبی الدرداء: أن رسول الله ص سئل عن الراسخین فی العلم فقال:من برت یمینه و صدق لسانه و استقام قلبه،و من عف بطنه و فرجه فذلک من الراسخین فی العلم.

أقول:و یمکن توجیه الروایه بما یرجع إلی معنی الحدیث السابق.

و فی الکافی،عن الباقر(ع): أن الراسخین فی العلم من لا یختلف فی علمه.

أقول:و هو منطبق علی الآیه،فإن الراسخین فی العلم قوبل به فیها قوله:

اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ

،فیکون رسوخ العلم عدم اختلاف العالم و ارتیابه.

و فی الـدر المنثور،أخرج ابن أبی شـیبه و أحمد و الترمذی و ابن جریر و الطبرانی و ابن مردویه عن أم سـلمه: أن رسول الله کان یکثر فی دعـائه أن یقول-اللهم مقلب القلوب ثبت قلبی علی دینـک.قلت:یـا رسول الله و إن القلوب لتتقلب؟قـال نعم مـا خلق الله من بشر من بنی آدم-إلا و قلبه بین إصبعین من أصابع الله-فإن شاء أقامه، و إن شاء أزاغه ،الحدیث.

أقول:و روی هذا المعنی بطرق عدیده عن عده من الصحابه کجابر و نواس بن شمعان و عبد الله بن عمر و أبی هریره،و المشهور فی هذا الباب ما فی حدیث نواس:

قلب ابن آدم بین إصبعین من أصابع الرحمن.و قد روی اللفظه(فیما أظن)الشریف الرضی فی المجازات النبویه.

و روی عن علی(ع): أنه قیل له.هل عندکم شیء من الوحی؟قال:لا و الذی فلق الحبه و برأ النسمه-إلا أن یعطی الله عبدا فهما فی کتابه.

أقول:و هو من غرر الأحـادیث،و أقـل مـا یـدل علیه:أن مـا نقـل من أعـاجیب المعارف الصادره عن مقامه العلمی الـذی یـدهش العقول مأخوذ من القرآن الکریم.

و الکافی،عن الصادق عن أبیه عن آبائه(ع)قال:قال رسول الله ص: یا أیها الناس إنکم فی دار هدنه،و أنتم علی ظهر سـفر،و السیر بکم سـریع، و قد رأیتم اللیل و النهار-و الشمس و القمر یبلیان کل جدید،و یقربان کل بعید،و یأتیان بکل موعود،فأعدوا الجهاز لبعـد المجـاز،قـال:فقـام المقـداد بن الأسود فقـال:یا رسول الله و ما دار الهـدنه؟فقال:دار بلاغ و انقطاع،فإذا التبست علیکم الفتن کقطع اللیل المظلم،فعلیکم بالقرآن فإنه شافع مشـفع،و ماحل مصدق،و من جعله أمامه قاده إلی الجنه،و من جعله خلفه ساقه إلی النـار،و هو الـدلیل یـدل علی خیر سبیـل،و هو کتـاب فیه تفصـیل و بیـان و تحصـیل،و هو الفصـل لیس بـالهزل،و له ظهر و بطن، فظـاهره حکم و باطنه علم،ظاهره أنیق و باطنه عمیق،له تخوم و علی تخومه تخوم،لا تحصـی عجائبه،و لا تبلی غرائبه،فیه مصابیح الهدی،و منار الحکمه،و دلیل علی المعرفه لمن عرف الصـفه،فلیجل جال بصـره ،و لیبلغ الصفه نظره،ینج من عطب،و یخلص من نشب،فإن التفکر حیوه قلب البصیر،کما یمشی المستنیر فی الظلمات،فعلیکم بحسن التخلص،و قله التربص.

ص :71

أقول:و رواه العياشی فی تفسیره إلی قوله:فلیجل جال.

و فی الکافی،و تفسیر العیاشی،أیضا عن الصادق(ع)قال:قال رسول الله ص:

القرآن هدی من الضلاله،و تبیان من العمی،و استقاله من العثره،و نور من الظلمه، و ضیاء من الأحداث،و عصمه من الهلکه،و رشد من الغوایه،و بیان من الفتن،و بلاغ من الدنیا إلی الآخره،و فیه کمال دینکم،و ما عدل أحد من القرآن إلا إلی النار.

أقول:و الروایات فی هذا المساق کثیره عن النبی ص و الأئمه من أهل بیته (ع).

و فی تفسیر العیاشی،عن الفضیل بن یسار قال: سألت أبا جعفر(ع)عن هذه الروایه:ما فی القرآن آیه إلا و لها ظهر و بطن،و ما فیه حرف إلا و له حد و لکل حد مطلع،ما یعنی بقوله:ظهر و بطن؟قال:ظهره تنزیله و بطنه تأویله،منه ما مضی و منه ما لم یکن بعد،یجری کما یجری الشمس و القمر،کلما جاء منه شیء وقع،قال الله:و ما یعلم تأویله-إلا الله و الراسخون فی العلم،نحن نعلمه.

أقول:الروایه المنقوله فی ضمن الروایه هی ما روته الجماعه عن النبی ص بألفاظ مختلفه و إن کان المعنی واحدا کما

فی تفسیر الصافی،عن النبی ص: إن للقرآن ظهرا و بطنا و حدا و مطلعا.

و فیه،عنه(ص)أیضا: أن للقرآن ظهرا و بطنا و لبطنه بطنا إلی سبعه أبطن.

و

قوله(ع) منه ما مضی و منه ما یأتی ،ظاهره رجوع الضمیر إلی القرآن باعتبار اشتماله علی التنزیل و التأویل فقوله:یجری کما یجری الشمس و القمر یجری فیهما معا، فینطبق فی التنزیل علی الجری الذی اصطلح علیه الأخبار فی انطباق الکلام بمعناه علی المصداق کانطباق قوله: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ کُونُوا مَعَ الصّٰادِقِینَ» :التوبه-۱۲۰،علی کل طائفه من المؤمنین الموجودین فی الأعصار المتأخره عن زمان نزول الآیه،و هذا نوع من الانطباق،و کانطباق آیات الجهاد علی جهاد النفس،و انطباق آیات المنافقین علی الفاسقین من المؤمنین،و هذا نوع آخر من الانطباق أدق من الأول، و کانطباقها و انطباق آیات المذنبین علی أهل المراقبه و الذکر و الحضور فی تقصیرهم و مساهلتهم فی ذکر الله تعالی،و هذا نوع آخر أدق من ما تقدمه،و کانطباقها علیهم

فی قصورهم الذاتی عن أداء حق الربوبیه،و هذا نوع آخر أدق من الجمیع.

و من هنا یظهر أولا-أن للقرآن مراتب من المعانی المراده بحسب مراتب أهله و مقاماتهم،و قد صور الباحثون عن مقامات الإیمان و الولایه من معانیه ما هو أدق مما ذکرناه.

و ثانیا:أن الظهر و البطن أمران نسبیان،فکل ظهر بطن بالنسبه إلی ظهره و بالعکس کما یظهر من الروایه التالیه.

و فی تفسیر العیاشی،عن جابر قال: سألت أبا جعفر(ع)عن شیء من تفسیر القرآن-فأجابنی ثم سألته ثانیه فأجابنی بجواب آخر،فقلت جعلت فداک-کنت أجبت فی المسأله بجواب غیر هذا قبل الیوم!فقال:یا جابر إن للقرآن بطنا و للبطن بطن، و ظهرا و للظهر ظهر،یا جابر و لیس شیء أبعد من عقول الرجال من تفسیر القرآن، إن الآیه تکون أولها فی شیء-و أوسطها فی شیء و آخرها فی شیء-و هو کلام متصل ینصرف علی وجوه.

و فیه،أیضا عنه(ع)فی حدیث قال: و لو أن الآیه إذا نزلت فی قوم-ثم مات أولئک القوم ماتت الآیه لما بقی من القرآن شیء،و لکن القرآن یجری أوله علی آخره- ما دامت السماوات و الأرض-و لکل قوم آیه یتلونها هم منها من خیر أو شر.

و فی المعانی،عن حمران بن أعین قال: سألت أبا جعفر(ع)عن ظهر القرآن و بطنه فقال:ظهره الذین نزل فیهم القرآن،و بطنه الذین عملوا بأعمالهم،یجری فیهم ما نزل فی أولئک

و فی تفسیر الصافی،عن علی(ع): ما من آیه إلا-و لها أربعه معان:ظاهر و باطن و حد و مطلع،فالظاهر التلاوه،و الباطن الفهم،و الحد هو أحکام الحلال و الحرام، و المطلع هو مراد الله من العبد بها.

أقول:المراد بالتلاوه ظاهر مدلول اللفظ بدلیل أنه(ع)عده من المعانی، فالمراد بالفهم فی تفسیره الباطن ما هو فی باطن الظاهر من المعنی،و المراد بقوله:هو أحکام الحلال و الحرام ظاهر المعارف المتلقاه من القرآن فی أوائل المراتب أو أواسطها فی مقابل المطلع الذی هو المرتبه العلیا،و الحد و المطلع نسبیان کما أن الظاهر و الباطن

نسبیان کما عرفت فیما تقدم،فکل مرتبه علیا هی مطلع بالنسبه إلی السفلی.

و المطلع إما بضم المیم و تشدید الطاء و فتح اللام اسم مکان من الاطلاع،أو بفتح المیم و اللام و سکون الطاء اسم مکان من الطلوع،و هو مراد الله من العبد بها کما ذکره(ع).

و قد ورد هذه الأمور الأربعه

فی النبوی المعروف هکذا: إن القرآن أنزل علی سبعه أحرف،لکل آیه منها ظهر و بطن و لکن حد مطلع.

و فی روایه: و لکل حد و مطلع.

و معنی

قوله(ص): و لکل حد مطلع علی ما فی إحدی الروایتین:أن لکل واحد من الظهر و البطن الذی هو حد مطلع یشرف علیه،هذا هو الظاهر،و یمکن أن یرجع إلیه ما فی الروایه الأخری:و لکل حد و مطلع بأن یکون المعنی:و لکل منهما حد هو نفسه و مطلع و هو ما ینتهی إلیه الحد فیشرف علی التأویل،لکن هذا لا یلائم ظاهرا ما فی روایه علی(ع): ما من آیه إلا و لها أربعه معان«إلخ»إلا أن یراد أن لها أربعه اعتبارات من المعنی و إن کان ربما انطبق بعضها علی بعض.

و علی هذا فالمتحصل من معانی الأمور الأربعه:أن الظهر هو المعنی الظاهر البادئ من الآیه،و الباطن هو الذی تحت الظاهر سواء کان واحدا أو کثیرا،قریبا منه أو بعیدا بینهما واسطه،و الحد هو نفس المعنی سواء کان ظهرا أو بطنا و المطلع هو المعنی الذی طلع منه الحد و هو بطنه متصلا به فافهم.

و فی الحدیث المروی من طرق الفریقین عن النبی ص: أنزل القرآن علی سبعه أحرف.

أقول:و الحدیث و إن کان مرویا باختلاف ما فی لفظه،لکن معناها مروی مستفیضا و الروایات متقاربه معنی،روتها العامه و الخاصه.و قد اختلف فی معنی الحدیث اختلافا شدیدا ربما أنهی إلی أربعین قولا،و الذی یهون الخطب أن فی نفس الأخبار تفسیرا لهذه السبعه الأحرف،و علیه التعویل.

ففی بعض الأخبار: نزل القرآن علی سبعه أحرف-أمر و زجر و ترغیب و ترهیب و جدل و قصص و مثل ،

و فی بعضها: زجر و أمر و حلال و حرام و محکم و متشابه و أمثال.

و عن على(ع): أن الله أنزل القرآن على سبعه أقسام،كل منها كاف شاف، و هى أمر و زجر و ترغيب-و ترهيب و جدل و مثل و قصص.

فالمتعين حمل السبعه الأحرف على أقسام الخطاب و أنواع البيان و هى سبعه على وحدتها فى الدعوه إلى الله و إلى صراطه المستقيم،و يمكن أن يستفاد من هذه الروايه حصر أصول المعارف الإلهيه فى الأمثال فإن بقيه السبعه لا تلائمها إلا بنوع من العنايه على ما لا يخفى.

بحث آخر روائى [فى المراد من تفسير القرآن بالرأى و ما هو حق التفسير]

فى الصافى،عن النبى ص: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار أقول:و هذا المعنى رواه الفريقان،و فى معناه أحاديث أخر رووه عن النبى ص و أئمه أهل البيت(ع).

۷۵ و فى منيه المريد،عن النبى ص قال: من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار.

أقول:و رواه أبو داود فى سننه.

۷۵ و فيه،عنه(ص)قال: من قال فى القرآن بغير علم-جاء يوم القيامه ملجما بلجام من نار.

۷۵ و فيه،عنه(ص)قال: من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ.

أقول:و رواه أبو داود و الترمذى و النسائى.

۷۵ و فيه،عنه(ص)قال: أكثر ما أخاف على أمتى من بعدى-رجل يناول القرآن يضعه على غير مواضعه.

۷۵ و فى تفسير العياشى،عن أبى بصير عن أبى عبد الله(ع)قال: من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر-و إن أخطأ فهو أبعد من السماء.

۷۵ و فيه،عن يعقوب بن يزيد عن ياسر عن الرضا(ع)قال: الرأى فى كتاب الله كفر.

أقول:و فی معناها روایات أخر مرویه فی العیون و الخصال و تفسیر العیاشی و غیرها.

قوله(ص):من فسر القرآن برأیه، الرأی هو الاعتقاد عن اجتهاد و ربما أطلق علی القول عن الهوی و الاستحسان و کیف کان لما ورد قوله:برأیه مع الإضافه إلی الضمیر علم منه أن لیس المراد به النهی عن الاجتهاد المطلق فی تفسیر القرآن حتی یکون بالملازمه أمرا بالاتباع و الاقتصار بما ورد من الروایات فی تفسیر الآیات عن النبی و أهل بیته صلی الله علیه و علیهم علی ما یراه أهل الحدیث،علی أنه ینافی الآیات الکثیره الداله علی کون القرآن عربیا مبینا،و الآمره بالتدبر فیه،و کذا ینافی الروایات الکثیره الآمره بالرجوع إلی القرآن و عرض الأخبار علیه.

بل الإضافه فی قوله:برأیه تفید معنی الاختصاص و الانفراد و الاستقلال بأن یستقل المفسر فی تفسیر القرآن بما عنده من الأسباب فی فهم الکلام العربی،فیقیس کلامه تعالی بکلام الناس فإن قطعه من الکلام من أی متکلم إذا ورد علینا لم نلبث دون أن نعمل فیه القواعد المعموله فی کشف المراد الکلامی و نحکم بذلک:أنه أراد کذا کما نجری علیه فی الأقاریر و الشهادات و غیرهما،کل ذلک لکون بیاننا مبنیا علی ما نعلمه من اللغه و نعهده من مصادیق الکلمات حقیقه و مجازا.

و البیان القرآنی غیر جار هذا المجری علی ما تقدم بیانه فی الأبحاث السابقه بل هو کلام موصول بعضها ببعض فی عین أنه مفصول ینطق بعضه ببعض و یشهد بعضه علی بعض کما قاله علی(ع)فلا یکفی ما یتحصل من آیه واحده بإعمال القواعد المقرره فی العلوم المربوطه فی انکشاف المعنی المراد منها دون أن یتعاهد جمیع الآیات المناسبه لها و یجتهد فی التدبر فیها کما یظهر من قوله تعالی: «أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلاٰفاً کَثِیراً» :النساء-۸۲،و قد مر بیانه فی الکلام علی الإیجاز و غیره.

فالتفسیر بالرأی المنهی عنه أمر راجع إلی طریق الکشف دون المکشوف و بعباره أخری إنما نهی(ع)عن تفهم کلامه علی نحو ما یتفهم به کلام غیره و إن کان هذا النحو من التفهم ربما صادف الواقع،و الدلیل علی ذلک

قوله(ص)فی الروایه الأخری: من تکلم فی القرآن برأیه فأصاب فقد أخطأ-فإن الحکم بالخطإ مع فرض الإصابه-لیس إلا

لكون الخطإ فی الطريق و كذا

قوله(ع)فی حديث العياشی: إن أصاب لم يؤجر.

و يؤيده ما كان عليه الأمر فی زمن النبی ص فإن القرآن لم يكن مؤلفا بعد و لم يكن منه إلا سور أو آيات متفرقه فی أيدی الناس فكان فی تفسير كل قطعه قطعه منه خطر الوقوع فی خلاف المراد.

و المحصل:أن المنهی عنه إنما هو الاستقلال فی تفسير القرآن و اعتماد المفسر علی نفسه من غير رجوع إلی غيره،و لازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه، و هذا الغير لا محاله إما هو الكتاب أو السنه،و كونه هی السنه ينافی القرآن و نفس السنه الآمره بالرجوع إليه و عرض الأخبار عليه،فلا يبقی للرجوع إليه و الاستعداد منه فی تفسير القرآن إلا نفس القرآن.

و من هنا يظهر حال ما فسروا به حديث التفسير بالرأی فقد تشتتوا فی معناه علی أقوال:

أحدها:أن المراد به التفسير من غير حصول العلوم التی يجوز معها التفسير، و هی خمسه عشر علما علی ما أنهاه السيوطی فی الإتقان:اللغه،و النحو،و التصريف، و الاشتقاق،و المعانی،و البيان،و البديع،و القراءه،و أصول الدين،و أصول الفقه، و أسباب النزول و كذا القصص،و الناسخ و المنسوخ،و الفقه،و الأحاديث المبينه لتفسير المجملات و المبهمات،و علم الموهبه،و يعنی بالأخير ما أشار إليه

الحديث النبوی:

من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم.

الثانی:أن المراد به تفسير المتشابه الذی لا يعلمه إلا الله.

الثالث:التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلا و التفسير تبعا فيرد إليه بأی طريق أمكن و إن كان ضعيفا.

الرابع:التفسير بأن مراد الله تعالی كذا علی القطع من غير دليل.

الخامس:التفسير بالاستحسان و الهوی:و هذه الوجوه الخمسه نقلها ابن النقيب علی ما ذكره السيوطی فی الإتقان،و هنا وجوه أخر نتبعها بها.

السادس:أن المراد به هو القول فی مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب

الأوائل من الصحابه و التابعين ففيه تعرض لسخط الله تعالی.

السابع:القول فی القرآن بما یعلم أن الحق غیره،نقلهما ابن الأنباری.

الثامن:أن المراد به القول فی القرآن بغیر علم و تثبت،سواء علم أن الحق خلافه أم لا.

التاسع:هو الأخذ بظاهر القرآن بناء علی أنه لا ظهور له بل یتبع فی مورد الآیه النص الوارد عن المعصوم،و لیس ذلک تفسیرا للآیه بل اتباعا للنص،و یکون التفسیر علی هذا من الشئون الموقوفه علی المعصوم.

العاشر:أنه الأخذ بظاهر القرآن بناء علی أن له ظهورا لا نفهمه بل المتبع فی تفسیر الآیه هو النص عن المعصوم.

فهذه وجوه عشره،و ربما أمکن إرجاع بعضها إلی بعض،و کیف کان فهی وجوه خالیه عن الدلیل،علی أن بعضها ظاهر البطلان أو یظهر بطلانه بما تقدم فی المباحث السابقه،فلا نطیل بالتکرار.

و بالجمله فالمتحصل من الروایات و الآیات التی تؤیدها کقوله تعالی: أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ الآیه،و قوله تعالی: «الَّذِینَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِینَ» :الحجر-۹۱،و قوله تعالی:

«إِنَّ الَّذِینَ یُلْحِدُونَ فِی آیاتِنا لا یَخْفَوْنَ عَلَیْنا أَ فَمَنْ یُلْقی فِی النّارِ خَیْرٌ أَمْ مَنْ یَأْتِی آمِناً یَوْمَ الْقِیامَهِ» XالآیهX:حم السجده-۴۰،و قوله تعالی: «یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ» :النساء-۴۶،و قوله تعالی: «وَ لا تَقْفُ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ» :إسراء-۳۶،إلی غیر ذلک أن النهی فی الروایات إنما هو متوجه إلی الطریق و هو أن یسلک فی تفسیر کلامه تعالی الطریق المسلوک فی تفسیر کلام غیره من المخلوقین.

و لیس اختلاف کلامه تعالی مع کلام غیره فی نحو استعمال الألفاظ و سرد الجمل و إعمال الصناعات اللفظیه فإنما هو کلام عربی روعی فیه جمیع ما یراعی فی کلام عربی و قد قال تعالی: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِیُبَیِّنَ لَهُمْ» :إبراهیم-۴، و قال تعالی: «وَ هذا لِسانٌ عَرَبِیٌّ مُبِینٌ» :النحل-۱۰۳،و قال تعالی: «إِنّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ» :الزخرف-۳.

و إنما الاختلاف من جهه المراد و المصداق الذی ینطبق علیه مفهوم الکلام.

توضیح ذلک أنا من جهه تعلق وجودنا بالطبیعه الجسمانیه و قطوننا المعجل فی الدنیا المادیه ألفنا من کل معنی مصداقه المادی،و اعتدنا بالأجسام و الجسمانیات فإذا سمعنا کلام واحد من الناس الذین هم أمثالنا یحکی عن حال أمر من الأمور و فهمنا منه معناه حملناه علی ما هو المعهود عندنا من المصداق و النظام الحاکم فیه لعلمنا بأنه لا یعنی إلا ذلک لکونه مثلنا لا یشعر إلا بذلک،و عند ذلک یعود النظام الحاکم فی المصداق یحکم فی المفهوم فربما خصص به العام أو عمم به الخاص أو تصرف فی المفهوم بأی تصرف آخر و هو الذی نسمیه بتصرف القرائن العقلیه غیر اللفظیه.

مثال ذلک أنا إذا سمعنا عزیزا من أعزتنا ذا سؤدد و ثروه یقول: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلّٰا عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ ،و تعقلنا مفهوم الکلام و معانی مفرداته حکمنا فی مرحله التطبیق علی المصداق:أن له أبنیه محصوره حصینه تسع شیئا کثیرا من المظروفات فإن الخزانه هکذا تتخذ إذا اتخذت،و أن له فیها مقدارا وفرا من الذهب و الفضه و الورق و الأثاث و الزینه و السلاح،فإن هذه الأمور هی التی یمکن أن تخزن عندنا و تحفظ حفظا،و أما الأرض و السماء و البر و البحر و الکوکب و الإنسان فهی و إن کانت أشیاء لکنها لا تخزن و لا تتراکم،و لذلک نحکم بأن المراد من الشیء بعض من أفراده غیر المحصوره،و کذا من الخزائن قلیل من کثیر فقد عاد النظام الموجود فی المصداق و هو أن کثیرا من الأشیاء لا یخزن،و أن ما یختزن منها إنما یختزن فی بناء حصین مأمون عن الغیله و الغاره أوجب تقییدا عجیبا فی إطلاق مفهوم الشیء و الخزائن.

ثم إذا سمعنا الله تعالی ینزل علی رسوله قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلّٰا عِنْدَنٰا خَزٰائِنُهُ» :الحجر-۲۱،فإن لم یرق أذهاننا عن مستواها الساذج الأولی فسرنا کلامه بعین ما فسرنا به کلام الواحد من الناس مع أنه لا دلیل لنا علی ذلک البته فهو تفسیر بما نراه من غیر علم.

و إن رقت أذهاننا عن ذلک قلیلا،و أذعنا بأنه تعالی لا یخزن المال و خاصه إذا سمعناه تعالی یقول فی ذیل الآیه: وَ مٰا نُنَزِّلُهُ إِلّٰا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ،و یقول أیضا: «وَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْیٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا» :الجاثیه-۵،حکمنا بأن المراد بالشیء الرزق من الخبز و الماء و أن المراد بنزوله نزول المطر لأنا لا نشعر بشیء ینزل من السماء غیر المطر فاختزان کل شیء عند الله ثم نزوله بالقدر کنایه عن اختزان المطر

و نزوله لتهيئه المواد الغذائيه.و هذا أيضا تفسير بما نراه من غير علم إذا لا مستند له إلا أنا لا نعلم شيئا ينزل من السماء غير المطر،و الذى بأيدينا هاهنا عدم العلم دون العلم بالعدم.

و إن تعالينا عن هذا المستوى أيضا و اجتنبنا ما فيه من القول فى القرآن بغير علم و أبقينا الكلام على إطلاقه التام،و حكمنا أن قوله:« وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ ، يبين أمر الخلقه غير أنا لما كنا لا نشك فى أن ما نجده من الأشياء المتجدده بالخلقه كالإنسان و الحيوان و النبات و غيرها لا تنزل من السماء،و إنما تحدث حدوثا فى الأرض حكمنا بأن قوله: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ ،كنايه عن مطاوعه الأشياء فى وجودها لإراده الله تعالى،و أن الإراده بمنزله مخزن يختزن فيه جميع الأشياء المخلوقه و إنما يخرج منه و ينزل من عنده تعالى ما يتعلق به مشيته تعالى،و هذا أيضا كما ترى تفسير للآيه بما نراه من غير علم،إذ لا مستند لنا فيه سوى أنا نجد الأشياء غير نازله من عند الله بالمعنى الذى نعهده من النزول،و لا علم لنا بغيره.

و إذا تأملت ما وصفه الله تعالى فى كتابه من أسماء ذاته و صفاته و أفعاله و ملائكته و كتبه و رسله و القيامه و ما يتعلق بها،و حكم أحكامه و ملاكاتها،و تأملت ما نرومه فى تفسيرها من إعمال القرائن العقليه وجدت أن ذلك كله من قبيل التفسير بالرأى من غير علم، و تحريف لكلمه عن مواضعها.

و قد تقدم فى الفصل الخامس من البحث فى المحكم و المتشابه أن البيانات القرآنيه بالنسبه إلى المعارف الإلهيه كالأمثال أو هى أمثال بالنسبه إلى ممثلاتها.و قد فرقت فى الآيات المتفرقه،و بينت ببيانات مختلفه ليتبين ببعض الآيات ما يمكن أن يختفى معناه فى بعض،و لذلك كان بعضها شاهدا على البعض،و الآيه مفسره للآيه،و لو لا ذلك لاختل أمر المعارف الإلهيه فى حقائقها،و لم يمكن التخلص فى تفسير الآيه من القول بغير علم على ما تقدم بيانه.

و من هنا يظهر:أن التفسير بالرأى كما بيناه لا يخلو عن القول بغير علم كما يشير

الحديث النبوى السابق: من قال فى القرآن بغير علم-فليتبوأ مقعده من النار.

و من هنا يظهر أيضا أن ذلك يؤدى إلى ظهور التنافى بين الآيات القرآنيه من حيث إبطاله الترتيب المعنوى الموجود فى مضامينها فيؤدى إلى وقوع الآيه فى غير

موقعها،و وضع الکلمه فی غیر موضعها.و یلزمها تأویل بعض القرآن أو أکثر آیاتها بصرفها عن ظاهرها کما یتأول المجبره آیات الاختیار و المفوضه آیات القدر،و غالب المذاهب فی الإسلام لا یخلو عن التأول فی الآیات القرآنیه و هی الآیات التی لا یوافق ظاهرها مذهبهم،فیتشبثون فی ذلک بذیل التأویل استنادا إلی القرینه العقلیه،و هو قولهم:إن الظاهر الفلانی قد ثبت خلافه عند العقل فیجب صرف الکلام عنه.

و بالجمله یؤدی ذلک إلی اختلاط الآیات بعضها ببعض ببطلان ترتیبها،و دفع مقاصد بعضها ببعض،و یبطل بذلک المرادان جمیعا إذ لا اختلاف فی القرآن فظهور الاختلاف بین الآیات-بعضها مع بعض-لیس إلا لاختلال الأمر و اختلاط المراد فیهما معا.

و هذا هو الذی ورد التعبیر عنه فی الروایات بضرب بعض القرآن ببعض کما فی الروایات التالیه:

فی الکافی،و تفسیر العیاشی،عن الصادق عن أبیه(ع) قال: ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلا کفر.

و فی المعانی،و المحاسن،مسندا و فی تفسیر العیاشی،عن الصادق(ع): ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلا کفر.

قال الصدوق": سألت ابن الولید عن معنی هذا الحدیث فقال:هو أن تجیب الرجل فی تفسیر آیه بتفسیر آیه أخری.

أقول:ما أجاب به لا یخلو عن إبهام،فإن أراد به الخلط المذکور و ما هو المعمول عند الباحثین فی مناظراتهم من معارضه الآیه بالآیه و تأویل البعض بالتمسک بالبعض فحق،و إن أراد به تفسیر الآیه بالآیه و الاستشهاد بالبعض للبعض فخطأ، و الروایتان التالیتان تدفعانه.

و فی تفسیر النعمانی،بإسناده إلی إسماعیل بن جابر قال سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق(ع)یقول: إن الله تبارک و تعالی بعث محمدا-فختم به الأنبیاء فلا نبی بعده،و أنزل علیه کتابا فختم به الکتب فلا کتاب بعده،أحل فیه حلالا و حرم

حراما،فحلاله حلال إلى يوم القيامه،و حرامه حرام إلى يوم القيامه،فيه شرعكم و خبر من قبلكم و بعدكم،و جعله النبى ص علما باقيا فى أوصيائه، فتركهم الناس و هم الشهداء على أهل كل زمان ،و عدلوا عنهم ثم قتلوهم،و اتبعوا غيرهم ثم أخلصوا لهم الطاعه-حتى عاندوا من أظهر ولايه ولاه الأمر و طلب علومهم، قال الله سبحانه:« وَ نَسُوا حَظًّا مِمّا ذُكِّرُوا بِهِ-وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَهٍ مِنْهُمْ »،و ذلک أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض،و احتجوا بالمنسوخ و هم يظنون أنه الناسخ،و احتجوا بالمتشابه و هم يرون أنه المحکم،و احتجوا بالخاص و هم يقدرون أنه العام،و احتجوا بأول الآيه و ترکوا السبب فى تأويلها،و لم ينظروا إلى ما يفتح الکلام و إلى ما يختمه، و لم يعرفوا موارده و مصادره إذ لم يأخذوه عن أهله-فضلوا و أضلوا.

و اعلموا رحمکم الله:أنه من لم يعرف من کتاب الله عز و جل الناسخ من المنسوخ- و الخاص من العام،و المحکم من المتشابه،و الرخص من العزائم،و المکى و المدنى و أسباب التنزيل،و المبهم من القرآن فى ألفاظه المنقطعه و المؤلفه،و ما فيه من علم القضاء و القدر، و التقديم و التأخير،و المبين و العميق،و الظاهر و الباطن،و الابتداء و الانتهاء،و السؤال و الجواب،و القطع و الوصل،و المستثنى منه و الجار فيه،و الصفه لما قبل مما يدل على ما بعد،و المؤکد منه و المفصل،و عزائمه و رخصه،و مواضع فرائضه و أحکامه، و معنى حلاله و حرامه الذى هلک فيه الملحدون،و الموصول من الألفاظ،و المحمول على ما قبله و على ما بعده فليس بعالم بالقرآن و لا هو من أهله.

و متى ما ادعى معرفه هذه الأقسام مدع بغير دليل-فهو کاذب مرتاب مفتر على الله الکذب و رسوله-و مأواه جهنم و بئس المصير.

و فى نهج البلاغه،و الإحتجاج،قال(ع): ترد على أحدهم القضيه فى حکم من الأحکام-فيحکم فيها برأيه ثم ترد تلک القضيه بعينها على غيره-فيحکم فيها بخلاف قوله -ثم تجتمع القضاه بذلک عند الإمام الذى استقضاهم-فيصوب آراءهم جميعا و إلههم واحد، و نبيهم واحد،و کتابهم واحد-فأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه؟أم نهاهم عنه فعصوه؟أم أنزل الله دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه؟أم کانوا شرکاء فلهم أن يقولوا و عليه أن يرضى؟أم أنزل الله دينا تاما-فقصر الرسول ص عن تبليغه و أدائه؟و الله سبحانه يقول: ما فَرَّطْنا فِى الْکِتابِ مِنْ شَيْءٍ -و فيه تبيان کل شىء،

و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا،و أنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ-لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ،و أن القرآن ظاهره أنيق،و باطنه عميق لا تحصى عجائبه،و لا تنقضى غرائبه،و لا تكشف الظلمات إلا به.

أقول:و الروايه كما ترى ناصه على أن كل نظر دينى يجب أن ينتهى إلى القرآن، و قوله:فيه تبيان،نقل للآيه بالمعنى.

و فى الدر المنثور،و أخرج ابن سعد و ابن الضريس فى فضائله و ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ص خرج على قوم يتراجعون فى القرآن-و هو مغضب فقال:بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم،و ضرب الكتاب بعضه ببعض.قال:و إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا-و لكن نزل يصدق بعضه بعضا،فما عرفتم فاعملوا به،و ما تشابه عليكم فآمنوا به.

و فيه،أيضا و أخرج أحمد من وجه آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده:

سمع رسول الله ص قوما يتدارءون فقال:إنما هلك من كان قبلكم بهذا،ضربوا كتاب الله بعضه ببعض،و إنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا-فلا تكذبوا بعضه ببعض- فما علمتم منه فقولوا،و ما جهلتم فكلوه إلى عالمه.

أقول:و الروايات كما ترى يعد ضرب القرآن بعضه ببعض مقابلا لتصديق بعض القرآن بعضا،و هو الخلط بين الآيات من حيث مقامات معانيها،و الإخلال بترتيب مقاصدها كأخذ المحكم متشابها و المتشابه محكما و نحو ذلك.

فالتكلم فى القرآن بالرأى،و القول فى القرآن بغير علم كما هو موضوع الروايات المنقوله سابقا،و ضرب القرآن بعضه ببعضه كما هو مضمون الروايات المنقوله آنفا يحوم الجميع حول معنى واحد و هو الاستمداد فى تفسير القرآن بغيره.

فإن قلت:لا ريب أن القرآن إنما نزل ليعقله الناس و يفهموه كما قال تعالى: «إِنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنّاسِ» :الزمر-٤١،و قال تعالى: «هٰذا بَيانٌ لِلنّاسِ» :آل عمران-١٣٨،إلى غير ذلك من الآيات،و لا ريب أن مبينه هو الرسول ص كما قال تعالى «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» :النحل-٤٤،و قد بينه للصحابه،ثم أخذ عنهم التابعون فما نقلوه عنه(ص)إلينا فهو بيان نبوى لا يجوز

التجافی و الإغماض عنه بنص القرآن،و ما تکلموا فیه من غیر إسناده إلی النبی ص فهو و إن لم یجر مجری النبویات فی حجیتها لکن القلب إلیه أسکن فإن ما ذکروه فی تفسیر الآیات إما مسموع من النبی ص أو شیء هداهم إلیه الذوق المکتسب من بیانه و تعلیمه(ص)،و کذا ما ذکره تلامذتهم من التابعین و من یتلوهم،و کیف یخفی علیهم معانی القرآن مع تعرقهم فی العربیه،و سعیهم فی تلقیها من مصدر الرساله، و اجتهادهم البالغ فی فقه الدین علی ما یقصه التاریخ من مساعی رجال الدین فی صدر الإسلام.

و من هنا یظهر:أن العدول عن طریقتهم و سنتهم،و الخروج من جماعتهم، و تفسیر آیه من الآیات بما لا یوجد بین أقوالهم و آرائهم بدعه،و السکوت عما سکتوا عنه واجب.

و فی ما نقل عنهم کفایه لمن أراد فهم کتاب الله تعالی،فإنه یبلغ زهاء ألوف من الروایات،و قد ذکر السیوطی أنه أنهاه إلی سبعه عشر ألف روایه عن النبی و عن الصحابه و التابعین.

قلت:قد مر فیما تقدم أن الآیات التی تدعو الناس عامه من کافر أو مؤمن ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه إلی تعقل القرآن و تأمله و التدبر فیه و خاصه قوله تعالی: «أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِیهِ اخْتِلاٰفاً کَثِیراً» :النساء-۸۲تدل دلاله واضحه علی أن المعارف القرآنیه یمکن أن ینالها الباحث بالتدبر و البحث،و یرتفع به ما یتراءی من الاختلاف بین الآیات،و الآیه فی مقام التحدی،و لا معنی لإرجاع فهم معانی الآیات-و المقام هذا المقام-إلی فهم الصحابه و تلامذتهم من التابعین حتی إلی بیان النبی ص فإن ما بینه إما أن یکون معنی یوافق ظاهر الکلام فهو مما یؤدی إلیه اللفظ و لو بعد التدبر و التأمل و البحث،و إما أن یکون معنی لا یوافق الظاهر و لا أن الکلام یؤدی إلیه فهو مما لا یلائم التحدی و لا تتم به الحجه و هو ظاهر.

نعم تفاصیل الأحکام مما لا سبیل إلی تلقیه من غیر بیان النبی ص کما أرجعها القرآن إلیه فی قوله تعالی: «وَ مٰا آتٰاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» :الحشر-۷ و ما فی معناه من الآیات،و کذا تفاصیل القصص و المعاد مثلا.

و من هنـا يظهر أن شأن النبى ص فى هـذا المقام هو التعليم فحسب و التعليم إنما هو هـدايه المعلم الخبير ذهن المتعلم و إرشاده إلى ما يصعب عليه العلم به و الحصول عليه لا ما يمتنع فهمه من غير تعليم،فإنما التعليم تسهيل للطريق و تقريب للمقصد،لا إيجاد للطريق و خلق للمقصد،و المعلم فى تعليمه إنما يروم ترتيب المطالب العلميه و نضدها على نحو يستسهله ذهن المتعلم و يأنس به فلا يقع فى جهد الترتيب و كد التنظيم فيتلف العمر و موهبه القوه أو يشرف على الغلط فى المعرفه.

و هـذا هو الذى يدل عليه أمثال قوله تعالى: «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» XالآيهX:النحل-۴۴،و قوله تعالى: «وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ»:

الجمعه-۲،فـالنبى ص إنما يعلم الناس و يبين لهم ما يـدل عليه القرآن بنفسه، و يبينه الله سـبحانه بكلامه،و يمكن للناس الحصول عليه بالأخره لأنه(ص)يبين لهم معانى لا طريق إلى فهمها من كلام الله تعالى فإن ذلك لا ينطبق البته على مثل قوله تعالى:

«كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» :حم السجده-۳،و قوله تعالى:

«وَ هٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» :النحل-۱۰۳.

على أن الأخبار المتواتره عنه(ص)المتضمنه لوصيته بالتمسك بالقرآن و الأخذ به و عرض الروايات المنقوله عنه(ص)على كتاب الله لا يستقيم معناها إلا مع كون جميع ما نقل عن النبى ص مما يمكن استفادته من الكتاب،و لو توقف ذلك على بيان النبى ص كان من الدور الباطل و هو ظاهر.

على أن مـا ورد به النقـل من كلام الصـحابه مع قطع النظر عن طرقه لا يخلو عن الاختلاف فيمـا بين الصـحابه أنفسـهم بـل عن الاختلاف فيمـا نقـل عن الواحـد منهم على ما لا يخفى على المتتبع المتأمل فى أخبارهم،و القول بأن الواجب حينئـذ أن يختاروا أحـد الأقوال المختلفه المنقوله عنهم فى الآيه،و يجتنب عن خرق إجمـاعهم،و الخروج عن جمـاعتهم مردود بـأنهم أنفسـهم لم يسلكوا هذا الطريق،و لم يستلزموا هذا المنهج و لم يبالوا بالخلاف فيما بينهم فكيف يجب على غيرهم أن يقفوا على ما قالوا به و لم يختصوا بحجيه قولهم على غيرهم و لا بتحريم الخلاف على غيرهم دونهم.

على أن هذا الطريق و هو الاقتصار على ما نقل من مفسرى صدر الإسلام من

الصحابه و التابعين فى معانى الآيات القرآنيه يوجب توقف العلم فى سيره،و بطلان البحث فى أثره كما هو مشهود فى ما بأيدينا من كلمات الأوائل و الكتب المؤلفه فى التفسير فى القرون الأولى من الإسلام،و لم ينقل منهم فى التفسير إلا معان ساذجه بسيطه خاليه عن تعمق البحث و تدقيق النظر فأين ما يشير إليه قوله تعالى: «وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ» :النحل-٨٩من دقائق المعارف فى القرآن؟ و أما استبعاد أن يختفى عليهم معانى القرآن مع ما هم عليه من الفهم و الجد و الاجتهاد فيبطله نفس الخلاف الواقع بينهم فى معانى كثير من الآيات و التناقض الواقع فى الكلمات المنقوله عنهم إذ لا يتصور اختلاف و لا تناقض إلا مع فرض خفاء الحق و اختلاط طريقه بغيره.

فالحق أن الطريق إلى فهم القرآن الكريم غير مسدود،و أن البيان الإلهى و الذكر الحكيم بنفسه هو الطريق الهادى إلى نفسه،أى إنه لا يحتاج فى تبيين مقاصده إلى طريق،فكيف يتصور أن يكون الكتاب الذى عرفه الله تعالى بأنه هدى و أنه نور و أنه تبيان لكل شيء مفتقرا إلى هاد غيره و مستنيرا بنور غيره و مبينا بأمر غيره؟ فإن قلت:

قد صح عن النبى ص أنه قال فى آخر خطبه خطبها: إنى تارك فيكم الثقلين:الثقل الأكبر و الثقل الأصغر:فأما الأكبر فكتاب ربى،و أما الأصغر فعترتى أهل بيتى-فاحفظونى فيهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما رواه الفريقان بطرق متواتره عن جم غفير من أصحاب رسول الله ص عنه،أنهى علماء الحديث عدتهم إلى خمس و ثلاثين صحابيا،و فى بعض الطرق:لن يفترقا حتى يردا على الحوض،و الحديث دال على حجيه قول أهل البيت(ع)فى القرآن و وجوب اتباع ما ورد عنهم فى تفسيره و الاقتصار على ذلك و إلا لزم التفرقه بينهم و بينه.

قلت:ما ذكرناه فى معنى اتباع بيان النبى ص آنفا جار هاهنا بعينه، و الحديث غير مسوق لإبطال حجيه ظاهر القرآن و قصر الحجيه على ظاهر بيان أهل البيت(ع).كيف و هو(ص)يقول:لن يفترقا،فيجعل الحجيه لهما معا فللقرآن الدلاله على معانيه و الكشف عن المعارف الإلهيه،و لأهل البيت الدلاله على الطريق و هدايه الناس إلى أغراضه و مقاصده.

على أن نظير ما ورد عن النبى ص فى دعوه الناس إلى الأخذ بالقرآن و التدبر فيه و عرض ما نقل عنه عليه وارد عن أهل البيت(ع).

على أن جما غفيرا من الروايات التفسيريه الوارده عنهم(ع)مشتمله على الاستدلال بآيه على آيه،و الاستشهاد بمعنى على معنى،و لا يستقيم ذلك إلا بكون المعنى مما يمكن أن يناله المخاطب و يستقل به ذهنه لوروده من طريقه المتعين له.

على أن هاهنا روايات عنهم(ع)تدل على ذلك بالمطابقه كما

رواه فى المحاسن،بإسناده عن أبى لبيد البحرانى عن أبى جعفر(ع)فى حديث قال: فمن زعم أن كتاب الله مبهم فقد هلك و أهلك.

و يقرب منه ما فيه،و فى الإحتجاج،عنه(ع) قال: إذا حدثتكم بشيء-فاسألونى عنه من كتاب الله الحديث.

و بما مر من البيان يجمع بين أمثال هذه الأحاديث الداله على إمكان نيل المعارف القرآنيه منه و عدم احتجابها من العقول و بين ما ظاهره خلافه كما

فى تفسير العياشى، عن جابر قال قال أبو عبد الله(ع): إن للقرآن بطنا و للبطن ظهرا،ثم قال:يا جابر و ليس شيء أبعد من عقول الرجال منه-إن الآيه لتنزل أولها فى شيء-و أوسطها فى شيء و آخرها فى شيء،و هو كلام متصل ينصرف على وجوه ،و هذا المعنى وارد فى عده روايات.و قد رويت الجمله أعنى قوله:و ليس شيء أبعد«إلخ»فى بعضها عن النبى ص،

و قد روى عن على(ع): أن القرآن حمال ذو وجوه الحديث،فالذى ندب إليه تفسيره من طريقه و الذى نهى عنه تفسيره من غير طريقه و قد تبين أن المتعين فى التفسير الاستمداد بالقرآن على فهمه و تفسير الآيه بالآيه و ذلك بالتدرب بالآثار المنقوله عن النبى و أهل بيته صلى الله عليه و عليهم و تهيئه ذوق مكتسب منها ثم الورود، و الله الهادى

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٠ الى ١٨]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً وَ أُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ اَلنّٰارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا فَأَخَذَهُمُ اَللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اَللّٰهُ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلىٰ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ اَلْمِهٰادُ
(١٢) قَدْ كٰانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اِلْتَقَتٰا فِئَةٌ تُقٰاتِلُ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ وَ أُخْرىٰ كٰافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ اَلْعَيْنِ وَ اَللّٰهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشٰاءُ
إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي اَلْأَبْصٰارِ (١٣) زُيِّنَ لِلنّٰاسِ حُبُّ اَلشَّهَوٰاتِ مِنَ اَلنِّسٰاءِ وَ اَلْبَنِينَ وَ اَلْقَنٰاطِيرِ اَلْمُقَنْطَرَةِ مِنَ اَلذَّهَبِ وَ اَلْفِضَّةِ وَ
اَلْخَيْلِ اَلْمُسَوَّمَةِ وَ اَلْأَنْعٰامِ وَ اَلْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتٰاعُ اَلْحَيٰاةِ اَلدُّنْيٰا وَ اَللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ اَلْمَآبِ (١۴) قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اِتَّقَوْا
عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ أَزْوٰاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوٰانٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ (١۵) اَلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنٰا إِنَّنٰا آمَنّٰا فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا وَ قِنٰا عَذٰابَ اَلنّٰارِ (١۶) اَلصّٰابِرِينَ وَ اَلصّٰادِقِينَ وَ اَلْقٰانِتِينَ وَ اَلْمُنْفِقِينَ وَ اَلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحٰارِ (١٧) شَهِدَ
اَللّٰهُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ اَلْمَلاٰئِكَةُ وَ أُولُوا اَلْعِلْمِ قٰائِماً بِالْقِسْطِ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (١٨)

بیان

قـد تقـدم:أن المسـلمین عنـد نزول السوره کـانوا مبتلین فی داخـل جمـاعتهم بالمنافقین و آخرین سـماعین لهم و لما یلقیه إلیهم أعداء الإسلام من النزاعات و الوساوس لتقلیب

ص :۸۸

الأمور عليهم و إفساد دعوتهم،و مبتلين فى خارج جمعهم بثوران الدنيا عليهم و انتهاض المشركين و اليهود و النصارى لإبطال دعوتهم و إخماد نارهم و إطفاء نورهم بأى وسيله أمكنت من لسان أو يد.و أن غرض السوره دعوتهم إلى توحيد الكلمه و إلى الصبر و الثبات ليصلح بذلك أمرهم و ينقطع ما نشأ من الفساد فى داخل جوهم،و ما يطرأ و يهجم عليهم منه من خارجه.

و قد كانت الآيات السابقه أعنى قوله تعالى: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إلى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ تعريضا للمنافقين و الزائقين قلبا و دعوه للمسلمين إلى التثبت فيما فهموه من معارف الدين،و التسليم و الإيمان فيما اشتبه لهم و لم يفتهموه من كنهه و حقيقته بالتنبيه على أن شر ما يفسد أمر الدين و يجر المسلمين إلى الفتنه و اختلال نظام السعاده هو اتباع المتشابهات و ابتغاء التأويل فيتحول بذلك الهدايه الدينيه إلى الغى و الضلال و يتبدل به الاجتماع افتراقا،و الشمل شتاتا.

ثم وقع التعرض فى هذه الآيات لحال الكفار و المشركين و أنهم سيغلبون و ليسوا بمعجزين لله سبحانه و لا ناجحين فى عتوهم بالتنبيه على أن الذى أوجب ضلالهم و الالتباس عليهم هو ما زين لهم من مشتهيات الدنيا فزعموا بما رزقوا من مالها و ولدها أن ذلك مغن لهم من الله سبحانه شيئا و قد أخطئوا فى زعمهم فالله سبحانه هو الغالب فى أمره، و لو كان المال و الأولاد و ما أشبهها مغنيه من الله شيئا لأغنت آل فرعون و من قبلهم من الأمم الظالمه أولى الشوكه و القدره لكنها لم تغن عنهم شيئا و أخذهم الله بذنوبهم فكذلك هؤلاء سيغلبون و يؤخذون فمن الواجب على المؤمنين أن يتقوا الله فى هذه المشتهيات حتى ينالوا بذلك سعاده الدنيا و ثواب الآخره و رضوان ربهم سبحانه.

فالآيات كما تعطيه مضامينها متعرضه لحال الكفار كما أن الآيات التاليه لهذه الآيات متعرضه لحال أهل الكتاب من اليهود و النصارى على ما سيأتى.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَ لاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، أغنى عنه ماله من فلان أى أعطاه الغنى و رفع حاجته فلا حاجه به إليه،و الإنسان فى بادى تكونه و شعوره يرى نفسه محتاجه إلى الخارج منه،و هذا أول علمه الفطرى إلى احتياجه إلى الصانع المدبر ثم إنه لما توسط فى الأسباب و أحس بحوائجه بدأ بإحساس الحاجه إلى كماله البدنى النباتى و هو الغذاء و الولد،ثم عرفت له نفسه سائر الكمالات

الحيوانيه،و هى التى يزينوا له الخيال من زخارف الدنيا من زينه الملبس و المسكن و المنكح و غير ذلك،و عندئذ يتبدل طلب الغذاء إلى طلب المال الذى يظنه مفتاحا لحل جميع مشكلات الحيوه لأن العاده الغالبه تجرى على ذلك فيظن أن سعاده حيوته فى المال و الولد بعد ما كان يظن أن ضامن سعادته هو الغذاء و الولد،ثم انكباب نفسه على مشتهياته،و قصر همه على الأسباب يوجب أن يقف قلبه عند الأسباب،و يعطى لها الاستقلال،و حينئذ ينسى ربه،و يتشبث بذيل المال و الولد،و فى هذا الجهل هلاكه فإنه يستر به آيات ربه و يكفر بها،و قد التبس عليه الأمر فإن ربه هو الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا يستغنى عنه شىء بحال و لا يغنى عنه شىء بحال.

و بهذا البيان يظهر وجه تقديم الأموال على الأولاد فى الآيه فإن الركون إلى المال-و قد عرفت أن الأصل فيه الغذاء-أقدم عند الإنسان من الركون إلى الأولاد و أعرف منه و إن كان حب الولد ربما غلب عند الإنسان على حب المال.

و فى الآيه إيجاز شبيه دفع الدخل،و التقدير:إن الذين كفروا كذبوا بآياتنا و زعموا أن أموالهم و أولادهم تغنيهم من الله،و قد أخطئوا فلا غنى من الله سبحانه فى وقت و لا فى شىء،على ما تدل عليه الآيه التاليه.

قوله تعالى: وَ أُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النّٰارِ ، الوقود بفتح الواو ما توقد به النار و تشتعل، و الآيه جاريه مجرى قوله تعالى: «فَاتَّقُوا النّٰارَ الَّتِي وَقُودُهَا النّٰاسُ وَ الْحِجٰارَةُ» :البقره-۲۴، و قوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» :الأنبياء-۹۸،و قد مر بعض الكلام فى معنى ذلك فى سوره البقره.

و الإتيان بالجمله الاسميه،و الابتداء باسم الإشاره،و كونه دالا على البعد و توسيط ضمير الفصل،و إضافه الوقود إلى النار دون أن يقال وقود،كل ذلك يؤكد ظهور الكلام فى الحصر،و لازمه كون المكذبين من الكفار هم الأصل فى عذاب النار و إيقاد جهنم،و أن غيرهم إنما يحترقون بنارهم،و يتأيد بذلك ما سيأتى بيانه فى قوله تعالى:

«لِيَمِيزَ اللّٰهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ» XالآيهX:الأنفال-۳۷.

قوله تعالى: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إلى آخر الآيه: الدأب على ما ذكروه هو السير المستمر قال تعالى: «وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دٰائِبَيْنِ» :إبراهيم-۳۳

و منه تسميه العاده دأبا لأنه سير مستمر،و هذا المعنى هو المراد فى الآيه.

و قوله: كَدَأْبِ ،متعلق بمقدر يدل عليه قوله فى الآيه السابقه: لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ ، و يفسر الدأب قوله: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا و هو فى موضع الحال،و تقدير الكلام كما مرت إليه الإشاره:إن الذين كفروا كذبوا بآياتنا و استمروا عليها دائبين فزعموا أن فى أموالهم و أولادهم غنى لهم من الله كدأب آل فرعون و من قبلهم و قد كذبوا بآياتنا.

و قوله: فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ ،ظاهر الباء أنها تفيد السببيه،يقال:أخذته بذنبه أى بسبب ذنبه لكن مقتضى المحاذاه التى بين الآيتين،و قياسه حال هؤلاء الذين كفروا فى دأبهم على آل فرعون و الذين من قبلهم فى دأبهم أن يكون البناء للآله، فإنه ذكر فى الذين كفروا أنهم وقود النار تشتعل عليهم أنفسهم و يعذبون بها فكذلك آل فرعون و من قبلهم إنما أخذوا بذنوبهم و كان العذاب الذى حل بساحتهم هو عين الذنوب التى أذنبوها،و كان مكرهم هو الحائق بهم،و ظلمهم عائدا إليهم،قال تعالى:

وَ لاٰ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّٰ بِأَهْلِهِ» :الفاطر-۴۳،و قال تعالى: «وَ مٰا ظَلَمُونٰا وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» :البقره-۵۷.

و من هنا يتبين معنى كونه شديد العقاب،فإن عقابه تعالى لا يقصد الإنسان و لا يتوجه إليه من جهه دون جهه،و فى محل دون محل،و على شرط دون شرط كما أن عقاب غيره كذلك فإن الشر الذى يوجهه إلى الإنسان مثله مثلا إنما يتوجه إليه من بعض الجهات دون بعض كفوق و تحت،و فى بعض الأماكن دون بعض فيدفع بالفرار و التوقى و الالتجاء مثلا و هذا بخلاف عقابه تعالى فإنه يأخذ الإنسان بعمله و ذنبه و هو مع الإنسان فى باطنه و ظاهره من غير أن ينفك عنه،و يجعل الإنسان وقودا لنار أحاط به سرداقها،و لا ينفعه فرار و لا قرار،و لا يوجد منه مناص و لا خلاص،فهو شديد العقاب.

و فى قوله تعالى: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ ،التفات من الغيبه إلى الحضور أولا ثم من الحضور إلى الغيبه ثانيا،أما قوله: كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ففيه تنشيط لذهن السامع و تقريب للخبر إلى الصدق فإنه بمنزله أن يقول القائل:إن فلانا بذى فحاش سيئ المحاضره و قد ابتليت به فيجب الاجتناب عن معاشرته،فجمله و قد ابتليت به

تصحیح للخبر و إثبات لصدقه بإرجاعه إلی الدرایه و نحو من الشهاده.

فالمعنی-و الله أعلم-أن آل فرعون کانوا دائبین علی دأب هؤلاء الذین کفروا فی الکفر و تکذیب الآیات،و لا ریب فی هذا الخبر فإنا کنا حاضرین شاهدین و قد کذبوا بآیاتنا نحن فأخذناهم.

و أما قوله: فَأَخَذَهُمُ اللّهُ ،فهو رجوع بعد استیفاء المقصود إلی الأصل فی الکلام و هو أسلوب الغیبه،و فیه مع ذلک إرجاع الحکم إلی مقام الألوهیه القائمه بجمیع شئون العالم و المهیمنه علی کل ما دق و جل،و لذلک کرر لفظ الجلاله ثانیا فی قوله وَ اللّهُ شَدِیدُ الْعِقابِ ،و لم یقل و هو شدید العقاب للدلاله علی أن کفرهم و تکذیبهم هذا منازعه و محاربه مع من له جلال الألوهیه و یهون علیه أخذ المذنب بذنبه،و هو شدید العقاب لأنه الله جل اسمه.

قوله تعالی: قُلْ لِلَّذِینَ کَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إلی آخر الآیه، الحشر هو إخراج الجماعه عن مقرهم بالإزعاج،و لا یستعمل فی الواحد،قال تعالی: «وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً» :الکهف-۴۷،و المهاد هو الفراش،و ظاهر السیاق أن المراد بالذین کفروا هم المشرکون کما أنه ظاهر الآیه السابقه: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ تُغْنِیَ عَنْهُمْ «إلخ»دون الیهود،و هذا هو الأنسب لاتصال الآیتین حیث تذکر هذه الآیه الغلبه علیهم و حشرهم إلی جهنم و قد أشارت الآیه السابقه إلی تقویهم و تعززهم بالأموال و الأولاد.

قوله تعالی: قَدْ کانَ لَکُمْ آیَهٌ فِی فِئَتَیْنِ الْتَقَتا ،ظاهر السیاق أن یکون الخطاب للذین کفروا،و الکلام من تتمه قول النبی ص: سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ «إلخ»و من الممکن أن یکون خطابا للمؤمنین بدعوتهم إلی الاعتبار و التفکر بما من الله علیهم یوم بدر حیث أیدهم بنصره تأییدا عجیبا بالتصرف فی أبصار العیون،و علی هذا یکون الکلام مشتملا علی نوع من الالتفات بتوسعه خطاب رسول الله ص فی قوله:« قُلْ لِلَّذِینَ »بتوجیهه إلیه و إلی من معه من المؤمنین،لکن السیاق،کما عرفت،للأول أنسب.

و الآیه-بما تشتمل علیه من قصه التقاء الفئتین و نصره تعالی للفئه المقاتله فی سبیل الله-و إن لم تتعرض بتشخیص القصه و تسمیه الوقعه غیر أنها قابله الانطباق علی وقعه بدر،و السوره نازله بعدها بل و بعد أحد.

ص :۹۲

على أن الآيه ظاهره فى أن هـذه القصه كانت معهوده عند المخاطبين بهذه الخصوصـيه و هم على ذكر منها حيث يقول: قَدْ كٰانَ لَكُمْ آيَةٌ «إلـخ»و لم يقص تعالى قصه يذكر فيها التصـرف فى أبصار المقاتلين غير قصه بدر،و الذى ذكره فى قصه بدر فى سوره الأنفـال من قوله تعـالى: «وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللّٰهُ أَمْراً كٰانَ مَفْعُولاً وَ إِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» :الأنفال-۴۴،و إن كـان هو التقليـل دون التكثير لكن لاـ يبعـد أن يكون قـد قلل فيها المؤمنين فى أعين المشـركين ليجترئوا عليهم و لا يتولوا عن المقارعه ثم كثرهم فى أعينهم بعد التلاقى و الاختلاط لينهزموا بذلك.

و كيف كان فالمعتمد ما كان فى ذكرهم من التكثير فى العيون فعلى تقدير أن يكون الخطاب فى الآيه متوجها إلى المشركين لا تنطبق الآيه على غير وقعه بدر،على أن قراءه ترونهم بالتاء أيضا تؤيد ما ذكرناه.

فمحصل معنى الآيه:أنكم أيها المشركون لو كنتم من أولى الأبصار و البصائر لكفاكم فى الاعتبار و الدلاله على أن الغلبه للحق و أن الله يؤيـد بنصره من يشاء و لا يغلب بمال و لا ولـد ما رأيتموه يوم بـدر فقد كان المؤمنون مقاتلين فى سبيل الله سـبحانه،و قد كـانوا فئه قليله مسـتذلين لاـ يبلغون ثلث الفئه الكـافره،و لاـ يقاسون بهم قوه،كانوا ثلاثمائه و ثلاثه عشـر رجلا ليس لهم إلا سـته أدرع و ثمانيه سـيوف و فرسان،و كان جيش المشـركين قريبا من ألف مقاتل لهم من العـده و القوه و الخيل و الجمال و الهيئه ما لا يقـدر بقـدر،فنصـر الله المؤمنين على قلتهم و ذلتهم على أعدائه و كثرهم فى أعينهم فكانوا يرونهم مثليهم رأى العين،و أيدهم الملائكه فلم ينفع المشركين ما كانوا يتعززون به من أموال و أولاد و لم يغنهم جمعهم و لا كثرتهم و قوتهم من الله شيئا.

و قـد ذكر الله سـبحانه دأب آل فرعون و الـذين من قبلهم فى تكـذيب آيات الله و أخـذهم بـذنوبهم فى سوره الأنفال عنـد ذكر القصه مرتين ما ذكره هاهنا بعينه.

و فى موعظتهم بتذكير وقعه بدر إيماء إلى أن المراد بالغلبه فى الآيات السابقه الغلبه بالقتل و الإباده ففى آياته تهديد بالقتال.

قوله تعالى: فِئَةٌ تُقٰاتِلُ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ وَ أُخْرىٰ كٰافِرَةٌ ،لم يقل و أخرى فى سبيل

الشیطان أو فی سبیل الطاغوت و نحو ذلک لأن الکلام غیر مسوق للمقایسه بین السبیلین بل لبیان أن لا غنی من الله تعالی و أن الغلبه له فالمقابله بالحقیقه بین الإیمان بالله و الجهاد فی سبیله و بین الکفر به تعالی.

و الظاهر من السیاق أن الضمیرین فی قوله یَرَوْنَهُمْ مِثْلَیْهِمْ راجعان إلی قوله: فِئَهٌ تُقاتِلُ ،أی الفئه الکافره یرون المؤمنین مثلی المؤمنین فهم یرونهم ستمائه و سته و عشرین و لقد کانوا ثلاثمائه و ثلاثه عشر رجلا،و أما احتمال اختلاف الضمیرین مرجعا بأن یکون المعنی:یرون المؤمنین مثلی عدد الکافرین فبعید عن اللفظ،و هو ظاهر.

و ربما احتمل أن یکون الضمیران راجعین إلی الفئه الکافره،و یکون المعنی:

یری الکافرون أنفسهم مضاعفه مثلی عددهم(یرون الألف ألفین)و لازمه تقلیلهم المؤمنین فی النسبه فکانوا یرونهم سدس أنفسهم عددا مع کونهم ثلثا لهم فی النسبه و ذلک لیطابق ما ذکره فی هذه الآیه قوله تعالی فی قصه بدر: «وَ إِذْ یُرِیکُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَیْتُمْ فِی أَعْیُنِکُمْ قَلِیلاً وَ یُقَلِّلُکُمْ فِی أَعْیُنِهِمْ» :الأنفال-۴۴،فإن الآیه تنافی الآیه.

و أجیب بأن ذلک یؤدی إلی اللبس غیر اللائق بأبلغ الکلام بل کان من اللازم علی هذا أن یقال:یرون أنفسهم مثلیهم أو ما یؤدی ذلک.و أما التنافی بین الآیتین فإنما یتحقق مع اتحاد الموقف و المقام،و لا دلیل علی ذلک لإمکان أن یقلل الله سبحانه کلا من الطائفتین فی عین صاحبتها فی بدء التلاقی لتشد بذلک قلوبهم و تزید جرأتهم حتی إذا نشبت المقارعه و حمی الوطیس رأی الکافرون المؤمنین مثلی عددهم فانهزموا بذلک و ولوا الأدبار،و هذا نظیر قوله تعالی فی وصف یوم القیامه: «لا یُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ» :الرحمن-۳۹،مع قوله: «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ» :الصافات-۲۴، و لیس إلا أن الموقف غیر الموقف.

و فی شأن الضمیرین أعنی فی قوله: یَرَوْنَهُمْ مِثْلَیْهِمْ ،احتمالات أخر ذکروها غیر أن الجمیع تشترک فی کونها خلاف ظاهر اللفظ،و لذلک ترکنا ذکرها،و الله العالم.

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ یُؤَیِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ یَشاءُ،إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَعِبْرَهً لِأُولِی الْأَبْصارِ ، التأیید من الأید و هو القوه،و المراد بالأبصار قیل:هو العیون الظاهریه لکون الآیه مشتمله علی التصرف فی رؤیه العیون،و قیل:هو البصائر لأن العبره إنما تکون

بالبصيره القلبيه دون البصر الظاهرى،و الأمر هين،فإن الله سبحانه فى كلامه يعد من لا يعتبر بالعبر و المثلات أعمى،و يذكر أن العين يجب أن تبصر و تميز الحق من الباطل و فى ذلک دعوى أن الحق الذى يدعو إليه ظاهر متجسد محسوس يجب أن يبصره البصر الظاهر،و أن البصيره و البصر فى مورد المعارف الإلهيه واحد(بنوع من الاستعاره) لنهايه ظهورها و وضوحها،و الآيات فى ذلک كثيره جدا،و من أحسنها دلاله على ما ذكرنا قوله تعالى: «فَإِنَّهٰا لاٰ تَعْمَى الْأَبْصٰارُ وَ لٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» :

الحج-۴۶،أى إن الأبصار إنما هى فى القلوب دون الرءوس،و قوله تعالى: «وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاٰ يُبْصِرُونَ بِهٰا» :الأعراف-۱۷۹،و الآيه فى مقام التعجيب،و قوله تعالى:

وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً» :الجاثيه-۲۳،إلى غير ذلک من الآيات،فالمراد بالأبصار فيما نحن فيه هو العيون الظاهريه بدعوى أنها هى التى تعتبر و تفهم فهو من الاستعاره بالكنايه،و النكته فيه ظهور المعنى كأنه بالغ حد الحس،و يزيد فى لطفه أن المورد يتضمن التصرف فى رؤيه العين الظاهره.

و ظاهر قوله: إِنَّ فِي ذٰلِكَ «إلخ»أنه تتمه لكلامه تعالى الذى يخاطب به النبى ص و ليس تتمه لقول النبى المدلول عليه بقوله: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا «إلخ»،و الدليل عليه الكاف فى قوله: ذٰلِكَ ،فإنه خطاب للنبى ص،و فى هذا العدول إلى الخطاب الخاص بالنبى ص إيماء إلى قله فهمهم و عمى قلوبهم أن يعتبروا بأمثال هذه العبر.

قوله تعالى: زُيِّنَ لِلنّٰاسِ حُبُّ الشَّهَوٰاتِ مِنَ النِّسٰاءِ «إلخ»،الآيه و ما يتلوها بمنزله البيان و شرح حقيقه الحال لما تقدم من قوله تعالى آنفا: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً «إلخ»إذ يظهر منه أنهم يعتقدون الاستغناء بالأموال و الأولاد من الله سبحانه فالآيه تبين أن سبب ذلک أنهم انكبوا على حب هذه المشتهيات و انقطعوا إليها عن ما يهمهم من أمر الآخره،و قد اشتبه عليهم الأمر فإن ذلک متاع الحيوه الدنيا،ليس لها إلا أنها مقدمه لنيل ما عند الله من حسن المآب مع أنهم غير مبدعين فى هذا الحب و الاشتهاء و لا مبتكرون بل مسخرون بالتسخير الإلهى بتغريز أصل هذا الحب فيهم ليتم لهم الحيوه الأرضيه فلو لا ذلک لم يستقم أمر النوع الإنسانى فى حيوته و بقائه بحسب ما قدره الله سبحانه من أمرهم حيث قال:

«وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتٰاعٌ إِلىٰ حِينٍ :البقره-۳۶.

و إنما قدر لهم ذلک لیتخذوها وسیله إلی الدار الآخره و یأخذوا من متاع هذه ما یتمتعون به فی تلک لا لینظروا إلی ما فی الدنیا من زخرفها و زینتها بعین الاستقلال و ینسوا بها ما وراءها،و یأخذوا الطریق مکان المقصد فی عین أنهم سائرون إلی ربهم، قال تعالی: «إِنّٰا جَعَلْنٰا مٰا عَلَی الْأَرْضِ زِینَهً لَهٰا لِنَبْلُوَهُمْ أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ إِنّٰا لَجٰاعِلُونَ مٰا عَلَیْهٰا صَعِیداً جُرُزاً» :الکهف-۸.

إلا أن هؤلاء المغفلین أخذوا هذه الوسائل الظاهره الإلهیه التی هی مقدمات و ذرائع إلی رضوان الله سبحانه أمورا مستقله فی نفسها محبوبه لذاتها و زعموا أنها تغنی عنهم من الله شیئا فصارت نقمه علیهم بعد ما کانت نعمه و وبالا بعد ما کانت مثوبه مقربه.قال تعالی: «إِنَّمٰا مَثَلُ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا کَمٰاءٍ أَنْزَلْنٰاهُ مِنَ السَّمٰاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبٰاتُ الْأَرْضِ مِمّٰا یَأْکُلُ النّٰاسُ وَ الْأَنْعٰامُ حَتّٰی إِذٰا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهٰا وَ ازَّیَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهٰا أَنَّهُمْ قٰادِرُونَ عَلَیْهٰا أَتٰاهٰا أَمْرُنٰا لَیْلاً أَوْ نَهٰاراً فَجَعَلْنٰاهٰا حَصِیداً کَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ Xإلی أن قال:X وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکٰانَکُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَکٰاؤُکُمْ فَزَیَّلْنٰا بَیْنَهُمْ Xإلی أن قال:X وَ رُدُّوا إِلَی اللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا کٰانُوا یَفْتَرُونَ» :یونس-۳۰ تشیر الآیات إلی أمر الحیوه و زینتها بیده تعالی لا ولی لها دونه لکن الإنسان باغتراره بظاهرها یظن أن أمرها إلیه،و أنه قادر علی تدبیرها و تنظیمها فیتخذ لنفسه فیها شرکاء-کالأصنام و ما بمعناها من المال و الولد و غیرهما،إن الله سیوقفه علی زلته فیذهب هذه الزینه،و یزیل الروابط التی بینه و بین شرکائه،و عند ذلک یضل عن الإنسان ما افتراه علی الله من شریک فی التأثیر و یظهر له معنی ما علمه فی الدنیا و حقیقته،و رد إلی الله مولاه الحق.

و هذا التزین أعنی:ظهور الدنیا للإنسان بزینه الاستقلال و جمال الغایه و المقصد لا یستند إلی الله سبحانه فإن الرب العلیم الحکیم أمنع ساحه من أن یدبر خلقه بتدبیر لا یبلغ به غایته الصالحه،و قد قال تعالی: «إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ» :الطلاق-۳،و قال تعالی: «وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ» :یوسف-۲۱،بل إن استند فإنما یستند إلی الشیطان قال تعالی: «وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ» :الأنعام-۴۳،و قال تعالی: «وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ» :الأنفال-۴۸.

نعم لله سبحانه الإذن فی ذلک لیتم أمر الفتنه،و تستقیم التربیه کما قال تعالی:

«أَ حَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ :العنكبوت-۴،و على هذا الإذن يمكن أن يحمل قوله تعالى:

«كَذلِكَ زَيَّنّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ :الأنعام-۱۰۸،و إن أمكن أيضا أن يحمل على ما مر من معنى التزيين المنسوب إليه تعالى فى قوله تعالى: «إِنّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً :الكهف-۷.

و بالجمله التزيين تزيينان:تزيين للتوسل بالدنيا إلى الآخره و ابتغاء مرضاته فى مواقف الحياه المتنوعه بالأعمال المختلفه المتعلقه بالمال و الجاه و الأولاد و النفوس،و هو سلوك إلهى حسن،نسبه الله تعالى إلى نفسه كما مر من قوله: إِنّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها الآيات،و كقوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ» :الأعراف-۳۲.

و تزيين لجلب القلوب و إيقافها على الزينه و إلهائها عن ذكر الله و هو تصرف شيطانى مذموم،نسبه الله سبحانه إلى الشيطان،و حذر عباده عنه كما مر من قوله تعالى:« وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» الآيه،و قوله تعالى فيما يحكيه من قول الشيطان: «قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» :الحجر-۳۹، و قوله تعالى: زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ» :التوبه-۳۷،إلى غير ذلك من الآيات.

و هذا القسم ربما نسب إليه تعالى من حيث إن الشيطان و كل سبب من أسباب الخير أو الشر إنما يعمل ما يعمل و يتصرف فى ملكه ما يتصرف بإذنه لينفذ ما أراده و شاءه،و ينتظم بذلك أمر الصنع و الإيجاد،و يفوز الفائزون بحسن إرادتهم و اختيارهم،و يمتاز المجرمون.

و بما مر من البيان يظهر أن المراد من فاعل التزيين المبهم فى قوله: زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ «إلخ»ليس هو الله سبحانه فإن التزيين المذكور و إن كان له نسبه إليه تعالى سواء كان تزيينا صالحا لأن يدعو إلى عبادته تعالى و هو المنسوب إليه بالاستقامه أو تزيينا ملهيا عن ذكره تعالى و هو المنسوب إليه بالإذن،لكن لاشتمال الآيه على ما

لا ینسب إلیه مستقیما کما یجیء بیانه کان الألیق بأدب القرآن أن ینسب إلی غیره تعالی کالشیطان أو النفس.

و من هنا یظهر صحه ما ذکره بعض المفسرین:أن فاعل زین هو الشیطان لأن حب الشهوات أمر مذموم،و کذا حب کثره المال مذموم،و قد خص تعالی بنفسه ما ذکره فی آخر الآیه و فی ما یتلوها.

و یظهر به فساد ما ذکره بعضهم:أن الکلام فی طبیعه البشر و الحب الناشئ فیها و مثله لا یسند إلی الشیطان بحال و إنما یسند إلیه ما هو قبیل الوسوسه التی تزین للإنسان عملا قبیحا.

قال:و لذلک لم یسند إلیه القرآن إلا تزیین الأعمال،قال تعالی:« وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ » ،و قال« وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ ما کانُوا یَعْمَلُونَ »،و أما الحقائق و طبائع الأشیاء فلا تسند إلا إلی الخالق الحکیم الذی لا شریک له،قال عز و جل:

« إِنّا جَعَلْنا ما عَلَی الْأَرْضِ زِینَهً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَیُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً »و قال: کَذلِکَ زَیَّنّا لِکُلِّ أُمَّهٍ عَمَلَهُمْ »فالکلام فی الأمم کلام فی طبائع الاجتماع،انتهی.

وجه الفساد:أنه و إن أصاب فی قوله:إن الحقائق و طبائع الأشیاء لا تسند إلا إلی الخالق الحکیم الذی لا شریک له لکنه أخطأ فی قوله:إن الکلام فی طبیعه البشر و ما ینشأ منها بحسب الطبع،و ذلک أن السوره کما علمت فی مقام بیان أن الله سبحانه هو القیوم علی خلقه فی جمیع ما هم علیه من الخلق و التدبیر و الإیمان و الکفر و الإطاعه و العصیان،خلق الخلق و هداهم إلی سعادتهم،و أن الذین نافقوا فی دینه من المنافقین أو کفروا بآیاته من الکافرین أو بغوا بالاختلاف فی کتابه من أهل الکتاب،و بالجمله الذین أطاعوا الشیطان و اتبعوا الهوی لیسوا بمعجزین لله غالبین علیه مفسدین لقیمومته بل الجمیع راجع إلی قدره و تدبیره أمر خلقه فی تحکیم ناموس الأسباب لتقوم بذلک سنه الامتحان فهو الخالق للطبائع و قواها و میولها و أفعالها لتسلک بها إلی جوار ربها جوار القرب و الکرامه،و هو الذی أذن لإبلیس و لم یمنعه من الوسوسه و النزعه و لم یمنع الإنسان من اتباعه باتباع الهوی لیتم أمر الامتحان و لیعلم الله الذین آمنوا و یتخذ منهم شهداء، و إنما بین ذلک فی هذه السوره لیتسلی بذلک نفوس المؤمنین،و یطیب بذلک قلوبهم بما هم علیه عند نزول السوره من العسره و الشده و الابتلاء من الداخل بنفاق المنافقین و جهاله

الـذين فی قلوبهم مرض بإفسـاد الأـمور و تقليبها عليهم،و التقصـير فی طاعه الله و رسوله، و من الخارج بالـدعوه الشاقه الـدينيه،و وثوب الكفـار من العرب عليهم من جـانب،و أهل الكتاب و اليهود منهم خاصه من جانب آخر،و تهديـد الكفار كالروم و العجم بالقوه و العـده من جانب آخر،و هؤلاء الكافرون و من يحـذو حـذوهم اشـتبه عليهم الأمر فی الركون إلی الدنيا و زخارفها حيث أخذوها غايه و هی مقدمه و الغايه أمامها.

فـالسوره كمـا تری تبحث عن طبـائع الأـمم لكن بنحو وسـيع يشـمل جهات خلقهم و تكوينهم و جميع ما يتعقب ذلك فی مسـير حيـوتهم من الخصائـل و أعمـال السـعاده و الشـقاوه و الطـاعه و المعصـيه فتـبين أن ذلـك كله تحت قيمومته تعـالی لاـ يقهر فی قـدرته،و لاـ يغلب فی أمره لاـ فی الـدنيا و لا فی الآخره أما فی الـدنيا فإنما هو إذن و امتحان،و أما فی الآخره فإنما هو الجزاء إن خيرا فخير و إن شرا فشر.

و كذلك الآيات أعنی قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إلی تمام تسع آيات فی مقام بيان أن الكفار و إن كذبوا آيات ربهم و بدلوا نعم الله التی أنعمها عليهم ليتوسـلوا بها إلی رضوانه و جنته فركنوا و اعتمدوا عليها و استغنوا بها عن ربهم،و نسوا مقـامه ليسوا بمعجزين و لاـ غـالبين فسـيأخذهم الله بنفس أعمـالهم،و يؤيـد عباده المؤمنين عليهم و سيحشـرهم إلی جهنم و بئس المهـاد،و هم مع ذلـك غـالطون فی الركون إلی ما ليس إلا متاعا فی الحياه الـدنيا و عنـد الله حسن المآب،فالآيات أيضا تبحث عن طبيعه الكفار لكن بنحو وسيع يشمل الصالح و الطالح من أعمالهم.

علی أن الآيه التی ذكرها هـذا القائل مستشـهدا بها علی أن الحقائق لا تسـند إلا إلی الله و إنما يسـند إلی الشـيطان الأعمال أعنی قوله تعالی:« كَذلِكَ زَيَّنّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ »يـدل بما حف عليه من القرائن علی خلاف ذلك و يؤيـد ما ذكرناه و هو قوله تعالی: «وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّوا اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلی رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» :الأنعام-١٠٨،و هو ظاهر.

و كذا يظهر فساد ما ذكره بعضـهم:أن التزيين علی قسـمين محمود و مذموم و الأعمال نوعان حسـنه و سـيئه،و إنما يسـند إلی الله سبحانه ما هو منها محمود ممدوح حسن،و الباقی للشيطان

و هو و إن كان حقا من وجه و لكنه إنما يصح فى النسبه المستقيمه التى يعبر عنه بالفعل و نحوه فالله سبحانه لا يفعل إلا الجميل،و لا يأمر بالسوء و الفحشاء،و أما النسبه غير المستقيمه و بالواسطه التى يعبر عنه بالإذن و نحوه فلا مانع عنها،و لو لا ذلك لم يستقم ربوبيته لكل شيء،و خلقه لكل شيء،و ملكه لكل شيء،و انتفاء الشريك عنه على الإطلاق،و القرآن مشحون من هذه النسبه كقوله تعالى: «يُضِلُّ مَنْ يَشٰاءُ» :الرعد-٢٧، و قوله: «أَزٰاغَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ» :الصف-٥،و قوله: «اللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيٰانِهِمْ» :البقره-١٥،و قوله: «أَمَرْنٰا مُتْرَفِيهٰا فَفَسَقُوا» :الإسراء-١۶،إلى غير ذلك من الآيات، و لم ينشأ خطؤهم هذا إلا من جهه ما قصروا فى البحث عن روابط الأشياء و آثارها و أفعالها فحسبوا كل واحد من هذه الأمور الموجوده أمرا مستقل الوجود منقطع الذات عما يحتف به من مجموعه الأشياء و قبيل المصنوعات و ما يتقدم عليها و ما يتأخر عنها.

و لزم ذلك أن يضعوا الحوادث التى هى نتائج تفاعل الأسباب و العلل على ما فطرها الله عليه فى مسير السببيه متقطعه متفرقه غير متصله و لا مرتبطه فكانت كل حادثه حدثت عن أسبابها و كل فعل فعله فاعله منقطع الوجود عن غيره مملوكا لصاحبه ليس لغير سببه المتصل به فيه نصيب و لا فى حدوثه حظ،فأجرام تدور،و بحر تسرى و فلك تجرى،و أرض تقل،و نبات ينبت،و حيوان يدب،و إنسان يعيش و يكدح لا التيام روحى معنوى يجمعها و لا وحده جسميه من الماده و قوتها:توحدها.

ثم تعقب ذلك أن يظنوا نظير هذا الانفصال و التلاشى بين عناوين الأعمال و صور الأفعال من خير و شر،و سعاده و شقاوه،و هدى و ضلال،و طاعه و معصيه و إحسان و إساءه،و عدل و ظلم،و غير ذلك فكانت غير مرتبطه الوجود و لا متشابكه التحقق.

و قد ذهلوا عن أن هذا العالم بما يشتمل عليه من أعيان الموجودات و أنواع المخلوقات مرتبط الأجزاء متلائم الأبعاض،يتبدل جزء منه إلى جزء،و يتحول بعضه إلى بعض ،فيوما إنسان،و يوما نبات،و يوما جماد،و يوما جمع،و يوما فرق،و حيوه البعض بعينها ممات الآخر،و كون الجديد منه فساد للقديم بعينه.

و كذلك الحوادث الجاريه مرتبطه ارتباط حلقات السلسله أى وضع فرض لواحده منها مؤثر فى أوضاع ما يقارنها و ما يتقدمها إلى أقدم العهود المفروضه للعالم

الطبيعی کالسلسله التی تنجر بجر الحلقه منها جميع الحلقات و هو السلسله فأدنی تغير مفروض فی ذره من ذرأت هذا العالم يوجب تغير الحال فی الجميع،و إن عزب عن علمنا و إدراکنا أو خفی عن إحساسنا فعدم العلم لا يستلزم عدم الوجود،فهذا مما بينت فی الأبحاث العلميه منذ القديم،و أوضحته الأبحاث الطبيعيه و الرياضيه اليوم أتم إيضاح، و لقد کان القرآن ينبئنا بذلک أحسن الإنباء قبل أن نأخذ فی هذه الأبحاث من فلسفيها و طبيعيها و رياضيها بالنقل عن کتب الآخرين ثم بالاستقلال فی البحث،و ذلک بما يذکر من اتصال التدبير فی الآيات السماويه و الأرضيه،و ارتباط ما بينها،و نفع بعضها فی بعض،و اشتراک الجميع فی إقامه غرض الخلقه،و نفوذ القدر فی جميعها و السلوک إلی المعاد،و أن إلی ربک المنتهی.

و کذلک أوصاف الأفعال و عناوين الأعمال مرتبطه الأطراف کارتباط الأمور المتقابله المتعانده فلو لا أحد المتعاندين لم يستقم أمر الآخر کما نشاهده من أمر الصنع و الإيجاد أن تکون شیء ما يحتاج إلی فساد آخر،و سبق أمر يتوقف علی لحوق آخر.

و لو لم يتحقق أحد الطرفين من أوصاف الأعمال لم يستقم أمر الآخر فی آثاره المطلوبه منه فی الاجتماع الإنسانی الطبيعی،و لا فی الاجتماع الإلهی الذی هو الدين الحق، فإن الإطاعه مثلا حسنه لأن المعصيه سيئه،و الحسنه موجبه للثواب،لأن السيئه موجبه للعقاب،و الثواب لذيذ للعامل لأن العقاب مولم له،و اللذه سعاده مرغوب فيها لأن الألم شقاوه مهروب عنها،و السعاده هی التی يتوجه وجوده بحسب الخلقه إليها و الشقاوه هی التی يتوجه عنها،و لو لا هذه الحرکه الوجوديه لبطل الوجود.

فالإطاعه ثم الحسنه ثم الثواب ثم اللذه ثم السعاده هی بحيال المعصيه فالعقاب فالألم فالشقاء و إنما يظهر کل منها بخفاء ما يقابله و يحيی بموته،و کيف يمکن أن تقع دعوه إلی شیء من غير تحذير عما يخالفه؟و کيف يمکن أن يکون خلافه ممکنا دون أن يکون واقعا بما يدعو إليه من الأغراض و الميول؟.

فقد تبين من ما ذکرناه:أن الواجب فی الحکمه أن يشتمل هذا العالم علی الفساد کما يشتمل علی الصلاح و علی المعصيه کما يشتمل علی الطاعه علی ما قدره الله فی نظام صنعه و خلقه غير أن الکون و الفساد فی غير الأعمال و أوصافها ينسبان إلی الله سبحانه لأن الخلق

و الأمر له.لا شريک له و قبيل السعاده من الأعمال تنسب إليه بالهدايه نسبه مستقيمه و قبيل الشقاوه منها کوسوسه الشيطان و تسليط الهوی علی الإنسان و تأمير الظالمين علی الناس و نحو ذلک ينسب إليه تعالی بالإضلال و الإخزاء و الخذلان و نحوها نسبه غير مستقيمه،و هی التی يعبر عنها بالإذن فيقال:إنه تعالی أذن للشيطان أن ينزع بالوسوسه و التسويل،و لم يمنع الإنسان أن يتبع الهوی،و لم يضرب بين الظالم و ما يريده من الظلم بحجاب لأن السعاده و الشقاوه مبنيتان علی الاختيار،فمن سعد فباختياره،و من شقی فباختياره،و لو لا ذلک لم تتم الحجه،و لم تجر سنه الاختيار و الامتحان.

و لم يمنع هؤلاء الباحثين عن الاسترسال فی هذه المباحث إلا استيحاشهم من وخيم نتائجها بزعمهم،فأما المجبره منهم فزعموا أن لو قالوا بارتباط الأشياء و ضروره تأثير الأسباب و اعترفوا بذلک لزمهم الإيجاب فی جانب الصانع تعالی و سلب قدرته المطلقه علی التصرف فی مصنوعاته.

و أما غيرهم فزعموا أن لو أذعنوا بذلک فی مرحله الأعمال و أسندوها إلی إرادته و قدره تعالی لزمهم القول بالإيجاب و الإجبار فی جانب المصنوع و هو الإنسان،و ببطلان الاختيار يبطل الثواب و العقاب،و التکليف و التشريع.

مع أنهم کان يسعهم أن يستأنسوا من غير استيحاش بکلامه تعالی حيث يقول:

«وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ» :يوسف-٢١ و يقول: «أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» :الأعراف-٥۴ و يقول: «لِلّٰهِ مٰا فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» :يونس-۵۵،علی أنها و ما يماثلها آيات تعطی البرهان فی ذلک،و قد تقدمت نبذه من هذا البحث فی الکلام علی قوله تعالی «إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحْيِی أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً» :البقره-٢۶.

و لنرجع إلی ما کنا فيه من الکلام فی قوله تعالی: زُيِّنَ لِلنّٰاسِ حُبُّ الشَّهَوٰاتِ فنقول:الظاهر أن فاعل زين غيره تعالی و هو الشيطان أو النفس:أما أولا فلأن المقام مقام ذم الکفار برکونهم إلی هذه المشتهيات من المال و الأولاد و استغنائهم بتزينها لهم عن الله سبحانه،و الأليق بمثل هذه الزينه الصارفه عن الله الشاغله عن ذکره أن لا ينسب إليه تعالی.

و أما ثانيا:فلأنه لو کان هذا هو التزيين المنسوب إليه تعالی لکان المراد به الميل

الغريزى الذى للإنسان إلى هذه الأمور فكان الأنسب فى التعبير أن يقال:زين للإنسان أو لبنى آدم و نحوها كقوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِی أَحْسَنِ تَقْوِیمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِینَ» :التین-۵،و قوله تعالى: «وَ لَقَدْ کَرَّمْنَا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ XالآيهX:الأسرى-۷۰،و أما لفظ الناس فالأعرف منه أن يستعمل فى الموارد التى فيها شىء من إلغاء الميز أو حقاره الشخص و دناءه الفكر نحو قوله: «فَأَبَى أَکْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ کُفُوراً» :الأسرى-۸۹،و قوله: «یَا أَیُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثَى» :الحجرات-۱۳ و غير ذلک.

و أما ثالثا:فلأن الأمور التى عدها تعالى بيانا لهذه الشهوات لا تناسب التزيين الفطرى إذ كان الأنسب عليه أن يبدل لفظ النساء بما يؤدى معنى مطلق الزوجيه، و لفظ البنين بالأولاد،و لفظ القناطير المقنطره،بالأموال فإن الحب الطبيعى موجود فى النساء بالنسبه إلى الرجال كما هو موجود فى الرجال بالنسبه إلى النساء،و كذا هو مغروز فى الإنسان بالنسبه إلى مطلق الأولاد و مطلق الأموال دون خصوص البنين و خصوص القناطير المقنطره،و لذلک اضطر القائل بكون فاعل زين هو الله سبحانه أن يقول:إن المراد حب مطلق الزوجيه و مطلق الأولاد و مطلق الأموال و إنما ذكرت النساء و البنين و القناطير لكونها أقوى الأفراد و أعرفها ثم تكلف فى بيان ذلک بما لا موجب له.

و أما رابعا:فلأن كون التزيين هو المنسوب إلى الله سبحانه لا يلائم قوله تعالى فى آخر الآيه: ذٰلِکَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَ أُنَبِّئُکُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِکُمْ ،فإن ظاهره أنه كلام موضوع لصرفهم عن هذه الشهوات الدنيويه و توجيه نفوسهم إلى ما عند الله من الجنان و الأزواج و الرضوان،و لا معنى للصرف عن المقدمه إلى ذى المقدمه فإن فى ذلک مناقضه ظاهره و إبطالا للأمرين معا كالذى يريد الشبع و يمتنع عن الأكل.

فإن قلت:الآيه أعنى قوله: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوٰاتِ «إلخ»بحسب الملخص من معناها مساوقه لقوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَةَ اللّٰهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّیِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیَا خَالِصَةً یَوْمَ الْقِیَامَةِ»: الأعراف-۳۲، و لازم انطباق المعنى أن يكون فاعل التزيين فى هذه الآيه أيضا هو الله سبحانه.

قلت:بین الآیتین فرق من حیث المقام:فإن المقام فیما نحن فیه:مقام ذم هذه الشهوات المحبوبه للناس لصرفها و إلهائها الناس عما لهم عند الله،و حثهم علی الإعراض عنها و التوجه إلی ما عند الله سبحانه بخلاف تلک الآیه فإنها مسوقه لبیان أن هذه النعم زینت للإنسان و أنها للمؤمنین فی هذه الدنیا بالاشتراک فی الدنیا و بالاختصاص فی الآخره، و لذلک بدل لفظ الناس هناک بلفظ العباد.و عدت هذه الزینه رزقا طیبا.

و إن قلت:إن التزیین علق فی الآیه علی حب الشهوات دون نفس الشهوات،و من المعلوم أن تزیین الحب للإنسان و جذبه لنفسه و جلبه لقلبه أمر طبیعی و خاصه ذاتیه له فیئول معنی تزیین الحب للناس إلی جعل الحب مؤثرا فی قلوبهم أی خلق الحب فی قلوبهم، و لا ینسب الخلق إلا إلی الله سبحانه فهو الفاعل فی قوله:زین.

قلت:لازم ما ذکرناه من القرائن أن یکون المراد بتزیین الحب جعل الحب بحیث یجذب الناس إلی نفسه و یصدهم عن غیره فإن الزینه هی الأمر المطلوب الجالب الذی ینضم إلی غیره لیجلب الإنسان إلی ذلک الغیر بتبع جلبه إلی نفسه کما أن المرأه تتزین بضم أمور تستصحب الحسن و الجمال إلی نفسها لیقصدها الرجل بها فالمقصود هو بالحقیقه تلک الأمور و المنتفع من هذا القصد هی المرأه،و بالجمله فیئول معنی تزیین الحب للناس إلی جعله فی أعینهم بحیث یؤدی إلی التوله فیه و الولوع فی الاشتغال به لا أصل تأثیر الحب کما هو الظاهر من معنی قوله تعالی: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضٰاعُوا الصَّلاٰهَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَوٰاتِ فَسَوْفَ یَلْقَوْنَ غَیًّا» :مریم-۵۹،و یؤید هذا المعنی ما سیأتی من الکلام فی العد الواقع فی قوله: مِنَ النِّسٰاءِ وَ الْبَنِینَ وَ الْقَنٰاطِیرِ ،علی أن لفظ الشهوات ربما لم یخل عن الدلاله بالشغف و الولوع و إن کان بمعنی المشتهیات.

قوله تعالی: مِنَ النِّسٰاءِ وَ الْبَنِینَ وَ الْقَنٰاطِیرِ الْمُقَنْطَرَهِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّهِ «إلخ»، النساء جمع لا واحد له من لفظه،و البنین جمع ابن و هو ذکور الأولاد بواسطه أو بلا واسطه،و القناطیر جمع قنطار و هو ملء مسک ذهبا أو هو المسک المملوء،و المقنطره اسم مفعول مشتق من القنطار و هو جامد،و هذا من دأبهم یعتبرون فی الجوامد شیئا من النسب یکسب بها معنی مصدریا ثم یشتقون منه المشتقات کالباقل و التامر و العطار لبائع البقل و التمر و العطر،و فائده توصیف الشیء بالوصف المأخوذ من لفظه تثبیت معناه له،و التلمیح إلی أنه واجد لمعنی لفظه غیر فاقده کما یقال:دنانیر مدنره و دواوین

مدونه،و يقال:حجاب محجوب و ستر مستور،و الخيل :هو الأفراس،و المسومه مأخوذه من سامت الإبل سوما بمعنى ذهبت لترعى فهى سائمه،أو من سمت الإبل فى المرعى و أسمتها و سومتها بمعنى أعلمتها.فالخيل المسومه إما المرسله للرعى أو المعلمه، و الأنعام جمع نعم بفتحتين و هو الإبل و البقر و الغنم،و البهائم أعم منه و يطلق على غير الوحش و الطير و الحشرات،و الحرث هو الزرع و فيه معنى الكسب و هو تربيه النبات أو النبات المربى للانتفاع به فى المعاش.

و بناء التعداد فى الآيه ليس على تكثر حب الشهوات بحسب تكثر المشتهيات أعنى متعلقات الشهوه بمعنى أن الإنسان بحسب طبعه يميل إلى الأزواج و الأولاد و المال حتى يتكلف فى توجيه التعبيرات الواقعه فى الآيه كالتعبير عن الإنسان بالناس و التعبير عن الأولاد بخصوص البنين،و التعبير عن المال بالقناطير المقنطره«إلخ»بما تكلف به جمع من المفسرين.

بل على كون الناس أصنافا فى الشغف و الولوع بمشتهيات الدنيا فمن شهوانى لا هم له إلا التعشق بالنساء و غرامهن و التقرب إليهن و الأنس بصحبتهن،و يستصحب ذلك أذنابا من وجوه الفساد و معاصى الله سبحانه كاتخاذ المعازف و الأغانى و شرب المسكرات و أمور أخر غيرهما،و هذا مما يختص بالرجال عاده،و لا يوجد فى النساء إلا فى غايه الشذوذ،و من محب للبنين و التكاثر و التقوى بهم كما يوجد غالبا فى أهل البدو،و يختص أيضا بالبنين دون البنات،و من مغرم بالمال أكبر همه أن يقنطر القناطير،و يملأ المخازن من وجوه النقد،و ظهور هذا الجنون أيضا فى جمع المال إنما هو فى وجوه النقد من الذهب و الفضه أو ما يتقوم بهما دون أمثال الأثاث إلا أن يراد لأجلهما بوجه،و يوجد غالبا فى الحاضر دون البادى،أو أن المختار عنده اتخاذ الخيل المسومه كالمغرمين بالفروسه و أمثالهم أو اتخاذ الماشيه من الأنعام،أو يستحب الحرث،و ربما يجتمع البعض من هذه الثلاثه الأخيره مع البعض و ربما تفترق.

و هذه أقسام الشهوات التى ينسل الناس إليها صنفا صنفا بالتعلق بواحد منها و جعله أصلا فى اقتناء مزايا الحيوه،و جعل غيره فرعا مقصودا بالقصد الثانى،و قلما يوجد(أو لا يوجد أصلا)فى الناس من ساوى بين جميعها ،و قصد الجميع قصدا أولا معتدلا.

و أما مثل الجاه و المقام و الصداره و نحوها فهى جميعا أمور وهميه بالحقيقه إنما

تتعلق الرغبه إليها بالقصد الثانى لا يعد الالتذاذ بها التذاذا شهويا،على أن الآيه ليست فى مقام حصر الشهوات.

و من هنا يتأيد ما تقدمت الإشاره إليه من أن المراد بحب الشهوات التوغل و الانغمار فى حبها(و هو المنسوب إلى الشيطان)دون أصل الحب المودع فى الفطره (و هو المنسوب إلى الله سبحانه).

قوله تعالى: ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ،أى هذه الشهوات أمور يتمتع بها لإقامه هذه الحيوه التى هى أقرب الحياتين منكم(و هما الحيوه الدنيا و الحيوه الأخرى)،و الحيوه الدنيا و كذا المتاع الذى يتمتع به لها أمر فان داثر ليس لها عاقبه باقيه صالحه،و صلاح العقبى و حسن المآب إنما هو عند الله سبحانه و هو قوله تعالى:

وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ

.

قوله تعالى: قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ إلى آخر الآيه،الآيه مسوقه لبيان قوله: وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ و قد وضع فيها محل هذه الشهوات الفانيه الباطله أمور هى خير للإنسان لكونها باقيه و حسنه حقيقه من غير بطلان،و هى أمور مجانسه لهذه الشهوات فى ما يريده الإنسان من خواصها و آثارها غير أنها خاليه عن القبح و الفساد غير صارفه للإنسان عن ما هو خير منها،و هى الجنه و مطهرات الأزواج و رضوان الله تعالى.

و قد اختصت الأزواج بالذكر مع كون ذكر الجنه كالمشتمل عليها لكون الوقاع أعظم اللذائذ الجسميه عند الإنسان،و لذلك أيضا قدم ذكر النساء فى قوله: مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ «إلخ».

و أما الرضوان بكسر الراء و ضمها فهو الرضا و هو أن يلائم الأمر الواقع نفس صاحبه من غير أن يمتنع منه و يدافعه،و يقابله السخط.

و قد تكرر فى القرآن ذكر رضى الله سبحانه،و هو منه تعالى كما يتصور بالنسبه إلى فعل عباده فى باب الطاعه كذلك يتصور بالنسبه إلى غير باب الطاعه كالأوصاف و الأحوال و غير ذلك إلا أن جل الموارد التى ذكر فيها أو كلها من قبيل الرضا بالطاعه، و لذلك ربما قوبل بينه و بين رضا العبد فرضاه عن عبده لطاعته،و رضى العبد عنه

لجزائه الحسن أو لحكمه كقوله تعـالی: «رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ :الـبینه-۸، و قوله تعـالی: «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّهُ ارْجِعِی إِلى رَبِّكِ راضِيَهً مَرْضِيَّهً» :الفجر-۲۸، و قوله تعالی: «وَ السّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ X «Xالآیه X:البراءه-۱۰۰.

و ذکر الرضوان هاهنـا أعنی فی عـداد ما هو خیر للناس من مشـتهیات الحیوه الـدنیا یـدل علی أنه نفسه من مشـتهیات الإنسان أو یستلزم أمرا هو کذلک عنی بذکره فی مقابل الجنات و الأزواج فی هذه الآیه ،و کذا فی مقابل الفضل و الرحمه فی قوله: «فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً» :المائده-۲،و قوله: «وَ مَغْفِرَهٌ مِنَ اللّهِ وَ رِضْوانٌ» :الحدید-۲۹،و قوله: «بِرَحْمَهٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ» :البراءه-۲۱.

و لعل الـذی یکشف عن هـذا الذی أبهمته هذه الآیه هو التدبر فی المعنی الذی ذکرناه و فی قوله تعالی: رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ الآیه و قوله: راضِيَهً مَرْضِيَّهً الآـیه حیث علق رضاه بأنفسـهم،و الرضا عن أنفسـهم غیر الرضا عن أفعالهم فیعود المعنی إلی أنه لا یمنعهم عن نفسه فیما یسألونه فیئول إلی معنی قوله «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها» :ق-۳۵،ففی رضوان الله عن الإنسان المشیه المطلقه للإنسان.

و من هنـا یظهر:أن الرضوان فی هـذه الآـیه قوبـل به من الشـهوات المـذکوره فی الآـیه السابقه أن الإنسان یحسب أنه لو اقتناها و خاصه القناطیر المقنطره من بینها أفادته إطلاق المشـیه و أعطته سعه القدره فله ما یشاء،و عنده ما یرید.و قد اشتبه علیه الأمر فإنما یتم ذلک برضا الله الذی إلیه أمر کل شیء.

قوله تعالی: وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ .لما تحصل من هـذه الآیه و التی قبلها:أن الله أعـد للإنسان فی کلتا الـدارین(الـدنیا و الآخره)نعما یتنعم بها و مآرب أخری مما تلتذ به نفسه کالأزواج،و ما یؤکل و یشـرب،و الملک و نحوها،و هی متشابهه فی الدارین غیر أن ما فی الـدنیا مشترک بین الکـافر و المؤمن مبـذول لهما معا و ما فی الآخره مختص بالمؤمن لا یشارکه فیها الکفار کان المقام مظنه سؤال الفرق فی ذلـک،و بلفظ آخر سؤال وجه المصـلحه فی اختصاص المؤمن بنعم الآخره أجاب عنه بقوله: وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ ،و معناه:

أن هذا الفرق الذی فرق الله به بین المؤمن و الکافر لیس مبنیا علی العبث و الجزاف

تعالی عن ذلک بل إن فی الفریقین أمرا هو المستدعی لهذا الفرق و الله بصیر بهم یری ما فیهم من الفرق و هو التقوی فی المؤمن دون الکافر،و قد وصف هذا التقوی و عرفه بما یلحق بهذه الآیه من قوله: اَلَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنا إلی آخر الآیتین و ملخصه:أنهم یظهرون فاقتهم إلی ربهم و عدم استغنائهم عنه،و یصدقون ذلک بالعمل الصالح و لکن الکافر یستغنی عن ربه بشهوات الدنیا و ینسی آخرته و عاقبه أمره.

و من ألطف ما یستفاد من الآیتین أعنی قوله تعالی: ذٰلِکَ مَتٰاعُ الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ اللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَ أُنَبِّئُکُمْ بِخَیْرٍ مِنْ ذٰلِکُمْ إلی آخر الآیه و ما فی معناهما من الآیات کقوله تعالی: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَهَ اللّهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ الطَّیِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا خٰالِصَهً یَوْمَ الْقِیٰامَهِ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ الْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ، :الأعراف-۳۲،الجواب عن إشکال استوجهه کثیر من الباحثین علی ظواهر الآیات الواصفه لنعم الجنه.

أما الإشکال فهو أن المتأمل فی أطوار وجود هذه الموجودات المشهوده فی هذا العالم لا یشک فی أن الأفعال الصادره منها و أعمالها التی یعملها إنما هی متفرعه علی القوی و الأدوات التی جهز بها کل واحد منها لیدفع بها عن وجوده و یحفظ بها بقاءه کما یحققه البحث عن الغایات الوجودیه و أن الوجود لا یستند إلی اتفاق أو جزاف أو عبث.

فهو ذا الإنسان مجهز فی جمیع بدنه بجهاز دقیق فی غایه الدقه یتمشی به أمر تغذیه،و إنما یتغذی لتهیئه بدل ما یتحلل من أجزائه و إنما یفعل ذلک لیمد وجوده للبقاء،و أیضا هو مجهز بجهاز التناسل علی ما فیه من الأدوات و القوی الفعاله و المترتبه لیحفظ بقاء نوعه و الأمر فی وجود النبات و الحیوان نظیر الأمر فی تجهیز الإنسان.

ثم إن الخلقه احتالت فی تسخیرها و خاصه فی تسخیر ذوات الشعور منها و هی الحیوان و الإنسان بإبداع لذائذ فی أفعالها و إیداعها فی القوی لتتسابق إلی الأفعال لأجل هذه اللذائذ و هی لا تشعر أن الخلقه ترید منها غایتها و هی بقاء الوجود و تغرها بتطمیعها باللذه التی تزینها لها فیحصل بذلک ما یریده الخلقه،و یلتذ الفاعل بهذه الزینه التی تغرها و یلعب بها،فلو لا ما فی الغذاء و النکاح مثلا من اللذه لما قصدهما الإنسان مثلا لمجرد کونهما مقدمه للبقاء،و بطل بذلک غرض الخلقه لکن الله سبحانه أودع

فیه لـذه الغـذاء و لـذه النکـاح لا یستریـح الإنسان فی طریق النیل إلیهما دون أن یتحمل کل تعب و عناء و یقاسـی کل مصـیبه و بلاء،و هو فی اقتناء هـذه الشـهوات مختال فخور بما لیس فیه إلا الغرور،و أما الصـنع و الخلقه فینال بغیته و یبلغ أمنیته فإنه ما کان یریـد بهذا التدبیر إلا بقاء وجود الفرد و قد حصل بالتغذی،و إلا بقاء وجود النوع و قد حصل بالنکاح و السـفاد و لم یبق للإنسان مثلا فیما کان یریده إلا الخیال.

و إذا کان هـذه اللذائـذ الـدنیویه مقصوده فی الخلقه لأجل غرض محـدود معجل فلا معنی لتحققها فی ما لا تحقق هناک لذلک الغرض،فلـذه الأکل و الشـرب و جمیع اللذائـذ الراجعه إلی التغذی مقصوده فی الطبیعه لأجل حفظ البدن عن آفه التحلل و فساد الترکیب و هو الموت،و لـذه النکاح و جمیع اللذائذ المرتبطه به و هی أمور جمه إنما تقصدها الخلقه لأجل حفظ النوع من الفناء و الاضـمحلال،فلو فرض للإنسان وجود لا یلحقه موت و لا فناء و حیوه مأمونه من کل شر و مکروه فأی فائده تترتب علی وجود القوی البـدنیه التی تعمل لأجل تحصـیل بقاء الشـخص أو النوع؟و أی ثمره یثمرها تجهیزات البدن و أعضاؤه کالکلی و المثانه و الطحال و الکبد و غیرها و جمیعها إنما أوجدت لأعمال تنفع فی البقاء المعجل المحدود دون البقاء المخلد المؤبد؟.

و أما الجواب فهو أن الله سبحانه إنما خلق ما خلق من لذائـذ الـدنیا و النعم التی تتعلق بها هـذه اللذائـذ زینه فی الأرض لیقصدها الإنسان فینجذب إلی الحیوه و یتعلق بها کما قال: «إِنّا جَعَلْنا ما عَلَی الْأَرْضِ زِینَهً لَها» :الکهف-۷،و قال «الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِینَهُ الْحَیاهِ الدُّنْیا» :الکهف-۴۶،و قال: «تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَیاهِ الدُّنْیا» :النساء -۹۴،و قال-و هو أجمع للغرض-: «وَ لا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلی ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَهَ الْحَیاهِ الدُّنْیا لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ وَ رِزْقُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ أَبْقی» :طه-۱۳۱،و قال أیضا: «وَ ما أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَمَتاعُ الْحَیاهِ الـدُّنْیا وَ زِینَتُها وَ ما عِنْدَ اللّهِ خَیْرٌ وَ أَبْقی أَ فَلا تَعْقِلُونَ» :القصـص-۶۰،إلی غیر ذلـک من الآیـات،و جمیعها تبین أن هـذه النعم الموجوده فی الـدنیا،و اللذائـذ المتعلقه بها أمور مقصوده لأجل الحیوه و أمتعه یتمتع بها لأجل الحیوه هـذه الحیوه المحدوده التی لا تتعدی أیاما قلائل،فلو لا الحیوه لما کانت هی مقصوده و لا مخلوقه،و هذا هو حق الأمر!.

لکن یجب أن یعلم أن وجود الإنسان الباقی لیس إلا هذا الوجود الذی یمکث

هاهنا برهه من الزمان بتحوله من طور إلى طور،و ليس ذلک إلا روحا كائنا من بدن و على بدن هو مجموع هذه الأجزاء المأخوذه من هذه العناصر و القوى الفعاله فيها،و لو فرض ارتفاع هذه الأمور التى نعدها مقدمات مقصوده للبقاء لم يبق وجود و لا بقاء أعنى أن فرض عدمها هو فرض عدم الإنسان رأسا لا فرض عدم استمرار وجود الإنسان فافهم ذلک.

فالإنسان فى الحقيقه هو الذى ينشعب أفرادا و يأكل و يشرب و ينكح و يتصرف فى كل شىء بالأخذ و الإعطاء و يحس و يتخيل و يعقل و يسر و يفرح و يبتهج و هكذا، كل ذلک ملائم لذاته الذى هو كالمجموع منها و بعضها مقدمه لبعضها،و هو السائر الدائر فى مثل مسافه دوريه.

فإذا نقله الله من دار الفناء إلى دار البقاء و كتب عليه الخلود و الدوام إما بثواب دائم أو بعقاب دائم لم يكن ذلک بإبطال وجوده و إيجاد وجود باق بل بإثبات وجوده بعد ما كان متغيرا فى معرض الزوال فهو لا محاله إما متنعم بنعم من سنخ نعم الدنيا لكنها باقيه أو نقم و مصائب من سنخ نقم الدنيا و مصائبها.و كل ذلک منكوح أو مأكول أو مشروب أو ملبوس أو مسكون أو قرين أو سرور أو نحو ذلک.

فالإنسان هو الإنسان و ما يحتاج إليه و يستكمل به هو الذى كان يحتاج إليه و يستكمل به من مطالبه و مقاصده و إنما الفرق هو اختلاف الدارين بالبقاء و ما يلحق به.

هذا هو الذى يظهر من كلامه سبحانه حيث يبين حقيقه البنيه الإنسانيه فيقول:

«وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَهٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَهً فِی قَرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَهَ عَلَقَهً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَهَ مُضْغَهً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَهَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَکَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِکَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ تُبْعَثُونَ» :المؤمنون-۱۶،انظر إلى موضع قوله: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ،و الخلق هو الجمع و التركيب، و إلى موضع قوله: ثُمَّ أَنْشَأْناهُ ،الدال على تبديل نحو الخلق و الإيجاد،و إلى موضع قوله:

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ ،و المخاطب به هو الذى أنشئ خلقا آخر.

و يقول أيضا: «قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ» :الأعراف-۲۵ فيفيد أن الإنسان حيوه أرضيه مؤلفه من نعمها و من نقمها.و تقدم بعض الكلام

فی هذا المعنی فی تفسیر قوله تعالی: «کٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً XالآیهX:البقره-۲۱۳.

و قد قال تعالی فی هذه النعم الأرضیه:« ذٰلِکَ مَتٰاعُ الْحَیٰاةِ الدُّنْیٰا» ثم قال: «وَ مَا الْحَیٰاةُ الدُّنْیٰا فِی الْآخِرَةِ إِلاّٰ مَتٰاعٌ :الرعد-۲۶،فجعل نفس الحیوه الدنیا متاعا فی الآخره یتمتع به،و هذا من أبدع البیان،و باب ینفتح به للمتدبر ألف باب،و فیه تصدیق

قول رسول الله ص: کما تعیشون تموتون و کما تموتون تبعثون.

و بالجمله الحیوه الدنیا هی الوجود الدنیوی بما کسب من حسنه أو سیئه و هو الذی یتمتع به فی الآخره من حیث سعادته و شقائه أی ما یراه فوزا و فلاحا لنفسه و ما یراه خیبه و خسرانا فیعطی سعادته بإعطاء لذائذه أو یحرم من نیلها و هما نعیم الجنه و عذاب النار.

و بعباره أخری واضحه،للإنسان مثلا سعاده بحسب الطبیعه و شقاء بحسبها فی بقائه شخصا و نوعا و هما منوطتان بفعله الطبیعی من الأکل و الشرب و النکاح و قد زینت له بلذائذ مقدمیه و هذا بحسب الطبیعه ثم إذا أخذ الإنسان فی الاستکمال و أخذ فی الفعالیه بالشعور و الإراده صار نوعا کماله هو الذی یختاره شعوره و إرادته فما لا یشعر به و لا یشاؤه لیس کمالا لهذا الموجود الشاعر المرید و إن کان کمالا طبیعیا و کذا العکس کما نری أنا لا نلتذ بما لا نشعر به و إن کان من سعاده الطبیعه کصحه البدن و المال و الولد،و نلتذ بما نشعر به من اللذائذ و إن لم یطابق الخارج کالمریض المعتقد للصحه و نظائر ذلک فهذه اللذائذ المقدمیه تصیر کمالا حقیقیا لهذا الإنسان و إن کانت کمالات مقدمیه للطبیعه فإذا أبقی الله سبحانه هذا الإنسان بقاء مخلدا کانت سعادته هی التی یشاؤها من اللذائذ،و شقاؤه هو الذی لا یشاؤه سواء کانت بحسب الطبیعه مقدمه أو لم یکن،إذ من البدیهی أن خیر الشخص أو القوه الشاعره المریده هو فیما یعلم به و یشاؤه،و شره فیما یعلم به و لا یریده.

فقد تحصل أن سعاده الإنسان أن ینال فی الآخره ما کان یریده من لذائذ الحیوه فی الدنیا من الأکل و الشرب و النکاح و ما فوق ذلک و هو الجنه،و شقاؤه أن لا ینال ذلک و هو النار.قال تعالی: «لَهُمْ فِیهٰا مٰا یَشٰاؤُنَ» :النحل-۳۱.

قوله تعالی: اَلَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنٰا إِنَّنٰا آمَنّٰا فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا وَ قِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ وصف

للمتقين المدلول عليهم بقوله فى الآيه السابقه: لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ،فوصفهم أنهم يقولون ربنا و فيه إظهار للعبوديه بذكره تعالى بالربوبيه و استرحام منه تعالى فيما يسألونه بقولهم:

إِنَّنا آمَنّا

،و الجمله ليست فى مقام الامتنان عليه تعالى فإن المن منه تعالى بالإيمان كما قال تعالى: «بَلِ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ» :الحجرات-١٧ بل استنجاز لما وعد الله تعالى عباده أنه يغفر لمن آمن منهم،قال تعالى: «وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ» :الأحقاف- ٣١،و لذلك فرعوا عليه قولهم: فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا ،بفاء التفريع.و فى تأكيد قولهم بأن دلاله على صدقهم و ثباتهم فى إيمانهم.

و المغفره للذنوب لا يستلزم التخلص من العذاب بمعنى أن الوقايه من عذاب النار فضل من الله سبحانه بالنسبه إلى من آمن به و عبده من غير استحقاق من العبد يثبت له حقا على الله سبحانه أن يجيره من عذاب النار ،أو ينعمه بالجنه فإن الإيمان و الإطاعه أيضا من نعمه و لا يملك غيره تعالى منه شيئا إلا ما جعله على نفسه من حق،و من الحق الذى جعل على نفسه لعباده أن يغفر لهم و يقيهم عذاب النار إن آمنوا به،قال تعالى:

«وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ» :الأحقاف-٣١.

و ربما استفيد من بعض الآيات أن الوقايه من عذاب النار هو المغفره و الجنه كقوله تعالى: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيم تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْنٍ» :الصف-١٢، فإن فى الآيتين الأخيرتين تفصيل لما أجمل فى الآيه الأولى من قوله: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ،و هذا معنى دقيق سنشرحه فى مورد يناسبه إن وفقنا له.

قوله تعالى: اَلصّابِرِينَ وَ الصّادِقِينَ إلى آخر الآيه وصفهم بخمس خصال لا يشذ منها تقوى من متق،فالصبر لسبقه على بقيه الخصال و إطلاقه يشمل أقسام الصبر، و هى ثلاث:صبر على الطاعه،و صبر عن المعصيه،و صبر عند المصيبه.

و الصدق و إن كان بحسب تحليل حقيقته هو مطابقه ظاهر الإنسان من قول و فعل لباطنه لكنه بهذا المعنى يشتمل جميع الفضائل الباقيه كالصبر و القنوت و غيرهما و ليس بمراد فالمراد به(و الله أعلم)الصدق فى القول فحسب.

و القنوت هو الخضوع لله سبحانه و يشمل العبادات و أقسام النسك و الإنفاق هو

بذل المال لمن يستحق البذل و الاستغفار بالأسحار يستلزم قيام آخر الليل و الاستغفار فيه،و السنه تفسره بصلوه الليل و الاستغفار فى قنوت الوتر،و قد ذكر الله أنه سبيل الإنسان إلى ربه كما فى سورتى المزمل و الدهر من قوله تعالى بعد ذكر قيام الليل و التهجد به: «إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شٰاءَ اتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً» :المزمل-١٩ الدهر-٢٩.

قوله تعالى: شَهِدَ اللّٰهُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ وَ الْمَلاٰئِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قٰائِماً بِالْقِسْطِ ، أصل الشهاده هو المعاينه أعنى تحمل العلم عن حضور و حس ثم استعمل فى أدائها و إظهار الشاهد ما تحمله من العلم ثم صار كالمشترك بين التحمل و التأديه بعنايه وحده الغرض فإن التحمل يكون غالبا لحفظ الحق و الواقع من أن يبطل بنزاع أو تغلب أو نسيان أو خفاء فكانت الشهاده تحفظا على الحق و الواقع ،فبهذه العنايه كان التحمل و التأديه كلاهما شهاده أى حفظا و إقامه للحق و القسط هو العدل.

و لما كانت الآيات السابقه أعنى قوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً ،إلى قوله: وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحٰارِ ،تبين:أن الله سبحانه لا إله غيره و لا يغنى عنه شىء،و أن ما يحسبه الإنسان مغنيا عنه و يركن إليه فى حيوته ليس إلا زينه و إلا متاعا خلقه الله ليتمتع به فى سبيل ما هو خير منه و لا ينال إلا بتقوى الله تعالى،و بعباره أخرى:هذه النعم التى يحن إليها الإنسان مشتركه فى الدنيا بين الكافر و المؤمن مختصه فى الآخره بالمؤمن أقام الشهاده فى هذه الآيه على أن هذا الذى بينته الآيات حق لا ينبغى أن يرتاب فيه.

فشهد(و هو الله عز اسمه)على أنه لا إله إلا هو و إذ ليس هناك إله غيره فليس هناك أحد يغنى منه شيئا من مال أو ولد أو غير ذلك من زينه الحيوه أو أى سبب من الأسباب إذ لو أغنى شىء من هذه منه شيئا لكان إلها دونه أو معتمدا إلى إله دونه منتهيا إليه و لا إله غيره.

شهد بهذه الشهاده و هو قائم بالقسط فى فعله،حاكم بالعدل فى خلقه إذ دبر أمر العالم بخلق الأسباب و المسببات و إلقاء الروابط بينها،و جعل الكل راجعا إليه بالسير و الكدح و التكامل و ركوب طبق،عن طبق و وضع فى مسير هذا المقصد نعما لينتفع

منها الإنسان فی عاجله لأجله و فی طریقه لمقصده لا لیرکن إلیه و یستقر عنده فالله یشهد بذلک و هو شاهد عدل.

و من لطیف الأمر أن عدله یشهد علی نفسه و علی وحدته فی ألوهیته أی إن عدله ثابت بنفسه و مثبت لوحدانیته ،بیان ذلک:أنا إنما نعتبر فی الشاهد العداله لیکون جاریا علی مستوی طریق الحیوه ملازما لصراط الفطره من غیر أن یمیل إلی إفراط أو تفریط فیضع الفعل فی غیر موضعه فتکون شهادته مأمونه عن الکذب و الزور فملازمه الصدق و المجاراه مع صراط التکوین یوجب عداله الإنسان فنفس النظام الحاکم فی العالم و الجاری بین أجزائه الذی هو فعله سبحانه هو العدل محضا.

و نحن فی جمیع الوقائع التی لا ترضی بها نفوسنا من الحوادث الکونیه أو نجدها علی خلاف ما نمیل إلیه و نطمع فیه ثم نعترض علیها و نناقش فیها إنما نذکر فی الاعتراض علیه ما یظهر لنا من حکم عقولنا أو تمیل إلیه غرائزنا،و جمیع ذلک مأخوذه من نظام الکون ثم نبحث عنها فیظهر سبب الحادثه فتسقط الشبهه أو نعجز عن الحصول علی السبب فلا یقع فی أیدینا إلا الجهل بالسبب أی عدم العلم دون العلم بالعدم،فنظام الکون(و هو فعل الله سبحانه)هو العدل فافهم ذلک.

و لو کان هناک إله یغنی منه فی شیء من الأمور لم یکن نظام التکوین عدلا مطلقا بل کان فعل کل إله عدلا بالنسبه إلیه و فی دائره قضائه و عمله.

و بالجمله فالله سبحانه یشهد،و هو شاهد عدل،علی أنه لا إله إلا هو یشهد لذلک بکلامه و هو قوله: شَهِدَ اللّٰهُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ ،علی ما هو ظاهر الآیه الشریفه،فالآیه فی اشتمالها علی شهادته تعالی للتوحید نظیره قوله تعالی: «لٰکِنِ اللّٰهُ یَشْهَدُ بِمٰا أَنْزَلَ إِلَیْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلاٰئِکَهُ یَشْهَدُونَ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً» :النساء-۱۶۶.

و الملائکه یشهدون بأنه لا إله إلا هو،فإن الله یخبر فی آیات مکیه نازله قبل هذه الآیات بأنهم عباد مکرمون لا یعصون ربهم و یعملون بأمره و یسبحونه و فی تسبیحهم شهاده أن لا إله غیره،قال تعالی: «بَلْ عِبٰادٌ مُکْرَمُونَ لاٰ یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ» :الأنبیاء-۲۷،و قال تعالی: «وَ الْمَلاٰئِکَهُ یُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» :الشوری-۵

و أولوا العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو يشاهدون من آياته الآفاقيه و الأنفسيه و قد ملأت مشاعرهم و رسخت فی عقولهم.

و قد ظهر مما تقدم أولا أن المراد بالشهاده شهاده القول علی ما هو ظاهر الآیه الشریفه دون شهاده الفعل و إن كانت صحیحه حقه فی نفسها فإن عالم الوجود يشهد علی وحدانیته فی الألوهیه بالنظام الواحد المتصل الجاری فیه،و بكل جزء من أجزائه التی هی أعیان الموجودات.

و ثانیا:أن قوله تعالی: قَائِماً بِالْقِسْطِ حال من فاعل قوله: شَهِدَ اللّهُ ،و العامل فیه شهد،و بعباره أخری قیامه بالقسط لیس بمشهود له لا-له تعالی و لا-للملائكه و أولی العلم بل الله سبحانه حال كونه قائما بالقسط یشهد أن لا إله إلا هو و الملائكه و أولوا العلم یشهدون بالوحدانیه كما هو ظاهر الآیه حیث فرقت بین قوله: لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ ،و قوله:

قَائِماً بِالْقِسْطِ

:بتوسیط قوله: وَ الْمَلاَئِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ ،و لو كان القیام بالقسط من أجزاء الشهاده لكان حق الكلام أن یقال:إنه لا إله إلا هو قائما بالقسط و الملائكه،و من ذلك یظهر ما فیما ذكره عده من المفسرین فی تفسیر الآیه من الجهتین جمیعا كما لا یخفی علی من راجع ما ذكروه فی المقام.

و من أردإ الإشكال ما ذكره بعضهم:أن حمل الشهاده علی الشهاده الكلامیه كما مر یوجب الاستناد فی أمر التوحید إلی النقل دون العقل مع كونه حینئذ متوقفا علی صحه الوحی فإن صدق هذه الشهاده یتوقف علی كون القرآن وحیا حقا و هو متوقف علیه فیكون بیانا دوریا،و من هنا ذكر بعضهم أن المراد بالشهاده هنا معنی استعاری بدعوی أن دلاله جمیع ما خلقه الله من خلق علی ما فیها من وحده الحاجه و اتصال النظام علی وحده صانعها بمنزله نطقه و إخباره تعالی بأنه واحد لا إله غیره و كذا عباده ملائكته له و إطاعتهم لأمره،و كذا ما یشاهده أولوا العلم من أفراد الإنسان من آیات وحدانیته بمنزله شهادتهم علی وحدانیته تعالی.

و الجواب:أن فیه خلطا و مغالطه فإن النقل إنما لا یعتمد علیه فیما للعقل أو الحس إلیه سبیل لكونه لا یفید العلم فیما یجب فیه تحصیل العلم،أما لو فرض إفادته من العلم ما یفید العقل مثلا-أو أقوی منه كان فی الاعتبار مثل العقل أو أقوی منه كما أن المتواتر من الخبر أقوی أثرا و أجلی صدقا من القضیه التی أقیم علیها برهان مؤلف من

مقدمات عقليه نظريه و إن كانت يقينيه و أنتجت اليقين.

فإذا كان الشاهد المفروض يمتنع عليه الكذب و الزور بصريح البرهان كانت شهادته تفيد ما يفيده البرهان من اليقين،و الله سبحانه(و هو الله الذى لا سبيل للنقص و الباطل إليه)لا يتصور فى حقه الكذب فشهادته على وحدانيه نفسه شهاده حق كما أن إخباره عن شهاده الملائكه و أولى العلم يثبت شهادتهم.

على أن من أثبت له شركاء كالأصنام و أربابها فإنما يثبتها بعنوان أنها شفعاء عند الله و وسائط بينه و بين خلقه كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: «مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ» :الزمر-٣،و كذا من اتخذ له شريكا بالشرك الخفى من هوى أو رئيس مطاع أو مال أو ولد إنما يتخذه سببا من الله غير أنه مستقل بالتأثير بعد حصوله له،و بالجمله ما اتخذ له من شريك فإنما يشاركه فيما يشاركه بتشريكه لا بنفسه،و إذا شهد الله على أنه لم يتخذ لنفسه شريكا أبطل ذلك دعوى من يدعى له شريكا، و جرى الكلام مجرى قوله: «قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللّٰهَ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ لاٰ فِي الْأَرْضِ» :يونس-١٨،فإنه إبطال لدعوى وجود الشريك بأن الله لا يعلم به فى السموات و الأرض و لا يخفى عليه شىء،و بالحقيقه هو خبر مثل سائر الأخبار الصادره عن مصدر الربوبيه و العظمه كقوله: «سُبْحٰانَهُ وَ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ» :يونس-١٨،و نحو ذلك،غير أنه لوحظ فيه انطباق معنى الشهاده عليه لكونه خبرا فى مورد دعوى،و المخبر به قائم بالقسط فكان شهاده فعبر بلفظ الشهاده تفننا فى الكلام،فيئول المعنى إلى أنه لو كان فى الوجود أرباب من دون الله مؤثرون فى الخلق و التدبير شركاء أو شفعاء فى ذلك لعلمه الله و شهد به لكنه يخبر أنه ليس يعلم لنفسه شريكا فلا شريك له ،و لعلم و اعترف به الملائكه الكرام الذين هم الوسائط المجرون للأمر فى الخلق و التدبير لكنهم يشهدون أن لا شريك له،و لعلم به و شهد أثره أولوا العلم لكنهم يشهدون بما شاهدوا من الآيات أن لا شريك له.

فالكلام نظير قولنا:لو كان فى المملكه الفلانيه ملك مؤثر فى شئون المملكه و إداره أمورها غير الملك الذى نعرفه لعلم به الملك و عرفه لأنه من المحال أن لا يحس بوجوده و هو يشاركه،و لعلم به القوى المجريه و العمال المتوسطون بين العرش و الرعيه و كيف يمكن أن لا يشعروا بوجوده و هم يحملون أوامره و يجرون أحكامه بين ما فى

أیـدیهم من الأحکـام و الأـوامر و لعلم به العقلاـء من عـامه أهـل المملکه و کیف لا و هم یطیعون أوامره و عهوده و یعیشون فی ملکه لکن الملک ینکر وجوده،و عمال الدوله لا یعرفونه،و عقلاء الرعیه لا یشاهدون ما یدل علی وجوده؟فلیس.

قوله تعـالی: لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ ،الجمله کالمعترضه الـدخیله فی الکلام لاستیفاء حق معترض یفوت لو لا ذکره مع عـدم کونه مقصودا فی الکلاـم أصاله،و من أدب القرآن أن یظهر تعظیم الله جل شأنه فی موارد یـذکر أمره ذکرا یخطر منه بالبال ما لا یلیق بساحه کبریائه کقوله تعالی: «قَالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ» :یونس-۶۸،فقوله:سبحانه قصد به التعظیم فی مقام یحکی فیه قول لا یلائم حقه تعالی،و نظیره بوجه قوله تعالی: «وَ قَالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّهِ مَغْلُولَهٌ غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ» Xالآیه X:المائده-۶۴.

و بالجمله لما اشتمل أول الآیه علی شهاده الله و الملائکه و أولی العلم-بنفی الشریک کان من حق الله سبحانه علی من یحکی و یخبر عن هذه الشهاده أعنی المتکلم(و هو فی الآیه هو الله سبحانه)و علی من یسمع ذلک أن یوحد الله بنفی الشریک عنه فیقول: لاـ إِلَهَ إِلاّ هُوَ .نظیر ذلک قوله تعالی فی قصه الإفک: «وَ لَوْ لاَ إِذْ سَـمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا یَکُونُ لَنَا أَنْ نَتَکَلَّمَ بِهَـذَا سُـبْحَانَکَ هَـذَا بُهْتَانٌ عَظِیمٌ» :النور-۱۶،فإن من حقه تعالی علیهم أن إذا سمعوا بهتانا و أرادوا تنزیه من بهت علیه أن ینزهوا الله قبله فإنه تعالی أحق من یجب تنزیهه.

فموضع قوله: لاـ إِلَهَ إِلاـّ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ موضع الثنـاء علیه تعالی لاستیفاء حق تعظیمه و لـذا تمم بالاسـمین العزیز الحکیم،و لو کـان فی محـل النتیجه من الشـهاده لکـان حق الکلاـم أن یتمم بوصـفی الوحـده و القیـام بالقسـط،فهو تعالی حقیق بالتوحیـد إذا ذکرت الشـهاده المـذکوره علی وحـدانیته لأـنه المتفرد بـالعزه التی یمنع جانبه أن یسـتذل بوجود شـریک له فی مقام الألوهیه،و المتوحد بالحکمه التی تمنع غیره أن ینقض أمره فی خلقه أو ینفذ فی خلال تدبیره و ما نظمه من أمر العالم فیفسد علیه ما أراده.

و قد تبین بما مر من البیان وجه تکرار کلمه التوحید فی الآیه،و کذا وجه تتمیمها بالاسمین:العزیز الحکیم،و الله العالم.

ص :۱۱۷

بحث روائی

فی المجمع،: فی قوله تعالی: قُـلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَـتُغْلَبُونَ الآیه-روی محمد بن إسحاق عن رجاله قال:لما أصاب رسول الله ص قریشا ببدر و قدم المدینه-جمع الیهود فی سوق قینقاع فقال:یا معشر الیهود-احذروا من الله مثل ما نزل بقریش یوم بدر، و أسلموا قبل أن ینزل بکم ما نزل بهم-و قد عرفتم أنی نبی مرسل تجدون ذلک فی کتابکم- فقالوا:یا محمد لا یغرنک أنک لقیت قوما أغمارا-لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصه- إنا و الله لو قاتلناک-لعرفت أنا نحن الناس فأنزل الله هذه الآیه:

أقول:و رواه فی الدر المنثور،عن ابن إسحاق و ابن جریر و البیهقی فی الدلائل، عن ابن عباس،و روی ما یقرب منه القمی فی تفسیره،

و قد عرفت مما تقدم:أن سیاق الآیات لا یلائم نزولها فی حق الیهود کل الملاءمه،و أن الأنسب بسیاقها أن تکون نازله بعد غزوه أحد،و الله أعلم.

و فی الکافی،و تفسیر العیاشی،عن الصادق(ع): ما تلذذ الناس فی الدنیا و الآخره- بلذه أکبر لهم من لذه النساء،و هو قوله: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ - الآیه ثم قال:و إن أهل الجنه ما یتلذذون بشیء من الجنه-أشهی عندهم من النکاح، لا طعام و لا شراب.

أقول:و قد استفید ذلک من الترتیب المجعول فی الآیه للشهوات ثم تقدیم النساء علی باقی المشتهیات ثم جعل هذه الشهوات متاع الدنیا و شهوات الجنه خیرا منها.

و مراده(ع)من الحصر فی کون النکاح أکبر لذائذ الناس إنما هو الحصر الإضافی أی إن النکاح أکبر لذه بالنسبه إلی هذه الشهوات المتعلقه بجسم الإنسان،و أما غیرها کالتذاذ الإنسان بوجود نفسه أو التذاذ ولی من أولیاء الله تعالی بقرب ربه و مشاهده آیاته الکبری و لطائف رضوانه و إکرامه و غیرهما فذلک خارج عن مورد کلامه(ع)، و قد قامت البراهین العلمیه علی أن أعظم اللذائذ التذاذ الشیء بنعمه وجوده،و أخری علی أن التذاذ الأشیاء بوجود ربها أعظم من التذاذها بنفسها.و هناک روایات کثیره داله علی أن التذاذ العبد بلذه الحضور و القرب منه تعالی أکبر عنده من کل لذه،

و قد

روی فی الکافی،عن الباقر(ع): کان علی بن الحسین(ع)یقول:إنه یسخی نفسی فی سرعه الموت-و القتل فینا قول الله تعالی:« أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّٰا نَأْتِی اَلْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا »و هو ذهاب العلماء ،و سیجیء عده من هذه الروایات فی المواضع المناسبه لها من هذا الکتاب.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی: اَلْقَنٰاطِیرِ الْمُقَنْطَرَهِ عن الباقر و الصادق(ع) القنطار ملء مسک ثور ذهبا.

و فی تفسیر القمی،قال(ع): الخیل المسومه المرعیه.

و فی الفقیه،و الخصال،عن الصادق(ع): من قال فی وتره إذا أوتر: أستغفر الله و أتوب إلیه سبعین مره-و هو قائم فواظب علی ذلک-حتی تمضی سنه کتبه الله عنده من المستغفرین بالأسحار،و وجبت له المغفره من الله تعالی.

أقول:و هذا المعنی مروی فی روایات أخر عن أئمه أهل البیت،و هو من سنن النبی ص،

و روی ما یقرب منه فی الدر المنثور،أیضا عن ابن جریر عن جعفر بن محمد قال: من صلی من اللیل ثم استغفر فی آخر اللیل سبعین مره-کتب من المستغفرین، و قوله(ع):و وجبت له المغفره من الله،مستفاد من قوله تعالی حکایه عنهم:

فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا

،فإن فی الحکایه لدعائهم من غیر رد إمضاء للاستجابه.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۹ الی ۲۵]

اشاره

إِنَّ اَلدِّینَ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلْإِسْلاٰمُ وَ مَا اِخْتَلَفَ اَلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِآیٰاتِ اَللّٰهِ فَإِنَّ اَللّٰهَ سَرِیعُ اَلْحِسٰابِ (۱۹) فَإِنْ حَاجُّوکَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِیَ لِلّٰهِ وَ مَنِ اِتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِینَ أُوتُوا اَلْکِتٰابَ وَ اَلْأُمِّیِّینَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اِهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَیْکَ اَلْبَلاٰغُ وَ اَللّٰهُ بَصِیرٌ بِالْعِبٰادِ (۲۰) إِنَّ اَلَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِآیٰاتِ اَللّٰهِ وَ یَقْتُلُونَ اَلنَّبِیِّینَ بِغَیْرِ حَقٍّ وَ یَقْتُلُونَ اَلَّذِینَ یَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ اَلنّٰاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ (۲۱) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِی اَلدُّنْیٰا وَ اَلْآخِرَهِ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ (۲۲) أَ لَمْ تَرَ إِلَی اَلَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ اَلْکِتٰابِ یُدْعَوْنَ إِلیٰ کِتٰابِ اَللّٰهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ یَتَوَلّٰی فَرِیقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳) ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لَنْ تَمَسَّنَا اَلنّٰارُ إِلاّٰ أَیّٰاماً مَعْدُودٰاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِی دِینِهِمْ مٰا کٰانُوا یَفْتَرُونَ (۲۴) فَکَیْفَ إِذٰا جَمَعْنٰاهُمْ لِیَوْمٍ لاٰ رَیْبَ فِیهِ وَ وُفِّیَتْ کُلُّ نَفْسٍ مٰا کَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (۲۵)

بیان

الآیات متعرضه لحال أهل الکتاب و هم آخر الفرق الثلاث التی تقدم أنها عرضه للکلام فی هذه السوره،و أهمهم بحسب قصد الکلام أهل الکتاب من الیهود و النصاری، ففیهم و فی أمرهم نزل معظم السوره و إلیهم یعود.

قوله تعالی: إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلامُ ،قد مر معنی الإسلام بحسب اللغه و کان هذا المعنی هو المراد هاهنا بقرینه ما یذکره من اختلاف أهل الکتاب بعد العلم بغیا بینهم فیکون المعنی:أن الدین عند الله سبحانه واحد لا اختلاف فیه لم یأمر عباده إلا به،و لم یبین لهم فیما أنزله من الکتاب علی أنبیائه إلا إیاه،و لم ینصب الآیات الداله إلا له و هو الإسلام الذی هو التسلیم للحق الذی هو حق الاعتقاد و حق العمل، و بعباره أخری هو التسلیم للبیان الصادر عن مقام الربوبیه فی المعارف و الأحکام،و هو و إن اختلف کما و کیفا فی شرائع أنبیائه و رسله علی ما یحکیه الله سبحانه فی کتابه غیر أنه لیس فی الحقیقه إلا أمرا واحدا و إنما اختلاف الشرائع بالکمال و النقص دون

ص: ۱۲۰

التضاد و التنافی،و التفاضل بینها بالدرجات،و یجمع الجمیع أنها تسلیم و إطاعه لله سبحانه فیما یریده من عباده علی لسان رسله.

فهذا هو الدین الذی أراده الله من عباده و بینه لهم،و لازمه أن یأخذ الإنسان بما تبین له من معارفه حق التبین،و یقف عند الشبهات وقوف التسلیم من غیر تصرف فیها من عند نفسه و أما اختلاف أهل الکتاب من الیهود و النصاری فی الدین مع نزول الکتاب الإلهی علیهم،و بیانه تعالی لما هو عنده دین و هو الإسلام له فلم یکن عن جهل منهم بحقیقه الأمر و کون الدین واحدا بل کانوا عالمین بذلک،و إنما حملهم علی ذلک بغیهم و ظلمهم من غیر عذر و ذلک کفر منهم بآیات الله المبینه لهم حق الأمر و حقیقته لا بالله فإنهم یعترفون به،و من یکفر بآیات الله فإن الله سریع الحساب،یحاسبه سریعا فی دنیاه و آخرته:أما فی الدنیا فبالخزی و سلب سعاده الحیوه عنه،و أما فی الآخره فبألیم عذاب النار.

و الدلیل علی عموم سرعه الحساب للدنیا و الآخره قوله تعالی بعد آیتین: أُولٰئِکَ الَّذِینَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ .

و مما تقدم یظهر أولا:أن المراد بکون الدین عند الله و حضوره لدیه سبحانه هو الحضور التشریعی بمعنی کونه شرعا واحدا لا یختلف إلا بالدرجات و بحسب استعدادات الأمم المختلفه دون کونه واحدا بحسب التکوین بمعنی کونه واحدا مودعا فی الفطره الإنسانیه علی وتیره واحده.

و ثانیا:أن المراد بالآیات هو آیات الوحی،و البیانات الإلهیه التی ألقاها إلی أنبیائه دون الآیات التکوینیه الداله علی الوحدانیه و ما یزاملها من المعارف الإلهیه.

و الآیه تشتمل علی تهدید أهل الکتاب بما یستدل علیه بالبغی و هو الانتقام،کما یشتمل قوله تعالی فی الآیات السابقه: قُلْ لِلَّذِینَ کَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلیٰ جَهَنَّمَ الآیه علی تهدید المشرکین و الکفار،و لعل هذا هو السبب فی أنه جمع أهل الکتاب و المشرکین معا فی الآیه التالیه فی الخطاب بقوله: قُلْ لِلَّذِینَ أُوتُوا الْکِتٰابَ وَ الْأُمِّیِّینَ أَ أَسْلَمْتُمْ «إلخ»،و فیه إشعار بالتهدید أیضا.

قوله تعالی: فَإِنْ حَاجُّوکَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِیَ لِلّٰهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ ،الضمیر فی حَاجُّوکَ

راجع إلى أهل الكتاب و هو ظاهر و المراد به محاجتهم فى أمر الاختلاف بأن يقولوا:

إن اختلافنا ليس لبغى منا بعد البيان بل إنما هو شىء ساقنا إليه عقولنا و أفهامنا و اجتهادنا فى تحصيل العلم بحقائق الدين من غير أن ندع التسليم لجانب الحق سبحانه و أن ما تراه و تدعو إليه يا محمد من هذا القبيل،أو يقولوا ما يشابه ذلك،و الدليل على ذلك قوله: فَقُلْ:أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ ،و قوله: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ ، فإن الجملتين حجه سيقت لقطع خصامهم و حجاجهم لا إعراض عن المحاجه معهم.

و معناها مع حفظ ارتباطها بما قبلها: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ لا يختلف فيه كتب الله و لا يرتاب فيه سليم العقل،و يتفرع عليه أن لا حجه عليك فى إسلامك و أنت مسلم،فإن حاجوك فى أمر الدين فَقُلْ:أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ فهذا هو الدين و لا حجه بعد الدين فى أمر الدين ثم سلهم:أ أسلموا فإن أسلموا فقد اهتدوا و ليقبلوا ما أنزل الله عليك و على من قبلك و لا حجه عليهم و لا مخاصمه بعد ذلك بينكم،و إن تولوا فلا تخاصمهم و لا تحاجهم فلا ينبغى الخصام فى أمر ضرورى،و هو أن الدين هو التسليم لله سبحانه،و ما عليك إلا البلاغ.

و قد أشرك سبحانه فى الآيه بين أهل الكتاب و الأميين بقوله: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ ،لكون الدين مشتركا بينهم و إن اختلفوا فى التوحيد و التشريك.

و قد علق الإسلام على الوجه-و هو ما يستقبلك من الشىء أو الوجه بالمعنى الأخص لكون إسلام الوجه لاشتماله على معظم الحواس و المشاعر إسلاما لجميع البدن- ليدل على معنى الإقبال و الخضوع لأمر الرب تعالى،و عطف قوله: وَ مَنِ اتَّبَعَنِ حفظا لمقام التبعيه و تشريفا للنبى ص.

قوله تعالى: وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ إلى آخر الآيه،المراد بالأميين المشركين سموا بذلك لتسميه من وضع فى مقابلهم بأهل الكتاب،و كذا كان أهل الكتاب يسمونهم كما حكاه تعالى من قوله: «لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» :آل عمران-٧۵ و الأمى هو الذى لا يكتب و لا يقرأ.

و فى قوله تعالى: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ الْبَلاٰغُ وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ دلاله أولا:على النهى عن المراء و الإلحاح فى المحاجه فإن المحاجه مع من ينكر الضرورى

لا تکون إلا مراء و لجاجا فی البحث.

و ثانیا:علی أن الحکم فی حق الناس و الأمر مطلقا إلی الله سبحانه،و لیس للنبی ص إلا أنه رسول مبلغ لا حاکم مسیطر کما قال تعالی: «لَیْسَ لَکَ مِنَ الْأَمْرِ شَیْءٌ» :آل عمران-۱۲۸،و قال تعالی: «لَسْتَ عَلَیْهِمْ بِمُصَیْطِرٍ :الغاشیه-۲۳.

و ثالثا:علی تهدید أهل الکتاب و المشرکین فإن ختم الکلام بقوله: وَ اللّٰهُ بَصِیرٌ بِالْعِبٰادِ ،بعد قوله: فَإِنَّمٰا عَلَیْکَ الْبَلاٰغُ لا یخلو من ذلک و یدل علی ذلک ما وقع من التهدید فی نظیر الآیه،و هو قوله تعالی: «قُولُوا آمَنّٰا بِاللّٰهِ Xإلی أن قالX: وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مٰا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا هُمْ فِی شِقٰاقٍ فَسَیَکْفِیکَهُمُ اللّٰهُ وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ» :البقره-۱۳۷،تذکر الآیه أن أهل الکتاب إن تولوا عن الإسلام فهم مصرون علی الخلاف ثم یهددهم بما یسلی به النبی و یطیب نفسه،فالآیه أعنی قوله :«وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمٰا عَلَیْکَ الْبَلاٰغُ ،کنایه عن الأمر بتخلیه ما بینهم و بین ربهم،و إرجاع أمرهم إلیه،و هو بصیر بعباده یحکم فیهم بما تقتضیه حالهم و یسأله لسان استعدادهم.

و من هنا یظهر:أن ما ذکره بعض المفسرین،أن فی الآیه دلیلا علی حریه الاعتقاد فی أمر الدین و أن لا إکراه فیه لیس بوجیه فإن الآیه کما عرفت مسوقه لغیر ذلک.

و فی قوله: بَصِیرٌ بِالْعِبٰادِ حیث أخذ عنوان العبودیه و لم یقل:بصیر بهم أو بصیر بالناس و نحو ذلک إشعار بأن حکمه نافذ فیهم ماض علیهم فإنهم عباده و مربوبون له أسلموا أو تولوا.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یَکْفُرُونَ بِآیٰاتِ اللّٰهِ إلی آخر الآیه،الکلام فی الآیه و إن کان مسوقا سوق الاستیناف لکنه مع ذلک لا یخلو عن إشعار و بیان للتهدید الذی یشعر به آخر الآیه السابقه فإن مضمونها منطبق علی أهل الکتاب و خاصه الیهود.

و قوله: یَکْفُرُونَ ،و یَقْتُلُونَ ،فی موضعین للاستمرار و یدلان علی کون الکفر بآیات الله و هو الکفر بعد البیان بغیا،و قتل الأنبیاء و هو قتل من غیر حق،و قتل الذین یدعون إلی القسط و العدل و ینهون عن الظلم و البغی دأبا و عاده جاریه فیما بینهم کما یشتمل علیه تاریخ الیهود،فقد قتلوا جمعا کثیرا و جما غفیرا من أنبیائهم و عبادهم الآمرین بالمعروف و الناهین عن المنکر و کذا النصاری جروا مجراهم.

و قوله: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ تصريح بشمول الغضب و نزول السخط،و ليس هو العذاب الأخروى فحسب بدليل قوله تعالى عقيب الآيه: أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ «إلخ»فهم مبشرون بالعذاب الدنيوى و الأخروى معا،أما الأخروى فأليم عذاب النار،و أما الدنيوى فهو ما لقوه من التقتيل و الإجلاء و ذهاب الأموال و الأنفس،و ما سخط الله عليهم بإلقاء العداوه و البغضاء بينهم إلى يوم القيامه على ما تصرح به آيات الكتاب العزيز.

و فى قوله تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهِ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ ،دلاله أولا:على حبط عمل من قتل رجلا من جهه أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر.و ثانيا على عدم شمول الشفاعه له يوم القيامه لقوله: وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ .

قوله تعالى: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتٰابِ إلى آخر الآيه يومئ إلى تسجيل البغى على أهل الكتاب حسب ما نسبه الله تعالى إليهم و أنهم يبغون باتخاذ الخلاف و إيجاد اختلاف الكلمه فى الدين فإنها إذا دعوا إلى حكم الكتاب كتاب الله بينهم لم يسلموا له و تولوا و أعرضوا عنه و ليس ذلک إلا باغترارهم بقولهم لَنْ تَمَسَّنَا «إلخ»و بما افتروه على الله فى دينهم.

و المراد بالذين أوتوا نصيبا من الكتاب أهل الكتاب و إنما لم يقل:أوتوا الكتاب، و قيل: أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتٰابِ ليدل على أن الذى فى أيديهم من الكتاب ليس إلا نصيبا منه دون جميعه لأن تحريفهم له و تغييرهم و تصرفهم فى كتاب الله أذهب كثيرا من أجزائه كما يومئ إليه قوله فى آخر الآيه التاليه: وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ ، و كيف كان فالمراد-و الله أعلم-أنهم يتولون عن حكم كتاب الله اعتزازا بما قالوا و اغترارا بما وضعوه من عند أنفسهم و استغناء به عن الكتاب.

قوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّٰارُ «إلخ»معناه واضح،و اغترارهم بفريتهم التى افترتها أنفسهم مع أن الإنسان لا ينخدع عن نفسه مع العلم بأنها خدعه باطله إنما هو لكون المغرورين غير المفترين،و على هذا فنسبه الافتراء الذى توسل إليها سابقوهم إلى هؤلاء المغرورين من اللاحقين لكونهم أمه واحده يرضى بعضهم بفعال بعض.

و إما لأن الاغترار بغرور النفس و الغرور بالفريه الباطله مع العلم بكونها فريه

باطله و ذکر المغرور أنه هو الذی افتری ما یغتر به من الفریه لیس من أهل الکتاب و من الیهود خاصه ببعید و قد حکی الله عنهم مثله بل ما هو أعجب من ذلک حیث قال تعالی: «وَ إِذا لَقُوا الَّذِینَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلی بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللّهُ عَلَیْکُمْ لِیُحَاجُّوکُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّکُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ أَ وَ لا یَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ یَعْلَمُ ما یُسِرُّونَ وَ ما یُعْلِنُونَ» :البقره-۷۷.

علی أن الإنسان یجری فی أعماله و أفعاله علی ما تحصل عنده من الأحوال أو الملکات النفسانیه،و الصور التی زینتها و نمقتها له نفسه دون الذی حصل له العلم به کما أن المعتاد باستعمال المضرات کالبنج و الدخان و أکل التراب و نحوها یستعملها و هو یعلم أنها مضره،و أن استعمال المضر مما لا ینبغی إلا أن الهیئه الحاصله فی نفسه ملذه له جاذبه إیاه إلی الاستعمال لا تدع له مجالا للتفکر و الاجتناب،و نظائر ذلک کثیره.

فهم لاستحکام الکبر و البغی و حب الشهوات فی أنفسهم یجرون علی طبق ما تدعوهم إلیه فریتهم فکانت فریتهم هی الغاره لهم فی دینهم،و هم مع ذلک کرروا ذکر ما افتروه علی الله سبحانه و لم یزالوا یکررونه و یلقنونه أنفسهم حتی أذعنوا به أی اطمأنوا و رکنوا إلیه بالتلقین الذی یؤثر أثر العلم کما بینه علماء النفس فصارت الفریه الباطله بالتکرار و التلقین تغرهم فی دینهم و تمنعهم عن التسلیم لله و الخضوع للحق الذی أنزله فی کتابه.

قوله تعالی: فَکَیْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِیَوْمٍ لا رَیْبَ فِیهِ إلی آخر الآیه،مدخول کیف مقدر یدل علیه الکلام مثل یصنعون و نحوه،و فی الآیه إیعاد لهؤلاء الذین تولوا إذا دعوا إلی کتاب الله لیحکم بینهم و هم معرضون غیر أنه لما أرید بیان أنهم غیر معجزین لله سبحانه أخذ فی الکلام من حالهم یوم القیامه و هم مستسلمون یومئذ ما یضاهی حالهم فی الدنیا عند الدعوه إلی حکم کتاب الله و هم غیر مسلمین له مستکبرون عنه،و لهذا أخذ بالمحاذاه بین الکلامین،و عبر عن ما یجری علیهم یوم القیامه بمثل قوله: إِذا جَمَعْناهُمْ لِیَوْمٍ لا رَیْبَ فِیهِ «إلخ»دون أن یقال:إذا أحییناهم أو بعثناهم أو ما یماثل ذلک.

و المعنی-و الله أعلم-أنهم یتولون و یعرضون إذا دعوا إلی کتاب الله لیحکم بینهم اغترارا بما افتروه فی دینهم و استکبارا عن الحق فکیف یصنعون إذا جمعناهم

لیوم لا ریب فیه و هو یوم القضاء الفصل،و الحکم الحق و وفیت کل نفس ما کسبت و الحکم حکم عدل و هم لا یظلمون،و إذا کان کـذلک کان الواجب علیهم أن لا یتولوا و یعرضوا مظهرین بـذلک أنهم معجزون لله غالبون علی أمره فإن القـدره کله لله و ما هی إلا أیام مهله و فتنه.

بحث روائی

فی تفسیر العیاشی،عن محمد بن مسلم قال": سألته عن قوله إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلاٰمُ -فقال:الذی فیه الإیمان.

و عن ابن شهرآشوب عن الباقر(ع): فی قوله تعالی: إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلاٰمُ الآیه-قال التسلیم:لعلی بن أبی طالب بالولایه.

أقول:و هو من الجری،و لعل ذلک هو المراد أیضا من الروایه السابقه.

و عنه أیضا عن علی(ع)قال: لأنسبن الإسـلام نسـبه لم ینسبها أحد قبلی، و لا ینسبها أحد بعدی-الإسلام هو التسلیم،و التسلیم هو الیقین،و الیقین هو التصـدیق، و التصـدیق هو الإـقرار،و الإـقرار هو الأداء،و الأداء هو العمل،المؤمن أخـذ دینه عن ربه،إن المؤمن یعرف إیمانه فی عمله،و إن الکافر یعرف کفره بإنکاره.

أیها الناس!دینکم دینکم-فإن السیئه فیه خیر من الحسنه فی غیره-إن السیئه فیه تغفر،و إن الحسنه فی غیره لا تقبل.

أقول:قوله(ع):لأنسـبن الإسـلام نسبه،المراد بالنسبه التعریف کما سـمیت سوره التوحید فی الأخبار بنسـبه الرب و الذی عرف به تعریف باللازم فی غیر الأول أعنی قوله: الإسلام هو التسلیم فإنه تعریف لفظی عرف فیه اللفظ بلفظ آخر أوضح منه،و یمکن أن یراد بالإسلام المعنی الاصطلاحی له و هو هذا الدین الذی أتی به محمد ص إشاره إلی قوله تعالی: إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللّهِ الْإِسْلاٰمُ ،و بالتسلیم الخضوع و الانقیاد ذاتا و فعلا فیعود الجمیع إلی التعریف باللازم.

و المعنی:أن هذا الدین المسمی بالإسلام یستتبع خضوع الإنسان لله سبحانه

ذاتا و فعلا،و وضعه نفسه و أعماله تحت أمره و إرادته و هو التسليم و التسليم،لله يستتبع أو يلزم اليقين بالله و ارتفاع الريب فيه و اليقين يستتبع التصديق و إظهار صدق الدين،و التصديق يستتبع الإقرار و هو الإذعان بقراره و كونه ثابتا لا يتزلزل فی مقره و لا يزول عن مكانه،و إقراره يستتبع أداءه و أداؤه يستتبع العمل.

و قوله(ع):و إن الحسنه فی غيره لا تقبل المراد بعدم القبول عدم الثواب بإزائه فی الآخره،أو عدم الأثر الجميل المحمود عند الله فی الدنيا بسعاده الحيوه و فی الآخره بنعيم الجنه فلا ينافی ما ورد أن الكفار يوجرون فی مقابل حسناتهم بشیء من حسنات الدنيا،قال تعالی فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ» :الزلزال-٧.

و فی المجمع،عن أبی عبيده الجراح قال: قلت:يا رسول الله أی الناس أشد عذابا يوم القيامه؟قال رجل قتل نبيا-أو رجلا أمر بمعروف أو نهی عن منكر ثم قرأ:

الذين يقتلون النبيين بغير حق-و يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس-ثم قال:يا أبا عبيده-قتلت بنو إسرائيل ثلاثه و أربعين نبيا فی ساعه-فقام مائه رجل و اثنا عشر رجلا من عباد بنی إسرائيل-فأمروا من قتلهم بالمعروف،و نهوهم عن المنكر-فقتلوا جميعا آخر النهار من ذلك اليوم-و هو الذی ذكره الله.

أقول:و روی هذا المعنی فی الدر المنثور،عن ابن جرير و ابن أبی حاتم عن أبی عبيده.

و فی الدر المنثور،:أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: دخل رسول الله ص بيت المدراس علی جماعه من يهود-فدعاهم إلی الله فقال له النعمان بن عمرو و حرث بن زيد-علی أی دين أنت يا محمد قال:علی مله إبراهيم و دينه،قالا:فإن إبراهيم كان يهوديا،فقال لهما رسول الله ص:

فهلما إلی التوراه فهی بيننا و بينكم-فأبيا عليه فأنزل الله: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتٰابِ يُدْعَوْنَ إِلیٰ كِتٰابِ اللّٰهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إلی قوله:و غرهم فی دينهم ما كانوا يفترون.

أقول:و روی بعضهم:أن قوله تعالی:أ لم تر نزل فی قصه الرجم و سيجیء ذكرها فی ذيل الكلام علی قوله تعالی: «يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ قَدْ جٰاءَكُمْ رَسُولُنٰا يُبَيِّنُ لَكُمْ

كَثِيراً مِمّٰا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتٰابِ XالآيهX:المائده-١۵،و الروايتان من الآحاد و ليستا بتلك القوه.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٢۶ الى ٢٧]

اشاره

قُلِ اَللّٰهُمَّ مٰالِكَ اَلْمُلْكِ تُؤْتِي اَلْمُلْكَ مَنْ تَشٰاءُ وَ تَنْزِعُ اَلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشٰاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشٰاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشٰاءُ بِيَدِكَ اَلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢۶) تُولِجُ اَللَّيْلَ فِي اَلنَّهٰارِ وَ تُولِجُ اَلنَّهٰارَ فِي اَللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ اَلْحَيَّ مِنَ اَلْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ اَلْمَيِّتَ مِنَ اَلْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشٰاءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ (٢٧)

بيان

الآيتان لا تخلوان عن ارتباط ما بما تقدمهما من الكلام فى شأن أهل الكتاب و خاصه اليهود لاشتماله على وعيدهم و تهديدهم بعذاب الدنيا و الآخره و من العذاب ما سلب الله عنهم الملك و ضرب عليهم الذل و المسكنه إلى يوم القيامه و أخذ أنفاسهم و ذهب باستقلالهم فى السؤدد.

على أن غرض السوره كما مر بيان أن الله سبحانه هو القائم على خلق العالم و تدبيره فهو مالك الملك يملك من يشاء و يعز من يشاء و بالجمله هو المعطى للخير لمن يشاء و هو الآخذ النازع للملك و العزه و لكل خير عمن يشاء فمضمون الآيتين غير خارج عن غرض السوره.

قوله تعالى قُلِ اللّٰهُمَّ مٰالِكَ الْمُلْكِ أمر بالالتجاء إلى الله تعالى الذى بيده الخير على الإطلاق و له القدره المطلقه ليتخلص من هذه الدعاوى الوهميه التى نشبت فى قلوب المنافقين و المتمردين من الحق من المشركين و أهل الكتاب فضلوا و هلكوا بما قدروه لأنفسهم من الملك و العزه و الغنى من الله سبحانه و يعرض الملتجئ نفسه على إفاضه مفيض الخير و الرازق لمن يشاء بغير حساب.

و الملك بكسر الميم مما نعرفه فيما بيننا و نعهده من غير ارتياب فى أصله فمن الملك

بکسر المیم ما هو حقیقی و هو کون شیء کالإنسان مثلا بحیث یصح له أن یتصرف فی شیء أی تصرف أمکن بحسب التکوین و الوجود کما یمکن للإنسان أن یتصرف فی باصرته بإعمالها و إهمالها بأی نحو شاء و أراد و کذا فی یده بالقبض و البسط،و الأخذ بها و الترک و نحو ذلک و لا محاله بین المالک و ملکه بهذا المعنی رابطه حقیقیه غیر قابله التغیر یوجب قیام المملوک بالمالک نحو قیام لا یستغنی عنه و لا یفارقه إلا بالبطلان کالبصر و الید إذا فارقا الإنسان و من هذا القبیل ملکه تعالی(بکسر المیم) للعالم و لجمیع أجزائه و شئونه علی الإطلاق،فله أن یتصرف فیما شاء کیفما شاء.

و من الملک(بکسر المیم)ما هو وضعی اعتباری و هو کون الشیء کالإنسان بحیث یصح له أن یتصرف فی شیء کیف شاء بحسب الرابطه التی اعتبرها العقلاء من أهل الاجتماع لغرض نیل الغایات و الأغراض الاجتماعیه،و إنما هو محاذاه منهم لما عرفوه فی الوجود من الملک الحقیقی و آثاره فاعتبروا مثله فی ظرف اجتماعهم بالوضع و الدعوی لینالوا بذلک من هذه الأعیان و الأمتعه فوائد نظیر ما یناله المالک الحقیقی من ملکه الحقیقی التکوینی.

و لکون الرابطه بین المالک و المملوک فی هذا النوع من الملک بالوضع و الاعتبار نری ما نری فیه من جواز التغیر و التحول فمن الجائز أن ینتقل هذا النوع من الملک من إنسان إلی آخر بالبیع و الهبه و سائر أسباب النقل.

و أما الملک(بالضم)فهو و إن کان من سنخ الملک(بالکسر)إلا أنه ملک لما یملکه جماعه الناس فإن الملیک مالک لما یملکه رعایاه،له أن یتصرف فیما یملکونه من غیر أن یعارض تصرفهم تصرفه،و لا أن یزاحم مشیئتهم مشیئته فهو فی الحقیقه ملک علی ملک،و هو ما نصطلح علیه بالملک الطولی کملک المولی للعبد و ما فی یده، و لهذا کان للملک(بالضم)من الأقسام ما ذکرناه للملک(بالکسر).

و الله سبحانه مالک کل شیء ملکا مطلقا أما أنه مالک لکل شیء علی الإطلاق فلأن له الربوبیه المطلقه و القیمومه المطلقه علی کل شیء فإنه خالق کل شیء و إله کل شیء،قال تعالی: «ذٰلِکُمُ اللّٰهُ رَبُّکُمْ خٰالِقُ کُلِّ شَیْءٍ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ» :المؤمن-۶۲

و قال تعالى: «لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ» :البقره-۲۵۵،إلى غير ذلك من الآيات الداله على أن كل ما يسمى شيئا فهو قائم الذات به مفتقر الذات إليه لا يستقل دونه فلا يمنعه فيما أراده منها و فيها شىء و هذا هو الملك(بالكسر)كما مر.

و أما أنه مليك على الإطلاق فهو لازم إطلاق كونه مالكا للموجودات فإن الموجودات أنفسها يملك بعضها بعضا كالأسباب حيث تملك مسبباتها،و الأشياء تملك قواها الفعاله،و القوى الفعاله تملك أفعالها كالإنسان يملك أعضاءه و قواه الفعاله من سمع و بصر و غير ذلك،و هى تملك أفعالها،و إذ كان الله سبحانه يملك كل شىء فهو يملك كل من يملك منها شيئا،و يملك ما يملكه،و هذا هو الملك(بالضم)فهو مليك على الإطلاق، قال تعالى: «لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ» :التغابن-۱،و قال تعالى: «عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ» :القمر-۵۵،إلى غير ذلك من الآيات،هذا هو الحقيقى من الملك و الملك.

و أما الاعتبارى منها فإنه تعالى مالك لأنه هو المعطى لكل من يملك شيئا من المال،و لو لم يملك لم يصح منه ذلك و لكان معطيا لما لا يملك لمن لا يملك،قال تعالى:

«وَ آتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللّهِ الَّذِى آتَاكُمْ» :النور-۳۳.

و هو تعالى مليك يملك ما فى أيدى الناس لأنه شارع حاكم يتصرف بحكمه فيما يملكه الناس كما يتصرف الملوك فيما عند رعاياهم من المال،قال تعالى: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ مَلِكِ النّاسِ» :الناس-۲،و قال تعالى: «وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا» :إبراهيم-۳۴،و قال تعالى: «وَ أَنْفِقُوا مِمّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» :الحديد-۷،و قال تعالى: «وَ مَا لَكُمْ أَلاّ تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ وَ لِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» :الحديد-۱۰،و قال تعالى: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهّارِ» :المؤمن- ۱۶،فهو تعالى يملك ما فى أيدينا قبلنا و يملكه معنا و سيراه بعدنا عز ملكه.

و من التأمل فيما تقدم يظهر أن قوله تعالى: اَللّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ،مسوق:

أولا:لبيان ملكه تعالى(بالكسر)لكل ملك(بالضم)و مالكيه الملك (بالضم)هو الملك على الملك(بالضم فيهما)فهو ملك الملوك،الذى هو المعطى لكل ملك ملكه كما قال تعالى: «أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ» :البقره-۲۵۸،و قال تعالى:

«وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً» :النساء-۵۴.

و ثانیا:یدل بتقدیم لفظ الجلاله علی بیان السبب فهو تعالی مالک الملک لأنه الله جلت کبریاؤه و هو ظاهر.

و ثالثا:أن المراد بالملک فی الآیه الشریفه و الله أعلم ما هو أعم من الحقیقی و الاعتباری فإن ما ذکر من أمره تعالی فی الآیه الأولی أعنی قوله: تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشٰاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشٰاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشٰاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشٰاءُ علی ما سنوضحه من شئون الملک الاعتباری و ما ذکره فی الآیه الثانیه من شئون الملک الحقیقی فهو مالک الملک مطلقا.

قوله تعالی: تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشٰاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشٰاءُ ،الملک بإطلاقه شامل لکل ملک حقا أو باطلا عدلا أو جورا فإن اَلْمُلْکِ (کما تقدم بیانه فی قوله: «أَنْ آتٰاهُ اللّٰهُ الْمُلْکَ» XالآیهX:البقره-۲۵۸)فی نفسه موهبه من مواهب الله و نعمه یصلح لأن یترتب علیه آثار حسنه فی المجتمع الإنسانی و قد جبل الله النفوس علی حبه و الرغبه فیه،و الملک الذی تقلده غیر أهله لیس بمذموم من حیث إنه ملک،و إنما المذموم إما تقلد من لا یلیق بتقلده کمن تقلده جورا و غصبا،و إما سیرته الخبیثه مع قدرته علی حسن السیره،و یرجع هذا الثانی أیضا بوجه إلی الأول.

و بوجه آخر یکون الملک بالنسبه إلی من هو أهله نعمه من الله سبحانه إلیه، و بالنسبه إلی غیر أهله نقمه و هو علی کل حال منسوب إلی الله سبحانه و فتنه یمتحن به عباده.

و قد تقدم:أن التعلیق علی المشیه فی أفعاله تعالی کما فی هذه الآیه لیس معناه وقوع الفعل جزافا تعالی عن ذلک بل المراد عدم کونه تعالی مجبرا فی فعله ملزما علیه فهو تعالی یفعل ما یفعل بمشیته المطلقه من غیر أن یجبره أحد أو یکرهه و إن جری فعله علی المصلحه دائما.

قوله تعالی: وَ تُعِزُّ مَنْ تَشٰاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشٰاءُ ، العز کون الشیء بحیث یصعب مناله،و لذا یقال للشیء النادر الوجود إنه عزیز الوجود أی صعب المنال،و یقال عزیز القوم لمن یصعب قهره و الغلبه علیه من بینهم فهو صعب المنال بالقهر و الغلبه،و صعب المنال من حیث مقامه فیهم و وجدانه کل ما لهم من غیر عکس ثم استعمل فی کل

صعوبه كما يقال:يعز على كـذا.قال تعالى: «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مٰا عَنِتُّمْ» :التوبه-۱۲۸، أى صعب عليه.و استعمل فى كل غلبه كما يقال.من عز بز أى من غلب سلب،قال تعالى: «وَ عَزَّنِي فِي الْخِطٰابِ» :(ص)-۲۳،أى غلبنى و الأصل فى معناه ما مر.

و يقابله الذل و هو سـهوله المنال بقهر محقق أو مفروض قال تعالى: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ» :البقره-۶۱،و قال تعالى: «وَ اخْفِضْ لَهُمٰا جَنٰاحَ الذُّلِّ» :الإسراء-۲۴،و قال تعالى أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» :المائده-۵۴.

و العزه من لوازم الملـك على الإطلاـق و كـل من سواه إذا تملـك شـيئا فهو تعالى خوله ذلك و ملكه،و إن ملك على قوم فهو تعالى آتاه ذلك فكانت العزه له تعالى محضا و ما عند غيره منها فإنما هو بإيتائه و إفضاله. قال تعالى: «أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً» :النساء-۱۳۹ و قـال تعالى: «وَ لِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ» :المنافقون-۸ و هـذه هى العزه الحقيقيه و أما غيرها فإنما هى ذل فى صوره عز.

قـال تعـالى: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقٰاقٍ» :ـص-۲ و لـذا أردفه بقـوله «كَمْ أَهْلَكْنٰا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنٰادَوْا وَ لاٰتَ حِينَ مَنٰاصٍ» :ـص-۳.

و للـذل بالمقـابله مـا يقابـل العز من الحكم فكل شـىء غيره تعالى ذليل فى نفسه إلا من أعزه الله تعالى(تُعِزُّ مَنْ تَشٰاءُ وَ تُـذِلُّ مَنْ تَشٰاءُ).

قوله تعالى: بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ،الأصل فى معنى الخير هو الانتخاب و إنما نسـمى الشىء خيرا لأنا نقيسه إلى شىء آخر نريـد أن نختـار أحـدهما فننتخبه فهـو خير و لاـ نختـاره إلاـ لكـونه متضـمنا لمـا نريـده و نقصـده فمـا نريـده هو الخير بـالحقيقه،و إن كنـا أردنـاه أيضا لشـىء آخر فـذلك الآخر هو الخير بالحقيقه،و غيره خير من جهته،فالخير بالحقيقه هو المطلوب لنفسه يسـمى خيرا لكونه هو المطلوب إذا قيس إلى غيره،و هو المنتخب من بين الأشياء إذا أردنا واحدا منها و ترددنا فى اختياره من بينها.

فالشـىء كما عرفت إنما يسمى خيرا لكونه منتخبا إذا قيس إلى شىء آخر مؤثرا بالنسبه إلى ذلك الآخر ففى معناه نسبه إلى الغير و لذا قيل:إنه صيغه التفضيل و أصله أخير.و ليس بأفعل التفضيل،و إنما يقبل انطباق معنى التفضيل على مورده فيتعلق

بغيره كما يتعلق أفعل التفضيل،يقال:زيد أفضل من عمرو،و زيد أفضلهما،و يقال:

زيد خير من عمرو،و زيد خيرهما.

و لو كان خير صيغه التفضيل لجرى فيه ما يجرى عليه،و يقال أفضل و أفاضل و فضلى و فضليات،و لا يجرى ذلك فى خير بل يقال:خير و خيره و أخيار و خيرات كما يقال:شيخ و شيخه و أشياخ و شيخات فهو صفه مشبهه.

و مما يؤيده استعماله فى موارد لا يستقيم فيه معنى أفعل التفضيل كقوله تعالى:

«قُلْ مٰا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ» :الجمعه-۱۱،فلا خير فى اللهو حتى يستقيم معنى أفعل،و قد اعتذروا عنه و عن أمثاله بأنه منسلخ فيها عن معنى التفضيل،و هو كما ترى.فالحق أن الخير إنما يفيد معنى الانتخاب،و اشتمال ما يقابله من المقيس عليه على شىء من الخير من الخصوصيات الغالبه فى الموارد.

و يظهر مما تقدم أن الله سبحانه هو الخير على الإطلاق لأنه الذى ينتهى إليه كل شىء،و يرجع إليه كل شىء،و يطلبه و يقصده كل شىء لكن القرآن الكريم لا يطلق عليه سبحانه الخير إطلاق الاسم كسائر أسمائه الحسنى جلت أسماؤه،و إنما يطلقه عليه إطلاق التوصيف كقوله تعالى: «وَ اللّٰهُ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ» :طه-۷۳،و كقوله تعالى:

«أَ أَرْبٰابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوٰاحِدُ الْقَهّٰارُ» :يوسف-۳۹.

نعم وقع الإطلاق على نحو التسميه بالإضافه كقوله تعالى: «وَ اللّٰهُ خَيْرُ الرّٰازِقِينَ» :الجمعه-۱۱،و قوله: «وَ هُوَ خَيْرُ الْحٰاكِمِينَ» :الأعراف-۸۷،و قوله «وَ هُوَ خَيْرُ الْفٰاصِلِينَ» ، :الأنعام-۵۷ و قوله: «وَ هُوَ خَيْرُ النّٰاصِرِينَ» :آل عمران-۱۵۰،و قوله «وَ اللّٰهُ خَيْرُ الْمٰاكِرِينَ» :آل عمران-۵۴،و قوله: «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفٰاتِحِينَ» :الأعراف-۸۹، و قوله: «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغٰافِرِينَ» :الأعراف-۱۵۵،و قوله: «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوٰارِثِينَ» :الأنبياء-۸۹،و قوله: «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» :المؤمنين-۲۹،و قوله: «وَ أَنْتَ خَيْرُ الرّٰاحِمِينَ» :المؤمنون-۱۰۹.

و لعل الوجه فى جميع ذلك اعتبار ما فى ماده الخير من معنى الانتخاب فلم يطلق إطلاق الاسم عليه تعالى صونا لساحته تعالى أن يقاس إلى غيره بنحو الإطلاق و قد عنت الوجوه لجنابه،و أما التسميه عند الإضافه و النسبه،و كذا التوصيف فى الموارد

المقتضیه لذلک فلا محذور فیه.

و الجمله أعنی قوله تعالی: بِيَدِكَ الْخَيْرُ تدل علی حصر الخیر فیه تعالی لمکان اللام و تقدیم الظرف الذی هو الخبر،و المعنی أن أمر کل خیر مطلوب إلیک،و أنت المعطی المفیض إیاه.

فالجمله فی موضع التعلیل لما تقدمت علیها من الجمل أعنی قوله: تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشٰاءُ «إلخ»من قبیل تعلیل الخاص بما یعمه و غیره أعنی أن الخیر الذی یؤتیه تعالی أعم من الملک و العزه،و هو ظاهر.

و کما یصح تعلیل إیتاء الملک و الإعزاز بالخیر الذی بیده تعالی کذلک یصح تعلیل نزع الملک و الإذلال فإنهما و إن کانا شرین لکن لیس الشر إلا عدم الخیر فنزع الملک لیس إلا عدم الإعزاز فانتهاء کل خیر إلیه تعالی هو الموجب لانتهاء کل حرمان من الخیر بنحو إلیه تعالی نعم الذی یجب انتفاؤه عنه تعالی هو الاتصاف بما لا یلیق بساحه قدسه من نواقص أفعال العباد و قبائح المعاصی إلا بنحو الخذلان و عدم التوفیق کما مر البحث عن ذلک.

و بالجمله هناک خیر و شر تکوینیان کالملک و العزه و نزع الملک و الذله،و الخیر التکوینی أمر وجودی من إیتاء الله تعالی،و الشر التکوینی إنما هو عدم إیتاء الخیر و لا ضیر فی انتسابه إلی الله سبحانه فإنه هو المالک للخیر لا یملکه غیره،فإذا أعطی غیره شیئا من الخیر فله الأمر و له الحمد،و إن لم یعط أو منع فلا حق لغیره علیه حتی یلزمه علیه فیکون امتناعه من الإعطاء ظلما،علی أن إعطاءه و منعه کلیهما مقارنان للمصالح العامه الدخیله فی صلاح النظام الدائر بین أجزاء العالم.

و هناک خیر و شر تشریعیان و هما أقسام الطاعات و المعاصی،و هما الأفعال الصادره عن الإنسان من حیث انتسابها إلی اختیاره،و لا تستند من هذه الجهه إلی غیر الإنسان قطعا،و هذه النسبه هی الملاک لحسنها و قبحها و لو لا فرض اختیار فی صدورها لم تتصف بحسن و لا قبح،و هی من هذه الجهه لا تنتسب إلیه تعالی إلا من حیث توفیقه تعالی و عدم توفیقه لمصالح تقتضی ذلک.

فقد تبین:أن الخیر کله بید الله و بذلک ینتظم أمر العالم فی اشتماله علی کل

وجدان و حرمان و خير و شر.

و قد ذكر بعض المفسرين:أن فى قوله: بِيَدِكَ الْخَيْرُ إيجازا بالحذف،و التقدير:

بيدك الخير و الشر كما قيل نظير ذلك فى قوله تعالى: «وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرٰابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ» :النحل-٨١،أى و البرد.

و كان السبب فى ذلك الفرار عن الاعتزال لقول المعتزله بعدم استناد الشرور إليه تعالى:و هو من عجيب الاجتراء على كلامه تعالى،و المعتزله و إن أخطئوا فى نفى الانتساب نفيا مطلقا حتى بالواسطه لكنه لا يجوز هذا التقدير الغريب،و قد تقدم البحث عن ذلك و بيان حقيقه الأمر.

قوله تعالى: إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فى مقام التعليل لكون الخير بيده تعالى فإن القدره المطلقه على كل شىء توجب أن لا يقدر أحد على شىء إلا بإقداره تعالى إياه على ذلك،و لو قدر أحد على شىء من غير أن تستند قدرته إلى إقداره تعالى كان مقدوره من هذه الجهه خارجا عن سعه قدرته تعالى فلم يكن قديرا على كل شىء،و إذا كانت لقدرته هذه السعه كان كل خير مفروض مقدورا عليه له تعالى،و كان أيضا كل خير إفاضه غيره منسوبا إليه مفاضا عن يديه فهو له أيضا فجنس الخير الذى لا يشذ منه شاذ بيده،و هذا هو الحصر الذى يدل عليه قوله تعالى: بِيَدِكَ الْخَيْرُ .

قوله تعالى: تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهٰارِ وَ تُولِجُ النَّهٰارَ فِي اللَّيْلِ ، الولوج هو الدخول، و الظاهر كما ذكروه أن المراد من إيلاج الليل فى النهار،و إيلاج النهار فى الليل ما هو المشاهد من اختلاف الليل و النهار فى عرض السنه بحسب اختلاف عروض البقاع و الأمكنه على بسيط الأرض،و اختلاف ميول الشمس فتأخذ الأيام فى الطول و الليالى فى القصر و هو ولوج النهار فى الليل بعد انتهاء الليالى فى الطول من أول الشتاء إلى أول الصيف،ثم يأخذ الليالى فى الطول و الأيام فى القصر و هو ولوج الليل فى النهار بعد انتهاء النهار فى الطول من أول الصيف إلى أول الشتاء،كل ذلك فى البقاع الشماليه، و الأمر فى البقاع الجنوبيه على عكس الشماليه منها،فالطول فى جانب قصر فى الجانب الآخر فهو تعالى يولج الليل فى النهار و النهار فى الليل دائما،أما الاستواء فى خط الإستواء و القطبين فإنما هو بحسب الحس و أما فى الحقيقه فحكم التغيير دائم و شامل.

قوله تعالى: وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ و ذلك إخراج المؤمن من صلب الكافر،و إخراج الكافر من صلب المؤمن فإنه تعالى سمى الإيمان حيوه و نورا و الكفر موتا و ظلمه كما قال تعالى: «أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها» :الأنعام-١٢٢،و يمكن أن يراد الأعم من ذلك و من خلق الأحياء كالنبات و الحيوان من الأرض العديمه الشعور و إعاده الأحياء إلى الأرض بإماتتها فإن كلامه تعالى كالصريح في أنه يبدل الميت إلى الحي و الحي إلى الميت،قال تعالى: «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ» :المؤمنون-١٥،إلى غيرها من الآيات.

و أما ما ذهب إليه بعض علماء الطبيعه:أن الحيوه التي تنتهي إلى جراثيمها تسلك فيها سلوكا من جرثومه حيه إلى أخرى مثلها من غير أن تنتهي إلى الماده الفاقده للشعور،و ذلك لإنكاره الكون الحادث،فيبطله الموت المحسوس الذي تثبته التجربه في جراثيم الحيوه فتبدل الحيوه إلى الموت يكشف عن الربط بينهما،و لبقيه الكلام مقام آخر.

و الآيه أعني قوله تعالى «تُولِجُ»اللَّيْلَ فِي النَّهارِ إلخ تصف تصرفه تعالى في الملك الحقيقي التكويني كما أن الآيه السابقه أعني قوله: تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ «إلخ»تصف تصرفه في الملك الاعتباري الوضعي و توابعه.

و قد وضع في كل من الآيتين أربعه أنحاء من التصرف بنحو التقابل فوضع في الأولى إيتاء الملك و نزعه و بحذائهما في الثانيه إيلاج الليل في النهار و عكسه،و وضع الإعزاز و الإذلال و بحذائهما إخراج الحي من الميت و عكسه،و في ذلك من عجيب اللطف و لطيف المناسبه ما لا يخفى فإن إيتاء الملك نوع تسليط لبعض أفراد الناس على الباقين بإعفاء قدر من حريتهم و إطلاقهم الغريزي و إذهابها كتسليط الليل على النهار بإذهاب الليل بعض ما كان يظهره النهار،و نزع الملك بالعكس من ذلك،و كذا إعطاء العزه نوع إحياء لمن كان خامد الذكر خفي الأثر لولاها،نظير إخراج الحي من الميت، و الإذلال بالعكس من ذلك،و في العزه حيوه و في الذله ممات.

و هنا وجه آخر:و هو أن الله عد النهار في كلامه آيه مبصره و الليل آيه ممحوه قال تعالى: «فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً» :الإسراء-١٢،و مظهر

هـذا الإثبات و الإمحاء فی المجتمع الإنسانی ظهور الملک و السـلطنه و زواله،و عـد الحیوه و الموت مصدرین للآثار من العلم و القـدره کما قال تعالی: «أَمْوٰاتٌ غَیْرُ أَحْیٰاءٍ وَ مٰا یَشْـعُرُونَ أَیّٰانَ یُبْعَثُونَ :النحل-۲۱،و خص العزه لنفسه و لرسـوله و للمؤمنین حیث قال:

«وَ لِلّٰهِ الْعِزَّهُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ» :المنافقون-۸،و هم الذین یذکرهم بالحیوه فصارت العزه و الذله مظهرین فی المجتمع الإنسانی للحیـاه و الموت،و لهـذا قابـل مـا ذکره فی الآـیه الأولی من إیتاء الملک و نزعه و الإعزاز و الإذلال بما فی الآیه الثانیه من إیلاج اللیل فی النهار و عکسه و إخراج الحی من المیت و عکسه.

ثم وقعت المقـابله بین مـا ذکره فی الآـیه الثـانیه: وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشٰـاءُ بِغَیْرِ حِسٰـابٍ ، و مـا ذکره فی الآیه الأولی: بِیَدِکَ الْخَیْرُ ،کما سیجیء بیانه.

قوله تعـالی: وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشٰـاءُ بِغَیْرِ حِسٰـابٍ ،المقـابله المـذکوره آنفـا تعطی أن یکون قوله: وَ تَرْزُقُ «إلـخ»بیانا لما سـبقه من إیتاء الملک و العز و الإیلاج و غیره،فالعطف عطف تفسیر فیکون من قبیل بیان الخاص من الحکم بما هو أعم منه کما أن قوله:

بِیَدِکَ الْخَیْرُ

،بالنسبه إلی ما سبقه من هذا القبیل،و المعنی:أنک متصرف فی خلقک بهذه التصرفات لأنک ترزق من تشاء بغیر حساب.

معنی الرزق فی القرآن

الرزق معروف و الـذی یتحصـل من موارد اسـتعماله أن فیه شوبا من معنی العطاء کرزق الملک الجنـدی و یقال لما قرره الملک لجندیه مما یؤتاه جمله:رزقه،و کان یختص بما یتغذی به لا غیر کما قال تعالی: «وَ عَلَی الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ کِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، :البقره-۲۳۳،فلم یعد الکسوه رزقا.

ثم توسع فی معناه فعـد کل ما یصل الإنسان من الغـذاء رزقا کأنه عطیه بحسب الحظ و الجد و إن لم یعلم معطیه،ثم عمم فسـمی کل ما یصل إلی الشـیء مما ینتفع به رزقا و إن لم یکن غذاء کسائر مزایا الحیوه من مال و جاه و عشیره و أعضاد و جمال و علم و غیر ذلک، قال تعالی: «تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرٰاجُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ هُوَ خَیْرُ الرّٰازِقِینَ» :المؤمنون-۷۲،و قال فیما یحکی عن شعیب «قٰالَ یٰا قَوْمِ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کُنْتُ عَلیٰ

بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّی وَ رَزَقَنِی مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً :هود-۸۸،و المراد به النبوه و العلم،إلی غیر ذلک من الآیات.

و المتحصل من قوله تعالی: «إِنَّ اللّهَ هُوَ الرَّزّاقُ ذُو الْقُوَّهِ الْمَتِینُ» :الذاریات -۵۸،و المقام مقام الحصر:أولا:أن الرزق بحسب الحقیقه لا ینتسب إلا إلیه فما ینسب إلی غیره تعالی من الرزق کما یصدقه أمثال قوله تعالی: «وَ اللّهُ خَیْرُ الرّازِقِینَ» :الجمعه-۱۱،حیث أثبت رازقین و عده تعالی خیرهم،و قوله: «وَ ارْزُقُوهُمْ فِیها وَ اکْسُوهُمْ» :النساء-۵،کل ذلک من قبیل النسبه بالغیر کما أن الملک و العزه لله تعالی لذاته و لغیره بإعطائه و إذنه فهو الرزاق لا غیر.

و ثانیا:أن ما ینتفع به الخلق فی وجودهم مما ینالونه من خیر فهو رزقهم و الله رازقه،و یدل علی ذلک-مضافا إلی آیات الرزق علی کثرتها-آیات کثیره أخر کالآیات الداله علی أن الخلق و الأمر و الحکم و الملک(بکسر المیم)و المشیه و التدبیر و الخیر لله محضا عز سلطانه.

و ثالثا:أن ما ینتفع به الإنسان انتفاعا محرما لکونه سببا للمعصیه لا ینسب إلیه تعالی لأنه تعالی نفی نسبه المعصیه إلی نفسه من جهه التشریع.قال تعالی: قُلْ إِنَّ اللّهَ لا یَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَی اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» :الأعراف-۲۸، و قال تعالی:

«إِنَّ اللّهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ Xإلی أن قالX: وَ یَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ» :النحل-۹۰ و حاشاه سبحانه أن ینهی عن شیء ثم یأمر به أو ینهی عنه ثم یحصر رزقه فیه.

و لا منافاه بین عدم کون نفع محرم رزقا بحسب التشریع و کونه رزقا بحسب التکوین إذ لا تکلیف فی التکوین حتی یستتبع ذلک قبحا،و ما بینه القرآن من عموم الرزق إنما هو بحسب حال التکوین،و لیس البیان الإلهی بموقوف علی الأفهام الساذجه العامیه حتی یضرب صفحا عن التعرض للمعارف الحقیقیه،و فی القرآن شفاء لجمیع القلوب لا یستضر به إلا الخاسرون.قال تعالی: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ لا یَزِیدُ الظّالِمِینَ إِلاّ خَساراً» :الإسراء-۸۲.

علی أن الآیات تنسب الملک الذی لأمثال نمرود و فرعون و الأموال و الزخارف التی بید أمثال قارون إلی إیتاء الله سبحانه فلیس إلا أن ذلک کله بإذن الله آتاهم

ذلک امتحانا و إتماما للحجه و خذلانا و استدراجا و نحو ذلک و هذا کله نسب تشریعیه، و إذا صحت النسبه التشریعیه من غیر محذور لزوم القبح فصحه النسبه التکوینیه التی لا مجال للحسن و القبح العقلائیین فیها أوضح.

ثم إنه تعالی ذکر أن کل شیء فهو مخلوق له منزل من عنده من خزائن رحمته کما قال: «وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ» :الحجر-٢١، و ذکر أیضا أن ما عنده فهو خیر.قال تعالی: «وَ ما عِنْدَ اللّهِ خَیْرٌ» :القصص -٦٠،و انضمام الآیتین و ما فی معناهما من الآیات یعطی أن کل ما یناله شیء فی العالم و یتلبس به مدی وجوده فهو من الله سبحانه و هو خیر له ینتفع به و یتنعم بسببه کما یفیده أیضا قوله تعالی: «الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ» :الم السجده-٧،مع قوله تعالی: «ذلِکُمُ اللّهُ رَبُّکُمْ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ» :المؤمن-٦٤.

و أما کون بعض ما ینال الأشیاء من المواهب الإلهیه شرا یستضر به فإنما شریته و إضراره نسبی متحقق بالنسبه إلی ما یصیبه خاصه مع کونه خیرا نافعا بالنسبه إلی آخرین و بالنسبه إلی علله و أسبابه فی نظام الکون کما مر یشیر إلیه قوله تعالی: «وَ ما أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَهٍ فَمِنْ نَفْسِکَ» :النساء-٧٩،و قد مر البحث عن هذا المعنی فیما مر.

و بالجمله جمیع ما یفیضه الله علی خلقه من الخیر و کله خیر ینتفع به یکون رزقا بحسب انطباق المعنی إذ لیس الرزق إلا العطیه التی ینتفع بها الشیء المرزوق،و ربما أشار إلیه قوله تعالی وَ رِزْقُ رَبِّکَ خَیْرٌ» :طه-١٣١.

و من هنا یظهر أن الرزق و الخیر و الخلق بحسب المصداق علی ما یبینه القرآن أمور متساویه فکل رزق خیر و مخلوق،و کل خلق رزق و خیر،و إنما الفرق:أن الرزق یحتاج إلی فرض مرزوق یرتزق به فالغذاء رزق للقوه الغاذیه لاحتیاجها إلیه، و الغاذیه رزق للواحد من الإنسان لاحتیاجه إلیها،و الواحد من الإنسان رزق لوالدیه لانتفاعهما به،و کذا وجود الإنسان خیر للإنسان بفرضه عاریا عن هذه النعمه الإلهیه، قال تعالی: «الَّذِی أَعْطی کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ:» طه-٥٠.

و الخیر یحتاج إلی فرض محتاج طالب یختار من بین ما یواجهه ما هو مطلوبه فالغذاء خیر للقوه الغاذیه بفرضها محتاجه إلیه طالبه له تنتخبه و تختاره إذا أصابته، و القوه الغاذیه خیر للإنسان،و وجود الإنسان خیر له بفرضه محتاجا طالبا.

و أما الخلق و الإيجاد فلا يحتاج من حيث تحقق معناه إلى شيء ثابت أو مفروض فالغذاء مثلا مخلوق موجد فی نفسه،و كذا القوه الغاذيه مخلوقه،و الإنسان مخلوق.

و لما كان كل رزق لله،و كل خير لله محضا فما يعطيه تعالى من عطيه،و ما أفاضه من خير و ما يرزقه من رزق فهو واقع من غير عوض،و بلا شيء مأخوذ فی مقابله إذ كل ما فرضنا من شیء فهو له تعالى حقا،و لا استحقاق هناك إذ لا حق لأحد عليه تعالى إلا ما جعل هو على نفسه من الحق كما جعله فی مورد الرزق،قال تعالى: «وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا» :هود-۶،و قال: «فَوَ رَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ» :الذاريات-۲۳.

فالرزق مع كونه حقا على الله لكونه حقا مجعولا من قبله عطيه منه من غير استحقاق للمرزوق من جهه نفسه بل من جهه ما جعله على نفسه من الحق.

و من هنا يظهر أن للإنسان المرتزق بالمحرمات رزقا مقدرا من الحلال بنظر التشريع فإن ساحته تعالى منزهه من أن يجعل رزق إنسان حقا ثابتا على نفسه ثم يرزقه من وجه الحرام ثم ينهاه عن التصرف فيه و يعاقبه عليه.

و توضيحه ببيان آخر أن الرزق لما كان هو العطيه الإلهيه بالخير كان هو الرحمه التی له على خلقه،و كما أن الرحمه رحمتان:رحمه عامه تشمل جميع الخلق من مؤمن و كافر،و متق و فاجر،و إنسان و غير إنسان،و رحمه خاصه و هی الرحمه الواقعه فی طريق السعاده كالإيمان و التقوى و الجنه،كذلك الرزق منه ما هو رزق عام،و هو العطيه الإلهيه العامه الممده لكل موجود فی بقاء وجوده،و منه ما هو رزق خاص، و هو الواقع فی مجرى الحل.

و كما أن الرحمه العامه و الرزق العام مكتوبان مقدران،قال تعالى وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً» :الفرقان-۲،كذلك الرحمه الخاصه و الرزق الخاص مكتوبان مقدران،و كما أن الهدى-و هو رحمه خاصه-مكتوب مقدر تقديرا تشريعيا لكل إنسان مؤمنا كان أو كافرا،و لذلك أرسل الرسل و أنزل الكتب،قال تعالى: «وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ» :الذاريات-۵۸،و قال تعالى: «وَ قَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ» :الإسراء-۲۳،فالعباده و هی تستلزم الهدى و تتوقف عليه مقضيه مقدره

ص: ۱۴۰

تشريعا،كذلك الرزق الخاص-و هو الذى عن مجرى الحل-مقضى مقدر، قال تعالى: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاٰدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مٰا رَزَقَهُمُ اللّٰهُ افْتِرٰاءً عَلَى اللّٰهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ» :الأنعام-١۴٠،و قال تعالى «وَ اللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلىٰ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوٰاءٌ» :النحل-٧١،و الآيتان كما ترى ذواتا إطلاق قطعى يشمل الكافر و المؤمن و من يرتزق بالحلال و من يرتزق بالحرام.

و من الواجب أن يعلم:أن الرزق كما مر من معناه هو الذى ينتفع به من العطيه على قدر ما ينتفع فمن أوتى الكثير من المال و هو لا يأكل إلا القليل منه فإنما رزقه هو الذى أكله و الزائد الباقى ليس من الرزق إلا من جهه الإيتاء دون الأكل فسعه الرزق و ضيقه غير كثره المال مثلا و قلته،و للكلام فى الرزق تتمه ستمر بك فى قوله تعالى: «وَ مٰا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاّٰ عَلَى اللّٰهِ رِزْقُهٰا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهٰا وَ مُسْتَوْدَعَهٰا كُلٌّ فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ» :هود-۶.

و لنرجع إلى ما كنا فيه من الكلام فى قوله تعالى: وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشٰاءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ فنقول توصيف الرزق بكونه بغير حساب إنما هو لكون الرزق منه تعالى بالنظر إلى حال المرزوقين بلا عوض و لا استحقاق لكون ما عندهم من استدعاء أو طلب أو غير ذلك مملوكا له تعالى محضا فلا يقابل عطيته منهم شىء فلا حساب لرزقه تعالى.

و أما كون نفى الحساب راجعا إلى التقدير بمعنى كونه غير محدود و لا مقدر فيدفعه آيات القدر كقوله تعالى: «إِنّٰا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنٰاهُ بِقَدَرٍ» :القمر-۴٩،و قوله:

«وَ مَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً» :الطلاق-٣،فالرزق منه تعالى عطيه بلا عوض لكنه مقدر على ما يريده تعالى.

و قد تحصل من الآيتين أولا أن الملك(بضم الميم)كله لله كما أن الملك(بكسر الميم)كله لله.

و ثانيا:أن الخير كله بيده و منه تعالى.

و ثالثا:أن الرزق عطيه منه تعالى بلا عوض و استحقاق.

و رابعا أن الملک و العزه و کل خیر اعتباری من خیرات الاجتماع کالمال و الجاه و القوه و غیر ذلک کل ذلک من الرزق المرزوق.

بحث روائی

فی الکافی،عن عبد الأعلی مولی آل سام عن أبی عبد الله(ع) قال: قلت له:

قُلِ اللّٰهُمَّ مٰالِکَ الْمُلْکِ-تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشٰاءُ-وَ تَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشٰاءُ

أ لیس قد آتی الله بنی أمیه الملک؟قال:لیس حیث تذهب،إن الله عز و جل آتانا الملک،و أخذته بنی أمیه بمنزله الرجل یکون له الثوب-فیأخذه الآخر فلیس هو للذی أخذه:

أقول:و روی مثله العیاشی عن داود بن فرقد عنه(ع)

:و إیتاء الملک علی ما تقدم بیانه یکون علی وجهین إیتاء تکوینی،و هو انبساط السلطنه علی الناس، و نفوذ القدره فیهم،سواء کان ذلک بالعدل أو بالظلم کما قال تعالی فی نمرود: «أَنْ آتٰاهُ اللّٰهُ الْمُلْکَ »و أثره نفوذ الکلمه و مضی الأمر و الإراده،و سنبحث عن معنی کونه تکوینیا، و إیتاء تشریعی،و هو القضاء بکونه ملکا مفترض الطاعه کما قال تعالی: «إِنَّ اللّٰهَ قَدْ بَعَثَ لَکُمْ طٰالُوتَ مَلِکاً» :البقره-۲۴۷،و أثره افتراض الطاعه،و ثبوت الولایه، و لا یکون إلا العدل،و هو مقام محمود عند الله سبحانه،و الذی کان لبنی أمیه من الملک هو المعنی الأول و أثره و قد اشتبه الأمر علی راوی الحدیث فأخذ ملکهم بالمعنی الأول و أخذ معه أثر المعنی الثانی و هو المقام الشرعی،و الحمد الدینی فنبهه(ع) أن الملک بهذا المعنی لیس لبنی أمیه بل هو لهم و لهم أثره،و بعباره أخری:الملک الذی لبنی أمیه إنما یکون محمودا إذا کان فی أیدیهم(ع)،و أما فی أیدی بنی أمیه فلیس إلا مذموما لأنه مغصوب و علی هذا فلا ینسب إلی إیتاء الله إلا بنحو المکر و الاستدراج کما فی ملک نمرود و فرعون.

و قد اشتبه الأمر علی هؤلاء أنفسهم أعنی بنی أمیه فی هذه الآیه ففی الإرشاد،فی قصه إشخاص یزید بن معاویه رءوس شهداء الطف قال المفید:و لما وضعت الرءوس و فیها رأس الحسین(ع)قال یزید:

نفلق هاما من رجال أعزه

علینا و هم کانوا أعق و أظلما

ص:۱۴۲

قال:ثم أقبل على أهل مجلسه فقال:إن هذا كان يفخر على و يقول:أبى خير من أب يزيد،و أمى خير من أمه،و جدى خير من جده،و أنا خير منه فهذا الذى قتله فأما قوله بأن أبى خير من أب يزيد فلقد حاج أبى أباه فقضى الله لأبى على أبيه،و أما قوله بأن أمى خير من أم يزيد فلعمرى لقد صدق إن فاطمه بنت رسول الله خير من أمى،و أما قوله:جدى خير من جده فليس لأحد يؤمن بالله و اليوم الآخر أن يقول بأنه خير من محمد،و أما قوله بأنه خير منى فلعله لم يقرأ هذه الآيه: قُلِ اللّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ الآيه.

و ردت زينب بنت على(ع)عليه قوله بمثل ما ذكره الصادق (ع)فى الروايه السابقه على

ما رواه السيد بن طاووس و غيره": فقالت فيما خاطبته:

أ ظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض-و آفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى-أن بنا على الله هوانا و بك عليه كرامه،و إن ذلك لعظم خطرك عنده-فشمخت بأنفك،و نظرت فى عطفك جذلان مسرورا-حين رأيت الدنيا لك مستوسقه،و الأمور متسقه،و حين صفا لك ملكنا و سلطاننا،مهلا مهلا،أ نسيت قول الله: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا-أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ-إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ الخطبه.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ الآيه،قيل معناه:و تخرج المؤمن من الكافر و تخرج الكافر من المؤمن،قال:و روى ذلك عن أبى جعفر و أبى عبد الله(ع).

أقول:و روى قريبا منه الصدوق عن العسكرى(ع).

و فى الدر المنثور،أخرج ابن مردويه من طريق أبى عثمان النهدى عن ابن مسعود أو عن سلمان عن النبى ص: يخرج الحى من الميت و يخرج الميت من الحى قال:المؤمن من الكافر و الكافر من المؤمن

و فيه،أيضا بالطريق السابق عن سلمان الفارسى قال قال رسول الله ص:

لما خلق الله آدم(ع)أخرج ذريته فقبض قبضه بيمينه فقال:هؤلاء أهل الجنه و لا أبالى،و قبض بالأخرى قبضه فجاء فيها كل ردىء فقال.هؤلاء أهل النار و لا أبالى-

فخلط بعضهم ببعض فيخرج الكافر من المؤمن-و يخرج المؤمن من الكافر فذلك قوله:

تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ

.

أقول:و روى هذا المعنى عن عده من أصحاب التفسير عن سلمان أيضا مقطوعا، و الروايه من أخبار الذر و الميثاق،و سيجىء بيانها فى موضع يليق بها إن شاء الله.

و فى الكافى،عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد و عده من أصحابنا عن سهل بن زياد عن ابن محبوب عن أبى حمزه الثمالى عن أبى جعفر(ع)قال:قال رسول الله ص فى حجه الوداع: ألا- إن الروح الأمين نفث فى روعى:أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها-فاتقوا الله و أجملوا فى الطلب،و لا يحملنكم استبطاء شىء من الرزق- أن تطلبوه بشىء من معصيه الله-فإن الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالا،و لم يقسمها حراما فمن اتقى الله و صبر أتاه رزقه من حله،و من هتك حجاب ستر الله عز و جل و أخذه من غير حله-قص به من رزقه الحلال،و حوسب عليه.

و فى النهج،قال(ع): الرزق رزقان:رزق تطلبه،و رزق يطلبك-فإن لم تأته أتاك فلا تحمل هم سنتك يومك، كفاك كل يوم ما فيه-فإن تكن السنه من عمرك-فإن الله تعالى جده سيؤتيك فى كل غد جديد ما قسم لك،و إن لم تكن السنه من عمرك فما تصنع بالهم لما ليس لك،و لن يسبقك إلى رزقك طالب،و لن يغلبك عليه غالب، و لن يبطئ عنك ما قد قدر لك.

و فى قرب الإسناد:،ابن طريف عن ابن علوان عن جعفر عن أبيه(ع) قال:قال رسول الله ص: إن الرزق لينزل من السماء إلى الأرض-على عدد قطر المطر إلى كل نفس بما قدر لها،و لكن لله فضول فاسألوا الله من فضله.

أقول:و الروايات فى هذه المعانى كثيره،و سيجىء استيفاء البحث عن أخبار الرزق فى سوره هود إن شاء الله تعالى.

بحث علمى [فى معنى الملك و اعتباره]

قد تقدم فى بعض ما مر من الأبحاث السابقه:أن اعتبار أصل الملك(بالكسر) من الاعتبارات الضروريه التى لا غنى للبشر عنها فى حال سواء كان منفردا أو مجتمعا،

و أن أصله ينتهى إلى اعتبار الاختصاص فهذا حال الملك(بالكسر).

و أما الملك (بالضم)و هو السلطنه على الأفراد فهو أيضا من الاعتبارات الضروريه التى لا غنى للإنسان عنها لكن الذى يحتاج إليه ابتداء هو الاجتماع من حيث تألفه من أجزاء كثيره مختلفه المقاصد متباينه الإرادات دون الفرد من حيث إنه فرد فإن الأفراد المجتمعين لتباين إراداتهم و اختلاف مقاصدهم لا يلبثون دون أن يقع الاختلاف بينهم فيتغلب كل على الآخرين فى أخذ ما بأيديهم،و التعدى على حومه حدودهم و هضم حقوقهم فيقع الهرج و المرج،و يصير الاجتماع الذى اتخذوه وسيله إلى سعاده الحيوه ذريعه إلى الشقاء و الهلاك،و يعود الدواء داء،و لا سبيل إلى رفع هذه الغائله الطاريه إلا بجعل قوه قاهره على سائر القوى مسيطره على جميع الأفراد المجتمعين حتى تعيد القوى الطاغيه المستعليه إلى حاق الوسط،و ترفع الدانيه المستهلكه إليه أيضا فتتحد جميع القوى من حيث المستوى ثم تضع كل واحده منها فى محلها الخاص و تعطى كل ذى حق حقه.

و لما لم تكن الإنسانيه فى حين من الأحيان خاليه الذهن عن فكر الاستخدام كما مر بيانه سالفا لم يكن الاجتماعات فى الأعصار السالفه خاليه عن رجال متغلبين على الملك مستعلين على سائر الأفراد المجتمعين ببسط الرقيه و التملك على النفوس و الأموال، و كانت بعض فوائد الملك الذى ذكرناه-و هو وجود من يمنع عن طغيان بعض الأفراد على بعض-يترتب على وجود هذا الصنف من المتغلبين المستعلين المتظاهرين باسم الملك فى الجمله و إن كانوا هم أنفسهم و أعضادهم و جلاوزتهم قوى طاغيه من غير حق مرضى، و ذلك لكونهم مضطرين إلى حفظ الأفراد فى حال الذله و الاضطهاد حتى لا يتقوى من يثب على حقوق بعض الأفراد فيثب يوما عليهم أنفسهم كما أنهم أنفسهم وثبوا على ما فى أيدى غيرهم.

و بالجمله بقاء جل الأفراد على حال التسالم خوفا من الملوك المسيطرين عليهم كان يصرف الناس عن الفكر فى اعتبار الملك الاجتماعى و إنما يشتغلون بحمد سيره هؤلاء المتغلبين إذا لم يبلغ تعديهم مبلغ جهدهم و يتظلمون و يشتكون إذا بلغ بهم الجهد، و حمل عليهم من التعدى ما يفوق طاقتهم.

نعم ربما فقدوا بعض هؤلاء المتسمين بالملوک و الرؤساء بهلاک أو قتل أو نحو ذلک، و أحسوا بالفتنه و الفساد،و هددهم اختلال النظم و وقوع الهرج فبادروا إلى تقديم بعض أولى الطول و القوه منهم،و ألقوا إليه زمام الملک فصار ملکا يملک أزمه الأمور ثم يعود الأمر على ما کان عليه من التعدى و التحميل.

و لم تزل الاجتماعات على هذه الحال برهه بعد برهه حتى تضجرت من سوء سير هؤلاء المتسمين بالملوک فى مظالمهم باستبدادهم فى الرأى و إطلاقهم فيما يشاءون فوضعت قوانين تعين وظائف الحکومه الجاريه بين الأمم و أجبرت الملوک باتباعها و صار الملک ملکا مشروطا بعد ما کان مطلقا،و اتحد الناس على التحفظ على ذلک،و کان الملک موروثا.

ثم أحست اجتماعات ببغى ملوکهم و سوء سيرهم و لا سبيل إليهم بعد رکوب أريکه الملک،و تثبيتهم کون الملک موهبه غير متغيره موروثه فبدلوا الملک برئاسه الجمهور فانقلب الملک المؤبد المشروط إلى ملک مؤجل مشروط،و ربما وجد فى الأقوام و الأمم المختلفه أنواع من الملک دعاهم إلى وضعه الفرار عن المظالم التى شاهدوها ممن بيده زمام أمرهم،و ربما حدث فى مستقبل الأيام ما لم ينتقل أفهامنا إليه إلى هذا الآن.

لکن الذى يتحصل من جميع هذه المساعى التى بذلتها الاجتماعات فى سبيل إصلاح هذا الأمر أعنى إلقاء زمام الأمه إلى من يدبر أمرها،و يجمع شتات إراداتها المتضاده و قواها المتنافيه:أن لا غنى للمجتمع الإنسانى عن هذا المقام و هو مقام الملک و إن تغيرت أسماؤه،و تبدلت شرائطه بحسب اختلاف الأمم،و مرور الأيام فإن طروق الهرج و المرج،و اختلال أمر الحياه الاجتماعيه على جميع التقادير من لوازم عدم اجتماع أزمه الإرادات و المقاصد فى إراده واحده لإنسان واحد أو مقام واحد.

و هذا هو الذى تقدم فى أول الکلام أن الملک من الاعتبارات الضروريه فى الاجتماع الإنسانى.

و هو مثل سائر الموضوعات الاعتباريه التى لم يزل الاجتماع بصدد تکميلها و إصلاحها و رفع نواقصها و آثارها المضاده لسعاده الإنسانيه.

و للنبوه فى هذا الإصلاح السهم الأوفى فإن من المسلم فى علم الاجتماع:أن انتشار

قول ما من الأقوال بين العامه و خاصه إذا كان مما يرتبط بالغريزه،و يستحسنه القريحه، و يطمئن إليه النفوس المتوقعه أقوى سبب لتوحيد الميول المتفرقه و جعل الجماعات المتشتته يدا واحدا تقبض و تبسط بإراده واحده لا يقوم لها شیء.

و من الضروری:أن النبوه منذ أقدم عهود ظهورها تدعو الناس إلى العدل، و تمنعهم عن الظلم،و تندبهم إلى عباده الله و التسليم له،و تنهاهم عن اتباع الفراعنه الطاغين،و النمارده المستكبرين المتغلبين،و لم تزل هذه الدعوه بين الأمم منذ قرون متراكمه جيلا بعد جيل،و أمه بعد أمه و إن اختلفت بحسب السعه و الضيق باختلاف الأمم و الأزمنه،و من المحال أن يلبث مثل هذا العامل القوى بين الاجتماعات الإنسانيه قرونا متماديه و هو منعزل عن الأثر خال عن الفعل.

و قد حكى القرآن الكريم فی ذلک شيئا كثيرا من الوحی المنزل على الأنبياء (ع)كما حكى عن نوح فيما يشكوه لربه: «رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِی وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّ خَساراً وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبّاراً وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ» :نوح-٢٣، و كذا ما وقع بينه و بين عظماء قومه من الجدال على ما يحكيه القرآن،قال تعالى:

«قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قالَ وَ ما عِلْمِی بِما كانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسابُهُمْ إِلاّ عَلى رَبِّی لَوْ تَشْعُرُونَ» :الشعراء-١١٣، و قول هود(ع)لقومه: «أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّارِينَ» :الشعراء- ١٣٠،و قول صالح(ع)لقومه: «فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَطِيعُونِ وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ» :الشعراء-١٥٢.

و لقد قام موسى(ع)للدفاع عن بنی إسرائيل و معارضه فرعون فی سيرته الجائره الظالمه،و انتهض قبله إبراهيم(ع)لمعارضه نمرود و من بعده عيسى بن مريم (ع)و سائر أنبياء بنی إسرائيل فی معارضه مترفی أعصارهم من الملوک و العظماء، و تقبيح سيرهم الظالمه،و دعوه الناس إلى رفض طاعه المفسدين و اتباع الطاغين.

و أما القرآن فاستنهاضه الناس على الامتناع عن طاعه الإفساد و الإباء عن الضيم، و إنباؤه عن عواقب الظلم و الفساد و العدوان و الطغيان مما لا يخفى قال تعالى: «أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِی لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِی الْبِلادِ وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ وَ فِرْعَوْنَ ذِی الْأَوْتادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِی الْبِلادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ

سَوْطَ عَذٰابٍ إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصٰادِ» :الفجر-۱۴،إلی غیر ذلک من الآیات.

و أما أن الملک(بالضم)من ضروریات المجتمع الإنسانی فیکفی فی بیانه أتم بیان قوله تعالی بعد سرد قصه طالوت: «وَ لَوْ لاٰ دَفْعُ اللّٰهِ النّٰاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ ذُو فَضْلٍ عَلَی الْعٰالَمِینَ» :البقره-۲۵۱،و قد مر بیان کیفیه دلاله الآیه بوجه عام.

و فی القرآن آیات کثیره تتعرض للملک و الولایه و افتراض الطاعه و نحو ذلک، و أخری تعده نعمه و موهبه کقوله تعالی: «وَ آتَیْنٰاهُمْ مُلْکاً عَظِیماً» :النساء-۵۴، و قوله تعالی: «وَ جَعَلَکُمْ مُلُوکاً وَ آتٰاکُمْ مٰا لَمْ یُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعٰالَمِینَ» :المائده-۲۰، و قوله تعالی: «وَ اللّٰهُ یُؤْتِی مُلْکَهُ مَنْ یَشٰاءُ» :البقره-۲۴۷،إلی غیر ذلک من الآیات.

غیر أن القرآن إنما یعده کرامه إذا اجتمع مع التقوی لحصره الکرامه علی التقوی من بین جمیع ما ربما یتخیل فیه شیء من الکرامه من مزایا الحیوه،قال تعالی: «یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثیٰ وَ جَعَلْنٰاکُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاکُمْ» :الحجرات-۱۳،و التقوی حسابه علی الله لیس لأحد أن یستعلی به علی أحد فلا فخر لأحد علی أحد بشیء لأنه إن کان أمرا دنیویا فلا مزیه لأمر دنیوی،و لا قدر إلا للدین و إن کان أمرا أخرویا فأمره إلی الله سبحانه ،و علی الجمله لا یبقی للإنسان المتلبس بهذه النعمه أعنی الملک فی نظر رجل مسلم إلا تحمل الجهد و مشقه التقلد و الأعباء نعم له عند ربه عظیم الأجر و مزید الثواب إن لازم صراط العدل و التقوی.

و هذا هو روح السیره الصالحه التی لازمها أولیاء الدین،و سنشبع إن شاء الله العزیز هذا المعنی فی بحث مستقل فی سیره رسول الله ص و الطاهرین من آله الثابته بالآثار الصحیحه،و أنهم لم ینالوا من ملکهم إلا أن یثوروا علی الجبابره فی فسادهم فی الأرض و یعارضوهم فی طغیانهم و استکبارهم.

و لذلک لم یدع القرآن الناس إلی الاجتماع علی تأسیس الملک،و تشیید بنیان القیصریه و الکسرویه،و إنما تلقی الملک شأنا من الشئون اللازمه المراعاه فی المجتمع الإنسانی نظیر التعلیم أو إعداد القوه لإرهاب الکفار.

بل إنما دعا الناس إلی الاجتماع و الاتحاد و الاتفاق علی الدین،و نهاهم عن

التفرق و الشقاق فيه،و جعله هو الأصل،فقال تعالى: «وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» :الأنعام-۱۵۳،و قال تعالى: «قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوٰاءٍ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَكُمْ أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّٰهَ وَ لاٰ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لاٰ يَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ» :آل عمران-۶۴،فالقرآن-كما ترى-لا يدعو الناس إلا إلى التسليم لله وحده و يعتبر من المجتمع المجتمع الديني،و يدحض ما دون ذلك من عباده الأنداد،و الخضوع لكل قصر مشيد،و منتدى رفيع و ملك قيصري و كسروي و التفرق بإفراز الحدود و تفريق الأوطان و غير ذلك.

بحث فلسفي [في استناد الملك و سائر الأمور الاعتباريه إليه تعالى.]

لا ريب أن الواجب تعالى هو الذي تنتهي إليه سلسله العليه في العالم،و إن الرابطه بينه و بين العالم جزءا و كلا هي رابطه العليه،و قد تبين في أبحاث العله و المعلول أن العليه إنما هي في الوجود بمعنى أن الوجود الحقيقي في المعلول هو المترشح من وجود علته،و أما غيره كالماهيه فهو بمعزل عن الترشح و الصدور و الافتقار إلى العله،و ينعكس بعكس النقيض إلى أن ما لا وجود حقيقي له فليس بمعلول و لا منته إلى الواجب تعالى.

و يشكل الأمر في استناد الأمور الاعتباريه المحضه إليه تعالى إذ لا وجود حقيقي لها أصلا،و إنما وجودها و ثبوتها ثبوت اعتباري لا يتعدى ظرف الاعتبار و الوضع و حيطه الفرض،و ما يشتمل عليه الشريعه من الأمر و النهي و الأحكام و الأوضاع كلها أمور اعتباريه فيشكل نسبتها إليه تعالى،و كذا أمثال الملك و العز و الرزق و غير ذلك.

و الذي تحل به العقده أنها و إن كانت عاريه عن الوجود الحقيقي إلا أن لها آثارا هي الحافظه لأسمائها كما مر مرارا،و هذه الآثار أمور حقيقيه مقصوده بالاعتبار و لها نسبه إليه تعالى فهذه النسبه هي المصححه لنسبتها فالملك الذي بيننا أهل الاجتماع و إن كان أمرا اعتباريا وضعيا لا نصيب لمعناه من الوجود الحقيقي،و إنما هو

معنی متوهم لنا جعلناه وسیله إلی البلوغ إلی آثار خارجیه لم یکن یمکننا البلوغ إلیها لو لا فرض هذا المعنی الموهوم و تقدیره،و هی قهر المتغلبین و أولی السطوه و القوه من أفراد الاجتماع الواثبین علی حقوق الضعفاء و الخاملین،و وضع کل من الأفراد فی مقامه الذی له،و إعطاء کل ذی حق حقه،و غیر ذلک.

لکن لما کان حقیقه معنی الملک و اسمه باقیا ما دامت هذه الآثار الخارجیه باقیه مترتبه علیه فاستناد هذه الآثار الخارجیه إلی عللها الخارجیه هو عین استناد الملک إلیه،و کذلک القول فی العزه الاعتباریه،و آثارها الخارجیه و استنادها إلی عللها الحقیقه،و کذلک الأمر فی غیرها کالأمر و النهی و الحکم و الوضع و نحو ذلک.

و من هنا یتبین:أن لها جمیعا استنادا إلی الواجب تعالی باستناد آثارها إلیه علی حسب ما یلیق بساحه قدسه و عزه

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۲۸ الی ۳۲]

اشاره

لاٰ یَتَّخِذِ اَلْمُؤْمِنُونَ اَلْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِینَ وَ مَنْ یَفْعَلْ ذٰلِکَ فَلَیْسَ مِنَ اَللّٰهِ فِی شَیْءٍ إِلاّٰ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰاهً وَ یُحَذِّرُکُمُ اَللّٰهُ نَفْسَهُ وَ إِلَی اَللّٰهِ اَلْمَصِیرُ (۲۸) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مٰا فِی صُدُورِکُمْ أَوْ تُبْدُوهُ یَعْلَمْهُ اَللّٰهُ وَ یَعْلَمُ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۲۹) یَوْمَ تَجِدُ کُلُّ نَفْسٍ مٰا عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُحْضَراً وَ مٰا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَهٰا وَ بَیْنَهُ أَمَداً بَعِیداً وَ یُحَذِّرُکُمُ اَللّٰهُ نَفْسَهُ وَ اَللّٰهُ رَؤُفٌ بِالْعِبٰادِ (۳۰) قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اَللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اَللّٰهُ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۱) قُلْ أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اَللّٰهَ لاٰ یُحِبُّ اَلْکٰافِرِینَ (۳۲)

بیان

الآیات غیر خالیه عن الارتباط بما تقدمها بناء علی ما ذکرناه فی الآیات السابقه:

أن المقام مقام التعرض لحال أهل الکتاب و المشرکین و التعریض لهم،فالمراد بالکافرین إن کان یعم أهل الکتاب فهذه الآیات تنهی عن تولیهم و الامتزاج الروحی بالمشرکین و بهم جمیعا،و إن کان المراد بهم المشرکین فحسب فالآیات متعرضه لهم و دعوه إلی ترکهم و الاتصال بحزب الله،و حب الله و طاعه رسوله.

قوله تعالی: لاٰ یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ ، الأولیاء جمع الولی من الولایه و هی فی الأصل ملک تدبیر أمر الشیء فولی الصغیر أو المجنون أو المعتوه هو الذی یملک تدبیر أمورهم و أمور أموالهم فالمال لهم و تدبیر أمره لولیهم،ثم استعمل و کثر استعماله فی مورد الحب لکونه یستلزم غالبا تصرف کل من المتحابین فی أمور الآخر لإفضائه إلی التقرب و التأثر عن إراده المحبوب و سائر شئونه الروحیه فلا یخلو الحب عن تصرف المحبوب فی أمور المحب فی حیوته.

فاتخاذ الکافرین أولیاء هو الامتزاج الروحی بهم بحیث یؤدی إلی مطاوعتهم و التأثر منهم فی الأخلاق و سائر شئون الحیوه و تصرفهم فی ذلک،و یدل علی ذلک تقیید هذا النهی بقوله: مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ ،فإن فیه دلاله علی إیثار حبهم علی حب المؤمنین،و إلقاء أزمه الحیوه إلیهم دون المؤمنین،و فیه الرکون إلیهم و الاتصال بهم و الانفصال عن المؤمنین.

و قد تکرر ورود النهی فی الآیات الکریمه عن تولی الکافرین و الیهود و النصاری و اتخاذهم أولیاء لکن موارد النهی مشتمله علی ما یفسر معنی التولی المنهی عنه، و یعرف کیفیه الولایه المنهی عنها کاشتمال هذه الآیه علی قوله: مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ بعد قوله: لاٰ یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ ،و اشتمال قوله تعالی: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا الْیَهُودَ وَ النَّصٰاریٰ أَوْلِیٰاءَ» Xالآیه X:المائده-۵۱،علی قوله: بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ ،و تعقب قوله تعالی: «یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا عَدُوِّی وَ عَدُوَّکُمْ أَوْلِیٰاءَ» Xالآیه X:الممتحنه-۱،بقوله: لاٰ یَنْهٰاکُمُ اللّٰهُ عَنِ الَّذِینَ لَمْ یُقٰاتِلُوکُمْ فِی الدِّینِ إلی آخر الآیات.

و علی هذا فأخذ هذه الأوصاف فی قوله: لاٰ یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ

دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

للدلاله على سبب الحكم و علته،و هو أن صفتى الكفر و الإيمان مع ما فيهما من البعد و البينونه و لا محاله يسرى ذلك إلى من اتصف بهما فيفرق بينهما فى المعارف و الأخلاق و طريق السلوك إلى الله تعالى و سائر شئون الحيوه لا يلائم حالهما مع الولايه فإن الولايه يوجب الاتحاد و الامتزاج،و هاتان الصفتان توجبان التفرق و البينونه،و إذا قويت الولايه كما إذا كان من دون المؤمنين أوجب ذلك فساد خواص الإيمان و آثاره ثم فساد أصله،و لذلك عقبه بقوله: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ ،ثم عقبه أيضا بقوله: إِلاّٰ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰاةً ،فاستثنى التقيه فإن التقيه إنما توجب صوره الولايه فى الظاهر دون حقيقتها.

و دون فى قوله: مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ كأنه ظرف يفيد معنى عند مع شوب من معنى السفاله و القصور،و المعنى:مبتدئا من مكان دون مكان المؤمنين فإنهم أعلى مكانا.

و الظاهر أن ذلك هو الأصل فى معنى دون فكان فى الأصل يفيد معنى الدنو مع خصوصيه الانخفاض فقولهم دونك زيد أى هو فى مكان يدنو من مكانك و أخفض منه كالدرجه دون الدرجه ثم استعمل بمعنى غير كقوله: «إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ» :المائده-۱۱۶،و قوله: «وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ» :النساء-۴۸،أى ما سوى ذلك أو ما هو أدون من ذلك و أهون،كذا استعمل اسم فعل كقولهم:دونك زيدا أى الزمه،كل ذلك من جهه الانطباق على المورد دون الاشتراك اللفظى.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ ،أى و من يتخذهم أولياء من دون المؤمنين،و إنما بدل من لفظ عام للإشعار بنهايه نفره المتكلم منه حتى أنه لا يتلفظ به إلا بلفظ عام كالتكنيه عن القبائح،و هو شائع فى اللسان،و لذلك أيضا لم يقل:و من يفعل ذلك من المؤمنين كأن فيه صونا للمؤمنين من أن ينسب إليهم مثل هذا الفعل.

و من فى قوله: مِنَ اللّٰهِ ،للابتداء،و يفيد فى أمثال هذا المقام معنى التحزب أى ليس من حزب الله فى شىء كما قال تعالى: «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْغٰالِبُونَ» :المائده-۵۶،و كما فيما حكاه عن إبراهيم(ع)من قوله:

«فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي» :إبراهيم-۳۶،أى من حزبى،و كيف كان فالمعنى و الله أعلم:ليس من حزب الله مستقرا فى شىء من الأحوال و الآثار.

قوله تعالی: إِلاّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰاةً ، الاتقاء فی الأصل أخذ الوقایه للخوف ثم ربما استعمل بمعنی الخوف استعمالا للمسبب فی مورد السبب و لعل التقیه فی المورد من هذا القبیل.

و الاستثناء منقطع فإن التقرب من الغیر خوفا بإظهار آثار التولی ظاهرا من غیر عقد القلب علی الحب و الولایه لیس من التولی فی شیء لأن الخوف و الحب أمران قلبیان متباینان و متنافیان أثرا فی القلب فکیف یمکن اتحادهما؟فاستثناء الاتقاء استثناء منقطع.

و فی الآیه دلاله ظاهره علی الرخصه فی التقیه علی ما روی عن أئمه أهل البیت (ع)کما تدل علیه الآیه النازله فی قصه عمار و أبویه یاسر و سمیه و هی قوله تعالی:

«مَنْ کَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِیمٰانِهِ إِلاّٰ مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمٰانِ وَ لٰکِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْکُفْرِ صَدْراً فَعَلَیْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللّٰهِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ» :النحل-۱۰۶.

و بالجمله الکتاب و السنه متطابقان فی جوازها فی الجمله،و الاعتبار العقلی یؤکده إذ لا بغیه للدین،و لا هم لشارعه إلا ظهور الحق و حیاته،و ربما یترتب علی التقیه و المجاراه مع أعداء الدین و مخالفی الحق من حفظ مصلحه الدین و حیوه الحق ما لا یترتب علی ترکها،و إنکار ذلک مکابره و تعسف،و سنستوفی الکلام فیها فی البحث الروائی التالی،و فی الکلام علی قوله تعالی: «مَنْ کَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِیمٰانِهِ إِلاّ مَنْ أُکْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِیمٰانِ» :النحل-۱۰۶.

قوله تعالی: وَ یُحَذِّرُکُمُ اللّٰهُ نَفْسَهُ وَ إِلَی اللّٰهِ الْمَصِیرُ ، التحذیر تفعیل من الحذر و هو الاحتراز من أمر مخیف و قد حذر الله عباده من عذابه کما قال تعالی: «إِنَّ عَذٰابَ رَبِّکَ کٰانَ مَحْذُوراً» :إسراء-۵۷،و حذر من المنافقین و فتنه الکفار فقال: «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» :المنافقین-۴،و قال: «وَ احْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ» :المائده-۴۹، و حذرهم من نفسه کما فی هذه الآیه و ما یأتی بعد آیتین،و لیس ذلک إلا للدلاله علی أن الله سبحانه نفسه هو المخوف الواجب الاحتراز فی هذه المعصیه،أی لیس بین هذا المجرم و بینه تعالی شیء مخوف آخر حتی یتقی عنه بشیء أو یتحصن منه بحصن ،و إنما هو الله الذی لا عاصم منه،و لا أن بینه و بین الله سبحانه أمر مرجو فی دفع الشر عنه من ولی

و لا شفيع،ففى الكلام أشد التهديد،و يزيد فى اشتداده تكراره مرتين فى مقام واحد و يؤكده تذييله أولا بقوله: وَ إِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ ،و ثانيا بقوله: وَ اللّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبٰادِ على ما سيجىء من بيانه.

و من جهه أخرى:يظهر من مطاوى هذه الآيه و سائر الآيات الناهيه عن اتخاذ غير المؤمنين أولياء أنه خروج عن زى العبوديه،و رفض لولايه الله سبحانه، و دخول فى حزب أعدائه لإفساد أمر الدين،و بالجمله هو طغيان و إفساد لنظام الدين الذى هو أشد و أضر بحال الدين من كفر الكافرين و شرك المشركين فإن العدو الظاهر عدواته المباين طريقته مدفوع عن الحومه سهل الاتقاء و الحذر،و أما الصديق و الحميم إذا استأنس مع الأعداء و دب فيه أخلاقهم و سننهم فلا يلبث فعاله إلا أن يذهب بالحومه و أهلها من حيث لا يشعرون،و هو الهلاك الذى لا رجاء للحياه و البقاء معه.

و بالجمله هو طغيان،و أمر الطاغى فى طغيانه إلى الله سبحانه نفسه،قال تعالى:

«أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعٰادٍ إِرَمَ ذٰاتِ الْعِمٰادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهٰا فِي الْبِلاٰدِ وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جٰابُوا الصَّخْرَ بِالْوٰادِ وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتٰادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاٰدِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسٰادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذٰابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصٰادِ» :الفجر-۱۴،فالطغيان يسلك بالطاغى مسلكا يورده المرصاد الذى ليس به إلا الله جلت عظمته فيصب عليه سوط عذاب و لا مانع.

و من هنا يظهر:أن التهديد بالتحذير من الله نفسه فى قوله: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ ، لكون المورد من مصاديق الطغيان على الله بإبطال دينه و إفساده.

و يدل على ما ذكرناه قوله تعالى: «فَاسْتَقِمْ كَمٰا أُمِرْتَ وَ مَنْ تٰابَ مَعَكَ وَ لاٰ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَ لاٰ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّٰارُ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ أَوْلِيٰاءَ ثُمَّ لاٰ تُنْصَرُونَ» :هود-۱۱۳،و هذه آيه ذكر رسول الله ص:

أنها شيبته-على ما فى الروايه-فإن الآيتين-كما هو ظاهر للمتدبر-ظاهرتان فى أن الركون إلى الظالمين من الكافرين طغيان يستتبع مس النار استتباعا لا ناصر معه،و هو الانتقام الإلهى لا عاصم منه و لا دافع له كما تقدم بيانه.

و من هنا يظهر أيضا:أن فى قوله: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ ،دلاله على أن التهديد إنما هو بعذاب مقضى قضاء حتما من حيث تعليق التحذير بالله نفسه الدال على عدم

حائل يحول فی البين،و لا عاصم من الله سبحانه و قد أوعد بالعذاب فينتج قطعيه الوقوع كما يدل على مثله قوله فی آيتی سوره هود: فَتَمَسَّكُمُ النّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ .

و فی قوله: وَ إِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ دلاله على أن لا مفر لكم منه و لا صارف له،ففيه تأكيد التهديد السابق عليه.

و الآيات أعنی قوله تعالى: لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ الآيه و ما يتبعها من الآيات من ملاحم القرآن،و سيجیء بيانه إن شاء الله فی سوره المائده.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِی صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ ،الآيه نظيره قوله تعالى: «وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِی أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ» :البقره-۲۸۴،غير أنه لما كان الأنسب بحال العلم أن يتعلق بالمخفی بخلاف الحساب فإن الأنسب له أن يتعلق بالبادی الظاهر قدم ذكر الإخفاء فی هذه الآيه على ذكر الإبداء،و جرى بالعكس منه فی آيه البقره كما قيل.

و قد أمر فی الآيه رسوله بإبلاغ هذه الحقيقه-و هو علمه بما تخفيه أنفسهم أو تبديه-من دون أن يباشره بنفسه كسابق الكلام،و ليس ذلك إلا ترفعا عن مخاطبه من يستشعر من حاله أنه سيخالف ما وصاه كما مر ما يشبه ذلك فی قوله:

وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ

.

و فی قوله تعالى: وَ يَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ مضاهاه لما مر من آيه البقره و قد مر الكلام فيه.

قوله تعالى: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ، الظاهر من اتصال السياق أنه من تتمه القول فی الآيه السابقه الذی أمر به النبی ص، و الظرف متعلق بمقدر أی و اذكر يوم تجد،أو متعلق بقوله: يَعْلَمْهُ اللّهُ وَ يَعْلَمُ ،و لا ضير فی تعليق علمه تعالى بما سنشاهده من أحوال يوم القيامه فإن هذا اليوم ظرف لعلمه تعالى بالنسبه إلى ظهور الأمر لنا لا بالنسبه إلى تحققه منه تعالى،و ذلك كظهور ملكه و قدرته و قوته فی اليوم،قال تعالى: «يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللّهِ مِنْهُمْ شَیْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ» :المؤمن-۱۶،و قال: «لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ» :هود-۴۳، و قال: «وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً» :البقره-۱۶۵،

و قال: «وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ» :الانفطار-١٩،إذ من المعلوم أن الله سبحانه له كل الملك و القدره و القوه و الأمر دائما-قبل القيامه و فيها و بعدها-و إنما اختص يوم القيامه بظهور هذه الأمور لنا معاشر الخلائق ظهورا لا ريب فيه.

و من ذلک یظهر أن تعلق الظرف بقوله: يَعْلَمْهُ اللّهُ ،لا يفيد تأخر علمه تعالى بسرائر عباده من خير أو شر إلى يوم القيامه.

على أن فی قوله تعالى: مُحْضَراً ،دون أن يقول:حاضرا دلاله على ذلک فإن الإحضار إنما يتم فيما هو موجود غائب فالأعمال موجوده محفوظه عن البطلان يحضرها الله تعالى لخلقه يوم القيامه،و لا حافظ لها إلا الله سبحانه،قال تعالى: «وَ رَبُّکَ عَلىٰ کُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ» :سبأ-٢١ و قال: «وَ عِنْدَنا کِتابٌ حَفِيظٌ» :ق-۴.

و قوله: تَجِدُ ،من الوجدان خلاف الفقدان،و من فی قوله: مِنْ خَيْرٍ و مِنْ سُوءٍ للبيان،و التنكير للتعميم،أی تجد كل ما عملت من الخير و إن قل و كذا من السوء و قوله: وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ،معطوف على قوله ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ على ما هو ظاهر السياق و الآيه من الآيات الداله على تجسم الأعمال،و قد مر البحث عنها فی سوره البقره.

قوله تعالى: تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ،الظاهر أنه خبر لمبتدإ محذوف و هو الضمير الراجع إلى النفس،و لَوْ للتمنی،و قد كثر دخوله فی القرآن على أن المفتوحه المشدده،فلا يعبأ بما قيل من عدم جوازه و تأويل ما ورد فيه ذلک من الموارد.

و الأمد يفيد معنى الفاصله الزمانيه،قال الراغب فی مفردات القرآن:الأمد و الأبد يتقاربان،لكن الأبد عباره عن مده الزمان التی ليس لها حد محدود،و لا يتقيد،لا يقال:أبد كذا،و الأمد مده لها حد مجهول إذا أطلق،و قد ينحصر نحو أن يقال:أمد كذا،كما يقال:زمان كذا،و الفرق بين الزمان و الأمد،أن الأمد يقال باعتبار الغايه،و الزمان عام فی المبدإ و الغايه،و لذا قال بعضهم:الأمد و المدى يتقاربان،انتهى.

و فی قوله: تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ،دلاله على أن حضور سيئ العمل يسوء النفس كما يشعر بالمقابله بأن حضور خير العمل يسرها،و إنما تود الفاصله الزمانيه بينها و بينه دون أن تود أنه لم يكن من أصله لما يشاهد من بقائه بحفظ الله فلا يسعها

إلا أن تحب بعده و عدم حضوره فى أشق الأحوال،و عند أعظم الأهوال كما يقول لقرين السوء نظير ذلك،قال تعالى: «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ Xإلى أن قالX: حَتّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ» :الزخرف-٣٨.

قوله تعالى: وَ يُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَ اللّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ ذكر التحذير ثانيا يعطى من أهميه المطلب و البلوغ فى التهديد ما لا يخفى،و يمكن أن يكون هذا التحذير الثانى ناظرا إلى عواقب المعصيه فى الآخره كما هو مورد نظر هذه الآيه،و التحذير الأول ناظرا إلى وبالها فى الدنيا أو فى الأعم من الدنيا و الآخره.

و أما قوله: وَ اللّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ فهو-على كونه حاكيا عن رأفته و حنانه تعالى المتعلق بعباده كما يحكى عن ذلك الإتيان بوصف العبوديه و الرقيه-دليل آخر على تشديد التهديد إذ أمثال هذا التعبير فى موارد التخويف و التحذير إنما يؤتى بها لتثبيت التخويف و إيجاد الإذعان بأن المتكلم ناصح لا يريد إلا الخير و الصلاح،تقول:إياك أن تتعرض لى فى أمر كذا فإنى آليت أن لا أسامح مع من تعرض لى فيه،إنما أخبرك بهذا رأفه بك و شفقه.

فيئول المعنى-و الله أعلم-إلى مثل أن يقال:إن الله لرأفته بعباده ينهاهم قبلا أن يتعرضوا لمثل هذه المعصيه التى وبال أمرها واقع لا محاله من غير أن يؤثر فيه شفاعه شافع و لا دفع دافع.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ،قد تقدم كلام فى معنى الحب،و أنه يتعلق بحقيقه معناه بالله سبحانه كما يتعلق بغيره فى تفسير قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلّهِ» Xالآيه X:البقره-١۶۵.

و نزيد عليه هاهنا:أنه لا ريب أن الله سبحانه-على ما ينادى به كلامه-إنما يدعو عبده إلى الإيمان به و عبادته بالإخلاص له و الاجتناب عن الشرك كما قال تعالى:

«أَلا لِلّهِ الدِّينُ الْخالِصُ» :الزمر-٣ ،و قال تعالى: «وَ ما أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» :البينه-۵،و قال تعالى: «فَادْعُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ» :المؤمن-١۴،إلى غير ذلك من الآيات.

و لا شك أن الإخلاص فى الدين إنما يتم على الحقيقه إذا لم يتعلق قلب الإنسان

-الذی لا یرید شیئا و لا یقصد أمرا إلا عن حب نفسی و تعلق قلبی-بغیره تعالی من معبود أو مطلوب کصنم أو ند أو غایه دنیویه بـل و لاـ مطلوب أخروی کفوز بـالجنه أو خلاـص من النـار و إنمـا یکون متعلق قلبه هو الله تعالی فی معبودیته،فالإخلاص لله فی دینه إنما یکون بحبه تعالی.

ثم الحب الـذی هو بحسب الحقیقه الوسـیله الوحیـده لارتبـاط کـل طـالب بمطلوبه و کل مریـد بمراده إنما یجـذب المحب إلی محبوبه لیجده و یتم بالمحبوب ما للمحب من النقص و لا بشـری للمحب أعظم من أن یبشر أن محبوبه یحبه،و عند ذلک یتلاقی حبان، و یتعاکس دلالان.

فالإنسان إنما یحب الغـذاء و ینجـذب لیجده و یتم به ما یجده فی نفسه من النقص الذی آتیه الجوع،و کذا یحب النکاح لیجد ما تطلبه منه نفسه الـذی علامته الشـبق و کـذا یرید لقاء الصدیق لیجده و یملک لنفسه الأنس و له یضـیق صدره،و کذا العبد یحب مولاه و الخادم ربما یتوله لمخـدومه لیکون مولی له حق المولویه،و مخدوما له حق المخدومیه، و لو تأملت موارد التعلق و الحب أو قرأت قصص العشاق و المتولهین علی اختلافهم لم تشک فی صدق ما ذکرناه.

فالعبـد المخلص لله بالحب لا بغیه له إلا أن یحبه الله سـبحانه کما أنه یحب الله و یکون الله له کما یکون هو لله عز اسـمه فهذا هو حقیقه الأمر غیر أن الله سـبحانه لا یعـد فی کلامه کل حب له حبا و(الحب فی الحقیقه هو العلقه الرابطه التی تربط أحد الشـیئین بالآخر)علی ما یقضـی به ناموس الحب الحاکم فی الوجود فإن حب الشـیء یقتضـی حب جمیع ما یتعلق به،و یوجب الخضوع و التسـلیم لکل ما هو فی جانبه،و الله سـبحانه هو الله الواحد الأحد الذی یعتمد علیه کل شـیء فی جمیع شئون وجوده و یبتغی إلیه الوسـیله و یصـیر إلیه کل ما دق و جل،فمن الواجب أن یکون حبه و الإخلاص له بالتدین له بدین التوحید و طریق الإسـلام علی قدر ما یطیقه إدراک الإنسان و شعوره،و إن الدین عند الله الإسلام،و هذا هو الدین الذی یندب إلیه سفراؤه،و یدعو إلیه أنبیاؤه و رسـله،و خاصه دین الإسـلام الذی فیه من الإخلاص ما لا إخلاص فوقه، و هو الدین الفطری الذی یختم به الشـرائع و طرق النبوه کما یختم بصادعه الأنبیاء(ع) ،و هذا الذی ذکرناه مما لا یرتاب فیه المتدبر فی کلامه تعالی.

ص :۱۵۸

و قد عرف النبی ص سبیله الذی سلکه بسبیل التوحید،و طریقه الإخلاص علی ما أمره الله سبحانه حیث قال: «قُلْ هٰذِهِ سَبِیلِی أَدْعُوا إِلَی اللّٰهِ عَلیٰ بَصِیرَهٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِی وَ سُبْحٰانَ اللّٰهِ وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِکِینَ» :یوسف-۱۰۸،فذکر أن سبیله الدعوه إلی الله علی بصیره و الإخلاص لله من غیر شرک فسبیله دعوه و إخلاص،و اتباعه و اقتفاء أثره إنما هو فی ذلک فهو صفه من اتبعه.

ثم ذکر الله سبحانه أن الشریعه التی شرعها له(ص)هی الممثله لهذا السبیل سبیل الدعوه و الإخلاص فقال: «ثُمَّ جَعَلْنٰاکَ عَلیٰ شَرِیعَهٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهٰا» :الجاثیه- ۱۸،و ذکر أیضا أنه إسلام لله حیث قال: «فَإِنْ حَاجُّوکَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِیَ لِلّٰهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ» :آل عمران-۲۰،ثم نسبه إلی نفسه و بین أنه صراطه المستقیم فقال: «وَ أَنَّ هٰذٰا صِرٰاطِی مُسْتَقِیماً فَاتَّبِعُوهُ» :الأنعام-۱۵۳،فتبین بذلک کله أن(الإسلام و هو الشریعه المشرعه للنبی ص الذی هو مجموع المعارف الأصلیه و الخلقیه و العملیه و سیرته فی الحیوه)هو سبیل الإخلاص عند الله سبحانه الذی یعتمد و یبتنی علی الحب،فهو دین الإخلاص،و هو دین الحب.

و من جمیع ما تقدم علی طوله یظهر معنی الآیه التی نحن بصدد تفسیرها،أعنی قوله: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللّٰهُ فالمراد-و الله أعلم-إن کنتم تریدون أن تخلصوا لله فی عبودیتکم بالبناء علی الحب حقیقه فاتبعوا هذه الشریعه التی هی مبنیه علی الحب الذی ممثله الإخلاص و الإسلام و هو صراط الله المستقیم الذی یسلک بسالکه إلیه تعالی،فإن اتبعتمونی فی سبیلی و شأنه هذا الشأن أحبکم الله و هو أعظم البشاره للمحب،و عند ذلک تجدون ما تریدون،و هذا هو الذی یبتغیه محب بحبه،هذا هو الذی تقتضیه الآیه الکریمه بإطلاقها.

و أما بالنظر إلی وقوعها بعد الآیات الناهیه عن اتخاذ الکفار أولیاء و ارتباطها بما قبلها فهذه الولایه لکونها تستدعی فی تحققها تحقق الحب بین الإنسان و بین من یتولی کما تقدم کانت الآیه ناظره إلی دعوتهم إلی اتباع النبی ص إن کانوا صادقین فی دعواهم ولایه الله و أنهم من حزبه فإن ولایه الله لا یتم باتباع الکافرین فی أهوائهم(و لا ولایه إلا باتباع)و ابتغاء ما عندهم من مطامع الدنیا من عز و مال بل تحتاج إلی اتباع نبیه فی دینه کما قال تعالی: «ثُمَّ جَعَلْنٰاکَ عَلیٰ شَرِیعَهٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهٰا وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَ الَّذِینَ

لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ» :الجاثيه-١٩،انظر إلى الانتقال من معنى الاتباع إلى معنى الولايه فى الآيه الثانيه.

فمن الواجب على من يدعى ولايه الله بحبه أن يتبع الرسول حتى ينتهى ذلك إلى ولايه الله له بحبه.

و إنما ذكر حب الله دون ولايته لأنه الأساس الذى تبتنى عليه الولايه،و إنما اقتصر على ذكر حب الله تعالى فحسب لأن ولايه النبى و المؤمنين تئول بالحقيقه إلى ولايه الله.

قوله تعالى: وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ،الرحمه الواسعه الإلهيه و ما عنده من الفيوضات المعنويه و الصوريه غير المتناهيه غير موقوفه على شخص أو صنف من أشخاص عباده و أصنافهم،و لا استثناء هناك يحكم على إطلاق إفاضته، و لا سبيل يلزمه على الإمساك إلا حرمان من جهه عدم استعداد المستفيض المحروم أو مانع أبداه بسوء اختياره،قال تعالى: «وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» الإسراء-٢٠.

و الذنوب هى المانعه من نيل ما عنده من كرامه القرب و الزلفى و جميع الأمور التى هى من توابعها كالجنه و ما فيها،و إزاله رينها عن قلب الإنسان و مغفرتها و سترها عليه هى المفتاح الوحيد لانفتاح باب السعاده و الدخول فى دار الكرامه،و لذلك عقب قوله: يُحْبِبْكُمُ اللّهُ بقوله: وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ،فإن الحب كما تقدم يجذب المحب إلى المحبوب،و كما كان حب العبد لربه يستدعى منه التقرب بالإخلاص له و قصر العبوديه فيه كذلك حبه تعالى لعبده يستدعى قربه من العبد،و كشفه حجب البعد و سبحات الغيبه،و لا حجاب إلا الذنب فيستدعى ذلك مغفره الذنوب،و أما ما بعده من الكرامه و الإفاضه فالجود كاف فيه كما تقدم آنفا.

و التأمل فى قوله تعالى: «كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ» :المطففين-١٥ مع قوله تعالى فى هذه الآيه:« يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ »كاف فى تأييد ما ذكرناه.

قوله تعالى: قُلْ أَطِيعُوا اللّهَ وَ الرَّسُولَ ،إلخ لما كانت الآيه السابقه تدعو إلى

اتباع الرسول،و الاتباع و هو اقتفاء الأثر لا يتم إلا مع كون المتبع(اسم مفعول) سألك سبيل،و السبيل الـذى يسـلكه النبى ص إنما هو الصـراط المسـتقيم الذى هو لله سـبحانه،و هو الشـريعه التى شرعها لنبيه و افترض طاعته فيه كرر ثانيا فى هذه الآيه معنى اتباع النبى ص فى قالب الإطاعه إشـعارا بأن سبيل الإخلاص الذى هو سبيل النبى هو بعينه مجموع أوامر و نواه و دعوه و إرشاد فيكون اتبـاع الرسول فى سـلوك سبيله هو إطـاعه الله و رسوله فى الشـريعه المشـرعه.و لعـل ذكره تعـالى مع الرسول للإشـعار بـأن الأمر واحد،و ذكر الرسول معه سبحانه لأن الكلام فى اتباعه.

و من هنا يظهر عدم استقامه ما ذكره بعضهم فى الآيه:أن المعنى:أطيعوا الله فى كتابه و الرسول فى سنته.

و ذلـك أنه منـاف لمـا يلـوح من المقـام من أن قـوله: قُـلْ أَطِيعُـوا اللّٰهَ وَ الرَّسُـولَ «إلـخ»كـالمبين لقوله:« قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی »،على أن الآيه مشـعره بكون إطاعه الله و إطاعه الرسول واحـده،و لـذا لم يكرر الأمر،و لو كان مورد الإطاعه مختلفا فى الله و رسوله لكـان الأنسب أن يقـال:أطيعوا الله و أطيعوا الرسول كمـا فى قوله تعـالى: «أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْكُمْ» :النساء-۵۹، كما لا يخفى.

و اعلم أن الكلام فى هذه الآيه من حيث إطلاقها و من حيث انطباقها على المورد نظير الكلام فى الآيه السابقه.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ الْكٰافِرِينَ ،فيه دلاله على كفر المتولى عن هـذا الأمر كما يدل على ذلك سائر آيات النهى عن تولى الكفـار و فيه أيضـا إشـعار بكون هـذه الآـيه كالمبينه لسابقتها حيث ختمت بنفى الحب عن الكافرين بأمر الإطاعه،و قد كانت الآيه الأولى متضمنه لإثبات الحب للمؤمنين المنقادين لأمر الاتباع فافهم ذلك.

و قد تبين من الكلام فى هذه الآيات الكريمه أمور:

أحدها:الرخصه فى التقيه فى الجمله.

و ثانيها:أن مؤاخذه تولى الكفار و التمرد عن النهى فيه لا يتخلف البته،

ص :۱۶۱

و هی من القضاء الحتم.

و ثالثها:أن الشریعه الإلهیه ممثله للإخلاص لله و الإخلاص له ممثل لحب الله سبحانه، و بعباره أخری الدین الذی هو مجموع المعارف الإلهیه و الأمور الخلقیه و الأحکام العملیه علی ما فیها من العرض العریض لا ینتهی بحسب التحلیل إلا إلی الإخلاص فقط،و هو وضع الإنسان ذاته و صفات ذاته(و هی الأخلاق)و أعمال ذاته و أفعاله علی أساس أنها لله الواحد القهار،و الإخلاص المذکور لا یحلل إلا إلی الحب،هذا من جهه التحلیل.و من جهه الترکیب ینتهی الحب إلی الإخلاص، و الإخلاص إلی مجموع الشریعه،کما أن الدین بنظر آخر ینحل إلی التسلیم و التسلیم إلی التوحید.

و رابعها:أن تولی الکافرین کفر و المراد به الکفر فی الفروع دون الأصول ککفر مانع الزکاه و تارک الصلوه و یمکن أن یکون کفر المتولی بعنایه ما ینجر إلیه أمر التولی علی ما مر بیانه،و سیأتی فی سوره المائده.

بحث روائی

فی الدر المنثور،": فی قوله تعالی: لاٰ یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ الآیه،أخرج ابن إسحاق و ابن جریر-و ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال:کان الحجاج بن عمرو حلیف کعب بن الأشرف-و ابن أبی الحقیق و قیس بن زید-و قد بطنوا بنفر من الأنصار لیفتنوهم عن دینهم-فقال رفاعه بن المنذر و عبد الله بن جبیر-و سعد بن خثیمه لأولئک النفر-اجتنبوا هؤلاء النفر من یهود،و احذروا مباطنتهم لا یفتنوکم عن دینکم-فأبی أولئک النفر فأنزل الله: لاٰ یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکٰافِرِینَ إلی قوله: وَ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ .

أقول:الروایه لا تلائم ظاهر الآیه لما تقدم أن الکافرین فی القرآن غیر معلوم الإطلاق علی أهل الکتاب،فأولی بالقصه أن تکون سببا لنزول الآیات الناهیه عن اتخاذ الیهود و النصاری أولیاء دون هذه الآیات.

و فی الصافی،: فی قوله تعالی: إِلاّٰ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰاهً الآیه،عن کتاب الاحتجاج، عن أمیر المؤمنین(ع)فی حدیث:و أمرک أن تستعمل التقیه فی دینک فإن الله یقول:

ص:۱۶۲

و إیاک ثم إیاک أن تتعرض للهلاک،و أن تترک التقیه التی أمرتک بها-فإنک شائط بدمک و دماء إخوانک،معرض لزوال نعمک و نعمهم،مذلهم فی أیدی أعداء دین الله-و قد أمرک الله بإعزازهم

و فی تفسیر العیاشی،عن الصادق(ع)قال: کان رسول الله یقول:لا دین لمن لا تقیه له،و یقول:قال الله: إِلاّٰ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰاهً .

و فی الکافی،عن الباقر(ع): التقیه فی کل شیء یضطر إلیه ابن آدم و قد أحل الله له.

أقول:و الأخبار فی مشروعیه التقیه من طرق أئمه أهل البیت کثیره جدا ربما بلغت حد التواتر،و قد عرفت دلاله الآیه علیها دلاله غیر قابله للدفع.

و فی معانی الأخبار،عن سعید بن یسار قال:قال لی أبو عبد الله: هل الدین إلا الحب؟إن الله عز و جل یقول: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللّٰهُ .

أقول:و رواه فی الکافی،عن الباقر(ع)و کذا القمی و العیاشی فی تفسیریهما، عن الحذاء عنه(ع):و کذا العیاشی فی تفسیره،عن برید عنه(ع)،و عن ربعی عن الصادق(ع) ،و الروایه تؤید ما أوضحناه فی البیان المتقدم.

و فی المعانی،عن الصادق(ع)قال: ما أحب الله من عصاه ثم تمثل بقوله:

تعصی الإله و أنت تظهر حبه

هذا لعمری فی الفعال بدیع

لو کان حبک صادقا لأطعته

إن المحب لمن یحب مطیع

و فی الکافی،عن الصادق(ع)فی حدیث قال: و من سره أن یعلم أن الله یحبه- فلیعمل بطاعه الله و لیتبعنا،أ لم یسمع قول الله عز و جل لنبیه: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللّٰهُ-وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ الحدیث.

أقول:و سیأتی بیان کون اتباعهم اتباع النبی ص فی الکلام علی قوله تعالی:

«یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ» XالآیهX:النساء-۵۹.

و فی الدر المنثور،أخرج عبد بن حمید عن الحسن قال:قال رسول الله ص:

من رغب عن سنتی فلیس منی ثم تلا هذه الآیه: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکَمُ اللّهُ إلی آخر الآیه.

و فیه،أیضا أخرج ابن أبی حاتم و أبو نعیم فی الحلیه و الحاکم عن عائشه قالت:

قال رسول الله ص: الشرک أخفی من دبیب الذر علی الصفا فی اللیله الظلماء-و أدناه أن یحب علی شیء من الجور،و یبغض علی شیء من العدل،و هل الدین إلا الحب و البغض فی الله؟قال الله تعالی: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللّهُ ».

و فیه،أیضا أخرج أحمد و أبو داود و الترمذی و ابن ماجه و ابن حبان و الحاکم عن أبی رافع عن النبی ص قال: لا ألقین أحدکم متکئا علی أریکته-یأتیه الأمر من أمری مما أمرت به أو نهیت عنه-فیقول لا ندری ما وجدنا فی کتاب الله اتبعناه.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۳۳ الی ۳۴]

اشاره

إِنَّ اَللّهَ اِصْطَفیٰ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْرٰاهِیمَ وَ آلَ عِمْرٰانَ عَلَی اَلْعٰالَمِینَ (۳۳) ذُرِّیَّهً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ وَ اَللّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۳۴)

بیان

افتتاح لقصص عیسی بن مریم و ما یلحق بها و ذکر حق القول فیها،و الاحتجاج علی أهل الکتاب فیها،و بالآیتین یرتبط ما بعدهما بما قبلهما من الآیات المتعرضه لحال أهل الکتاب.

قوله تعالی: إِنَّ اللّهَ اصْطَفیٰ آدَمَ وَ نُوحاً إلی آخر الآیه الاصطفاء کما مر بیانه فی قوله تعالی: «لَقَدِ اصْطَفَیْنٰاهُ فِی الدُّنْیٰا» :البقره-۱۳۰،أخذ صفوه الشیء و تخلیصه مما یکدره فهو قریب من معنی الاختیار،و ینطبق من مقامات الولایه علی مقام الإسلام، و هو جری العبد فی مجری التسلیم المحض لأمر ربه فیما یرتضیه له.

لکن ذلک غیر الاصطفاء علی العالمین،و لو کان المراد بالاصطفاء هنا ذاک الاصطفاء لکان الأنسب أن یقال:من العالمین،و أفاد اختصاص الإسلام بهم و اختل

معنی الکلام،فالاصطفاء علی العالمین،نوع اختیار و تقدیم لهم علیهم فی أمر أو أمور لا یشارکهم فیه أو فیها غیرهم.

و من الدلیل علی ما ذکرناه من اختلاف الاصطفاء قوله تعالی: «وَ إِذْ قٰالَتِ الْمَلاٰئِکَةُ یٰا مَرْیَمُ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰاکِ وَ طَهَّرَکِ وَ اصْطَفٰاکِ عَلیٰ نِسٰاءِ الْعٰالَمِینَ :آل عمران-۴۲،حیث فرق بین الاصطفاءین فالاصطفاء غیر الاصطفاء.

و قد ذکر سبحانه فی هؤلاء المصطفین آدم و نوحا،فأما آدم فقد اصطفی علی العالمین بأنه أول خلیفه من هذا النوع الإنسانی جعله الله فی الأرض،قال تعالی: «وَ إِذْ قٰالَ رَبُّکَ لِلْمَلاٰئِکَهِ إِنِّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً» :البقره-۳۰،و أول من فتح به باب التوبه.قال تعالی: «ثُمَّ اجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَتٰابَ عَلَیْهِ وَ هَدیٰ» :طه-۱۲۲،و أول من شرع له الدین،قال تعالی: «فَإِمّٰا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدیً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدٰایَ فَلاٰ یَضِلُّ وَ لاٰ یَشْقیٰ» Xالآیات X:طه-۱۲۳،فهذه أمور لا یشارکه فیها غیره،و یا لها من منقبه له(ع).

و أما نوح فهو أول الخمسه أولی العزم صاحب الکتاب و الشریعه کما مر بیانه فی تفسیر قوله تعالی: «کٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِیِّینَ» :البقره-۲۱۳،و هو الأب الثانی لهذا النوع،و قد سلم الله تعالی علیه فی العالمین،قال تعالی: «وَ جَعَلْنٰا ذُرِّیَّتَهُ هُمُ الْبٰاقِینَ وَ تَرَکْنٰا عَلَیْهِ فِی الْآخِرِینَ سَلاٰمٌ عَلیٰ نُوحٍ فِی الْعٰالَمِینَ» :الصافات-۷۹.

ثم ذکر سبحانه آل إبراهیم و آل عمران من هؤلاء المصطفین،و الآل خاصه الشیء، قال الراغب فی المفردات:الآل قیل مقلوب عن الأهل،و یصغر علی أهیل إلا أنه خص بالإضافه إلی أعلام الناطقین دون النکرات و دون الأزمنه و الأمکنه،یقال آل فلان و لا یقال:آل رجل و آل زمان کذا،أو موضع کذا،و لا یقال آل الخیاط بل یضاف إلی الأشرف الأفضل،یقال آل الله و آل السلطان،و الأهل یضاف إلی الکل، یقال:أهل الله و أهل الخیاط کما یقال أهل زمن کذا و بلد کذا،و قیل هو فی الأصل اسم الشخص و یصغر أویلا،و یستعمل فیمن یختص بالإنسان اختصاصا ذاتیا إما بقرابه قریبه أو بموالاه انتهی موضع الحاجه،فالمراد بآل إبراهیم و آل عمران خاصتهما من أهلهما و الملحقین بهما علی ما عرفت.

فأما آل إبراهیم فظاهر لفظه أنهم الطیبون من ذریته کإسحاق و إسرائیل

و الأنبياء من بنى إسرائيل و إسماعيل و الطاهرون من ذريته،و سيدهم محمد ص، و الملحقون بهم فى مقامات الولايه إلا أن ذكر آل عمران مع آل إبراهيم يدل على أنه لم يستعمل على تلك السعه فإن عمران هذا إما هو أبو مريم أو أبو موسى(ع)،و على أى تقدير هو من ذريه إبراهيم و كذا آله و قد أخرجوا من آل إبراهيم فالمراد بآل إبراهيم بعض ذريته الطاهرين لا جميعهم.

و قد قال الله تعالى فيما قال: «أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَهَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً» :النساء-۵۴،و الآيه فى مقام الإنكار على بنى إسرائيل و ذمهم كما يتضح بالرجوع إلى سياقها و ما يحتف بها من الآيات،و من ذلك يظهر أن المراد من آل إبراهيم فيها غير بنى إسرائيل أعنى غير إسحاق و يعقوب و ذريه يعقوب و هم(أى ذريه يعقوب)بنو إسرائيل فلم يبق لآل إبراهيم إلا الطاهرون من ذريته من طريق إسماعيل،و فيهم النبى و آله.

على أنا سنبين إن شاء الله أن المراد بالناس فى الآيه هو رسول الله ص،و أنه داخل فى آل إبراهيم بدلاله الآيه.

على أنه يشعر به قوله تعالى فى ذيل هذه الآيات: «إِنَّ أَوْلَى النّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» XالآيهX:آل عمران-۶۸،و قوله تعالى:

«وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّهً مُسْلِمَهً لَكَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا Xإلى أن قالX:

رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَهَ وَ يُزَكِّيهِمْ» XالآياتX:البقره-۱۲۹.

فالمراد بآل إبراهيم الطاهرون من ذريته من طريق إسماعيل،و الآيه ليست فى مقام الحصر فلا تنافى بين عدم تعرضها لاصطفاء نفس إبراهيم و اصطفاء موسى و سائر الأنبياء الطاهرين من ذريته من طريق إسحاق و بين ما تثبتها آيات كثيره من مناقبهم و سمو شأنهم و علو مقامهم،و هى آيات متكثره جدا لا حاجه إلى إيرادها،فإن إثبات الشىء لا يستلزم نفى ما عداه.

و كذا لا ينافى مثل ما ورد فى بنى إسرائيل من قوله تعالى: «وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي

إِسْرٰائِيلَ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّيِّبٰاتِ وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلَى الْعٰالَمِينَ» :الجاثيه-۱۶،کل ذلک ظاهر.

و لا- أن تفضیلهم علی العالمین ینافی تفضیل غیرهم علی العالمین،و لا تفضیل غیرهم علیهم فإن تفضیل قوم واحد أو أقوام مختلفین علی غیرهم إنما یستلزم تقدمهم فی فضیله دنیویه أو أخرویه علی من دونهم من الناس،و لو نافی تفضیلهم علی الناس تفضیل غیرهم أو نافی تفضیل هؤلاء المذکورین فی الآیه أعنی آدم و نوح و آل إبراهیم و آل عمران علی العالمین تفضیل غیرهم علی العالمین لاستلزم ذلک التنافی بین هؤلاء المذکورین فی الآیه أنفسهم،و هو ظاهر.

و لا أن تفضیل هؤلاء علی غیرهم ینافی وقوع التفاضل فیما بینهم أنفسهم فقد فضل الله النبیین علی سائر العالمین و فضل بعضهم علی بعض،قال تعالی: «وَ کلاًّ فَضَّلْنٰا عَلَى الْعٰالَمِينَ» :الأنعام-۸۶،و قال أیضا: «وَ لَقَدْ فَضَّلْنٰا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلىٰ بَعْضٍ» :إسراء-۵۵.

و أما آل عمران فالظاهر أن المراد بعمران أبو مریم کما یشعر به تعقیب هاتین الآیتین بالآیات التی تذکر قصه امرأه عمران و مریم ابنه عمران،و قد تکرر ذکر عمران أبی مریم باسمه فی القرآن الکریم،و لم یرد ذکر عمران أبی موسی حتی فی موضع واحد یتعین فیه کونه هو المراد بعینه،و هذا یؤید کون المراد بعمران فی الآیه أبا مریم(ع)و علی هذا فالمراد بآل عمران هو مریم و عیسی(ع) أو هما و زوجه عمران.

و أما ما یذکر أن النصاری غیر معترفین بکون اسم أبی مریم عمران فالقرآن غیر تابع لهواهم.

قوله تعالی: ذُرِّيَّةً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ ،الذریه-فی الأصل صغار الأولاد علی ما ذکروا ثم استعملت فی مطلق الأولاد و هو المعنی المراد فی الآیه،و هی منصوبه عطف بیان.

و فی قوله: بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ دلاله علی أن کل بعض فرض منها یبتدئ و ینتهی من البعض الآخر و إلیه.و لازمه کون المجموع متشابه الأجزاء لا یفترق البعض من البعض فی أوصافه و حالاته،و إذا کان الکلام فی اصطفائهم أفاد ذلک أنهم ذریه لا یفترقون فی صفات الفضیله التی اصطفاهم الله لأجلها علی العالمین إذ لا جزاف و لا لعب

فی الأفعال الإلهیه،و منها الاصطفاء الذی هو منشأ خیرات هامه فی العالم.

قوله تعالی: وَ اللّٰهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ ،أی سمیع بأقوالهم الداله علی باطن ضمائرهم، علیم بباطن ضمائرهم و ما فی قلوبهم فالجمله بمنزله التعلیل لاصطفائهم،کما أن قوله: ذُرِّیَّهً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ ،بمنزله التعلیل لشمول موهبه الاصطفاء لهؤلاء الجماعه،فالمحصل من الکلام:أن الله اصطفی هؤلاء علی العالمین،و إنما سری الاصطفاء إلی جمیعهم لأنهم ذریه متشابهه الأفراد،بعضهم یرجع إلی البعض فی تسلیم القلوب و ثبات القول بالحق، و إنما أنعم علیهم بالاصطفاء علی العالمین لأنه سمیع علیم یسمع أقوالهم و یعلم ما فی قلوبهم.

بحث روائی

فی العیون،فی حدیث الرضا مع المأمون: فقال المأمون هل فضل الله العتره علی سائر الناس؟فقال أبو الحسن:إن الله أبان فضل العتره علی سائر الناس فی محکم کتابه، فقال المأمون:أین ذلک فی کتاب الله؟فقال له الرضا(ع)فی قوله: إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفیٰ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْرٰاهِیمَ -وَ آلَ عِمْرٰانَ عَلَی الْعٰالَمِینَ ذُرِّیَّهً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ الحدیث.

و فی تفسیر العیاشی،عن أحمد بن محمد عن الرضا عن أبی جعفر(ع): من زعم أنه فرغ من الأمر فقد کذب-لأن المشیه لله فی خلقه،یرید ما یشاء و یفعل ما یرید، قال الله: ذُرِّیَّهً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ وَ اللّٰهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ ،آخرها من أولها و أولها من آخرها- فإذا أخبرتم بشیء منها بعینه-أنه کائن و کان فی غیره منه-فقد وقع الخبر علی ما أخبرتم عنه.

أقول:و فیه دلاله علی ما تقدم فی البیان السابق من معنی قوله: ذُرِّیَّهً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ الآیه.

و فیه،أیضا عن الباقر(ع): أنه تلا هذه الآیه فقال:نحن منهم و نحن بقیه تلک العتره.

أقول:

قوله(ع): و نحن بقیه تلک العتره، العتره بحسب الأصل فی معناها الأصل الذی یعتمد علیه الشیء،و منه العتره للأولاد و الأقارب الأدنین ممن مضی، و بعباره أخری العمود المحفوظ فی العشیره،و منه یظهر أنه(ع)استفاد من قوله

تعـالی ذُرِّیَّهً بَعْضُـهٰا مِنْ بَعْضٍ ،أنها عتره محفوظه آخـذه من آدم إلی نوح إلی آل إبراهیم و آل عمران،و من هنا یظهر النکته فی
ذکر آدم و نوح مع آل إبراهیم و عمران فهی إشاره إلی اتصال السلسله فی الاصطفاء.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۳۵ الی ۴۱]

اشاره

إِذْ قٰالَتِ اِمْرَأَتُ عِمْرٰانَ رَبِّ إِنِّی نَـذَرْتُ لَکَ مٰا فِی بَطْنِی مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّی إِنَّکَ أَنْتَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۳۵) فَلَمّٰا وَضَعَتْهٰا قٰالَتْ رَبِّ
إِنِّی وَضَـعْتُهٰا أُنْثیٰ وَ اَللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا وَضَـعَتْ وَ لَیْسَ اَلـذَّکَرُ کَالْأُنْثیٰ وَ إِنِّی سَـمَّیْتُهٰا مَرْیَمَ وَ إِنِّی أُعِیـذُهٰا بِـکَ وَ ذُرِّیَّتَهٰا مِنَ اَلشَّیْطٰانِ
اَلرَّجِیمِ (۳۶) فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهٰا نَبٰاتاً حَسَـناً وَ کَفَّلَهٰا زَکَرِیّٰا کُلَّمٰا دَخَلَ عَلَیْهٰا زَکَرِیَّا اَلْمِحْرٰابَ وَجَدَ عِنْدَهٰا رِزْقاً قٰالَ یٰا
مَرْیَمُ أَنّٰی لَـکِ هٰـذٰا قٰالَتْ هُوَ مِنْ عِنْـدِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ یَرْزُقُ مَنْ یَشٰاءُ بِغَیْرِ حِسٰابٍ (۳۷) هُنٰالِـکَ دَعٰـا زَکَرِیّٰا رَبَّهُ قٰالَ رَبِّ هَبْ لِی مِنْ
لَدُنْکَ ذُرِّیَّهً طَیِّبَهً إِنَّکَ سَمِیعُ اَلدُّعٰاءِ (۳۸) فَنٰادَتْهُ اَلْمَلاٰئِکَهُ وَ هُوَ قٰائِمٌ یُصَلِّی فِی اَلْمِحْرٰابِ أَنَّ اَللّٰهَ یُبَشِّرُکَ بِیَحْییٰ مُصَدِّقاً بِکَلِمَهٍ مِنَ
اَللّٰهِ وَ سَـیِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِیًّا مِنَ اَلصّٰالِحِینَ (۳۹) قٰالَ رَبِّ أَنّٰی یَکُونُ لِی غُلاٰمٌ وَ قَدْ بَلَغَنِیَ اَلْکِبَرُ وَ اِمْرَأَتِی عٰاقِرٌ قٰالَ کَذٰلِکَ اَللّٰهُ
یَفْعَلُ مٰا یَشٰاءُ (۴۰) قٰالَ رَبِّ اِجْعَـلْ لِی آیَهً قٰالَ آیَتُکَ أَلاّٰ تُکَلِّمَ اَلنّٰاسَ ثَلاٰثَهَ أَیّٰامٍ إِلاّٰ رَمْزاً وَ اُذْکُرْ رَبَّکَ کَثِیراً وَ سَـبِّحْ بِالْعَشِـیِّ وَ
اَلْإِبْکٰارِ (۴۱)

ص :۱۶۹

بیان

قوله تعالی: إِذْ قٰالَتِ امْرَأَتُ عِمْرٰانَ رَبِّ إِنِّی نَذَرْتُ لَکَ مٰا فِی بَطْنِی مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّی إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ ، النذر إیجاب الإنسان علی نفسه ما لیس بواجب.و التحریر هو الإطلاق عن وثاق،و منه تحریر العبد عن الرقیه،و تحریر الکتاب کأنه إطلاق للمعانی عن محفظه الذهن و الفکر.و التقبل هو القبول عن رغبه و رضی کتقبل الهدیه و تقبل الدعاء و نحو ذلک.

و فی قوله: قٰالَتِ امْرَأَتُ عِمْرٰانَ رَبِّ إِنِّی نَذَرْتُ لَکَ مٰا فِی بَطْنِی ،دلاله علی أنها إنما قالت هذا القول حینما کانت حاملا،و أن حملها کان من عمران،و لا یخلو الکلام من إشعار بأن زوجها عمران لم یکن حیا عندئذ و إلا لم یکن لها أن تستقل بتحریر ما فی بطنها هذا الاستقلال کما یدل علیه أیضا ما سیأتی من قوله تعالی: وَ مٰا کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ أَیُّهُمْ یَکْفُلُ مَرْیَمَ» XالآیهX:آل عمران-۴۴،علی ما سیجیء من البیان.

و من المعلوم أن تحریر الأب أو الأم للولد لیس تحریرا عن الرقیه و إنما هو تحریر عن قید الولایه التی للوالدین علی الولد من حیث تربیته و استعماله فی مقاصدهما و افتراض طاعتهما فبالتحریر یخرج من تسلط أبویه علیه فی استخدامه،و إذا کان التحریر منذورا لله سبحانه یدخل فی ولایه الله یعبده و یخدمه،أی یخدم فی البیع و الکنائس و الأماکن المختصه بعبادته تعالی فی زمان کان فیه تحت ولایه الأبوین لو لا التحریر،و قد قیل:

إنهم کانوا یحررون الولد لله فکان الأبوان لا یستعملانه فی منافعهما:و لا یصرفانه فی حوائجهما بل کان یجعل فی الکنیسه یکنسها و یخدمها لا یبرح حتی یبلغ الحلم ثم یخیر بین الإقامه و الرواح فإن أحب أن یقیم أقام،و إن أحب الرواح ذهب لشأنه.

و فی الکلام دلاله علی أنها کانت تعتقد أن ما فی بطنها ذکر لا إناث حیث إنها تناجی ربها عن جزم و قطع من غیر اشتراط و تعلیق حیث تقول: نَذَرْتُ لَکَ مٰا فِی بَطْنِی مُحَرَّراً من غیر أن تقول مثلا إن کان ذکرا و نحو ذلک.

و لیس تذکیر قوله: مُحَرَّراً ،من جهه کونه حالا عن ما الموصوله التی یستوی فیه المذکر و المؤنث إذ لو کانت نذرت تحریر ما فی بطنها سواء کان ذکرا أو أنثی لم

يكن وجه لما قالتها تحزنا و تحسرا لما وضعتها رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهٰا أُنْثىٰ ،و لا وجه ظاهر لقوله تعالى: وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثىٰ ،على ما سيجىء بيانه.

و فى حكايته تعالى لما قالتها عن جزم دلاله على أن اعتقادها ذلك لم يكن عن جزاف أو اعتمادا على بعض القرائن الحدسيه التى تسبق إلى أذهان النسوان بتجارب و نحوه فكل ذلك ظن،و الظن لا يغنى من الحق شيئا،و كلامه تعالى لا يشتمل على باطل إلا مع إبطاله،و قد قال تعالى: «اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثىٰ وَ مٰا تَغِيضُ الْأَرْحٰامُ وَ مٰا تَزْدٰادُ» :الرعد-٨،و قال تعالى: «عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ مٰا فِي الْأَرْحٰامِ» :لقمان-٣۴،فجعل العلم بما فى الأرحام من الغيب المختص به تعالى،و قال تعالى: «عٰالِمُ الْغَيْبِ فَلاٰ يُظْهِرُ عَلىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضىٰ» :الجن-٢٧،فجعل علم غيره بالغيب منتهيا إلى الوحى فحكايته عنها الجزم فى القول فيما يختص علمه بالله سبحانه يدل على أن علمها بذكوره ما فى بطنها كان ينتهى بوجه إلى الوحى،و لذلك لما تبينت أن الولد أنثى لم تيأس عن ولد ذكر فقالت ثانيا عن جزم و قطع: وَ إِنِّي أُعِيذُهٰا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهٰا مِنَ الشَّيْطٰانِ الرَّجِيمِ الآيه فأثبتت لها ذريه و لا سبيل إلى العلم به ظاهرا.

و مفعول قولها: فَتَقَبَّلْ مِنِّي ،و إن كان محذوفا محتملا لأن يكون هو.

نذرها من حيث إنه عمل صالح أو يكون هو ولدها المحرر لكن قوله تعالى:

فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

،لا يخلو عن إشعار أو دلاله على كون مرادها هو قبول الولد المحرر.

قوله تعالى: فَلَمّٰا وَضَعَتْهٰا قٰالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهٰا أُنْثىٰ ،فى وضع الضمير المؤنث موضع ما فى بطنها إيجاز لطيف،و المعنى فلما وضعت ما فى بطنها و تبينت أنه أنثى قالت: رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهٰا أُنْثىٰ ،و هو خبر أريد به التحسر و التحزن دون الإخبار و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثىٰ ،جملتان معترضتان و هما جميعا مقولتان له تعالى لا لامرأه عمران،و لا أن الثانيه مقوله لها و الأولى مقوله لله.

أما الأولى فهى ظاهره لكن لما كانت قولها رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهٰا أُنْثىٰ ،مسوقا لإظهار التحسر كان ظاهر قوله: وَ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا وَضَعَتْ ،أنه مسوق لبيان أنا نعلم أنها

أنثى لكنا أردنا بذلك إنجاز ما كانت تتمناه بأحسن وجه و أرضى طريق،و لو كانت تعلم ما أردناه من جعل ما فى بطنها أنثى لم تتحسر و لم تحزن ذاك التحسر و التحزن و الحال أن الذكر الذى كانت ترجوه لم يكن ممكنا أن يصير مثل هذا الأنثى التى وهبناها لها،و يترتب عليه ما يترتب على خلق هذه الأنثى فإن غايه أمره أن يصير مثل عيسى نبيا مبرئا للأكمه و الأبرص و محييا للموتى لكن هذه الأنثى ستتم به كلمه الله و تلد ولدا بغير أب،و تجعل هى و ابنها آيه للعالمين،و يكلم الناس فى المهد،و يكون روحا و كلمه من الله،مثله عند الله كمثل آدم إلى غير ذلك من الآيات الباهرات فى خلق هذه الأنثى الطاهره المباركه و خلق ابنها عيسى(ع).

و من هنا يظهر:أن قوله: وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثىٰ ،مقول له تعالى لا لامرأه عمران،و لو كان مقولا لها لكان حق الكلام أن يقال:و ليس الأنثى كالذكر لا بالعكس و هو ظاهر فإن من كان يرجو شيئا شريفا أو مقاما عاليا ثم رزق ما هو أخس منه و أردأ إنما يقول عند التحسر:ليس هذا الذى وجدته هو الذى كنت أطلبه و أبتغيه، أو ليس ما رزقته كالذى كنت أرجوه،و لا يقول:ليس ما كنت أرجوه كهذا الذى رزقته البته،و ظهر من ذلك أن اللام فى الذكر و الأنثى معا أو فى الأنثى فقط للعهد.

و قد أخذ أكثر المفسرين قوله: وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثىٰ ،تتمه قول امرأه عمران، و تكلفوا فى توجيه تقديم الذكر على الأنثى بما لا يرجع إلى محصل،من أراده فليرجع إلى كتبهم.

قوله تعالى: وَ إِنِّي سَمَّيْتُهٰا مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُهٰا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهٰا مِنَ الشَّيْطٰانِ الرَّجِيمِ ،معنى مريم فى لغتهم العابده و الخادمه على ما قيل،و منه يعلم وجه مبادرتها إلى تسميه المولوده عند الوضع،و وجه ذكره تعالى لتسميتها بذلك فإنها لما أيست من كون الولد ذكرا محررا للعباده و خدمه الكنيسه بادرت إلى هذه التسميه و أعدتها بالتسميه للعباده و الخدمه.فقولها: وَ إِنِّي سَمَّيْتُهٰا مَرْيَمَ بمنزله أن تقول:إنى جعلت ما وضعتها محرره لك،و الدليل على كون هذا القول منها فى معنى النذر قوله تعالى:

فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهٰا نَبٰاتاً حَسَناً

الآيه.

ثم أعاذتها و ذريتها بالله من الشيطان الرجيم ليستقيم لها العباده و الخدمه و يطابق اسمها المسمى.

ص :١٧٢

و الكلام فى قولها: وَ ذُرِّيَّتَهٰا ،من حيث إنه قول مطلق من شرط و قيد لا يصح أن نتفوه به فى حضره التخاطب ممن لا علم له به مع أن مستقبل حال الإنسان من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله سبحانه،نظير الكلام فى قولها رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مٰا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً ،على ما تقدم بيانه فليس إلا أنها كانت تعلم أن سترزق من عمران ولدا ذكرا صالحا ثم لما حملت و توفى عمران لم تشك أن ما فى بطنها هو ذلك الولد الموعود،ثم لما وضعتها و بان لها خطأ حدسها أيقنت أنها سترزق ذلك الولد من نسل هذه البنت المولوده فحولت نذرها من الابن إلى البنت،و سمتها مريم(العابده،الخادمه)و أعاذتها و ذريتها بالله من الشيطان الرجيم هذا ما يعطيه التدبر فى كلامه تعالى.

قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَهٰا نَبٰاتاً حَسَناً ،القبول إذا قيد بالحسن كان بحسب المعنى هو التقبل الذى معناه القبول عن الرضا،فالكلام فى معنى قولنا:فتقبلها ربها تقبلا فإنما حلل التقبل إلى القبول الحسن ليدل على أن حسن القبول مقصود فى الكلام،و لما فى التصريح بحسن القبول من التشريف البارز.

و حيث قوبل بهاتين الجملتين أعنى قوله: فَتَقَبَّلَهٰا إلى قوله: حَسَناً ،الجملتان فى قولها: وَ إِنِّى سَمَّيْتُهٰا إلى قولها: اَلرَّجِيمِ كان مقتضى الانطباق أن يكون قوله: فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ،قبولا لقولها و إنى سميتها مريم،و قوله: وَ أَنْبَتَهٰا نَبٰاتاً حَسَناً ، قبولا و إجابه لقولها: وَ إِنِّى أُعِيذُهٰا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهٰا مِنَ الشَّيْطٰانِ الرَّجِيمِ ،فالمراد بتقبلها بقبول حسن ليس هو القبول بمعنى قبول تقرب امرأه عمران بالنذر،و إعطاء الثواب الأخروى لعملها فإن القبول إنما نسب إلى مريم لا إلى النذر و هو ظاهر بل قبول البنت بما أنها مسماه بمريم و محرره فيعود معناه إلى اصطفائها(و قد مر أن معنى الاصطفاء هو التسليم التام لله سبحانه)فافهم ذلك.

و المراد بإنباتها نباتا حسنا إعطاء الرشد و الزكاه لها و لذريتها،و إفاضه الحيوه لها و لمن ينمو منها من الذريه حيوه لا يمسها نفث الشيطان و رجس تسويله و وسوسته، و هو الطهاره.

و هذان أعنى القبول الحسن الراجع إلى الاصطفاء،و النبات الحسن الراجع إلى التطهير هما اللذان يشير إليهما قوله تعالى فى ذيل هذه الآيه: وَ إِذْ قٰالَتِ الْمَلاٰئِكَةُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰاكِ وَ طَهَّرَكِ الآيه و سنوضحه بيانا إن شاء الله العزيز.

ص :١٧٣

فقد تبین أن اصطفاء مریم و تطهیرها إنما هما استجابه لدعوه أمها کما أن اصطفاءها علی نساء العالمین فی ولاده عیسی،و کونها و ابنها آیه للعالمین تصدیق لقوله تعالی: وَ لَیْسَ الذَّکَرُ کَالْأُنْثیٰ .

قوله تعالی: وَ کَفَّلَهٰا زَکَرِیّٰا ،و إنما کفلها بإصابه القرعه حیث اختصموا فی تکفلها ثم تراضوا بینهم بالقرعه فأصابت القرعه زکریا کما یدل علیه قوله تعالی:

وَ مٰا کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ أَیُّهُمْ یَکْفُلُ مَرْیَمَ وَ مٰا کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یَخْتَصِمُونَ ، الآیه.

قوله تعالی: کُلَّمٰا دَخَلَ عَلَیْهٰا زَکَرِیَّا الْمِحْرٰابَ وَجَدَ عِنْدَهٰا رِزْقاً «إلخ» المحراب المکان المخصوص بالعباده من المسجد و البیت،قال الراغب:و محراب المسجد،قیل:

سمی بذلک لأنه موضع محاربه الشیطان و الهوی،و قیل:سمی بذلک لکون حق الإنسان فیه أن یکون حریبا(أی سلیبا)من أشغال الدنیا و من توزع الخاطر، و قیل الأصل فیه أن محراب البیت صدر المجلس ثم اتخذت المساجد فسمی صدره به و قیل:بل المحراب أصله فی المسجد و هو اسم خص به صدر المجلس فسمی صدر البیت محرابا تشبیها بمحراب المسجد،و کان هذا أصح،قال عز و جل: یَعْمَلُونَ لَهُ مٰا یَشٰاءُ مِنْ مَحٰارِیبَ وَ تَمٰاثِیلَ ،انتهی.

و ذکر بعضهم أن المحراب هنا هو ما یعبر عنه أهل الکتاب بالمذبح،و هو مقصوره فی مقدم المعبد،لها باب یصعد إلیه بسلم ذی درجات قلیله،و یکون من فیه محجوبا عمن فی المعبد.

أقول:و إلیه ینتهی اتخاذ المقصوره فی الإسلام.

و فی تنکیر قوله: رِزْقاً ،إشعار بکونه رزقا غیر معهود کما قیل:إنه کان یجد عندها فاکهه الشتاء فی الصیف،و فاکهه الصیف فی الشتاء،و یؤیده أنه لو کان من الرزق المعهود،و کان تنکیره یفید أنه ما کان یجد محرابها خالیا من الرزق بل کان عندها رزق ما دائما لم یقنع زکریا بقولها: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ یَرْزُقُ «إلخ»فی جواب قوله: یٰا مَرْیَمُ أَنّٰی لَکِ هٰذٰا ،لإمکان أن یکون یأتیها بعض الناس ممن کان یختلف إلی المسجد لغرض حسن أو سیئ.

على أن قوله تعالى: هُنالِكَ دَعا زَكَرِيّا رَبَّهُ «إلخ»، يدل على أن زكريا تلقى وجود هذا الرزق عندها كرامه إلهيه خارقه فأوجب ذلك أن يسأل الله أن يهب له من لدنه ذريه طيبه،فقد كان الرزق رزقا يدل بوجوده على كونه كرامه من الله سبحانه لمريم الطاهره،و مما يشعر بذلك قوله تعالى: قالَ يا مَرْيَمُ «إلخ»على ما سيجىء من البيان.

و قوله: قالَ يا مَرْيَمُ أَنّى لَكِ «إلخ»فصل الكلام من غير أن يعطف على قوله:

وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً

،يدل على أنه(ع)إنما قال لها ذلك مره واحده فأجابت بما قنع به و استيقن أن ذلك كرامه لها و هنالك دعا و سأل ربه ذريه طيبه.

قوله تعالى: هُنالِكَ دَعا زَكَرِيّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً «إلخ»، طيب الشيء ملاءمته لصاحبه فيما يريده لأجله فالبلد الطيب ما يلائم حيوه أهله من حيث الماء و الهواء و الرزق و نحو ذلك،قال تعالى: «وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ» :الأعراف-۵۸،و العيشه الطيبه و الحيوه الطيبه ما يلائم بعض أجزائها بعضا و يسكن إليها قلب صاحبها و منه الطيب للعطر الزكى فالذريه الطيبه هو الولد الصالح لأبيه مثلا الذى يلائم من حيث صفاته و أفعاله ما عند أبيه من الرجاء و الأمنيه فقول زكريا(ع): رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ،لما كان الباعث له عليه ما شاهد من أمر مريم و خصوص كرامتها على الله و امتلاء قلبه من شأنها لم يملك من نفسه دون أن يسأل الله أن يهب له مثلها خطرا و كرامه،فكون ذريته طيبه أن يكون لها ما لمريم من الكرامه عند الله و الشخصيه فى نفسها،و لذلك استجيب فى عين ما سأله من الله، و وهب له يحيى و هو أشبه الأنبياء بعيسى(ع)،و أجمع الناس لما عند عيسى و أمه مريم الصديقه من صفات الكمال و الكرامه،و من هنا ما سماه تعالى بيحيى و جعله مصدقا بكلمه من الله و سيدا و حصورا و نبيا من الصالحين،و هذه أقرب ما يمكن أن يشابه بها إنسان مريم و ابنها عيسى(ع)على ما سنبينه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى إلى آخر الآيه،ضمائر الغيبه و الخطاب لزكريا،و البشرى و الإبشار و التبشير الإخبار بما يفرح الإنسان بوجوده.

و قوله: أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى ،دليل على أن تسميته بيحيى إنما هو من جانب

الله سبحانه كما تدل عليه نظائر هذه الآيات فی سوره مریم،قال تعالی: «یا زَکَرِیّا إِنّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ یَحْییٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا» :مریم-۷.

و تسمیته بیحیی و کون التسمیه من عند الله سبحانه فی بدء ما بشر به زکریا قبل تولد یحیی و خلقه یؤید ما ذکرناه آنفا:أن الذی طلبه زکریا من ربه أن یرزقه ولدا یکون شأنه شأن مریم،و قد کانت مریم هی و ابنها عیسی(ع)آیه واحده کما قال تعالی: «وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آیَهً لِلْعالَمِینَ» .

فروعی فی یحیی ما روعی فیهما من عند الله سبحانه،و قد روعی فی عیسی کمال ما روعی فی مریم،فالمرعی فی یحیی هو الشبه التام و المحاذاه الکامله مع عیسی(ع) فیما یمکن ذلک،و لعیسی فی ذلک کله التقدم التام لأن وجوده کان مقدرا قبل استجابه دعوه زکریا فی حق یحیی ،و لذلک سبقه عیسی فی کونه من أولی العزم صاحب شریعه و کتاب و غیر ذلک لکنهما تشابها و تشابه أمرهما فیما یمکن.

و إن شئت تصدیق ما ذکرناه فتدبر فیما ذکر الله تعالی من قصتهما فی سوره مریم فقال فی یحیی: «یا زَکَرِیّا إِنّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ یَحْییٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا Xإلی أن قالX: یا یَحْییٰ خُذِ الْکِتابَ بِقُوَّهٍ وَ آتَیْناهُ الْحُکْمَ صَبِیًّا وَ حَناناً مِنْ لَدُنّا وَ زَکاهً وَ کانَ تَقِیًّا وَ بَرًّا بِوالِدَیْهِ وَ لَمْ یَکُنْ جَبّاراً عَصِیًّا وَ سَلامٌ عَلَیْهِ یَوْمَ وُلِدَ وَ یَوْمَ یَمُوتُ وَ یَوْمَ یُبْعَثُ حَیًّا» :مریم-۱۵،و قال فی عیسی(ع): «فَأَرْسَلْنا إِلَیْها رُوحَنا Xإلی أن قال:X إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّکِ لِأَهَبَ لَکِ غُلاماً زَکِیًّا -Xإلی أن قالX-: قالَ رَبُّکِ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آیَهً لِلنّاسِ وَ رَحْمَهً مِنّا -Xإلی أن قالX-: فَأَشارَتْ إِلَیْهِ قالُوا کَیْفَ نُکَلِّمُ مَنْ کانَ فِی الْمَهْدِ صَبِیًّا قالَ إِنِّی عَبْدُ اللّٰهِ آتانِیَ الْکِتابَ وَ جَعَلَنِی نَبِیًّا وَ جَعَلَنِی مُبارَکاً أَیْنَ ما کُنْتُ وَ أَوْصانِی بِالصَّلاهِ وَ الزَّکاهِ ما دُمْتُ حَیًّا وَ بَرًّا بِوالِدَتِی وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبّاراً شَقِیًّا وَ السَّلامُ عَلَیَّ یَوْمَ وُلِدْتُ وَ یَوْمَ أَمُوتُ وَ یَوْمَ أُبْعَثُ حَیًّا» :مریم-۳۳،و یقرب منها من حیث الدلاله علی تقارب أمرهما آیات هذه السوره التی نحن فیها عند التطبیق.

و بالجمله فقد سماه الله سبحانه یحیی و سمی ابن مریم عیسی و هو بمعنی«یعیش» علی ما قیل و جعله مصدقا بکلمه منه و هو عیسی کما قال تعالی: «بِکَلِمَهٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِیحُ عِیسَی »و آتاه الحکم و علمه الکتاب صبیا کما فعل بعیسی، و عده حنانا من لدنه و زکاه و برا بوالدیه غیر جبار کما کان عیسی کذلک،و سلم علیه فی المواطن الثلاث

کعیسی و عده سیدا کما جعل عیسی وجیها عنده،و جعله حصورا و نبیا و من الصالحین مثل عیسی،کل ذلک استجابه لمسأله زکریا و دعوته حیث سأل ذریه طیبه و ولیا رضیا عند ما امتلأ قلبه بما شاهد من أمر مریم و عجیب شأنها و کرامتها علی الله کما مر بیانه.

و فی قوله: مُصَدِّقاً بِکَلِمَهٍ مِنَ اللّهِ دلاله علی کونه من دعاه عیسی فالکلمه هو عیسی المسیح کما ذکره تعالی فی ذیل هذه الآیات فی بشاره الروح لمریم.

و السید هو الذی یتولی أمر سواد الناس و جماعتهم فی أمر حیوتهم و معاشهم أو فضیله من الفضائل المحموده عندهم ثم غلب استعماله فی شریف القوم لما أن التولی المذکور یستلزم شرفا بالحکم أو المال أو فضیله أخری.

و الحصور هو الذی لا یأتی النساء و المراد بذلک فی الآیه بقرینه السیاق الممتنع عن ذلک للإعراض عن مشتهیات النفس زهدا.

قوله تعالی: قالَ رَبِّ أَنّی یَکُونُ لِی غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِیَ الْکِبَرُ وَ امْرَأَتِی عاقِرٌ استفهام تعجیب و استعلام لحقیقه الحال لا استبعاد و استعظام مع تصریح البشاره بذلک و أن الله سبحانه سیرزقه ما سأله من الولد مع أنه ذکر هذین الوصفین اللذین جعلهما منشأ للتعجب و الاستعلام فی ضمن مسألته علی ما فی سوره مریم حیث قال: «رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً وَ لَمْ أَکُنْ بِدُعائِکَ رَبِّ شَقِیًّا وَ إِنِّی خِفْتُ الْمَوالِیَ مِنْ وَرائِی وَ کانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا» :مریم-۵.

لکن المقام یمثل معنی آخر فکأنه(ع)لما انقلب حالا من مشاهده أمر مریم و تذکر انقطاع عقبه لم یشعر إلا و قد سأل ربه ما سأل و قد ذکر فی دعائه ما له سهم وافر فی تأثره و تحزنه و هو بلوغ الکبر،و کون امرأته عاقرا،فلما استجیبت دعوته و بشر بالولد کأنه صحا و أفاق مما کان علیه من الحال،و أخذ یتعجب من ذلک و هو بالغ الکبر و امرأته عاقر،فصار ما کان یثیر علی وجهه غبار الیأس و سیماء الحزن یغیره إلی نظره التعجب المشوب بالسرور.

علی أن ذکر نواقص الأمر بعد البشاره بقضاء أصل الحاجه و استعلام کیفیه رفع واحد واحد منها إنما هو طلب تفهم خصوصیات الإفاضه و الإنعام التذاذا بالنعمه الفائضه بعد

النعمه نظير ما وقع فى بشرى إبراهيم بالذريه قال تعالى: وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قالُوا لا تَوْجَلْ إِنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِى عَلى أَنْ مَسَّنِىَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلاَّ الضّالُّونَ» :الحجر-۵۶،فذكر فى جواب نهى الملائكه إياه عن القنوط أن استفهامه لم يكن عن قنوط كيف و هو غير ضال و القنوط ضلاله،بل السيد إذا أقبل على عبده إقبالا يؤذن بالقرب و الأنس و الكرامه أوجب ذلك انبساطا من العبد و ابتهاجا يستدعى تلذذه من كل حديث و تمتعه فى كل باب.

و فى قوله: وَ قَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ من مراعاه الأدب ما لا يخفى فإنه كنايه عن أنه لا يجد من نفسه شهوه النكاح لبلوغ الشيخوخه و الهرم.و قد اجتمعت فى امرأته الكبر و العقر معا فإن ذلك ظاهر قوله: وَ كانَتِ امْرَأَتِى عاقِراً ،و لم يقل:

و امرأتى عاقر.

قوله تعالى: قالَ كَذلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ ،فاعل قال و إن كان هو الله سبحانه سواء كان من غير وساطه الملائكه وحيا أو بواسطه الملائكه الذين كانوا ينادونه فالقول على أى حال قوله تعالى لكن الظاهر أنه منسوب إليه تعالى بواسطه الملك فالقائل هو الملك و قد نسب إليه تعالى لأنه بأمره،و الدليل على ذلك قوله تعالى فى سوره مريم فى القصه: «قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً» :مريم-۹.

و منه يظهر أولا:أنه سمع الصوت من حيث كان يسمعه أولا.و ثانيا:أن قوله: كَذلِكَ ،خبر لمبتدإ محذوف،و التقدير:الأمر كذلك أى الذى بشرت به من الموهبه هو كذلك كائن لا محاله،و فيه إشاره إلى كونه من القضاء المحتوم الذى لا ريب فى وقوعه نظير ما ذكره الروح فى جواب مريم على ما حكاه الله تعالى:

«قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ Xإلى أن قالX-: وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا» :مريم -۲۱،و ثالثا:أن قوله: اَللّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ كلام مفصول فى مقام التعليل لمضمون قوله:كذلك اه.

قوله تعالى: قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَهً قالَ آيَتُكَ أَلاّ تُكَلِّمَ النّاسَ ثَلاثَهَ أَيّامٍ إِلاّ

رَمْزاً

إلى آخر الآيه،قال فى المجمع، الرمز الإيماء بالشفتين،و قد يستعمل فى الإيماء بالحاجب و العين و اليد،و الأول أغلب،انتهى،و العشى الطرف المؤخر من النهار، و كأنه مأخوذ من العشوه و هى الظلمه الطارئه فى العين المانعه عن الإبصار فأخذوا ذلك وصفا للوقت لرواحه إلى الظلمه،و الإبكار صدر النهار و الطرف المقدم منه، و الأصل فى معناه الاستعجال.

و وقوع هذه الآيه فى ولاده يحيى من وجوه المضاهاه بينه و بين عيسى فإنها تضاهى قول عيسى لمريم بعد تولده: «فَإِمّٰا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا» :مريم-۲۶.

و سؤاله(ع)من ربه أن يجعل له آيه و الآيه هى العلامه الداله على الشىء-هل هو ليستدل به على أن البشاره إنما هى من قبل ربه،و بعباره أخرى هو خطاب رحمانى ملكى لا شيطانى؟أو لأنه أراد أن يستدل بها على حمل امرأته،و يعلم وقت الحمل،خلاف بين المفسرين.

و الوجه الثانى لا يخلو عن بعد من سياق الآيات و جريان القصه لكن الذى أوجب تحاشى القوم عن الذهاب إلى أول الوجهين أعنى كون سؤال الآيه لتمييز أن الخطاب رحمانى هو ما ذكروه:أن الأنبياء لعصمتهم لا بد أن يعرفوا الفرق بين كلام الملك و وسوسه الشيطان،و لا يجوز أن يتلاعب الشيطان بهم حتى يختلط عليهم طريق الإفهام.

و هو كلام حق لكن يجب أن يعلم أن تعرفهم إنما هو بتعريف الله تعالى لهم لا من قبل أنفسهم و استقلال ذواتهم،و إذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يتعرف زكريا من ربه أن يجعل له آيه يعرف به ذلك؟و أى محذور فى ذلك؟نعم لو لم يستجب دعاءه و لم يجعل الله له آيه كان الإشكال فى محله.

على أن خصوصيه نفس الآيه-و هى عدم التكليم ثلاثه أيام-تؤيد بل تدل على ذلك فإن الشيطان و إن أمكن أن يمس الأنبياء فى أجسامهم أو بتخريب أو إفساد فى ما يرجونه من نتائج أعمالهم فى رواج الدين و استقبال الناس أو تضعيف أعداء الدين كما يدل عليه قوله تعالى: «وَ اذْكُرْ عَبْدَنٰا أَيُّوبَ إِذْ نٰادىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطٰانُ

بِنُصْبٍ وَ عَذٰابٍ» :_ص-۴۱،و قوله تعالی: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ وَ لاٰ نَبِیٍّ إِلاّٰ إِذٰا تَمَنّٰی أَلْقَی الشَّیْطٰانُ فِی أُمْنِیَّتِهِ فَیَنْسَخُ اللّٰهُ مٰا یُلْقِی الشَّیْطٰانُ ثُمَّ یُحْکِمُ اللّٰهُ آیٰاتِهِ» Xالآیه X:الحج-۵۲،و قوله تعالی: «فَإِنِّی نَسِیتُ الْحُوتَ وَ مٰا أَنْسٰانِیهُ إِلاَّ الشَّیْطٰانُ :الکهف-۶۳.

لکن هذه و أمثالها من مس الشیطان و تعرضه لا تنتج إلا إیذاء النبی و أما مسه الأنبیاء فی نفوسهم فالأنبیاء معصومون من ذلک و قد مر فی ما تقدم من المباحث إثبات عصمتهم(ع).

و الذی جعله الله تعالی آیه لزکریا علی ما یدل علیه قوله آیَتُکَ أَلاّٰ تُکَلِّمَ النّٰاسَ ثَلاٰثَهَ أَیّٰامٍ إِلاّٰ رَمْزاً وَ اذْکُرْ رَبَّکَ کَثِیراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِیِّ وَ الْإِبْکٰارِ هو أنه کان لا یقدر ثلاثه أیام علی تکلیم أحد و یعتقل لسانه إلا بذکر الله و تسبیحه،و هذه آیه واقعه علی نفس النبی و لسانه و تصرف خاص فیه لا یقدر علیه الشیطان لمکان العصمه فلیس إلا رحمانیا "و هذه الآیه کما تری متناسبه مع الوجه الأول دون الوجه الثانی.

فإن قلت لو کان الأمر کذلک فما معنی قوله قٰالَ رَبِّ أَنّٰی یَکُونُ لِی غُلاٰمٌ وَ قَدْ بَلَغَنِیَ الْکِبَرُ وَ امْرَأَتِی عٰاقِرٌ قٰالَ کَذٰلِکَ اللّٰهُ یَفْعَلُ مٰا یَشٰاءُ الآیه"فإن ظاهره أنه خاطب ربه و سأله ما سأل ثم أجیب بما أجیب فما معنی هذه المخاطبه لو کان شاکا فی أمر النداء؟و لو لم یکن شاکا عندئذ فما معنی سؤال التمییز؟.

قلت:مراتب الرکون و الاعتقاد مختلفه فمن الممکن أن یکون قد اطمأنت نفسه علی کون النداء رحمانیا من جانب الله ثم یسأل ربه من کیفیه الولاده التی کانت تتعجب منه نفسه الشریفه کما مر فیجاب بنداء آخر ملکی تطمئن إلیه نفسه ثم یسأل ربه آیه توجب الیقین بأنه کان رحمانیا فیزید بذلک وثوقا و طمأنینه.

و مما یؤید ذلک قوله تعالی: فَنٰادَتْهُ الْمَلاٰئِکَهُ ،فإن النداء إنما یکون من بعید و لذلک کثر إطلاق النداء فی مورد الجهر بالقول لکونه عندنا من لوازم البعد،و لیس بلازم بحسب أصل معنی الکلمه کما یشهد به قوله تعالی فی ما حکی فیه دعاء زکریا إِذْ نٰادیٰ رَبَّهُ نِدٰاءً خَفِیًّا :مریم-۳ فقد أطلق علیه النداء بعنایه تذلل زکریا:

و تواضعه قبال تعزز الله سبحانه و ترفعه و تعالیه،ثم وصف النداء بالخفاء فالکلام لا یخلو عن إشعار بکون زکریا لم یر الملک نفسه،و إنما سمع صوتا یهتف به هاتف.

و قـد ذكر بعض المفسـرين:أن المراد من جعله تعـالى عـدم التكليم آيه نهيه عن تكليم الناس ثلاثه أيام،و الانقطاع فيها إلى ذكر الله و تسبيحه دون اعتقال لسانه، قال:الصواب أن زكريا أحب بمقتضـى الطبيعه البشـريه أن يتعين لـديه الزمن الـذى ينال به تلك المنحه الإلهيه ليطمئن قلبه و يبشـر أهله فسأل عن الكيفيه،و لما أجيب بما أجيب به سأل ربه أن يخصه بعباده يتعجل بها شـكره،و يكون إتمـامه إياهـا آيه و علامه على حصول المقصود،فأمره بأن لا يكلم الناس ثلاثه أيام بل ينقطع إلى الـذكر و التسبيـح مساء صباحا مده ثلاثه أيام فإذا احتاج إلى خطاب الناس أومأ إليهم إيماء،على هذا تكون بشارته لأهله بعد مضى الثلاث الليال،انتهى.

و أنت خبير بأنه ليس لمـا ذكره(من مسألته عباده تكون شـكرا للمنحه،و انتهائها إلى حصول المقصود،و كون انتهائها هو الآيه،و كون قوله: أَلّا تُكَلِّمَ مسوقا للنهى التشريعى و كذا إرادته بشاره أهله)فى الآيه عين و لا أثر.

كلام فى الخواطر الملكيه و الشيطانيه و ما يلحق بها من التكليم

قد مر كرارا أن الألفاظ موضوعه لمعانيها من حيث اشـتمالها على الأغراض المقصوده منها،و أن القول أو الكلام مثلا إنما يسمى به الصوت لإفـادته معنى مقصودا يصـح السـكوت عليه،فمـا يفـاد به ذلك،كلام و قول سواء كان مفيـده صوتا واحـدا أو أصواتا متعـدده مؤلفه أو غير صوت كالإيماء و الرمز،و الناس لا يتوقفون فى تسـميه الصوت المفيـد فائده تامه كلاما و إن لم يخرج عن شق فم،و كذلك فى تسميه الإيماء قولا و كلاما و إن لم يشتمل على صوت.

و القرآن أيضـا يسـمى المعـانى الملقـاه فى القلوب من الشـيطان كلامـا له و قولا منه، قال تعالى حكايه عن الشـيطان: «وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ» :النساء-١١٩ و قال:

«كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ» :الحشـر-١۶،و قال: «يُوَسْوِسُ فِی صُـدُورِ النّاسِ» :الناس-۵،و قال «يُوحِی بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ» :الأنعام-١١٢ و قال أيضا حكايه عن إبليس: «إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ» :إبراهيم-٢٢ و قال: «الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ اللّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلاً

وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشٰاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً» :البقره- ۲۶۹،و من الواضح أن هذه هی الخواطر الوارده علی القلوب،نسبت إلی الشیطان، و سمیت بالأمر و القول و الوسوسه و الوحی و الوعد،و جمیعها قول و کلام و لم تخرج عن شق فم و لا تحریک لسان.

و من هنا یعلم:أن ما تشتمل علیه الآیه الأخیره من وعده تعالی بالمغفره و الفضل قبال وعد الشیطان هو الکلام الملکی فی قبال الوسوسه من الشیطان،و قد سماه تعالی الحکمه، و مثلها قوله تعالی: «وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ» :الحدید-۲۸،و قوله:

«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدٰادُوا إِيمٰاناً مَعَ إِيمٰانِهِمْ وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ» :الفتح-۴،و قد مر بیانها فی الکلام علی السکینه فی ذیل قوله تعالی: «فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» :البقره-۲۴۸،و کذا قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاٰمِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمٰا يَصَّعَّدُ فِي السَّمٰاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللّٰهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ» :الأنعام-۱۲۵،و قد سمی الوسوسه رجزا فقال: «رِجْزَ الشَّيْطٰانِ» :الأنفال-۱۱،فمن جمیع ذلک یظهر أن الشیاطین و الملائکه یکلمون الإنسان بإلقاء المعانی فی قلبه.

و هنا قسم آخر من التکلیم یختص به تعالی کما ذکره بقوله: «وَ مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ إِلاّٰ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ» XالآیهX:الشوری-۵۱،فسماه تکلیما و قسمه إلی الوحی،و هو الذی لا حجاب فیه بینه و بین العبد المکلم،و إلی التکلیم من وراء حجاب،هذه أقسام من الکلام لله سبحانه و للملائکه و الشیاطین.

أما کلام الله سبحانه المسمی بالوحی فهو متمیز متعین بذاته فإن الله سبحانه ألقی التقابل بینه و بین التکلیم من وراء حجاب فهو تکلیم حیث لا حجاب بین الإنسان و بین ربه،و من المحال أن یقع هناک لبس،و هو ظاهر،و أما غیره فیحتاج إلی تسدید ینتهی إلی الوحی.

و أما الکلام الملکی و الشیطانی فالآیات المذکوره آنفا تکفی فی التمییز بینها فإن الخاطر الملکی یصاحب انشراح الصدر،و یدعو إلی المغفره و الفضل،و ینتهی بالأخره إلی ما یطابق دین الله المبین فی کتابه و سنه نبیه،و الخاطر الشیطانی یلازم

تضیق الصدر،و شح النفس و یدعو إلی متابعه الهوی،و یعد الفقر،و یأمر بالفحشاء، و بالأخره ینتهی إلی ما لا یطابق الکتاب و السنه،و یخالف الفطره.

ثم إن الأنبیاء و من یتلوهم ربما تیسر لهم مشاهده الملک و الشیطان و معرفتهما کما حکی الله تعالی عن آدم و إبراهیم و لوط فأغنی ذلک عن استعمال الممیز،و أما مع عدم المشاهده فلا بد من استعماله کسائر المؤمنین،و ینتهی بالأخره إلی تمییز الوحی و هو ظاهر.

بحث روائی

فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی: إِذْ قٰالَتِ امْرَأَتُ عِمْرٰانَ الآیه،عن الصادق(ع) قال:إن الله أوحی إلی عمران-أنی واهب لک ذکرا سویا مبارکا یبرئ الأکمه و الأبرص،و یحیی الموتی بإذن الله،و جاعله رسولا إلی بنی إسرائیل،فحدث عمران امرأته حنه بذلک و هی أم مریم-فلما حملت کان حملها بها عند نفسها غلاما-فلما وضعتها قالت رب إنی وضعتها أنثی،و لیس الذکر کالأنثی لا تکون البنت رسولا،یقول الله:و الله أعلم بما وضعت-فلما وهب الله لمریم عیسی کان هو الذی بشر به عمران-و وعده إیاه فإذا قلنا فی الرجل منا شیئا-و کان فی ولده أو ولد ولده فلا تنکروا ذلک.

أقول:و روی قریبا منه فی الکافی،عنه(ع)و فی تفسیر العیاشی،عن الباقر(ع).

و فی تفسیر العیاشی،فی الآیه عن الصادق(ع): أن المحرر یکون فی الکنیسه لا یخرج منها-فلما وضعتها قالت-رب إنی وضعتها أنثی و لیس الذکر کالأنثی،إن الأنثی تحیض فتخرج من المسجد،و المحرر لا یخرج من المسجد.

و فیه،عن أحدهما: نذرت ما فی بطنها للکنیسه أن یخدم العباد،و لیس الذکر کالأنثی فی الخدمه،قال فشبت و کانت تخدمهم و تناولهم حتی بلغت-فأمر زکریا أن تتخذ لها حجابا دون العباد.

أقول:و الروایات کما تری تنطبق علی ما قدمناه فی البیان السابق إلا أن ظاهرها:

أن قوله: وَ لَیْسَ الذَّکَرُ کَالْأُنْثیٰ ،کلام لامرأه عمران لا له تعالی،و یبقی علیه وجه

تقدیم الذکر علی الأنثی فی الجمله،مع أن مقتضی القواعد العربیه خلافه،و کذا یبقی علیه وجه تسمیتها بمریم،و قد مر أنه فی معنی التحریر إلا أن یفرق بین التحریر و جعلها خادمه فلیتأمل.

و فی الروایه الأولی دلاله علی کون عمران نبیا یوحی إلیه،و یدل علیه ما

فی البحار،عن أبی بصیر قال: سألت أبا جعفر(ع)عن عمران أ کان نبیا؟فقال نعم کان نبیا مرسلا إلی قومه ،الحدیث.

و تدل الروایه أیضا علی کون اسم امرأه عمران:حنه،و هو المشهور،و فی بعض الروایات:مرثار،و لا یهمنا البحث عن ذلک.

و فی تفسیر القمی،": فی ذیل الروایه السابقه:فلما بلغت مریم صارت فی المحراب، و أرخت علی نفسها سترا،و کان لا یراها أحد،و کان یدخل علیها زکریا المحراب- فیجد عندها فاکهه الصیف فی الشتاء-و فاکهه الشتاء فی الصیف فکان یقول: أَنّٰی لَکِ هٰذٰا فتقول: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ-إِنَّ اللّٰهَ یَرْزُقُ مَنْ یَشٰاءُ بِغَیْرِ حِسٰابٍ .

و فی تفسیر العیاشی،عن الصادق(ع)قال: إن زکریا لما دعا ربه أن یهب له ولدا-فنادته الملائکه بما نادته به-أحب أن یعلم أن ذلک الصوت من الله-فأوحی إلیه أن آیه ذلک أن یمسک لسانه عن الکلام ثلاثه أیام-فلما أمسک لسانه و لم یتکلم-علم أنه لا یقدر علی ذلک إلا الله-و ذلک قول الله رَبِّ اجْعَلْ لِی آیَهً .

أقول:و روی قریبا منه القمی فی تفسیره،و قد عرفت فیما تقدم أن سیاق الآیات لا یأبی عن ذلک.

و بعض المفسرین شدد النکیر علی ما تضمنته هذه الروایات کالوحی إلی عمران و وجود الفاکهه فی محراب مریم فی غیر وقتها،و کون سؤال زکریا للآیه للتمییز فقال:

إن هذه أمور لا طریق إلی إثباتها فلا هو سبحانه ذکرها،و لا رسوله قالها،و لا هی مما یعرف بالرأی و لم یثبتها تاریخ یعتد به،و لیس هناک إلا روایات إسرائیلیه و غیر إسرائیلیه،و لا موجب للتکلف فی تحصیل معنی القرآن و حمله علی أمثال هذه الوجوه البعیده عن الأفهام.

و هو منه کلام من غیر حجه،و الروایات و إن کانت آحادا غیر خالیه عن ضعف

ص :۱۸۴

الطریق لا یجب علی الباحث الأخذ بها،و الاحتجاج بما فیها لکن التدبر فی الآیات یقرب الذهن منها،و الذی نقل منها عن أئمه أهل البیت(ع)لا یشتمل علی أمر غیر جائز عند العقل.

نعم فی بعض ما نقل عن قدماء المفسرین أمور غیر معقوله کما

نقل عن قتاده و عکرمه": أن الشیطان جاء إلی زکریا-و شککه فی کون البشاره من الله تعالی،و قال:

لو کانت من الله لأخفی لک فی ندائه-کما أخفیت له فی ندائک إلی غیر ذلک-فهی معان لا مجوز لتسلیمها کما ورد فی إنجیل لوقا:أن جبرئیل قال لزکریا«و ها أنت تکون صامتا-و لا تقدر أن تتکلم إلی الیوم الذی یکون فیه هذا-لأنک لم تصدق کلامی الذی سیتم فی وقته»إنجیل لوقا ۱-۲۰.

بحث روائی آخر [کلام فی الخواطر الملکیه و الشیطانیه و ما یلحق بهما من التکلیم.]

و فی الکافی،عن الصادق(ع): ما من قلب إلا و له أذنان-علی إحداهما ملک مرشد،و علی الأخری شیطان مفتن:هذا یأمره،و هذا یزجره،الشیطان یأمره بالمعاصی،و الملک یزجره عنها،و ذلک قول الله عز و جل: مٰا یَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ-إِلاّٰ لَدَیْهِ رَقِیبٌ عَتِیدٌ عَنِ الْیَمِینِ وَ عَنِ الشِّمٰالِ قَعِیدٌ .

أقول:و الروایات فی هذا المعنی کثیره سیأتی شطر منها،و تطبیقه(ع)الآیه علی الملک و الشیطان فی هذه الروایه لا ینافی تطبیقه إیاها علی الملکین الکاتبین للحسنات و السیئات فی روایه أخری فإن الآیه لا تدل علی أزید من وجود رقیب عتید عند الإنسان یرقبه فی جمیع ما یتکلم به،و أنه متعدد عن یمین الإنسان و شماله،و أما أنه من الملائکه محضا أو ملک و شیطان فالآیه غیر صریحه فی ذلک قابله للانطباق علی کل من المحتملین.

و فیه،أیضا عن زراره قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن الرسول و عن النبی و عن المحدث،قال:الرسول الذی یعاین الملک یأتیه بالرساله من ربه یقول:یأمرک کذا و کذا،و الرسول یکون نبیا مع الرساله،و النبی لا یعاین الملک ینزل علیه الشیء النبأ علی قلبه-فیکون کالمغمی علیه فیری فی منامه،قلت فما علمه أن الذی فی منامه حق؟قال:یبینه الله حتی یعلم أن ذلک حق،و لا یعاین الملک ،الحدیث.

ص: ۱۸۵

أقول:قوله:و الرسول يكون نبيا إشاره إلى إمكان اجتماع الوصفين و قد تقدم الكلام فى معنى الرساله و النبوه فى تفسير قوله تعالى: «كٰانَ اَلنّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً فَبَعَثَ اَللّٰهُ» Xالآيه X:البقره-۲۱۳.

و قوله:فيكون كالمغمى عليه تفسير معنى رؤيته فى المنام،و أن معناه الغيبه عن الحس دون المنام المعروف،و قوله:يبينه الله«إلخ»إشاره إلى التمييز بين الإلقاء الملكى و الشيطانى بما بينه الله من الحق.

و فى البصائر،عن بريد عن الباقر و الصادق(ع)فى حديث قال بريد:

فما الرسول و النبى و المحدث؟قال الرسول الذى يظهر الملك فيكلمه،و النبى يرى فى المنام،و ربما اجتمعت النبوه و الرساله لواحد،و المحدث الذى يسمع الصوت و لا يرى الصوره،قال:قلت:أصلحك الله كيف يعلم-أن الذى رأى فى المنام هو الحق و أنه من الملك؟قال:يوفق لذلك حتى يعرفه-لقد ختم الله بكتابكم الكتب و بنبيكم الأنبياء ،الحديث.

أقول:و هو فى مساق الحديث السابق،و بيانه(ع)واف بتمييز المحدث ما يسمعه من صوت الهاتف،و فى قوله:لقد ختم الله«إلخ»إشاره إلى ذلك،و سيأتى الكلام فى المحدث فى ذيل الآيات التاليه

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۴۲ الى ۶۰]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَتِ اَلْمَلاٰئِكَةُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ اَللّٰهَ اِصْطَفٰاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اِصْطَفٰاكِ عَلىٰ نِسٰاءِ اَلْعٰالَمِينَ (۴۲) يٰا مَرْيَمُ اُقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اُسْجُدِي وَ
اِرْكَعِي مَعَ اَلرّٰاكِعِينَ (۴۳) ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰاءِ اَلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مٰا كُنْتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۴۴) إِذْ قٰالَتِ اَلْمَلاٰئِكَةُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ اَللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اِسْمُهُ اَلْمَسِيحُ عِيسَى اِبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي اَلدُّنْيٰا وَ
اَلْآخِرَةِ وَ مِنَ اَلْمُقَرَّبِينَ (۴۵) وَ يُكَلِّمُ اَلنّٰاسَ فِي اَلْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ اَلصّٰالِحِينَ (۴۶) قٰالَتْ رَبِّ أَنّٰى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي
بَشَرٌ قٰالَ كَذٰلِكِ اَللّٰهُ يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ إِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۴۷) وَ يُعَلِّمُهُ اَلْكِتٰابَ وَ اَلْحِكْمَةَ وَ اَلتَّوْرٰاةَ وَ اَلْإِنْجِيلَ
(۴۸) وَ رَسُولاً إِلىٰ بَنِي إِسْرٰائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ اَلطِّينِ كَهَيْئَةِ اَلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ
اَللّٰهِ وَ أُبْرِئُ اَلْأَكْمَهَ وَ اَلْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ اَلْمَوْتىٰ بِإِذْنِ اَللّٰهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمٰا تَأْكُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۴۹) وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ اَلتَّوْرٰاةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ اَلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ
أَطِيعُونِ (۵۰) إِنَّ اَللّٰهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ (۵۱) فَلَمّٰا أَحَسَّ عِيسىٰ مِنْهُمُ اَلْكُفْرَ قٰالَ مَنْ أَنْصٰارِي إِلَى اَللّٰهِ قٰالَ
اَلْحَوٰارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصٰارُ اَللّٰهِ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ اِشْهَدْ بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ (۵۲) رَبَّنٰا آمَنّٰا بِمٰا أَنْزَلْتَ وَ اِتَّبَعْنَا اَلرَّسُولَ فَاكْتُبْنٰا مَعَ اَلشّٰاهِدِينَ (۵۳) وَ
مَكَرُوا وَ مَكَرَ اَللّٰهُ وَ اَللّٰهُ خَيْرُ اَلْمٰاكِرِينَ (۵۴) إِذْ قٰالَ اَللّٰهُ يٰا عِيسىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رٰافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ جٰاعِلُ
اَلَّذِينَ اِتَّبَعُوكَ فَوْقَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ يَوْمِ اَلْقِيٰامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمٰا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۵۵) فَأَمَّا اَلَّذِينَ كَفَرُوا
فَأُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً فِي اَلدُّنْيٰا وَ اَلْآخِرَةِ وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ (۵۶) وَ أَمَّا اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اَللّٰهُ
لاٰ يُحِبُّ اَلظّٰالِمِينَ (۵۷) ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ اَلْآيٰاتِ وَ اَلذِّكْرِ اَلْحَكِيمِ (۵۸) إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اَللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ
قٰالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۵۹) اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُنْ مِنَ اَلْمُمْتَرِينَ (۶۰)

بيان

قوله تعالى: إِذْ قٰالَتِ الْمَلاٰئِكَهُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰاكِ وَ طَهَّرَكِ ،الجمله معطوفه على قوله: إِذْ قٰالَتِ امْرَأَتُ عِمْرٰانَ ،فتكون شرحا مثله لاصطفاء آل عمران المشتمل عليه قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفىٰ ،الآيه.

و فى الآيه دليل على كون مريم محدثه تكلمها الملائكه و هى تسمع كلامهم كما يدل عليه أيضا قوله فى سوره مريم: فَأَرْسَلْنٰا إِلَيْهٰا رُوحَنٰا فَتَمَثَّلَ لَهٰا بَشَراً سَوِيًّا إلى آخر الآيات ،و سيأتى الكلام فى المحدث.

و قد تقدم فى قوله تعالى: فَتَقَبَّلَهٰا رَبُّهٰا بِقَبُولٍ حَسَنٍ الآيه:أن ذلك بيان لاستجابه دعوه أم مريم: وَ إِنِّى سَمَّيْتُهٰا مَرْيَمَ وَ إِنِّى أُعِيذُهٰا بِكَ وَ ذُرِّيَّتَهٰا مِنَ الشَّيْطٰانِ الرَّجِيمِ ،الآيه و أن قول الملائكه لمريم: إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰاكِ وَ طَهَّرَكِ إخبار لها بما لها عند الله سبحانه من الكرامه و المنزله فارجع إلى هناك.

فاصطفاؤها تقبلها لعباده الله،و تطهيرها اعتصامها بعصمه الله فهى مصطفاه معصومه،و ربما قيل:إن المراد من تطهيرها جعلها بتولا لا تحيض فيتهيأ لها بذلك أن لا تضطر إلى الخروج من الكنيسه،و لا بأس به غير أن الذى ذكرناه هو الأوفق بسياق الآيات.

قوله تعالى: وَ اصْطَفٰاكِ عَلىٰ نِسٰاءِ الْعٰالَمِينَ قد تقدم فى قوله تعالى: إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفىٰ إلى قوله: عَلَى الْعٰالَمِينَ أن الاصطفاء المتعدى بعلى يفيد معنى التقدم،و أنه غير الاصطفاء المطلق الذى يفيد معنى التسليم،و على هذا فاصطفاؤها على نساء العالمين تقديم لها عليهن.

و هل هذا التقديم تقديم من جميع الجهات أو من بعضها؟ظاهر قوله تعالى فيما بعد الآيه: إِذْ قٰالَتِ الْمَلاٰئِكَةُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ الآيه،و قوله تعالى: «وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهٰا فَنَفَخْنٰا فِيهٰا مِنْ رُوحِنٰا وَ جَعَلْنٰاهٰا وَ ابْنَهٰا آيَةً لِلْعٰالَمِينَ» :الأنبياء-٩١ و قوله تعالى: «وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرٰانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهٰا فَنَفَخْنٰا فِيهِ مِنْ رُوحِنٰا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِمٰاتِ رَبِّهٰا وَ كُتُبِهِ وَ كٰانَتْ مِنَ الْقٰانِتِينَ» :التحريم-١٢ ،حيث لم تشتمل مما تختص بها من بين النساء إلا على شأنها العجيب فى ولاده المسيح(ع)أن هذا هو وجه اصطفائها و تقديمها على النساء من العالمين.

و أما ما اشتملت عليه الآيات فى قصتها من التطهير و التصديق بكلمات الله و كتبه،و القنوت و كونها محدثه فهى أمور لا تختص بها بل يوجد فى غيرها،و أما ما قيل:إنها مصطفاه على نساء عالمى عصرها فإطلاق الآيه يدفعه.

قوله تعالى: يٰا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرّٰاكِعِينَ ، القنوت هو لزوم الطاعه عن خضوع على ما قيل،و السجده معروفه.و الركوع هو الانحناء أو مطلق التذلل.

و لما كان النداء يوجب تلفيت نظر المنادى(اسم مفعول)و توجيه فهمه نحو المنادى(اسم فاعل)كان تكرار النداء فى المقام بمنزله أن يقال لها:إن لك عندنا نبأ بعد نبا فاستمعى لهما و أصغى إليهما:أحدهما ما أكرمك الله به من منزله و هو ما لك عند الله،و الثانى ما يلزمك من وظيفه العبوديه بالمحاذاه،و هو ما لله سبحانه عندك،فيكون هذا إيفاء للعبوديه و شكرا للمنزله فيئول معنى الكلام إلى كون قوله: يٰا مَرْيَمُ اقْنُتِي «إلخ»بمنزله التفريع لقوله: يٰا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰاكِ «إلخ»أى إذا كان كذلك فاقنتى و اسجدى و اركعى مع الراكعين،و لا يبعد أن يكون كل واحده من الخصال الثلاث المذكوره فى هذه الآيه فرعا لواحده من الخصال الثلاث المذكوره فى الآيه السابقه،و إن لم يخل عن خفاء فليتأمل.

قوله تعالی: ذٰلِکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَیْبِ نُوحِیهِ إِلَیْکَ ،عده من أنباء الغیب نظیر ما عدت قصه یوسف(ع)من أنباء الغیب التی توحی إلی رسول الله، قال تعالی:

ذٰلِکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَیْبِ نُوحِیهِ إِلَیْکَ وَ مٰا کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ یَمْکُرُونَ» :یوسف-١٠٢،و أما ما یوجد من ذلک عند أهل الکتاب فلا عبره به لعدم سلامته من تحریف المحرفین کما أن کثیرا من الخصوصیات المقتصه فی قصص زکریا غیر موجوده فی کتب العهدین علی ما وصفه الله فی القرآن.

و یؤید هذا الوجه قوله تعالی فی ذیل الآیه: وَ مٰا کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یُلْقُونَ «إلخ».

علی أن النبی ص و قومه کانوا أمیین غیر عالمین بهذه القصص و لا أنهم قرءوها فی الکتب کما ذکره تعالی بعد سرد قصه نوح: «تِلْکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَیْبِ نُوحِیهٰا إِلَیْکَ مٰا کُنْتَ تَعْلَمُهٰا أَنْتَ وَ لاٰ قَوْمُکَ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا» :هود-٤٩،و الوجه الأول أوفق بسیاق الآیه.

قوله تعالی: وَ مٰا کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ أَیُّهُمْ یَکْفُلُ مَرْیَمَ «إلخ»، القلم بفتحتین القدح الذی یضرب به القرعه،و یسمی سهما أیضا،و جمعه أقلام،فقوله:

یُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ

أی یضربون بسهامهم لیعینوا بالقرعه أیهم یکفل مریم.

و فی هذه الجمله دلاله علی أن الاختصام الذی یدل علیه قوله: وَ مٰا کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ یَخْتَصِمُونَ إنما هو اختصامهم و تشاحهم فی کفاله مریم،و أنهم لم یتناهوا حتی تراضوا بالاقتراع بینهم فضربوا بالقرعه فخرج السهم لزکریا فکفلها بدلیل قوله:

وَ کَفَّلَهٰا زَکَرِیّٰا ،الآیه.

و ربما احتمل بعضهم أن هذا الاختصام و الاقتراع بعد کبرها و عجز زکریا عن کفالتها ،و کان منشؤه ذکر هذا الاقتراع و الاختصام بعد تمام قصه ولادتها و اصطفائها و ذکر کفاله زکریا فی أثنائها،فیکونان واقعتین اثنتین.

و فیه أنه لا ضیر فی إعاده بعض خصوصیات القصه أو ما هو بمنزله الإعاده لتثبیت الدعوی کما وقع نظیره فی قصه یوسف حیث قال تعالی بعد تمام القصه-: «ذٰلِکَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَیْبِ نُوحِیهِ إِلَیْکَ وَ مٰا کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ یَمْکُرُونَ» :یوسف-١٠٢ یشیر بذلک إلی معنی قوله تعالی فی أوائل القصه. «إِذْ قٰالُوا لَیُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلیٰ

أَبِينٰا مِنّٰا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ -Xإلى أن قالX: لاٰ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيٰابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيّٰارَهِ إِنْ كُنْتُمْ فٰاعِلِينَ» :يوسف-١٠.

قوله تعالى: إِذْ قٰالَتِ الْمَلاٰئِكَهُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ «إلخ»،الظاهر أن هذه البشاره هى التى يشتمل عليها قوله تعالى فى موضع آخر: «فَأَرْسَلْنٰا إِلَيْهٰا رُوحَنٰا فَتَمَثَّلَ لَهٰا بَشَراً سَوِيًّا قٰالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قٰالَ إِنَّمٰا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاٰماً زَكِيًّا» XالآياتX:مريم-١٩،فتكون البشاره المنسوبه إلى الملائكه هاهنا هى المنسوبه إلى الروح فقط هناك.

و قد قيل فى وجهه إن المراد بالملائكه هو جبرئيل،عبر بالجمع عن الواحد تعظيما لأمره كما يقال:سافر فلان فركب الدواب و ركب السفن،و إنما ركب دابه واحده و سفينه واحده،و يقال:قال له الناس كذا،و إنما قاله واحد و هكذا،و نظير الآيه قوله فى قصه زكريا السابقه: فَنٰادَتْهُ الْمَلاٰئِكَهُ ثم قوله: قٰالَ كَذٰلِكَ اللّٰهُ يَفْعَلُ مٰا يَشٰاءُ الآيه.

و ربما قيل:إن جبرئيل كان معه غيره فاشتركوا فى ندائها.

و الذى يعطيه التدبر فى الآيات التى تذكر شأن الملائكه أن بين الملائكه تقدما و تأخرا من حيث مقام القرب،و أن للمتأخر التبعيه المحضه لأوامر المتقدم بحيث يكون فعل المتأخر رتبه،عين فعل المتقدم،و قوله عين قوله نظير ما نشاهده و نذعن به من كون أفعال قوانا و أعضائنا عين أفعالنا من غير تعدد فيه تقول:رأته عيناى و سمعته أذناى، و رأيته و سمعته،و يقال فعلته جوارحى و كتبته يدى و رسمته أناملى و فعلته أنا و كتبته أنا،و كذلك فعل المتبوع من الملائكه فعل التابعين له المؤتمرين لأمره بعينه، و قوله قولهم من غير اختلاف،و بالعكس كما أن فعل الجميع فعل الله سبحانه و قولهم قوله،كما قال تعالى: «اللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهٰا» :الزمر-٤٢،فنسب التوفى إلى نفسه،و قال: «قُلْ يَتَوَفّٰاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ» :السجده-١١،فنسبه إلى ملك الموت و قال: «حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنٰا» :الأنعام-٦١،فنسبه إلى جمع من الملائكه.

و نظيره قوله تعالى: «إِنّٰا أَوْحَيْنٰا إِلَيْكَ» :النساء-١٦٣،و قوله: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ» :الشعراء-١٩٤،و قوله: مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلىٰ

قَلْبِکَ» :البقره-۹۷،و قوله: کَلاّ إِنَّها تَذْکِرَهٌ فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ فِی صُحُفٍ مُکَرَّمَهٍ مَرْفُوعَهٍ مُطَهَّرَهٍ بِأَیْدِی سَفَرَهٍ کِرامٍ بَرَرَهٍ» :عبس-۱۶.

فظهر أن بشاره جبرئیل هی عین بشاره من هو تحت أمره من جماعه الملائکه و هو من سادات الملائکه و مقربیهم علی ما یدل علیه قوله تعالی: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ کَرِیمٍ ذِی قُوَّهٍ عِنْدَ ذِی الْعَرْشِ مَکِینٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِینٍ» :التکویر-۲۱،و سیأتی زیاده توضیح لهذا الکلام فی سوره فاطر إن شاء الله تعالی.

و یؤید ما ذکرناه قوله تعالی فی الآیه التالیه: قالَ کَذلِکِ اللّهُ یَخْلُقُ ما یَشاءُ ، فإن ظاهره أن القائل هو الله سبحانه مع أنه نسب هذا القول فی سوره مریم فی القصه إلی الروح،قال تعالی: «قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّکِ لِأَهَبَ لَکِ غُلاماً زَکِیًّا قالَتْ أَنّی یَکُونُ لِی غُلامٌ وَ لَمْ یَمْسَسْنِی بَشَرٌ وَ لَمْ أَکُ بَغِیًّا قالَ کَذلِکِ قالَ رَبُّکِ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ» XالآیاتX:

مریم-۲۱.

و فی تکلم الملائکه و الروح مع مریم دلاله علی کونها محدثه بل قوله تعالی فی سوره مریم فی القصه بعینها: «فَأَرْسَلْنا إِلَیْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِیًّا» :مریم- ۱۷،یدل علی معاینتها الملک زیاده علی سماعها صوته،و سیجیء تمام الکلام فی المعنی فی البحث الروائی الآتی إن شاء الله.

قوله تعالی: بِکَلِمَهٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ ،قد مر البحث فی معنی کلامه تعالی فی تفسیر قوله: «تِلْکَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلی بَعْضٍ» :البقره-۲۵۳.

و الکلمه و الکلم کالتمره و التمر جنس و فرد و تطلق الکلمه علی اللفظ الواحد الدال علی المعنی،و علی الجمله سواء صح السکوت علیها مثل زید قائم أو لم یصح مثل إن کان زید قائما،هذا بحسب اللغه،و أما بحسب ما یصطلح علیه القرآن أعنی الکلمه المنسوبه إلی الله تعالی فهی الذی یظهر به ما أراده الله تعالی من أمر نحو کلمه الإیجاد و هو قوله تعالی لشیء أراده:کن،أو کلمه الوحی و الإلهام و نحو ذلک.

و أما المراد بالکلمه فقد قیل:إن المراد به المسیح(ع)من جهه أن من أسبقه من الأنبیاء أو خصوص أنبیاء بنی إسرائیل بشروا به بعنوان أنه منجی بنی إسرائیل، یقال فی نظیر المورد هذه کلمتی التی کنت أقولها،و نظیره قوله تعالی فی ظهور موسی

(ع): «وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنىٰ عَلىٰ بَنِی إِسْرائِیلَ بِمٰا صَبَرُوا» :الأعراف-۱۳۷، و فیه أن ذلک و إن کان ربما ساعده کتب العهدین لکن القرآن الکریم خال عن ذلک بل القرآن یعد عیسی بن مریم مبشرا لا مبشرا به،علی أن سیاق قوله: اِسْمُهُ الْمَسِیحُ لا یناسبه فإن الکلمه علی هذا ظهور عیسی المخبر به قبلا لا نفس عیسی،و ظاهر قوله:

اِسْمُهُ الْمَسِیحُ

،أن المسیح اسم الکلمه لا اسم من تقدمت فی حقه الکلمه.

و ربما قیل:إن المراد به عیسی(ع)لإیضاحه مراده تعالی بالتوراه،و بیانه تحریفات الیهود و ما اختلفوا فیه من أمور الدین کما حکی الله تعالی عنه ذلک فیما یخاطب به بنی إسرائیل: «وَ لِأُبَیِّنَ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِیهِ» :الزخرف-۶۳،و فیه أنه نکته تصحح هذا التعبیر لکنها خالیه عما یساعدها من القرائن.

و ربما قیل:إن المراد بکلمه منه البشاره نفسها،و هی الإخبار بحملها بعیسی و ولادته فمعنی قوله: یُبَشِّرُکِ بِکَلِمَهٍ مِنْهُ :یبشرک ببشاره هی أنک ستلدین عیسی من غیر مس بشر،و فیه أن سیاق الذیل أعنی قوله: اِسْمُهُ الْمَسِیحُ لا یلائمه و هو ظاهر.

و ربما قیل:إن المراد به عیسی(ع)من جهه کونه کلمه الإیجاد أعنی قوله:

کن و إنما اختص عیسی(ع)بذلک مع کون کل إنسان بل کل شیء موجودا بکلمه کن التکوینیه لأن سائر الأفراد من الإنسان یجری ولادتهم علی مجری الأسباب العادیه المألوفه فی العلوق من ورود ماء الرجل علی نطفه الإناث،و عمل العوامل المقارنه فی ذلک،و لذلک یسند العلوق إلیه کما یسند سائر المسببات إلی أسبابها،و لما لم یجر علوق عیسی هذا المجری و فقد بعض الأسباب العادیه التدریجیه کان وجوده بمجرد کلمه التکوین من غیر تخلل الأسباب العادیه فکان نفس الکلمه کما یؤیده قوله تعالی:

«وَ کَلِمَتُهُ أَلْقٰاهٰا إِلیٰ مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» :النساء-۱۷۱،و قوله تعالی فی آخر هذه الآیات:« إِنَّ مَثَلَ عِیسیٰ عِنْدَ اللّٰهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ قٰالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ الآیه»،و هذا أحسن الوجوه.

و المسیح هو الممسوح سمی به عیسی(ع)لأنه کان مسیحا بالیمن و البرکه أو لأنه مسح بالتطهیر من الذنوب،أو مسح بدهن زیت بورک فیه و کانت الأنبیاء یمسحون

به أو لأن جبرائيل مسحه بجناحه حين ولادته ليكون عوذه من الشيطان،أو لأنه كان يمسح رءوس اليتامى،أو لأنه كان يمسح عين الأعمى بيده فيبصر،أو لأنه كان لا يمسح ذا عاهه بيده إلا برأ،فهذه وجوه ذكروها فى تسميته بالمسيح.

لكن الذى يمكن أن يعول عليه أن هذا اللفظ كان واقعا فى ضمن البشاره التى بشر بها جبرائيل مريم(ع)على ما يحكيه تعالى بقوله: إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَهٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ »،و هذا اللفظ بعينه معرب«مشيحا» الواقع فى كتب العهدين.

و الذى يستفاد منها أن بنى إسرائيل كان من دأبهم أن الملك منهم إذا قام بأمر الملك مسحته الكهنه بالدهن المقدس ليبارك له فى ملكه فكان يسمى مشيحا فمعناه:

إما الملك و إما المبارک.

و قد يظهر من كتبهم أنه(ع)إنما سمى مشيحا من جهه كون بشارته متضمنا لملكه،و أنه سيظهر فى بنى إسرائيل ملكا عليهم منجيا لهم كما يلوح ذلک من إنجيل لوقا فى بشاره مريم،

قال": فلما دخل إليها الملك قال السلام لک-يا ممتليه نعمه الرب معک مباركه أنت فى النساء،فلما رأته اضطربت من كلامه و فكرت ما هذا السلام، فقال لها الملك لا تخافى يا مريم-فقد ظفرت بنعمه من عند الله،و أنت تحبلين و تلدين ابنا و تدعين اسمه يسوع،هذا يكون عظيما و ابن العلى يدعى و يعطيه الرب-له كرسى داود أبيه و يملک على بيت يعقوب إلى الأبد-و لا يكون لملكه انقضاء»لوقا ۱-۳۴.

و لذلک تتعلل اليهود عن قبول نبوته بأن البشاره لاشتمالها على ملكه لا تنطبق على عيسى(ع)لأنه لم ينل الملک أيام دعوته و فى حيوته،و لذلک أيضا ربما وجهته النصارى و تبعه بعض المفسرين من المسلمين بأن المراد بملكه الملک المعنوى دون الصورى.

أقول:و ليس من البعيد أن يقال:إن تسميته بالمسيح فى البشاره بمعنى كونه مباركا فإن التدهين عندهم إنما كان للتبريک،و يؤيده قوله تعالى: «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا وَ جَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ» :مريم-۳۱.

و عيسى أصله يشوع،فسروه بالمخلص و هو المنجى،و فى بعض الأخبار تفسيره بيعيش و هو أنسب من جهه تسميه ابن زكريا بيحيى على ما مر من المشابهه التامه بين

هذين النبيين.

و تقييد عيسى بابن مريم مع كون الخطاب فى الآيه لمريم للتنبيه على أنه مخلوق من غير أب،و يكون معروفا بهذا النعت،و أن مريم شريكته فى هذه الآيه كما قال تعالى: «وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ» :الأنبياء-٩١.

قوله تعالى: وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَهِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، الوجاهه هى المقبوليه، و كونه(ع)مقبولا فى الدنيا مما لا خفاء فيه،و كذا فى الآخره بنص القرآن.

و معنى المقربين ظاهر فهو مقرب عند الله داخل فى صف الأولياء و المقربين من الملائكه من حيث التقريب كما ذكره تعالى بقوله: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِكَهُ الْمُقَرَّبُونَ» :النساء-١٧٢،و قد عرف تعالى معنى التقريب بقوله: «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَهُ -Xإلى أن قالX- وَ كُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاٰثَهً -Xإلى أن قالX:

وَ السّٰابِقُونَ السّٰابِقُونَ أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» :الواقعه-١١،و الآيه كما ترى تدل على أن هذا التقرب و هو تقرب إلى الله سبحانه حقيقته سبق الإنسان سائر أفراد نوعه فى سلوك طريق العود إلى الله الذى سلوكه مكتوب على كل إنسان بل كل شىء،قال تعالى:

«يٰا أَيُّهَا الْإِنْسٰانُ إِنَّكَ كٰادِحٌ إِلىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاٰقِيهِ» :الانشقاق-۶،و قال تعالى:

أَلاٰ إِلَى اللّٰهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» :الشورى-۵٣.

و أنت إذا تأملت كون المقربين صفه الأفراد من الإنسان و صفه الأفراد من الملائكه علمت أنه لا يلزم أن يكون مقاما اكتسابيا فإن الملائكه لا يحرزون ما أحرزوه من المقام عند الله سبحانه بالكسب فلعله مقام تناله المقربون من الملائكه بهبه إلهيه و المقربون من الإنسان بالعمل.

و قوله وجيها فى الدنيا و الآخره،حال،و كذا ما عطف عليه من قوله:و من المقربين،و يكلم اه،و من الصالحين،و يكلمه اه،رسولا اه.

قوله تعالى: وَ يُكَلِّمُ النّٰاسَ فِى الْمَهْدِ وَ كَهْلاً ، المهد ما يهيأ للصبى من الفراش، و الكهل من الكهوله و هو ما بين الشباب و الشيخوخه،و هو ما يكون الإنسان فيه رجلا تاما قويا،و لذا قيل:الكهل من وخطه الشيب أى خالطه،و ربما قيل:إن الكهل من بلغ أربعا و ثلاثين.

و كيف كان ففيه دلاله على أنه سيعيش حتى يبلغ سن الكهوله ففيه بشاره أخرى لمريم.

و فى التصريح بذلك مع دلاله الأناجيل على أنه لم يعش فى الأرض أكثر من ثلاث و ثلاثين سنه نظر ينبغى أن يمعن فيه و لذا ربما قيل:إن تكليمه للناس كهلا إنما هو بعد نزوله من السماء فإنه لم يمكث فى الأرض ما يبلغ به سن الكهوله،و ربما قيل:إن الذى يعطيه التاريخ بعد التثبت أن عيسى(ع)عاش نحوا من أربع و ستين سنه خلافا لما يظهر من الأناجيل.

و الذى يظهر من سياق قوله: فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً ،أنه لا يبلغ سن الشيخوخه، و إنما ينتهى إلى سن الكهوله،و على هذا فقد أخذ فى البيان كلامه فى طرفى عمره:

الصبا و الكهوله.

و المعهود من وضع الصبى فى المهد أن يوضع فيه أوائل عمره ما دام فى القماط قبل أن يدرج و يمشى و هو فى السنه الثانيه فما دونها غالبا،و هو سن الكلام فكلام الصبى فى المهد و إن لم يكن فى نفسه من خوارق العاده لكن ظاهر الآيه أنه يكلم الناس فى المهد كلاما تاما يعتنى به العقلاء من الناس كما يعتنون بكلام الكهل،و بعباره أخرى يكلمهم فى المهد كما يكلمهم كهلا،و الكلام من الصبى بهذه الصفه آيه خارقه.

على أن القصه فى سوره مريم تبين أن تكليمه الناس إنما كان لأول ساعه أتت به مريم إلى الناس بعد وضعه و كلام الصبى لأول يوم ولادته آيه خارقه لا محاله،قال تعالى: «فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهٰا تَحْمِلُهُ قٰالُوا يٰا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا يٰا أُخْتَ هٰارُونَ مٰا كٰانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مٰا كٰانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشٰارَتْ إِلَيْهِ قٰالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كٰانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قٰالَ إِنِّي عَبْدُ اللّٰهِ آتٰانِيَ الْكِتٰابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا وَ جَعَلَنِي مُبٰارَكاً أَيْنَ مٰا كُنْتُ» XالآياتX:

مريم-٣١.

قوله تعالى: قٰالَتْ رَبِّ أَنّٰى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ،خطابها لربها مع كون المكلم إياها الروح المتمثل بناء على ما تقدم أن خطاب الملائكه و خطاب الروح و كلامهم كلام الله سبحانه فقد كانت تعلم أن الذى يكلمها هو الله سبحانه و إن كان الخطاب متوجها إليها من جهه الروح المتمثل أو الملائكه و لذلك خاطبت ربها

و یمکن أن یکون الکلام من قبیل قوله تعالی: «قٰالَ رَبِّ ارْجِعُونِ» :المؤمنون -۹۹،فهو من الاستغاثه المعترضه فی الکلام.

قوله سبحانه: قٰالَ کَذٰلِکِ اللّٰهُ یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ إِذٰا قَضیٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ قد مرت الإشاره إلی أن تطبیق هذا الجواب بما فی سوره مریم من قوله:

«قٰالَ کَذٰلِکِ قٰالَ رَبُّکِ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آیَهً لِلنّٰاسِ وَ رَحْمَهً مِنّٰا وَ کٰانَ أَمْراً مَقْضِیًّا» :مریم-۲۱،یفید أن یکون قوله هاهنا:کذلک کلاما تاما تقدیره:الأمر کذلک و معناه أن الذی بشرت به أمر مقضی لا مرد له.

و أما التعجب من هذا الأمر فإنما یصح لو کان هذا الأمر مما لا یقدر علیه الله سبحانه أو یشق أما القدره فإن قدرته غیر محدوده یفعل ما یشاء و أما صعوبته و مشقته فإن العسر و الصعوبه إنما یتصور إذا کان الأمر مما یتوسل إلیه بالأسباب فکلما کثرت المقدمات و الأسباب و عزت و بعد منالها اشتد الأمر صعوبه،و الله سبحانه لا یخلق ما یخلق بالأسباب بل إذا قضی أمرا فإنما یقول له کن فیکون.

فقد ظهر أن قوله کذلک کلام تام أرید به رفع اضطراب مریم و تردد نفسها، و قوله: اَللّٰهُ یَخْلُقُ مٰا یَشٰاءُ ،رفع العجز الذی یوهمه التعجب،و قوله: إِذٰا قَضیٰ ،رفع لتوهم العسر و الصعوبه.

قوله تعالی: وَ یُعَلِّمُهُ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِیلَ اللام فی الکتاب و الحکمه للجنس.و قد مر أن الکتاب هو الوحی الرافع لاختلافات الناس ،و الحکمه هی المعرفه النافعه المتعلقه بالاعتقاد أو العمل،و علی هذا فعطف التوراه و الإنجیل علی الکتاب و الحکمه مع کونهما کتابین مشتملین علی الحکمه من قبیل ذکر الفرد بعد الجنس لأهمیه فی اختصاصه بالذکر،و لیست لام الکتاب للاستغراق لقوله تعالی: «وَ لَمّٰا جٰاءَ عِیسیٰ بِالْبَیِّنٰاتِ قٰالَ قَدْ جِئْتُکُمْ بِالْحِکْمَهِ وَ لِأُبَیِّنَ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِیهِ فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُونِ» :الزخرف-۶۳،و قد مر بیانه.

و أما التوراه فالذی یریده القرآن منها هو الذی نزله الله علی موسی(ع)فی المیقات فی ألواح علی ما یقصه الله سبحانه فی سوره الأعراف،و أما الذی عند الیهود من الأسفار فهم معترفون بانقطاع اتصال السند ما بین بخت نصر من ملوک بابل و کورش

من ملوك الفرس،غير أن القرآن يصدق أن التوراه الموجود بأيديهم فى زمن النبى ص غير مخالفه للتوراه الأصل بالكليه و إن لعبت بها يد التحريف،و دلاله آيات القرآن على ذلك واضحه.

و أما الإنجيل و معناه البشاره فالقرآن يدل على أنه كان كتابا واحدا نازلا على عيسى فهو الوحى المختص به،قال تعالى «وَ أَنْزَلَ التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنّٰاسِ» :آل عمران-۴،و أما هذه الأناجيل المنسوبه إلى متى و مرقس و لوقا و يوحنا فهى كتب مؤلفه بعده(ع).

و يدل أيضا على أن الأحكام إنما هى فى التوراه،و أن الإنجيل لا تشتمل إلا على بعض النواسخ كقوله فى هذه الآيات: مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ الآيه،و قوله: «وَ آتَيْنٰاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَهً لِلْمُتَّقِينَ وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فِيهِ» :المائده-۴۷،و لا يبعد أن يستفاد من الآيه أن فيه بعض الأحكام الإثباتيه.

و يدل أيضا على أن الإنجيل مشتمل على البشاره بالنبى ص كالتوراه قال، تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرٰاهِ وَ الْإِنْجِيلِ» :الأعراف-۱۵۷.

قوله تعالى: وَ رَسُولاً إِلىٰ بَنِى إِسْرٰائِيلَ ،ظاهره أنه(ع)كان مبعوثا إلى بنى إسرائيل خاصه كما هو اللائح من الآيات فى حق موسى(ع)،و قد مر فى الكلام على النبوه فى ذيل قوله تعالى: «كٰانَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ X «XالآيهX:البقره-۲۱۳،أن عيسى(ع)كموسى من أولى العزم و هم مبعوثون إلى أهل الدنيا كافه.

لكن العقده تنحل بما ذكرناه هناك فى الفرق بين الرسول و النبى أن النبوه هى منصب البعث و التبليغ،و الرساله هى السفاره الخاصه التى تستتبع الحكم و القضاء بالحق بين الناس،إما بالبقاء و النعمه،أو بالهلاك كما يفيده قوله تعالى: «وَ لِكُلِّ أُمَّهٍ رَسُولٌ فَإِذٰا جٰاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» :يونس-۴۷.

و بعباره أخرى النبى هو الإنسان المبعوث لبيان الدين للناس،و الرسول هو المبعوث لأداء بيان خاص يستتبع رده الهلاك و قبوله البقاء و السعاده كما يؤيده بل

يدل عليه ما حكاه الله سبحانه من مخاطبات الرسل لأممهم كنوح و هود و صالح و شعيب و غيرهم(ع).

و إذا كان كذلك لم يستلزم الرساله إلى قوم خاص البعثه إليهم،و كان من الممكن أن يكون الرسول إلى قوم خاص نبيا مبعوثا إليهم و إلى غيرهم كموسى و عيسى (ع).

و على ذلك شواهد من القرآن الكريم كرساله موسى إلى فرعون،قال تعالى:

«اذْهَبْ إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ» :طه-۲۴،و إيمان السحره لموسى و ظهور قبول إيمانهم و لم يكونوا من بنى إسرائيل،قال تعالى: «قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ هٰارُونَ وَ مُوسىٰ» :طه-۷۰،و دعوه قوم فرعون،قال تعالى: «وَ لَقَدْ فَتَنّٰا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ» :الدخان-۱۷،و نظير ذلك ما كان من أمر إيمان الناس بعيسى فلقد آمن به(ع)قبل بعثه النبى ص الروم و أمم عظيمه من الغربيين كالأفرنج و النمسا و البروس و إنجلترا و أمم من الشرقيين كنجران و هم جميعهم ليسوا من بنى إسرائيل، و القرآن لم يخص-فيما يذكر فيه النصارى-نصارى بنى إسرائيل خاصه بالذكر بل يعمم مدحه أو ذمه الجميع.

قوله تعالى: أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ -إلى قوله-:
وَ أُحْيِ الْمَوْتىٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ

، الخلق جمع أجزاء الشىء،و فيه نسبه الخلق إلى غيره تعالى كما يشعر به أيضا قوله تعالى: «فَتَبٰارَكَ اللّٰهُ أَحْسَنُ الْخٰالِقِينَ» :المؤمنون-۱۴.

و الأكمه هو الذى يولد مطموس العين،و قد يقال لمن تذهب عينه قال:

كمهت عيناه حتى ابيضتا،قاله الراغب،و الأبرص من كان به برص و هو مرض جلدى معروف.

و فى قوله: وَ أُحْيِ الْمَوْتىٰ حيث علق الإحياء بالموتى و هو جمع دلاله و لا أقل من الإشعار بالكثره و التعدد.

و كذا قوله: بِإِذْنِ اللّٰهِ ،سيق للدلاله على أن صدور هذه الآيات المعجزه منه (ع)مستند إلى الله تعالى من غير أن يستقل عيسى(ع)بشىء من ذلك،و إنما كرر تكرارا يشعر بالإصرار لما كان من المترقب أن يضل فيه الناس فيعتقدوا بألوهيته

استدلالا بالآيات المعجزه الصادره عنه(ع)،و لذا كان يقيد كل آيه يخبر بها عن نفسه مما يمكن أن يضلوا به كالخلق و إحياء الموتى بإذن الله ثم ختم الكلام بقوله: إِنَّ اللّهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِیمٌ .

و ظاهر قوله: أَنِّی أَخْلُقُ لَکُمْ «إلخ»أن هذه الآيات كانت تصدر عنه صدورا خارجيا لا أن الكلام مسوق لمجرد الاحتجاج و التحدی،و لو كان مجرد قول لقطع العذر و إتمام الحجه لكان من حق الكلام أن يقيد بقيد يفيد ذلك كقولنا:إن سألتم أو أردتم أو نحو ذلك.

على أن ما يحكيه الله سبحانه من مشافهته لعيسى يوم القيامه يدل على وقوع هذه الآيات أتم الدلاله،قال: «إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلىٰ وٰالِدَتِكَ -Xإلى أن قالX-: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهٰا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتىٰ» Xالآيه:Xالمائده-١١٠.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعضهم:أن قصارى ما تدل عليه الآيه أن الله سبحانه جعل فی عيسى بن مريم هذا السر،و أنه احتج على الناس بذلك،و أتم الحجه عليهم بحيث لو سألوه شيئا من ذلك لأتى به،أما أن كلها أو بعضها وقع فلا دلاله فيها على ذلك.

قوله تعالى: وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمٰا تَأْكُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ،و هذا إخبار بالغيب المختص بالله تعالى،و من خصه من رسله بالوحی،و هو آيه أخرى و إخبار بغيب صريح التحقق لا يتطرق إليه الشك و الريب فإن الإنسان لا يشك عاده فيما أكله و لا فيما ادخره فی بيته.

و إنما لم يقيد هذه الآيه بإذن الله مع أن الآيه لا تتحقق إلا بإذن منه تعالى كما قال: «وَ مٰا كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ» :المؤمن-٧٨،لأن هذه الآيه عبر عنها بالإنباء و هو كلام قائم بعيسى(ع)يعد فعلا له فلا يليق أن يسند إلى ساحه القدس بخلاف الآيتين السابقتين أعنی الخلق و الإحياء فإنها فعل الله بالحقيقه و لا ينسبان إلى غيره إلا بإذنه.

على أن الآيتين المذكورتين ليستا كالإنباء فإن الضلال إلى الناس فيهما أسرع منه

فی الإنباء فإن القلوب الساذجه تقبل ألوهیه خالق الطیر و محیی الموتی بأدنی وسوسه و مغلطه بخلاف ألوهیه من یخبر بالمغیبات فإنها لا تذعن باختصاص الغیب بالله سبحانه بل تعتقده أمرا مبتذلا جائز النیل لکل مرتاض أو کاهن مشعبذ فکان من الواجب عند مخاطبتهم أن یقید الآیتین المذکورتین بالإذن دون الأخیره،و کذا الإبراء فیکفی فیها مجرد ذکر أنها آیه من الله،و خاصه إذا ألقی الخطاب إلی قوم یدعون أنهم مؤمنون، و لذلک ذیل الکلام بقوله: إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیَهً لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ أی إن کنتم صادقین فی دعواکم الإیمان.

قوله تعالی: وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ لِأُحِلَّ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَیْکُمْ ،عطف علی قوله: وَ رَسُولاً إِلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ ،و کون المعطوف مبنیا علی التکلم مع کون المعطوف علیه مبنیا علی الغیبه أعنی کون عیسی(ع)فی قوله: وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیَّ ،متکلما و فی قوله: وَ رَسُولاً إِلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ ، غائبا لیس مما یضر بالعطف بعد تفسیر قوله: وَ رَسُولاً إِلیٰ بَنِی إِسْرٰائِیلَ ،بقول عیسی: أَنِّی قَدْ جِئْتُکُمْ ،فإن وجه الکلام یتبدل بذلک من الغیبه إلی الحضور فیستقیم به العطف.

و تصدیقه للتوراه التی بین یدیه إنما هو تصدیق لما علمه الله من التوراه علی ما تفیده الآیه السابقه،و هو التوراه الأصل النازله علی موسی(ع)فلا دلاله لکونه مصدقا للتوراه التی فی زمانه علی کونها غیر محرفه کما لا دلاله لتصدیق نبینا محمد ص للتوراه التی بین یدیه علی کونها غیر محرفه.

قوله تعالی: وَ لِأُحِلَّ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی حُرِّمَ عَلَیْکُمْ ،فإن الله تعالی کان حرم علیهم بعض الطیبات،قال تعالی: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَیْهِمْ طَیِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» XالآیهX:النساء-۱۶۰.

و الکلام لا یخلو عن دلاله علی إمضائه(ع)لأحکام التوراه إلا ما نسخه الله تعالی بیده من الأحکام الشاقه المکتوبه علی الیهود،و لذا قیل:إن الإنجیل غیر مشتمل علی الشریعه،و قوله: وَ لِأُحِلَّ ،معطوف علی قوله: بِآیَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ ،و اللام للغایه، و المعنی:قد جئتکم لأنسخ بعض الأحکام المحرمه المکتوبه علیکم.

قوله تعالی: جِئْتُکُمْ بِآیَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ ،الظاهر أنه لبیان أن قوله: فَاتَّقُوا اللّٰهَ

وَ أَطِيعُونِ

،متفرع على إتيان الآيه لا على إحلال المحرمات فهو لدفع الوهم،و يمكن أن يكون هو مراد من قال:إن إعاده الجمله للتفرقه بين ما قبلها و ما بعدها فإن مجرد التفرقه ليست من المزايا فى الكلام.

قوله تعالى: إِنَّ اللّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ،فيه قطع لعذر من اعتقد ألوهيته لتفرسه(ع)ذلك منهم أو لعلمه بذلك بالوحى كما ذكرنا نظير ذلك فى تقييد قوله:

فَيَكُونُ طَيْراً

،و قوله وَ أُحْيِ الْمَوْتى ،بقوله: بِإِذْنِ اللّهِ لكن الظاهر من قوله تعالى فيما يحكى قول عيسى(ع): «ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاّ ما أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّى وَ رَبَّكُمْ» :المائده-١١٧،إن ذلك كان بأمر من ربه و وحى منه.

قوله تعالى: فَلَمّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللّهِ ،لما كانت البشاره التى بشر بها مريم مشتمله على جمل قصص عيسى(ع)من حين حمله إلى حين رسالته و دعوته اقتصر عليها اقتصاصا إيجازا فى الكلام و فرع عليها تتمه الجمله من قصته و هو انتخابه حوارييه و مكر قومه به و مكر الله بهم فى تطهيره منهم و توفيه و رفعه إليه،و هو تمام القصه.

و قد اعتبر فى القصه المقدار الذى يهم إلقاؤه إلى النصارى حين نزول الآيات، و هم نصارى نجران:الوفد الذين أتوا المدينه للبحث و الاحتجاج،و لذلك أسقط منها بعض الخصوصيات التى تشتمل عليه قصصه المذكوره فى سائر السور القرآنيه كسوره النساء و المائده و الأنبياء و الزخرف و الصف.

و فى استعمال لفظ الإحساس فى مورد الكفر مع كونه أمرا قلبيا إشعار بظهوره منهم حتى تعلق به الإحساس أو أنهم هموا بإيذائه و قتله بسبب كفرهم فأحس به فقوله:

فَلَمّا أَحَسَّ عِيسى

أى استشعر و استظهر مِنْهُمُ أى من بنى إسرائيل المذكور اسمهم فى البشاره اَلْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللّهِ ؟و إنما أراد بهذا الاستفهام أن يتميز عده من رجال قومه فيتمحضوا للحق فتستقر فيهم عده الدين،و تتمركز فيهم قوته ثم تنتشر من عندهم دعوته،و هذا شأن كل قوه من القوى الطبيعيه و الاجتماعيه و غيرها،أنها إذا شرعت فى الفعل و نشر التأثير و بث العمل كان من اللازم أن تتخذ لنفسها كانونا تجتمع فيه و تعتمد عليه و تستمد منه و لو لا ذلك لم تستقر على عمل،و ذهبت سدى لا تجدى نفعا.

و نظير ذلك فى دعوه الإسلام بيعه العقبه و بيعه الشجره أراد بها رسول الله ص ركوز القدره و تجمع القوه ليستقيم به أمر الدعوه.

فلما أيقن عيسى(ع)أن دعوته غير ناجحه فى بنى إسرائيل كلهم أو جلهم، و أنهم كافرون به لا محاله،و أنهم لو أخمدوا أنفاسه بطلت الدعوه و اشتدت المحنه مهد لبقاء دعوته هذا التمهيد فاستنصر منهم للسلوك إلى الله سبحانه فأجابه الحواريون على ذلك فتميزوا من سائر القوم بالإيمان فكان ذلك أساسا لتميز الإيمان من الكفر و ظهوره عليه بنشر الدعوه و إقامه الحجه كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ كَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ» :الصف-۱۴.

و قد قيد الأنصار فى قوله: مَنْ أَنْصَارِي بقوله: إِلَى اللَّهِ ليتم به معنى التشويق و التحريص الذى سيق لأجله هذا الاستفهام نظير قوله تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً» :البقره-۲۴۵.

و الظرف متعلق بقوله: أَنْصَارِي ،بتضمين النصره معنى السلوك و الذهاب أو ما يشابههما كما حكى عن إبراهيم(ع)من قوله: «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ» :الصافات-۹۹.

و أما ما احتمله بعض المفسرين من كون إلى بمعنى مع فلا دليل عليه و لا يساعد أدب القرآن أن يجعله تعالى فى عداد غيره فيعد غير الله ناصرا كما يعده ناصرا،و لا يساعد عليه أدب عيسى(ع)اللائح مما يحكيه القرآن من قوله،على أن قوله تعالى:

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ

،أيضا لا يساعد عليه إذ كان من اللازم على ذلك أن يقولوا:نحن أنصارك مع الله فليتأمل.

قوله تعالى: قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ، حوارى الإنسان من اختص به من الناس،و قيل أصله من الحور و هو شده البياض،و لم يستعمل القرآن هذا اللفظ إلا فى خواص عيسى(ع)من أصحابه.

و قولهم: آمَنَّا بِاللَّهِ ،بمنزل التفسير لقولهم: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ و هذا مما يؤيد كون

قوله: أَنْصارِی إِلَی اللّهِ جاریا مجری التضمین کما مر فإنه یفید معنی السلوک فی الطریق إلی الله،و الإیمان طریق.

و هل هذا أول إیمانهم بعیسی(ع)؟ربما استفید من قوله تعالی: «کَما قالَ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ لِلْحَوارِیِّینَ مَنْ أَنْصارِی إِلَی اللّهِ قالَ الْحَوارِیُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ» :الصف-۱۴،أنه إیمان،بعد إیمان و لا ضیر فیه کما یظهر بالرجوع إلی ما أوضحناه من کون الإیمان و الإسلام ذوی مراتب مختلفه بعضها فوق بعض.

بل ربما دل قوله تعالی: «وَ إِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوارِیِّینَ أَنْ آمِنُوا بِی وَ بِرَسُولِی قالُوا آمَنّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ» :المائده-۱۱۱،أن إجابتهم إنما کانت بوحی من الله تعالی إلیهم،و أنهم کانوا أنبیاء فیکون الإیمان الذی أجابوه به هو الإیمان بعد الإیمان.

علی أن قولهم: وَ اشْهَدْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ رَبَّنا آمَنّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ، و هذا الإسلام هو التسلیم المطلق لجمیع ما یریده الله تعالی منهم و فیهم-یدل أیضا علی ذلک فإن هذا الإسلام لا یتأتی إلا من خلص المؤمنین لا من کل من شهد بالتوحید و النبوه مجرد شهاده،بیان ذلک أنه قد مر فی البحث عن مراتب الإیمان و الإسلام:أن کل مرتبه من الإیمان تسبقها مرتبه من مراتب الإسلام کما یدل علیه قولهم: آمَنّا بِاللّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ ،حیث أتوا فی الإیمان بالفعل و فی الإسلام بالصفه فأول مراتب الإسلام هو التسلیم و الشهاده علی أصل الدین إجمالا،و یتلوه الإذعان القلبی بهذه الشهاده الصوریه فی الجمله،و یتلوه(و هو المرتبه الثانیه من الإسلام)التسلیم القلبی لمعنی الإیمان و ینقطع عنده السخط و الاعتراض الباطنی بالنسبه إلی جمیع ما یأمر به الله و رسوله و هو الاتباع العملی فی الدین،و یتلوه(و هو المرتبه الثانیه من الإیمان)خلوص العمل و استقرار وصف العبودیه فی جمیع الأعمال و الأفعال،و یتلوه(و هو المرتبه الثالثه من الإسلام)التسلیم لمحبه الله و إرادته تعالی فلا یحب و لا یرید شیئا إلا بالله،و لا یقع هناک إلا ما أحبه الله و أراده و لا خبر عن محبه العبد و إرادته فی نفسه،و یتلوه(و هو المرتبه الثالثه من الإیمان) شیوع هذا التسلیم العبودی فی جمیع الأعمال.

فإذا تذکرت هذا الذی ذکرناه،و تأملت فی قوله(ع)فیما نقل من دعوته:

فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَطِیعُونِ إِنَّ اللّهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ

الآیه،وجدت أنه(ع)أمر أولا بتقوی الله و إطاعه نفسه ثم علل ذلک بقوله: إِنَّ اللّهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ ،

أی إن الله ربکم معشر الأمه و رب رسوله الذی أرسله إلیکم،فیجب علیکم أن تتقوه بالإیمان،و أن تطیعونی بالاتباع،و بالجمله یجب علیکم أن تعبدوه بالتقوی و طاعه الرسول أی الإیمان و الاتباع،فهذا هو المستفاد من هذا الکلام،و لذا بدل التقوی و الإطاعه فی التعلیل من قوله: فَاعْبُدُوهُ و إنما فعل ذلک لیتضح ارتباط الأمر بالله لظهور الارتباط به فی العبودیه ثم ذکر أن هذه العباده صراط مستقیم فجعله سبیلا ینتهی بسالکه إلی الله سبحانه.

ثم لما أحس منهم الکفر و لاحت أسباب الیأس من إیمان عامتهم قال من أنصاری إلی الله فطلب أنصارا لسلوک هذا الصراط المستقیم الذی کان یندب إلیه،و هو العبودیه أعنی التقوی و الإطاعه فأجابه الحواریون بعین ما طلبه فقالوا: نَحْنُ أَنْصارُ اللّهِ ،ثم ذکروا ما هو کالتفسیر له فقالوا: آمَنّا بِاللّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ ،و مرادهم بالإسلام إطاعته و تبعیته،و لذا لما خاطبوا ربهم خطاب تذلل و التجاء،و ذکروا له ما وعدوا به عیسی(ع)قالوا: رَبَّنا آمَنّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ،فبدلوا الإسلام من الاتباع، و وسعوا فی الإیمان بتقییده بجمیع ما أنزل الله.

فأفاد ذلک أنهم آمنوا بجمیع ما أنزل الله مما علمه عیسی بن مریم من الکتاب و الحکمه و التوراه و الإنجیل،و اتبعوا الرسول فی ذلک،و هذا کما تری لیس أول درجه من الإیمان بل من أعلی درجاته و أسماها.

و إنما استشهدوا عیسی(ع)فی إسلامهم و اتباعهم و لم یقولوا:آمنا بالله و إنا مسلمون أو ما یفید معناه لیکونوا علی حجه فی عرضهم حالهم علی ربهم إذ قالوا:

رَبَّنا آمَنّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ

،فکأنهم قالوا:ربنا حالنا هذا الحال،و یشهد بذلک رسولک.

قوله تعالی: رَبَّنا آمَنّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاکْتُبْنا مَعَ الشّاهِدِینَ ،مقول قول الحواریین حذف القول من اللفظ للدلاله علی حکایه نفس الواقعه و هو من الأسالیب اللطیفه فی القرآن الکریم،و قد مر بیانه،و قد سألوا ربهم أن یکتبهم من الشاهدین، و فرعوا ذلک علی إیمانهم و إسلامهم جمیعا لأن تبلیغ الرسول رسالته إنما یتحقق ببیانه ما أنزله الله علیه قولا و فعلا،أی بتعلیمه معالم الدین و عمله بها،فالشهاده علی التبلیغ

إنما يكون بتعلمها من الرسول و اتباعه عملا حتى يشاهد أنه عامل بما يدعو إليه لا يتخطاه و لا يتعداه.

و الظاهر أن هـذه الشـهاده هى التى يومئ إليها قوله تعالى: «فَلَنَسْـئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْـئَلَنَّ الْمُرْسَـلِينَ» :الأعراف-۶،و هى الشهاده على التبليغ،و أما قوله تعالى:

«وَ إِذا سَـمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُـولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الـدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِـدِينَ» :المائده-۸۳،فهو شهاده على حقيه رساله الرسول دون التبليغ،و الله أعلم.

و ربما أمكن أن يستفاد من قولهم: فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِـدِينَ بعد استشـهادهم الرسول على إسـلامهم أن المسئول:أن يكتبهم الله من شهداء الأعمال كما يلوح ذلك مما حكاه الله تعالى فى دعاء إبراهيم و إسماعيل(ع): «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا» :البقره-۱۲۸،و ليرجع إلى ما ذكرناه فى ذيل الآيه.

قوله تعالى: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللّهُ وَ اللّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ ،الماكرون هم بنو إسـرائيل، بقرينه قوله: فَلَمّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ،و قد مر الكلام فى معنى المكر المنسوب إليه تعالى فى ذيل قوله: «وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ» :البقره-۲۶.

قوله تعالى: إِذْ قالَ اللّهُ يا عِيسى إِنِّى مُتَوَفِّيکَ ، التوفى أخذ الشـىء أخذا تاما، و لذا يستعمل فى الموت لأن الله يأخذ عند الموت نفس الإنسان من بدنه قال تعالى:

«تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا» :الأنعام-۶۱،أى أماته،و قال تعالى: «وَ قالُوا أَ إِذا ضَـلَلْنا فِى الْأَرْضِ أَ إِنّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيـدٍ -Xإلى أن قالX-: قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ» :السجده-۱۱،و قال تعالى: «اللّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى» :الزمر-۴۲،و التأمل فى الآيتين الأخيرتين يعطى أن التوفى لم يستعمل فى القرآن بمعنى الموت بل بعنايه الأخذ و الحفظ، و بعباره أخرى إنما استعمل التوفى بما فى حين الموت من الأخذ للدلاله على أن نفس الإنسان لا يبطل و لا يفنى بالموت الذى يظن الجاهل أنه فناء و بطلان بل الله تعالى يحفظها حتى يبعثها للرجوع إليه،و إلا فهو سبحانه يعبر فى الموارد التى لا تجرى فيه هذه العنايه بلفظ الموت دون التوفى كما فى قوله تعالى: «وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مٰاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أَعْقٰابِكَمْ» :آل عمران-۱۴۴،و قوله تعالی: «لاٰ يُقْضىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا» :الفاطر-۳۶،إلی غير ذلک من الآيات الكثيره جدا حتی ما ورد فی عيسی(ع)بنفسه كقوله: «وَ السَّلاٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» :مريم-۳۳،و قوله: «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» :النساء-۱۵۹،فمن هذه الجهه لا صراحه للتوفی فی الموت.

علی أن قوله تعالی فی رد دعوی اليهود: «وَ قَوْلِهِمْ إِنّٰا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّٰهِ وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبٰاعَ الظَّنِّ وَ مٰا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاّٰ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيٰامَهِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» :النساء-۱۵۹،يؤيد ذلک فإن اليهود كانت تدعی أنهم قتلوا المسيح عيسی بن مريم(ع) و كذلک كانت تظن النصاری أن اليهود قتلت عيسی بن مريم(ع)بالصلب غير أنهم كانوا يزعمون أن الله سبحانه رفعه بعد قتله من قبره إلی السماء علی ما فی الأناجيل، و الآيات كما تری تكذب قصه القتل و الصلب صريحا.

و الذی يعطيه ظاهر قوله: وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ الآيه أنه حی عند الله و لن يموت حتی يؤمن به أهل الكتاب،علی هذا فيكون توفيه(ع)أخذه من بين اليهود لكن الآيه مع ذلک غير صريحه فيه و إنما هو الظهور،و سيجیء تمام الكلام فی ذلک فی آخر سوره النساء.

قوله تعالی: وَ رٰافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، الرفع خلاف الوضع، و الطهاره خلاف القذاره،و قد مر الكلام فی معنی الطهاره.

و حيث قيد الرفع بقوله: إِلَيَّ ،أفاد ذلک أن المراد بالرفع الرفع المعنوی دون الرفع الصوری إذ لا مكان له تعالی من سنخ الأمكنه الجسمانيه التی تتعاورها الأجسام و الجسمانيات بالحلول فيها،و القرب و البعد منها،فهو من قبيل قوله تعالی فی ذيل الآيه:

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ

،و خاصه لو كان المراد بالتوفی هو القبض لظهور أن المراد حينئذ هو رفع الدرجه و القرب من الله سبحانه،نظير ما ذكره تعالی فی حق المقتولين فی سبيله:

«أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» :آل عمران-۱۶۹،و ما ذكره فی حق إدريس(ع):

«وَ رَفَعْنٰاهُ مَكٰاناً عَلِيًّا» :مريم-۵۷.

و ربما يقال:إن المراد برفعه إليه رفعه بروحه و جسده حيا إلى السماء على ما يشعر به ظاهر القرآن الشريف أن السماء أى الجسمانيه هى مقام القرب من الله سبحانه، و محل نزول البركات،و مسكن الملائكه المكرمين،و لعلنا نوفق للبحث عن معنى السماء فيما سيأتى إن شاء الله تعالى.

و التطهير من الكافرين حيث أتبع به الرفع إلى الله سبحانه أفاد معنى التطهير المعنوى دون الظاهرى الصورى فهو إبعاده من الكفار و صونه عن مخالطتهم و الوقوع فى مجتمعهم المتقذر بقذاره الكفر و الجحود.

قوله تعالى: وَ جٰاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَهِ ،وعد منه تعالى له(ع)أنه سيفوق متبعى عيسى(ع)على مخالفيه الكافرين بنبوته،و أن تفوقهم هذا سيدوم إلى يوم القيامه و إنما ذكر تعالى فى تعريف هؤلاء الفائقين على غيرهم أن الفائقين هم الذين اتبعوه و أن غيرهم هم الذين كفروا من غير أن يقول هم بنو إسرائيل أو اليهود المنتحلون بشريعه موسى(ع)أو غير ذلك.

غير أنه تعالى لما أخذ الكفر فى تعريف مخالفيه ظهر منه أن المراد باتباعه هو الاتباع على الحق أعنى الاتباع المرضى لله سبحانه فيكون الذين اتبعوه هم أتباعه المستقيمون من النصارى قبل ظهور الإسلام و نسخه دين عيسى،و المسلمون بعد ظهور الإسلام فإنهم هم أتباعه على الحق،و على هذا فالمراد بالتفوق هو التفوق بحسب الحجه دون السلطنه و السيطره،فمحصل معنى الجمله:أن متبعيك من النصارى و المسلمين ستفوق حجتهم على حجه الكافرين بك من اليهود إلى يوم القيامه،هذا ما ذكره و ارتضاه المفسرون فى معنى الآيه.

و الذى أراه أن الآيه لا تساعد عليه لا بلفظها و لا بمعناها فإن ظاهر قوله إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رٰافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جٰاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ،أنه إخبار عن المستقبل و أنه سيتحقق فيما يستقبل حال التكلم توف و رفع و تطهير و جعل على أن قوله:

وَ جٰاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ

،وعد حسن و بشرى،و ما هذا شأنه لا يكون إلا فى ما سيأتى، و من المعلوم أن ليست حجه متبعى عيسى(ع)إلا حجه عيسى نفسه،و هى التى ذكرها الله تعالى فى ضمن آيات البشاره أعنى بشاره مريم،و هذه الحجج حجج فائقه حين حضور عيسى قبل الرفع،و بعد رفع عيسى بل كانت قبل رفعه(ع)أقطع لعذر

الکفار و منبت خصومتهم،و أوضح فی رفع شبههم،فما معنی وعده(ع)أنه ستفوق حجه متبعیه علی حجه مخالفیه ثم ما معنی تقیید هذه الغلبه و التفوق بقوله: إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ ،مع أن الحجه فی غلبتها لا تقبل التقیید بوقت و لا یوم علی أن تفوق الحجه علی الحجه باق علی حاله یوم القیامه علی ما یخبر به القرآن فی ضمن أخبار القیامه.

فإن قلت:لعل المراد من تفوق الحجه تفوقها من جهه المقبولیه بأن یکون الناس أسمع لحجه المتبعین و أطوع لها فیکونوا بذلک أکثر جمعا و أوثق رکنا و أشد قوه.

قلت:مرجع ذلک إما إلی تفوق متبعیه الحقیقیین من حیث السلطنه و القوه و الواقع خلافه،و احتمال أن یکون إخبارا عن ظهور للمتبعین و تفوق منهم سیتحقق فی آخر الزمان لا یساعد علیه لفظ الآیه،و إما إلی کثره العدد بأن یراد أن متبعیه (ع)سیفوقون الکافرین أی یکون أهل الحق بعد عیسی أکثر جمعا من أهل الباطل، ففیه مضافا إلی أن الواقع لا یساعد علیه فلم یزل أهل الباطل یربو و یزید جمعهم علی أهل الحق من زمن عیسی إلی یومنا هذا و قد بلغ الفصل عشرین قرنا أن لفظ الآیه لا یساعد علیه فإن الفوقیه فی الآیه و خاصه من جهه کون المقام مقام الإنباء عن نزول السخط الإلهی علی الیهود و شمول الغضب علیهم إنما یناسب القهر و الاستعلاء إما من حیث الحجه البالغه أو من حیث السلطه و القوه و أما من حیث کثره العدد فلا یناسب المقام کما هو ظاهر.

و الذی ینبغی أن یقال أن الذی أخذ فی الآیه معرفا للفرقتین هو قوله: اَلَّذِینَ اتَّبَعُوکَ ،و قوله اَلَّذِینَ کَفَرُوا ،و الفعل إنما یدل علی التحقق و الحدوث دون التلبس الذی یدل علیه الوصف کالمتبعین و الکافرین،و مجرد صدور فعل من بعض أفراد أمه مع رضاء الباقین به و سلوک اللاحقین مسلک السابقین و جریهم علی طریقتهم کاف فی نسبه ذلک الفعل إلیهم،کما أن القرآن یؤنب الیهود و یوبخهم علی کثیر من أفعال سلفهم کقتل الأنبیاء و إیذائهم و الاستکبار عن امتثال أوامر الله سبحانه و رسله و تحریف آیات الکتاب،و غیر ذلک.

و علی هذا صح أن یراد بالذین کفروا الیهود،و بالذین اتبعوا النصاری لما صدر من

صدرهم و سلفهم من الإیمان بعیسی(ع)و اتباعه-و قد کان إیمانا مرضیا و اتباعا حقا-و إن کان الله سبحانه لم یرتض اتباعهم له(ع)بعد ظهور الإسلام،و لا اتباع أهل التثلیث منهم قبل ظهور الدعوه الإسلامیه.

فالمراد جعل النصاری-و هم الذین اتبع أسلافهم عیسی(ع)-فوق الیهود و هم الذین کفروا بعیسی(ع)و مکروا به،و الغرض فی المقام بیان نزول السخط الإلهی علی الیهود،و حلول المکر بهم،و تشدید العذاب علی أمتهم،و لا ینافی ما ذکرناه کون المراد بالاتباع هو الاتباع علی الحق کما استظهرناه فی أول الکلام کما لا یخفی.

و یؤید هذا المعنی تغییر الأسلوب فی الآیه الآتیه أعنی قوله: وَ أَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ ،إذ لو کان المراد بالذین اتبعوا هم أهل الحق و النجاه من النصاری و المسلمین فقط کان الأنسب أن یقال:و أما الذین اتبعوک فیوفیهم أجورهم من غیر تغییر للسیاق کما لا یخفی.

و هاهنا وجه آخر و هو أن یکون المراد بالذین اتبعوا هم النصاری و المسلمون قاطبه و تکون الآیه مخبره عن کون الیهود تحت إذلال من یذعن لزوم اتباع عیسی إلی یوم القیامه،و التقریب عین التقریب،و هذا أحسن الوجوه فی توجیه الآیه عند التدبر.

قوله تعالی: ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأَحْکُمُ بَیْنَکُمْ فِیمٰا کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ ،و قد جمع سبحانه فی هذا الخطاب بین عیسی و بین الذین اتبعوه و الذین کفروا به و هذا مآل أمرهم یوم القیامه،و بذلک یختتم أمر عیسی و خبره من حین البشاره به إلی آخر أمره و نباه.

قوله تعالی: فَأَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً شَدِیداً فِی الدُّنْیٰا وَ الْآخِرَهِ ، ظاهره أنه متفرع علی قوله: فَأَحْکُمُ بَیْنَکُمْ ،تفرع التفصیل علی الإجمال فیکون بیانا للحکم الإلهی فی یوم القیامه بالعذاب للیهود الذین کفروا و توفیه الأجر للمؤمنین.

لکن اشتمال التفریع علی قوله: فِی الدُّنْیٰا ،یدل علی کونه متفرعا علی مجموع قوله: وَ جٰاعِلُ الَّذِینَ اتَّبَعُوکَ فَوْقَ الَّذِینَ کَفَرُوا(إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ)ثُمَّ إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ «إلخ»فیدل علی أن نتیجه هذا الجعل و الرجوع تشدید العذاب علیهم فی الدنیا بید الذین فوقهم الله تعالی علیهم، و فی الآخره بالنار،و ما لهم فی ذلک من ناصرین.

و هذا أحد الشواهد على أن المراد بالتفويق فى الآيه السابقه هو التسليط بالسيطره و القوه دون التأييد بالحجه.

و فى قوله: وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِينَ دلاله على نفى الشفاعه المانعه عن حلول العذاب بساحتهم،و هو حتم القضاء كما تقدم.

قوله تعالى: وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ،و هذا وعد حسن بالجزاء الخير للذين اتبعوا إلا أن مجرد صدق الاتباع لما لم يستلزم استحقاق جزيل الثواب لأن الاتباع كما عرفت وصف صادق على الأمه بمجرد تحققه و صدوره عن عده من أفرادها و حينئذ إنما يؤثر الأثر الجميل و الثواب الجزيل بالنسبه إلى من تلبس به شخصا دون من انتسب إليه اسما فلذلك بدل الذين اتبعوك من مثل قوله: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ ،ليستقيم المعنى فإن السعاده و العاقبه الحسنى تدور مدار الحقيقه دون الاسم كما يدل عليه قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هٰادُوا وَ النَّصٰارىٰ وَ الصّٰابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ :البقره-۶۲.

فهذا أجر الذين آمنوا و عملوا الصالحات من الذين اتبعوا عيسى((ع))أن الله يوفيهم أجورهم،و أما غيرهم فليس لهم من ذلک شیء،و قد أشير إلى ذلک فى الآيه بقوله: وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ الظّٰالِمِينَ .

و من هنا يظهر السر فى ختم الآيه-و هى آيه الرحمه و الجنه-بمثل قوله: وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ الظّٰالِمِينَ مع أن المعهود فى آيات الرحمه و النعمه أن تختتم بأسماء الرحمه و المغفره أو بمدح حال من نزلت فى حقه الآيه نظير قوله تعالى: «وَ كُلاًّ وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنىٰ وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» :الحديد-۱۰،و قوله تعالى: «إِنْ تُقْرِضُوا اللّٰهَ قَرْضاً حَسَناً يُضٰاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللّٰهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ» :التغابن-۱۷،و قوله تعالى: «وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ يَعْمَلْ صٰالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئٰاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» :التغابن-۹،و قوله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ» :الجاثيه-۳۰،إلى غير ذلک من الآيات.

فقوله: وَ اللّٰهُ لاٰ يُحِبُّ الظّٰالِمِينَ مسوق لبيان حال الطائفه الأخرى ممن انتسب

إلى عيسى(ع)بالاتباع و هم غير الذين آمنوا و عملوا الصالحات.

قوله تعالى: ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ إشاره إلى اختتام القصه.و المراد بالذكر الحكيم القرآن الذى هو ذكر لله محكم من حيث آياته و بياناته، لا يدخله باطل،و لا يلج فيه هزل.

قوله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ قٰالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ،تلخيص لموضع الحاجه مما ذكره من قصه عيسى فى تولده تفصيلا،و الإيجاز بعد الإطناب-و خاصه فى مورد الاحتجاج و الاستدلال-من مزايا الكلام،و الآيات نازله فى الاحتجاج و متعرضه لشأن وفد النصارى نصارى نجران فكان من الأنسب أن يوجز البيان فى خلقته بعد الإطناب فى قصته ليدل على أن كيفيه ولادته لا تدل على أزيد من كونه بشرا مخلوقا نظير آدم(ع)فليس من الجائز أن يقال فيه أزيد و أعظم مما قيل فى آدم،و هو أنه بشر خلقه الله من غير أب.

فمعنى الآيه: إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللّٰهِ أى وصفه الحاصل عنده تعالى أى ما يعلمه الله تعالى من كيفيه خلق عيسى الجارى بيده أن كيفيه خلقه يضاهى كيفيه خلق آدم، و كيفيه خلقه أنه جمع أجزاءه من تراب ثم قال له كن فتكون تكونا بشريا من غير أب.

فالبيان بحسب الحقيقه منحل إلى حجتين تفى كل واحده منهما على وحدتها بنفى الألوهيه عن المسيح(ع).

إحداهما:أن عيسى مخلوق لله-على ما يعلمه الله و لا يضل فى علمه-خلقه بشر و إن فقد الأب و من كان كذلك كان عبدا لا ربا.

و ثانيهما:أن خلقته لا تزيد على خلقه آدم فلو اقتضى سنخ خلقه أن يقال بألوهيته بوجه لاقتضى خلق آدم ذلك مع أنهم لا يقولون بها فيه فوجب أن لا يقولوا بها فى عيسى(ع)أيضا لمكان المماثله.

و يظهر من الآيه أن خلقه عيسى كخلقه آدم خلقه طبيعيه كونيه و إن كانت خارقه للسنه الجاريه فى النسل و هى حاجه الولد فى تكونه إلى والد.

و الظاهر أن قوله: فَيَكُونُ ،أريد به حكايه الحال الماضيه،و لا ينافى ذلك دلاله

قوله: ثُمَّ قٰالَ لَهُ كُنْ على انتفاء التدريج فإن النسبه مختلفه فهذه الموجودات بأجمعها أعم من التدريجى الوجود و غيره مخلوقه لله سبحانه موجوده بأمره الذى هو كلمه كن كما قال تعالى: «إِنَّمٰا أَمْرُهُ إِذٰا أَرٰادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» :يس-٨٢،و كثير منها تدريجيه الوجود إذا قيست حالها إلى أسبابها التدريجيه.و أما إذا لوحظ بالقياس إليه تعالى فلا تدريج هناك و لا مهله كما قال تعالى: «وَ مٰا أَمْرُنٰا إِلاّٰ وٰاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» :القمر-٥٠،و سيجىء زياده توضيح لهذا المعنى إن شاء الله تعالى فى محله المناسب له.

على أن عمده ما سيق لبيانه قوله: ثُمَّ قٰالَ لَهُ كُنْ إنه تعالى لا يحتاج فى خلق شىء إلى الأسباب حتى يختلف حال ما يريد خلقه من الأشياء بالنسبه إليه تعالى بالإمكان و الاستحاله،و الهوان و العسر،و القرب و البعد،باختلاف أحوال الأسباب الدخيله فى وجوده فما أراده و قال له كن،كان من غير حاجه إلى الأسباب الدخيله عاده.

قوله تعالى: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاٰ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ تأكيد لمضمون الآيه السابقه بعد تأكيده بأن و نحوه نظير تأكيد تفصيل القصه بقوله: ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيٰاتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ الآيه،و فيه تطييب لنفس رسول الله ص بأنه على الحق،و تشجيع له فى المحاجه.

و هذا أعنى قوله: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ من أبدع البيانات القرآنيه حيث قيد الحق بمن الداله على الابتداء دون غيره بأن يقال:الحق مع ربك لما فيه من شائبه الشرك و نسبه العجز إليه تعالى بحسب الحقيقه.

و ذلك أن هذه الأقاويل الحقه و القضايا النفس الأمريه الثابته كائنه ما كانت و إن كانت ضروريه غير ممكنه التغير عما هى عليه كقولنا:الأربعه زوج،و الواحد نصف الاثنين،و نحو ذلك إلا أن الإنسان إنما يقتنصها من الخارج الواقع فى الوجود و الوجود كله منه تعالى،فالحق كله منه تعالى كما أن الخير كله منه،و لذلك كان تعالى لا يسأل عما يفعل و هم يسألون،فإن فعل غيره إنما يصاحب الحق إذا كان حقا،و أما فعله تعالى فهو الوجود الذى ليس الحق إلا صورته العلميه.

بحث روائی

فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی: یَا مَرْیَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاکِ-وَ طَهَّرَکِ وَ اصْطَفَاکِ عَلَی نِسَاءِ الْعَالَمِینَ قال:قال(ع)اصطفاها مرتین:أما الأولی فاصطفاها أی اختارها، و أما الثانیه فإنها حملت من غیر فحل-فاصطفاها بذلک علی نساء العالمین

و فی المجمع،قال أبو جعفر(ع): معنی الآیه اصطفاک لذریه الأنبیاء،و طهرک من السفاح-و اصطفیک لولاده عیسی من غیر فحل.

أقول:معنی قوله:اصطفاک لذریه الأنبیاء اختارک لتکونی ذریه صالحه جدیره للانتساب إلی الأنبیاء،و معنی قوله:و طهرک من السفاح أعطاک العصمه منه،و هو العمده فی موردها لکونها ولدت عیسی من غیر فحل،فالکلام مسوق لبیان بعض لوازم اصطفائها و تطهیرها،فالروایتان غیر متعارضتین کما هو ظاهر،و قد مر دلاله الآیه علی ذلک.

و فی الدر المنثور،أخرج أحمد و الترمذی و صححه و ابن المنذر و ابن حبان و الحاکم عن أنس:أن رسول الله ص قال: حسبک من نساء العالمین-مریم بنت عمران و خدیجه بنت خویلد-و فاطمه بنت محمد ص و آسیه امرأه فرعون:قال السیوطی و أخرجه ابن أبی شیبه عن الحسن مرسلا:

و فیه،أخرج الحاکم و صححه عن ابن عباس قال:قال رسول الله ص:

أفضل نساء العالمین-خدیجه و فاطمه و مریم و آسیه امرأه فرعون.

و فیه،أخرج ابن مردویه عن الحسن قال قال رسول الله ص: إن الله اصطفی علی نساء العالمین أربعه:آسیه بنت مزاحم،و مریم بنت عمران،و خدیجه بنت خویلد و فاطمه بنت محمد ص.

و فیه،أخرج ابن أبی شیبه و ابن جریر عن فاطمه رضی الله عنها قالت:قال لی رسول الله ص: أنت سیده نساء أهل الجنه لا مریم البتول.

و فیه،أخرج ابن عساکر عن ابن عباس قال:قال رسول الله ص: سیده نساء أهل الجنه مریم بنت عمران-ثم فاطمه ثم خدیجه ثم آسیه امرأه فرعون

و فيه،أخرج ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ص قال: أربع نسوه سادات عالمهن.مريم بنت عمران و آسيه بنت مزاحم و خديجه بنت خويلد-و فاطمه بنت محمد ص،و أفضلهن عالما فاطمه.

و فيه،أخرج ابن أبى شيبه عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال:قال رسول الله ص: فاطمه سيده نساء العالمين بعد مريم ابنه عمران،و آسيه امرأه فرعون، و خديجه ابنه خويلد.

و فى الخصال،بإسناده عن عكرمه عن ابن عباس قال: خط رسول الله ص أربع خطوط ثم قال:خير نساء الجنه مريم بنت عمران و خديجه بنت خويلد-و فاطمه بنت محمد و آسيه بنت مزاحم امرأه فرعون.

و فيه،أيضا بإسناده عن أبى الحسن الأول(ع)قال:قال رسول الله ص:

إن الله عز و جل اختار من النساء أربعا:مريم و آسيه و خديجه و فاطمه ،الخبر.

أقول:و الروايات فيما يقرب من هذا المضمون من طرق الفريقين كثيره،و كون هؤلاء سيدات النساء لا ينافى وجود التفاضل بينهن أنفسهن كما يظهر من الخبر السادس المنقول من الدر المنثور و أخبار أخرى،و قد مر نظير هذا البحث فى تفسير قوله تعالى:

«إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفىٰ آدَمَ وَ نُوحاً» XالآيهX:آل عمران-٣٣.

و مما ينبغى أن يتنبه له أن الواقع فى الآيه هو الاصطفاء،و قد مر أنه الاختيار، و الذى وقع فى الأخبار هو السياده،و بينهما فرق بحسب المعنى فالثانى من مراتب كمال الأول.

و فى تفسير العياشى،: فى قوله تعالى: إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ،عن الباقر(ع):يقرعون بها حين أيتمت من أبيها.

و فى تفسير القمى،":

وَ إِذْ قٰالَتِ الْمَلاٰئِكَهُ يٰا مَرْيَمُ-إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفٰاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفٰاكِ عَلىٰ نِسٰاءِ الْعٰالَمِينَ

،قال:اصطفاها مرتين:أما الأولى فاصطفاها أى اختارها،و أما الثانيه فإنها حملت من غير فحل-فاصطفاها بذلك على نساء العالمين-إلى أن قال القمى- ثم قال الله لنبيه: ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ يا محمد وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ

،قال لما ولدت اختصموا آل عمران فيها و كلهم قالوا:نحن نكفلها فخرجوا و ضربوا بالسهام بينهم-فخرج سهم زكريا ،الخبر.

أقول:و قد مر من البيان ما يؤيد هذا الخبر و ما قبلها.

و اعلم أن هناك روايات كثيره فى بشاره مريم و ولاده عيسى(ع)و دعوته و معجزاته لكن ما وقع فى الآيات الشريفه من جمل قصصه كاف فيما هو المهم من البحث التفسيرى،و لذلک ترکنا ذکرها إلا ما يهم ذكره منها.

و فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى: وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمٰا تَأْكُلُونَ الآيه،عن الباقر(ع)أن عيسى كان يقول لبنى إسرائيل-إنى رسول الله إليكم،و إنى أخلق لكم من الطين كهيئه الطير-فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله-و أبرئ الأكمه و الأبرص،و الأكمه هو الأعمى:

قالوا:ما نرى الذى تصنع إلا سحرا-فأرنا آيه نعلم أنك صادق قال:أ رأيتكم إن أخبرتكم بما تأكلون و ما تدخرون فى بيوتكم-يقول:ما أكلتم فى بيوتكم قبل أن تخرجوا-و ما ادخرتم بالليل-تعلمون أنى صادق؟قالوا:نعم فكان يقول:أنت أكلت كذا و كذا-و شربت كذا و كذا و رفعت كذا و كذا-فمنهم من يقبل منه فيؤمن،و منهم من يكفر،و كان لهم فى ذلک آيه إن كانوا مؤمنين.

أقول:و تغيير سياق الآيه فى حكايه ما ذكره(ع)من الآيات أولا و آخرا يؤيد هذه الروايه،و قد مرت الإشاره إليه.

و فى تفسير العياشى،: فى قوله تعالى: وَ مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرٰاهِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ الآيه،عن الصادق(ع)قال:كان بين داود و عيسى أربعمائه سنه،و كانت شريعه عيسى أنه بعث بالتوحيد و الإخلاص-و بما أوصى به نوح و إبراهيم و موسى،و أنزل عليه الإنجيل،و أخذ عليه الميثاق الذى أخذ على النبيين،و شرع له فى الكتاب:إقام الصلوه مع الدين-و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر-و تحريم الحرام و تحليل الحلال،و أنزل عليه فى الإنجيل مواعظ و أمثال-و حدود ليس فيها قصاص،و لا أحكام حدود،و لا فرض مواريث،و أنزل عليه تخفيف ما كان على موسى فى التوراه،و هو قول الله فى الذى قال عيسى لبنى إسرائيل: وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ،و أمر عيسى من معه ممن اتبعه من المؤمنين-أن يؤمنوا بشريعه التوراه و الإنجيل.

أقول:

و روی الروایه فی قصص الأنبیاء،مفصله عن الصادق(ع)و فیها:

کان بین داود و عیسی أربعمائه سنه،و ثمانون سنه-و لا یوافق شیء منهما تاریخ أهل الکتاب.

و فی العیون،عن الرضا(ع): أنه سئل لم سمی الحواریون الحواریین؟قال:

أما عند الناس فإنهم سموا حواریین-لأنهم کانوا قصارین یخلصون الثیاب من الوسخ بالغسل، و هو اسم مشتق من الخبز الحوار.و أما عندنا فسمی الحواریون الحواریین-لأنهم کانوا مخلصین فی أنفسهم-و مخلصین غیرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ و التذکیر.

و فی التوحید،عنه(ع): أنهم کانوا اثنا عشر رجلا-و کان أفضلهم و أعلمهم لوقا.

و فی الإکمال،عن الصادق(ع)فی حدیث: بعث الله عیسی بن مریم،و استودعه النور و العلم و الحکم-و جمیع علوم الأنبیاء قبله،و زاده الإنجیل،و بعثه إلی بیت المقدس إلی بنی إسرائیل-یدعوهم إلی کتابه و حکمته،و إلی الإیمان بالله و رسوله-فأبی أکثرهم إلا طغیانا و کفرا،فلما لم یؤمنوا دعا ربه و عزم علیه-فمسخ منهم شیاطین لیریهم آیه- فیعتبروا فلم یزدهم ذلک إلا طغیانا و کفرا-فأتی بیت المقدس فمکث-یدعوهم و یرغبهم فیما عند الله ثلاثه و ثلاثین سنه-حتی طلبته الیهود-و ادعت أنها عذبته و دفنته فی الأرض حیا،و ادعی بعضهم أنهم قتلوه و صلبوه،و ما کان الله لیجعل لهم سلطانا علیه، و إنما شبه لهم،و ما قدروا علی عذابه و قتله و لا علی قتله و صلبه-لأنهم لو قدروا علی ذلک لکان تکذیبا لقوله:و لکن رفعه الله بعد أن توفاه.

أقول:قوله(ع):فمسخ منهم شیاطین أی مسخ جمعا من شرارهم.

و قوله((ع)):فمکث یدعوهم«إلخ»لعله إشاره إلی مده عمره علی ما هو المشهور فإنه((ع))کان یکلمهم من المهد إلی الکهوله و کان نبیا من صباه علی ما یدل علیه قوله علی ما حکاه الله عنه: «فَأَشٰارَتْ إِلَیْهِ قٰالُوا کَیْفَ نُکَلِّمُ مَنْ کٰانَ فِی الْمَهْدِ صَبِیًّا قٰالَ إِنِّی عَبْدُ اللّٰهِ آتٰانِیَ الْکِتٰابَ وَ جَعَلَنِی نَبِیًّا» :مریم-۳۰.

و قوله((ع))لکان تکذیبا لقوله:و لکن رفعه الله بعد أن توفاه،نقل بالمعنی لقوله تعالی: بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ الآیه،و قوله تعالی: إِنِّی مُتَوَفِّیکَ وَ رٰافِعُکَ إِلَیَّ الآیه، و قد استفاد من تقدیم التوفی علی الرفع فی اللفظ الترتیب بینهما فی الوجود.

ص: ۲۱۷

و فی تفسیر القمی،عن الباقر(ع)قال: إن عیسی وعد أصحابه لیله رفعه الله إلیه-فاجتمعوا إلیه عند المساء و هم اثنا عشر رجلا-فأدخلهم بیتا ثم خرج إلیهم من عین فی زاویه البیت-و هو ینفض رأسه عن الماء فقال:إن الله أوحی إلی أنه رافعی إلیه الساعه،و مطهری من الیهود فأیکم یلقی علیه شبحی-فیقتل و یصلب و یکون معی فی درجتی،فقال شاب منهم أنا یا روح الله،قال:فأنت هو ذا فقال لهم عیسی:أما إن منکم من یکفر بی قبل أن یصبح اثنتی عشره کفره،فقال رجل منهم:أنا هو یا نبی الله!فقال له عیسی:أ تحس بذلک فی نفسک؟فلتکن هو،ثم قال لهم عیسی:

أما إنکم ستفترقون بعدی ثلاث فرق:فرقتین مفتریتین علی الله فی النار،و فرقه تتبع شمعون صادقه علی الله فی الجنه-ثم رفع الله عیسی إلیه من زاویه البیت و هم ینظرون إلیه.

ثم قال:إن الیهود جاءت فی طلب عیسی من لیلتهم-فأخذوا الرجل الذی قال له عیسی:إن منکم لمن یکفر بی قبل أن یصبح اثنتی عشره کفره،و أخذوا الشاب الذی ألقی علیه شبح عیسی فقتل و صلب،و کفر الذی قال له عیسی:یکفر قبل أن یصبح اثنتی عشره کفره.

أقول:و روی قریب منه عن ابن عباس و قتاده و غیرهما،و قال بعضهم:إن الذی ألقی علیه شبح عیسی هو الذی دلهم لیقبضوا علیه و یقتلوه،و قیل غیر ذلک، و القرآن ساکت عن ذلک،و سیأتی استیفاء البحث عنه فی الکلام علی قوله تعالی: «وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰکِنْ شُبِّهَ لَهُمْ» XالآیهX:النساء-١٥٧.

و فی العیون،عن الرضا((ع))قال: إنه ما شبه أمر أحد من أنبیاء الله و حججه علی الناس-إلا أمر عیسی وحده لأنه رفع من الأرض حیا-و قبض روحه بین السماء و الأرض ثم رفع إلی السماء،و رد علیه روحه،و ذلک قوله عز و جل: إِذْ قٰالَ اللّٰهُ یٰا عِیسیٰ إِنِّی مُتَوَفِّیکَ وَ رٰافِعُکَ إِلَیَّ وَ مُطَهِّرُکَ ،و قال الله حکایه لقول عیسی یوم القیامه- وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً مٰا دُمْتُ فِیهِمْ-فَلَمّٰا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ-وَ أَنْتَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ

و فی تفسیر العیاشی،عن الصادق((ع))قال: رفع عیسی بن مریم بمدرعه صوف- من غزل مریم و من نسج مریم و من خیاطه مریم-فلما انتهی إلی السماء نودی یا عیسی ألق عنک زینه الدنیا.

ص :٢١٨

أقول:و سيأتی توضيح معنی الروايتين فی أواخر سوره النساء إن شاء الله تعالی.

و فی الدر المنثور: فی قوله تعالی إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللّٰهِ الآيه،أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتاده قال:ذكر لنا:أن سيدی أهل نجران-و أسقفيهم السيد و العاقب لقيا نبی الله ص فسألاه عن عيسی فقال:كل آدمی له أب فما شأن عيسی لا أب له-فأنزل الله فيه هذه الآيه: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللّٰهِ الآيه.

أقول:و روی ما يقرب منه عن السدی و عكرمه و غيرهما،و روی القمی فی تفسيره،أيضا نزول الآيه فی المورد.

بحث روائی آخر فی معنی المحدث

فی البصائر،عن زراره قال: سألت أبا عبد الله((ع))عن الرسول و عن النبی و عن المحدث قال:الرسول الذی يعاين الملك يأتيه بالرساله من ربه-يقول:يأمرك كذا و كذا،و الرسول يكون نبيا مع الرساله.

و النبی لا يعاين الملك-ينزل عليه الشیء النبأ علی قلبه-فيكون كالمغمی عليه فيری فی منامه قلت:فما علمه أن الذی رأی فی منامه حق؟قال يبينه الله حتی يعلم أن ذلك حق و لا يعاين الملك.و المحدث الذی يسمع الصوت و لا يری شاهدا.

أقول:و رواه فی الكافی،عن أبی عبد الله((ع))قوله:شاهدا أی صائتا حاضرا.

و يمكن أن يكون حالا من فاعل لا يری.

و فيه،أيضا عن بريد عن الباقر و الصادق(ع)فی حديث قال بريد: فما الرسول و النبی و المحدث؟قال:الرسول الذی يظهر الملك فيكلمه،و النبی يری فی المنام،و ربما اجتمعت النبوه و الرساله لواحد،و المحدث الذی يسمع الصوت و لا يری الصوره قال:قلت أصلحك الله-كيف يعلم أن الذی رأی فی المنام هو الحق و أنه من الملك؟ قال:يوفق لذلك حتی يعرفه«لقد ختم الله بكتابكم الكتب و بنبيكم الأنبياء،الحديث.

و فيه،عن محمد بن مسلم قال: ذكرت المحدث عند أبی عبد الله((ع))قال:فقال:

إنه يسمع الصوت و لا يری الصوره فقلت-أصلحك الله كيف يعلم أنه كلام الملك؟قال:

إنه يعطى السكينه و الوقار حتى يعلم أنه ملك.

و فيه،أيضا عن أبى بصير عنه((ع))قال: كان على محدثا و كان سلمان محدثا، قال:قلت:فما آيه المحدث؟قال:يأتيه الملك فينكت فى قلبه كيت و كيت

۲۲۰ و فيه،عن حمران بن أعين قال:أخبرنى أبو جعفر(ع): أن عليا كان محدثا فقال أصحابنا:ما صنعت شيئا أ لا سألته من يحدثه؟فقضى أنى لقيت أبا جعفر فقلت:أ لست أخبرتنى:أن عليا كان محدثا؟قال:بلى قلت:من كان يحدثه؟ قال:ملك،قلت:فأقول:إنه نبى أو رسول؟قال:لا-بل قل مثله مثل صاحب سليمان و صاحب موسى،و مثله مثل ذى القرنين،أ ما سمعت أن عليا سئل عن ذى القرنين أ نبيا كان؟قال لا و لكن كان عبدا أحب الله فأحبه،و ناصح الله فنصحه فهذا مثله.

أقول:و الروايات فى معنى المحدث عن أئمه أهل البيت كثيره جدا رواها فى البصائر و الكافى و الكنز و الاختصاص و غيرها،و يوجد فى روايات أهل السنه أيضا.

و أما الفرق الوارد فى الأخبار المذكوره بين النبى و الرسول و المحدث فقد مر الكلام فى الفرق بين الرسول و النبى،و أن الوحى بمعنى تكليم الله سبحانه لعبده، فهو يوجب العلم اليقينى بنفس ذاته من غير حاجه إلى حجه،فمثله فى الإلقاءات الإلهيه مثل العلوم البديهيه التى لا تحتاج فى حصولها للإنسان إلى سبب تصديقى كالقياس و نحوه.

و أما المنام فالروايات كما ترى تفسره بمعنى غير المعنى المعهود منه أعنى الرؤيا يراها الإنسان فى النوم العادى العارض له فى يومه و ليلته بل هو حال يشبه الإغماء تسكن فيه حواس الإنسان النبى فيشاهد عند ذلك نظير ما نشاهده فى اليقظه ثم يسدده الله سبحانه بإفاضته على نفسه اليقين بأنه من جانب الله سبحانه لا من تصرف الشيطان.

و أما التحديث فهو سماع صوت الملك غير أنه بسمع القلب دون سمع الحس، و ليس من قبيل الخطور الذهنى الذى لا يسمى سمع صوت إلا بنحو من المجاز البعيد، و لذلك ترى أن الروايات تجمع فيه بين سماع الصوت و النكت فى القلب،و تسميه مع ذلك تحديثا و تكليما فالمحدث يسمع صوت الملك فى تحديثه و يعيه بسمعه نظير

ما نسمعه و يسمعه من الكلام المعتاد و الأصوات المسموعه فی عالم الماده غير أنه لا يشارکه فی ما يسمعه من كلام الملک غيره،و لذا کان أمرا قلبيا.

و أما علمه بأن ما حدث به من كلام الملک لا من نزغه الشيطان فذلک بتأييد من الله سبحانه و تسديد كما يشير إليه ما فی روايه محمد بن مسلم المتقدمه:أنه يعطى السكينه و الوقار حتى يعلم أنه ملک،و ذلک أن النزغه الشيطانيه إما باطل فی صورته الباطله عند الإنسان المؤمن فظاهر أنه ليس من حديث الملائكه المكرمين الذين لا يعصون الله، و إما باطل فی صوره حق و سيستتبع باطلا فالنور الإلهی الذی يلازم العبد المؤمن يبين حاله،قال تعالى: «أَ وَ مَنْ كٰانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنٰاهُ وَ جَعَلْنٰا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِی النّٰاسِ» :الأنعام-١٢٢،و النزغه و الوسوسه مع ذلک كله لا تخلو عن اضطراب فی النفس و تزلزل فی القلب كما أن ذكر الله و حديثه لا ينفک عن الوقار و طمأنينه الباطن،قال تعالى: «ذٰلِكُمُ الشَّيْطٰانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيٰاءَهُ» :آل عمران-١٧٥،و قال: «أَلاٰ بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» :الرعد-٢٨،و قال: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذٰا مَسَّهُمْ طٰائِفٌ مِنَ الشَّيْطٰانِ تَذَكَّرُوا فَإِذٰا هُمْ مُبْصِرُونَ» :الأعراف-٢٠١،فالسكينه و الطمأنينه عند ما يلقى إلى الإنسان من حديث أو خاطر دليل كونه إلقاء رحمانيا كما أن الاضطراب و القلق دليل على كونه إلقاء شيطانا و يلحق بذلک العجله و الجزع و الخفه و نحوها.

و أما ما فی الروايات من أن المحدث يسمع الصوت و لا يعاين الملک فمحمول على الجهه دون التمانع بين المعنيين بمعنى أن الملاک فی كون الإنسان محدثا أن يسمع الصوت من غير لزوم الرؤيه فإن اتفق أن شاهد الملک حين ما يسمع الصوت فليس ذلک لأنه محدث و ذلک لأن الآيات صريحه فی رؤيه بعض المحدثين للملائكه حين التحديث كقوله تعالى فی مريم: «فَأَرْسَلْنٰا إِلَيْهٰا رُوحَنٰا فَتَمَثَّلَ لَهٰا بَشَراً سَوِيًّا قٰالَتْ إِنِّی أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قٰالَ إِنَّمٰا أَنَا رَسُولُ رَبِّکِ لِأَهَبَ لَکِ غُلاٰماً زَكِيًّا» XالآياتX:مريم-١٩، و قوله تعالى-فی زوجه إبراهيم فی قصه البشاره-: «وَ لَقَدْ جٰاءَتْ رُسُلُنٰا إِبْرٰاهِيمَ بِالْبُشْرىٰ قٰالُوا سَلاٰماً قٰالَ سَلاٰمٌ -Xإلى أن قالX-: وَ امْرَأَتُهُ قٰائِمَهٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰاءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ قٰالَتْ يٰا وَيْلَتىٰ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذٰا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هٰذٰا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قٰالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ رَحْمَتُ اللّٰهِ وَ بَرَكٰاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» :هود-٧٣.

و هاهنـا وجه آخر:و هو أن يكون المراد بالمعـاينه المنفيه معـاينه حقيقه الملك فی نفسه دون مثاله الـذی يتمثل به فإن الآيات لا تثبت أزيد من معاينه المثال كما هو ظاهر.

و هاهنا وجه آخر ثالث احتمله بعضـهم و هو أن المنفی من المعاينه الوحی التشـريعی بأن يظهر للمحدث فيلقی إليه حكما شرعيا و ذلك صون من الله لمقام المشرعين من أنبيائه و رسله و لا يخلو عن بعد.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ۶١ الی ۶٣]

اشاره

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ اَلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا وَ نِسَاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اَللّٰهِ عَلَى اَلْكَاذِبِينَ (۶١) إِنَّ هٰذَا لَهُوَ اَلْقَصَصُ اَلْحَقُّ وَ مَا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اَللّٰهُ وَ إِنَّ اَللّٰهَ لَهُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ (۶٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (۶٣)

بيان

قوله تعـالی: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ،الفاء للتفريع،و هو تفريع المباهله علی التعليم الإلهی بالبيان البالغ فی أمر عيسی بن مريم(ع)مع ما أكده فی ختمه بقوله: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .و الضمير فی قوله: فِيهِ راجع إلی عيسی أو إلی الحق المذكور فی الآيه السابقه.

و قد كان البيان السابق منه تعالی مع كونه بيانا إلهيا لا يرتاب فيه مشتملا علی البرهان الساطع الذی يدل عليه قوله: إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ آدَمَ الآيه،فالعلم الحاصل فيه علم من جهه البرهان أيضا،و لـذلك كان يشـمل أثره رسول الله ص و غيره من كل سـامع فلو فرض تردد من نفس السـامع المحـاج من جهه كون البيـان وحيـا إلهيـا لم يجز الارتيـاب فيه من جهه كونه برهانا يناله العقل السليم،و لعله لذلك قيل:من

ص: ٢٢٢

بعد ما جاءك من العلم و لم يقل:من بعد ما بيناه لهم.

و هاهنا نكته أخرى و هى أن فى تذكيره(ص)بالعلم تطييبا لنفسه الشريفه أنه غالب بإذن الله،و أن ربه ناصره و غير خاذله البته.

قوله تعالى: فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ، المتكلم مع الغير فى قوله: نَدْعُ ،غيره فى قوله: أَبْناءَنا و نِساءَنا و أَنْفُسَنا فإنه فى الأول مجموع المتخاصمين من جانب الإسلام و النصرانيه،و فى الثانى و ما يلحق به من جانب الإسلام،و لذا كان الكلام فى معنى قولنا:ندع الأبناء و النساء و الأنفس فندعو نحن أبناءنا و نساءنا و أنفسنا و تدعون أنتم أبناءكم و نساءكم و أنفسكم،ففى الكلام إيجاز لطيف.

و المباهله و الملاعنه و إن كانت بحسب الظاهر كالمحاجه بين رسول الله و بين رجال النصارى لكن عممت الدعوه للأبناء و النساء ليكون أدل على اطمينان الداعى بصدق دعواه و كونه على الحق لما أودعه الله سبحانه فى قلب الإنسان من محبتهم و الشفقه عليهم فتراه يقيهم بنفسه،و يركب الأهوال و المخاطرات دونهم،و فى سبيل حمايتهم و الغيره عليهم و الذب عنهم،و لذلك بعينه قدم الأبناء على النساء لأن محبه الإنسان بالنسبه إليهم أشد و أدوم.

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين:أن المراد بقوله: نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ «إلخ»ندع نحن أبناءكم و نساءكم و أنفسكم،و تدعوا أنتم أبناءنا و نساءنا و أنفسنا.و ذلك لإبطاله ما ذكرناه من وجه تشريك الأبناء و النساء فى المباهله.

و فى تفصيل التعداد دلاله أخرى على اعتماد الداعى و ركونه إلى الحق،كأنه يقول:ليباهل الجمع الجمع فيجعل الجمعان لعنه الله على الكاذبين حتى يشمل اللعن و العذاب الأبناء و النساء و الأنفس فينقطع بذلك دابر المعاندين،و ينبت أصل المبطلين.

و بذلك يظهر أن الكلام لا يتوقف فى صدقه على كثره الأبناء و لا على كثره النساء و لا على كثره الأنفس فإن المقصود الأخير أن يهلك أحد الطرفين بمن عنده من صغير و كبير،و ذكور و إناث،و قد أطبق المفسرون و اتفقت الروايه و أيده التاريخ:أن رسول الله ص حضر للمباهله و لم يحضر معه إلا على و فاطمه و الحسنان(ع) فلم يحضر لها إلا نفسان و ابنان و امرأه واحده و قد امتثل أمر الله سبحانه فيها.

على أن المراد من لفظ الآيه أمر،و المصداق الذى ينطبق عليه الحكم بحسب

الخارج أمر آخر،و قد كثر فی القرآن الحكم أو الوعد و الوعید للجماعه،و مصداقه بحسب شأن النزول واحد كقوله تعالی: «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ» XالآیهX:المجادله-۲،و قوله تعالی: «وَ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا» :المجادله-۳،و قوله تعالی: «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ» :آل عمران-۱۸۱،و قوله تعالی: «وَ يَسْئَلُونَكَ مَا ذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» :البقره-۲۱۹،إلی غیر ذلک من الآیات الکثیره التی وردت بلفظ الجمع و مصداقها بحسب شأن النزول مفرد.

قوله تعالی: ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّٰهِ عَلَى الْكٰاذِبِينَ ،- الابتهال -من البهله بالفتح و الضم و هی اللعنه،هذا أصله ثم كثر استعماله فی الدعاء و المسأله إذا كان مع إصرار و إلحاح.

و قوله: فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّٰهِ ،كالبیان للابتهال،و قد قیل:فنجعل،و لم یقل، فنسأل إشاره إلی كونها دعوه غیر مردوده حیث یمتاز بها الحق من الباطل علی طریق التوقف و الابتناء.

و قوله: اَلْكٰاذِبِينَ مسوق سوق العهد دون الاستغراق أو الجنس إذ لیس المراد جعل اللعنه علی كل كاذب أو علی جنس الكاذب بل علی الكاذبین الواقعین فی أحد طرفی المحاجه الواقعه بینه(ص)و بین النصاری حیث

قال(ص): إن الله لا إله غیره و إن عیسی عبده و رسوله،و قالوا:إن عیسی هو الله أو إنه ابن الله-أو إن الله ثالث ثلاثه.

و علی هذا فمن الواضح أن لو كانت الدعوی و المباهله علیها بین النبی ص و بین النصاری أعنی كون أحد الطرفین مفردا و الطرف الآخر جمعا كان من الواجب التعبیر عنه بلفظ یقبل الانطباق علی المفرد و الجمع معا كقولنا:فنجعل لعنه الله علی من كان كاذبا فالكلام یدل علی تحقق كاذبین بوصف الجمع فی أحد طرفی المحاجه و المباهله علی أی حال:إما فی جانب النبی ص و إما فی جانب النصاری،و هذا یعطی أن یكون الحاضرون للمباهله شركاء فی الدعوی فإن الكذب لا یكون إلا فی دعوی فلمن حضر مع رسول الله ص،و هم علی و فاطمه و الحسنان(ع)شركه فی الدعوی و الدعوه مع رسول الله ص و هذا من أفضل المناقب التی خص الله به أهل

بیت نبیه(ع)کما خصهم باسم الأنفس و النساء و الأبناء لرسوله(ص)من بین رجال الأمه و نسائهم و أبنائهم.

فإن قلت:قد مر أن القرآن یکثر إطلاق لفظ الجمع فی مورد المفرد و أن إطلاق النساء فی الآیه مع کون من حضرت منهن للمباهله منحصره فی فاطمه(ع)فما المانع من تصحیح استعمال لفظ الکاذبین بهذا النحو؟.

قلت:إن بین المقامین فارقا و هو أن إطلاق الآیات لفظ الجمع فی مورد المفرد إنما هو لکون الحقیقه التی تبینها أمرا جائز التحقق من کثیرین یقضی ذلک بلحوقهم بمورد الآیه فی الحکم،و أما فیما لا یجوز ذلک لکون مورد الآیه مما لا یتعداه الحکم، و لا یشمل غیره الوصف فلا ریب فی عدم جوازه نظیر قوله تعالی: «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللّهُ عَلَیْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِ أَمْسِکْ عَلَیْکَ زَوْجَکَ وَ اتَّقِ اللّهَ» :الأحزاب-۳۷ و قوله تعالی: «لِسانُ الَّذِی یُلْحِدُونَ إِلَیْهِ أَعْجَمِیٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِیٌّ مُبِینٌ» :النحل-۱۰۳ و قوله تعالی: «إِنّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ اللاّتِی آتَیْتَ أُجُورَهُنَّ -Xإلی أن قالX:

وَ امْرَأَهً مُؤْمِنَهً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِیِّ إِنْ أَرادَ النَّبِیُّ أَنْ یَسْتَنْکِحَها خالِصَهً لَکَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ» :الأحزاب-۵۰.

و أمر المباهله فی الآیه مما لا یتعدی مورده و هو مباهله النبی مع النصاری فلو لم یتحقق فی المورد مدعون بوصف الجمع فی کلا الطرفین لم یستقم قوله: اَلْکاذِبِینَ بصیغه الجمع البته.

فإن قلت:کما أن النصاری الوافدین علی رسول الله ص أصحاب دعوی و هی أن المسیح هو الله أو ابن الله أو هو ثالث ثلاثه من غیر فرق بینهم أصلا و لا بین نسائهم و بین رجالهم فی ذلک کذلک الدعوی التی کانت فی جانب رسول الله ص و هی أن الله لا إله إلا هو و أن عیسی بن مریم عبده و رسوله کان القائمون بها جمیع المؤمنین من غیر اختصاص فیه بأحد من بینهم حتی بالنبی ص فلا یکون لمن أحضره فضل علی غیره غیر أن النبی ص أحضر من أحضر منهم علی سبیل الأنموذج لما اشتملت علیه الآیه من الأبناء و النساء و الأنفس،علی أن الدعوی غیر الدعوه و قد ذکرت أنهم شرکاء فی الدعوه.

قلت:لو کان إتیانه بمن أتی به علی سبیل الأنموذج لکان من اللازم أن یحضر علی الأقل رجلین و نسوه و أبناء ثلاثه فلیس الإتیان بمن أتی به إلا للانحصار و هو المصحح لصدق الامتثال بمعنی أنه لم یجد من یمتثل فی الإتیان به أمره تعالی إلا من أتی و هو رجل و امرأه و ابنان.

و إنک لو تأملت القصه وجدت أن وفد نجران من النصاری إنما وفدوا علی المدینه لیعارضوا رسول الله ص و یحاجوه فی أمر عیسی بن مریم فإن دعوی أنه عبد الله و رسوله إنما کانت قائمه به مستنده إلی الوحی الذی کان یدعیه لنفسه،و أما الذین اتبعوه من المؤمنین فما کان للنصاری بهم شغل و لا لهم فی لقائهم هوی کما یدل علی ذلک قوله تعالی فی صدر الآیه: فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ ،و کذا قوله تعالی-قبل عده آیات- :فَإِنْ حَاجُّوکَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِیَ لِلّٰهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ .

و من هنا یظهر:أن إتیان رسول الله ص بمن أتی به للمباهله لم یکن إتیانا بنحو الأنموذج إذ لا نصیب للمؤمنین من حیث مجرد إیمانهم فی هذه المحاجه و المباهله حتی یعرضوا للعن و العذاب المتردد بینهم و بین خصمهم،و إنما أتی(ص) بمن أتی به من جهه أنه(ص)کان طرف المحاجه و المداعاه فکان من حقه أن یعرض نفسه للبلاء المترقب علی تقدیر الکذب فلو لا أن الدعوی کانت قائمه بمن أتی به منهم کقیامها بنفسه الشریفه لم یکن لإتیانه بهم وجه فإتیانه بهم من جهه انحصار من هو قائم بدعواه من الأبناء و النساء و الأنفس بهم لا من جهه الإتیان بالأنموذج فقد صح أن الدعوی کانت قائمه بهم کما کانت قائمه به.

ثم إن النصاری إنما قصدوه(ص)لا لمجرد أنه کان یری أن عیسی بن مریم(ع)عبد الله و رسوله و یعتقد ذلک بل لأنه کان یدعیه و یدعوهم إلیه فالدعوه هی السبب العمده التی بعثهم علی الوفود و المحاجه فحضوره و حضور من حضر معه للمباهله لمکان الدعوی و الدعوه معا فقد کانوا شرکاءه فی الدعوه الدینیه کما شارکوه فی الدعوی کما ذکرناه.

فإن قلت:هب أن إتیانه بهم لکونهم منه،و انحصار هذا الوصف بهم لکن الظاهر-کما تعطیه العاده الجاریه-أن إحضار الإنسان أحباءه و أفلاذ کبده من النساء و الصبیان فی المخاطر و المهاول دلیل علی وثوقه بالسلامه و العافیه و الوقایه فلا یدل إتیانه

(ص)بهم على أزيد من ذلك و أما كونهم شركاء فى الدعوه فهو بمعزل عن أن يدل عليه فعله.

قلت:نعم صدر الآيه لا يدل على أزيد مما ذكر لكنك قد عرفت أن ذيلها أعنى قوله :عَلَى الْكاذِبِينَ ،يدل على تحقق كاذبين فى أحد طرفى المحاجه و المباهله البته،و لا يتم ذلك إلا بأن يكون فى كل واحد من الطرفين جماعه صاحبه دعوى إما صادقه أو كاذبه فالذين أتى بهم النبى ص مشاركون معه فى الدعوى و فى الدعوه كما تقدم فقد ثبت أن الحاضرين كانوا بأجمعهم صاحبى دعوى و دعوه معه(ص) ،و شركاء فى ذلك.

فإن قلت:لازم ما ذكرته كونهم شركاء فى النبوه.

قلت:كلا فقد تبين (۱)فيما أسلفناه من مباحث النبوه أن الدعوه و التبليغ ليسا بعين النبوه و البعثه و إن كانا من شئونها و لوازمها،و من المناصب و المقامات الإلهيه التى يتقلدها،و كذا تبين مما تقدم (۲)من مبحث الإمامه أيضا أنهما ليسا بعين الإمامه و إن كانا من لوازمها بوجه.

قوله تعالى: إِنَّ هٰذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ ،هذا إشاره إلى ما تقدم من قصص عيسى(ع)،و الكلام مشتمل على قصر القلب أى ما قصصناه هو الحق دون ما تدعيه النصارى من أمر عيسى.

و فى الإتيان بإن و اللام و ضمير الفصل تأكيد بالغ لتطييب نفس رسول الله ص و تشجيعه فى أمر المباهله بإيقاظ صفه يقينه و بصيرته و وثوقه بالوحى الذى أنزله الله سبحانه إليه،و يتعقبه التأكيد الثانى بإيراد الحقيقه بلازمها و هو قوله: وَ مٰا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللّٰهُ فإن هذه الجمله لازمه كون القصص المذكور حقا.

قوله تعالى: وَ إِنَّ اللّٰهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ معطوف على أول الآيه،و هو بما فيه من التأكيد البالغ تطييب آخر و تشجيع لنفس النبى ص إن الله لا يعجز عن نصره

۱- ۱) فى تفسير آيه ۲۱۳ من سوره البقره من المجلد الثانى.

۲- ۲) فى تفسير آيه ۱۲۴ من سوره البقره من المجلد الأول.

الحق و تأييده،و لا ـ أنه يغفل أو يلهو عن ذلك بإهمال أو جهل فإنه هو العزيز(فلا ـ يعجز عما أراده)الحكيم(فلا ـ يجهل و لا يهمل)لا ما عملته أوهام خصماء الحق من إله غير الله سبحانه.

و من هنا يظهر وجه الآيتان بالاسمين: اَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ،و أن الكلام مسوق لقصر القلب أو الإفراد.

قوله تعالى: فَإِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ،لما كان الغرض من المحاجه و كذا المباهله بحسب الحقيقه هو إظهار الحق لم يكن يعقل التولى عن الطريق لمريد الغرض و المقصد فلو كانوا أرادوا بذلك إظهار الحق و هم يعلمون أن الله سبحانه ولى الحق لا يرضى بزهوقه و دحوضه لم يتولوا عنها فإن تولوا فإنما هو لكونهم لا يريدون بالمحاجه ظهور الحق بل الغلبه الظاهريه و الاحتفاظ على ما فى أيديهم من حاضر الوضع،و السنه التى استحكمت عليه عادتهم،فهم إنما يريدون ما تزينه لهم أهواؤهم و هوساتهم من شكل الحياه، لا الحياه الصالحه التى تنطبق على الحق و السعاده فهم لا يريدون إصلاحا بل إفساد الدنيا بإفساد الحياه السعيده فإن تولوا فإنما هو لأنهم مفسدون.

و من هنا يظهر أن الجزاء وضع فيه السبب مكان المسبب أعنى الإفساد مكان عدم إراده ظهور الحق.

و قد ضمن الجزاء وصف العلم حيث قيل فإن الله عليم ثم أكد بإن ليدل على أن هذه الصفه متحققه فى نفوسهم ناشبه فى قلوبهم فيشعر بأنهم سيتولون عن المباهله لا محاله،و قد فعلوا و صدقوا قول الله بفعلهم.

بحث روائى [المباهله مع نصارى نجران]

فى تفسير القمى،عن الصادق(ع): أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله ص،و كان سيدهم الأهتم و العاقب و السيد،و حضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون الناقوس و صلوا،فقال أصحاب رسول الله:يا رسول الله هذا فى مسجدك؟فقال دعوهم فلما فرغوا دنوا من رسول الله-فقالوا إلى ما تدعو؟فقال:إلى شهاده أن لا إله إلا الله،و أنى رسول الله،و أن عيسى عبد مخلوق يأكل و يشرب و يحدث،قالوا:فمن

أبوه؟فنزل الوحی علی رسول الله ص فقال:قل لهم:ما تقولون فی آدم،أ کان عبدا مخلوقا یأکل و یشرب و یحدث و ینکح؟فسألهم النبی،فقالوا نعم:قال فمن أبوه؟ فبهتوا فأنزل الله: إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ الآیه،و قوله: فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ -إلی قوله: فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّهِ عَلَی الْکاذِبِینَ - فقال رسول الله:فباهلونی فإن کنت صادقا أنزلت اللعنه علیکم،و إن کنت کاذبا أنزلت علی فقالوا أنصفت-فتواعدوا للمباهله فلما رجعوا إلی منازلهم-قال رؤساؤهم السید و العاقب و الأهتم-إن باهلنا بقومه باهلناه فإنه لیس نبیا،و إن باهلنا بأهل بیته خاصه لم نباهله-فإنه لا یقدم إلی أهل بیته إلا و هو صادق-فلما أصبحوا جاءوا إلی رسول الله ص-و معه أمیر المؤمنین و فاطمه و الحسن و الحسین(ع)فقال النصاری:من هؤلاء؟فقیل لهم هذا ابن عمه و وصیه و ختنه علی بن أبی طالب،و هذا ابنته فاطمه، و هذا ابناه الحسن و الحسین ففرقوا-فقالوا لرسول الله ص نعطیک الرضا فاعفنا من المباهله-فصالحهم رسول الله ص علی الجزیه و انصرفوا.

و فی العیون،بإسناده عن الریان بن الصلت عن الرضا(ع): فی حدیثه مع المأمون و العلماء فی الفرق بین العتره و الأمه،و فضل العتره علی الأمه،و فیه قالت العلماء:هل فسر الله الاصطفاء فی کتابه؟فقال الرضا(ع):فسر الاصطفاء فی الظاهر سوی الباطن فی اثنی عشر موضعا-و ذکر المواضع من القرآن،و قال فیها:و أما الثالثه حین میز الله الطاهرین من خلقه،و أمر نبیه بالمباهله بهم فی آیه الابتهال فقال عز و جل- فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ-فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ-وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَکُمْ ،قالت العلماء:عنی به نفسه،قال أبو الحسن:غلطتم إنما عنی به علی بن أبی طالب،و مما یدل علی ذلک قول النبی:لینتهین بنو ولیعه أو لأبعثن إلیهم رجلا کنفسی-یعنی علی بن أبی طالب،و عنی بالأبناء الحسن و الحسین،و عنی بالنساء فاطمه-فهذه خصوصیه لا یتقدمهم فیها أحد،و فضل لا یلحقهم فیه بشر،و شرف لا یسبقهم إلیه خلق إذ جعل نفس علی کنفسه ،الحدیث.

و عنه،بإسناده إلی موسی بن جعفر(ع):فی حدیث له مع الرشید، قال الرشید له:کیف قلتم إنا ذریه النبی،و النبی لم یعقب،و إنما العقب للذکر لا للأنثی، و أنتم ولد البنت و لا یکون له عقب.فقلت:أسأله بحق القرابه و القبر و من فیه-إلا

ما أعفانی عن هذه المسأله،فقال:تخبرنی بحجتکم فیه یا ولد علی-و أنت یا موسی یعسوبهم و إمام زمانهم،کذا أنهی إلی،و لست أعفیک فی کل ما أسألک عنه-حتی تأتینی فیه بحجه من کتاب الله،و أنتم تدعون معشر ولد-علی أنه لا یسقط عنکم منه شیء-لا ألف و لا واو إلا تأویله عندکم،و احتججتم بقوله عز و جل: مٰا فَرَّطْنٰا فِی الْکِتٰابِ مِنْ شَیْءٍ ،و قد استغنیتم عن رأی العلماء و قیاسهم-.

فقلت:تأذن لی فی الجواب؟فقال:هات،قلت:أعوذ بالله من الشیطان الرجیم، بسم الله الرحمن الرحیم-و من ذریته داود و سلیمان و أیوب و یوسف و موسی و هارون- و کذلک نجزی المحسنین و زکریا و یحیی و عیسی و إلیاس،من أبو عیسی یا أمیر المؤمنین؟ فقال:لیس له أب فقلت:إنما ألحقه بذراری الأنبیاء من طریق مریم،و کذلک ألحقنا الله تعالی بذراری النبی من أمنا فاطمه،أزیدک یا أمیر المؤمنین؟قال:هات،قلت:

قول الله عز و جل ،فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ-فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَکُمْ-وَ نِسٰاءَنٰا وَ نِسٰاءَکُمْ وَ أَنْفُسَنٰا وَ أَنْفُسَکُمْ-ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّٰهِ عَلَی الْکٰاذِبِینَ ، و لم یدع أحد أنه أدخل النبی تحت الکساء-عند المباهله مع النصاری-إلا علی بن أبی طالب و فاطمه و الحسن و الحسین-فکان تأویل قوله أبناءنا الحسن و الحسین،و نساءنا فاطمه و أنفسنا علی بن أبی طالب

:و فی سؤالات المأمون عن الرضا(ع): قال المأمون:ما الدلیل علی خلافه جدک علی بن أبی طالب؟قال:آیه أنفسنا قال:لو لا نساءنا قال لو لا أبناءنا.

أقول:قوله:آیه أنفسنا یرید أن الله جعل نفس علی کنفس نبیه ص و قوله:

لو لا نساءنا معناه:أن کلمه نساءنا فی الآیه دلیل علی أن المراد بالأنفس الرجال فلا فضیله فیه حینئذ،و قوله:لو لا أبناءنا معناه أن وجود أبناءنا فیها یدل علی خلافه فإن المراد بالأنفس لو کان هو الرجال لم یکن مورد لذکر الأبناء.

و فی تفسیر العیاشی،بإسناده عن حریز عن أبی عبد الله(ع)،قال: إن أمیر المؤمنین(ع)سئل عن فضائله-فذکر بعضها ثم قالوا له زدنا فقال-إن رسول الله ص أتاه حبران من أحبار النصاری من أهل نجران-فتکلما فی أمر عیسی فأنزل الله هذه الآیه: إِنَّ مَثَلَ عِیسیٰ عِنْدَ اللّٰهِ کَمَثَلِ آدَمَ إلی آخر الآیه-فدخل رسول الله

فأخذ بيد على و الحسن و الحسين و فاطمه-ثم خرج و رفع كفه إلى السماء،و فرج بين أصابعه،و دعاهم إلى المباهله،قال:و قال أبو جعفر(ع)-و كذلك المباهله يشبك يده فى يده يرفعهما إلى السماء-فلما رآه الحبران قال أحدهما لصاحبه:و الله لئن كان نبيا لنهلكن-و إن كان غير نبى كفانا قومه فكفا و انصرفا.

أقول:و هذا المعنى أو ما يقرب منه مروى فى روايات أخر من طرق الشيعه و فى جميعها أن الذين أتى بهم النبى ص للمباهله هم على و فاطمه و الحسنان فقد رواه الشيخ فى أماليه،بإسناده عن عامر بن سعد عن أبيه،و رواه أيضا فيه، بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن الصادق(ع)،و رواه فيه،أيضا بإسناده عن سالم بن أبى الجعد يرفعه إلى أبى ذر رضوان الله عليه،و رواه أيضا فيه،بإسناده عن ربيعه بن ناجد عن على(ع)،و رواه المفيد فى كتاب الاختصاص،بإسناده عن محمد بن الزبرقان عن موسى بن جعفر(ع)،و رواه أيضا فيه،عن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جده،و رواه العياشى فى تفسيره،عن محمد بن سعيد الأردنى عن موسى بن محمد بن الرضا عن أخيه،و رواه أيضا عن أبى جعفر الأحول عن الصادق(ع)و رواه أيضا فيه، فى روايه أخرى عن الأحول عنه(ع)،و عن المنذر عن على(ع)،و رواه أيضا فيه،بإسناده عن عامر بن سعد،و رواه الفرات فى تفسيره،معنعنا عن أبى جعفر و عن أبى رافع و الشعبى و على(ع)و شهر بن حوشب،و رواه فى روضه الواعظين،و فى إعلام الورى،و فى الخرائج،و غيرها.

و فى تفسير الثعلبى،عن مجاهد و الكلبى: أنه(ص)لما دعاهم إلى المباهله قالوا:حتى نرجع و ننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب-و كان ذا رأيهم-يا عبد المسيح ما ترى؟فقال:و الله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبى مرسل،و لقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم،و الله ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم،و لا نبت صغيرهم و لئن فعلتم لنهلكن-فإن أبيتم إلا ألف دينكم،و الإقامه على ما أنتم عليه- فوادعوا الرجل و انصرفوا إلى بلادكم-.

فأتوا رسول الله و قد غدا محتضنا بالحسين-آخذا بيد الحسن و فاطمه تمشى خلفه، و على خلفها و هو يقول:إذا أنا دعوت فأمنوا،فقال أسقف نجران-يا معشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه-لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا،

و لا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامه،فقالوا:يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك،و أن نقرك على دينك و نثبت على ديننا،قال:فإذا أبيتم المباهله فأسلموا، يكن لكم ما للمسلمين،و عليكم ما عليهم فأبوا،قال:فإنى أناجزكم،فقالوا:

ما لنا بحرب العرب طاقه-و لكن نصالحك على أن لا تغزونا،و لا تخيفنا،و لا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حله:ألف فى صفر،و ألف فى رجب، و ثلاثين درعا عاديه من حديد فصالحهم على ذلك-.

و قال:و الذى نفسى بيده-إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران-و لو لاعنوا لمسخوا قرده و خنازير،و لاضطرم عليهم الوادى نارا،و لاستاصل الله نجران و أهله حتى الطير على رءوس الشجر،و لما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا.

أقول:و روى القصه:قريبا منه فى كتاب المغازى،عن ابن إسحاق،و رواه أيضا المالكى فى الفصول المهمه،عن المفسرين قريبا منه،و رواه الحموى عن ابن جريح قريبا منه.

و قوله:ألف فى صفر المراد به المحرم و هو أول السنه عند العرب و قد كان يسمى صفرا فى الجاهليه فيقال صفر الأول و صفر الثانى و قد كانت العرب تنسئ فى الصفر الأول ثم أقر الإسلام الحرمه فى الصفر الأول فسمى لذلك بشهر الله المحرم ثم اشتهر بالمحرم.

و فى صحيح مسلم،عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال: أمر معاويه بن أبى سفيان سعدا فقال:ما يمنعك أن تسب أبا تراب،قال أما ما ذكرت ثلاثا قالهن رسول الله ص فلن أسبه،لئن يكون لى واحده منهن أحب إلى من حمر النعم،سمعت رسول الله ص يقول حين خلفه فى بعض مغازيه فقال له على:يا رسول الله خلفتنى مع النساء و الصبيان؟فقال له رسول الله ص :أ ما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى-إلا أنه لا نبى بعدى؟و سمعته يقول يوم خيبر:لأعطين الرايه غدا رجلا يحب الله و رسوله،و يحبه الله و رسوله، قال:فتطاولنا لها،فقال:ادعوا لى عليا فأتى به أرمد العين فبصق فى عينيه-و دفع الرايه إليه ففتح الله على يده.و لما نزلت هذه الآيه:- فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ-وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ،دعا رسول الله عليا و فاطمه و حسنا و حسينا و قال:اللهم هؤلاء أهل بيتى.

أقول:و رواه الترمذی فی صحیحه،و رواه أبو المؤید الموفق بن أحمد فی کتاب فضائل علی،و رواه أیضا أبو نعیم فی الحلیه،عن عامر بن سعد عن أبیه،و رواه الحموینی فی کتاب فرائد السمطین،.

و فی حلیه الأولیاء،لأبی نعیم بإسناده عن عامر بن أبی وقاص عن أبیه قال: لما نزلت هذه الآیه-دعا رسول الله ص علیا و فاطمه و حسنا و حسینا فقال:

اللهم هؤلاء أهل بیتی

و فیه،بإسناده عن الشعبی عن جابر قال: قدم علی رسول الله ص العاقب و الطیب-فدعاهما إلی الإسلام فقالا:أسلمنا یا محمد فقال:کذبتما إن شئتما أخبرتکما ما یمنعکما من الإسلام فقالا:فهات إلینا،قال:حب الصلیب و شرب الخمر و أکل لحم الخنزیر،قال جابر:فدعاهما إلی الملاعنه-فواعداه إلی أن یفداه بالغداه-فغدا رسول الله ص و أخذ بید علی و الحسن و الحسین و فاطمه-فأرسل إلیهما فأبیا أن یجیباه و أقرا له ،فقال رسول الله ص-و الذی بعثنی بالحق لو فعلا لأمطر علیهم الوادی نارا- قال جابر:فیهم نزلت: نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَکُمْ ،قال جابر: أَنْفُسَنٰا وَ أَنْفُسَکُمْ رسول الله و علی،و أبناءنا الحسن و الحسین،و نساءنا فاطمه.

أقول:و رواه ابن المغازلی فی مناقبه،بإسناده عن الشعبی عن جابر،و رواه أیضا الحموینی فی فرائد السمطین،بإسناده عنه،و رواه المالکی فی الفصول المهمه،مرسلا عنه، و رواه أیضا عن أبی داود الطیالسی عن شعبه الشعبی مرسلا،و رواه فی الدر المنثور، عن الحاکم و صححه و عن ابن مردویه و أبی نعیم فی الدلائل،عن جابر.

و فی الدر المنثور،أخرج أبو نعیم فی الدلائل من طریق الکلبی عن أبی صالح عن ابن عباس": أن وفد نجران من النصاری قدموا علی رسول الله ص-و هم أربعه عشر رجلا- من أشرافهم منهم السید و هو الکبیر،و العاقب و هو الذی یکون بعده و صاحب رأیهم-ثم ساق القصه نحوا مما مر

و فیه،أیضا أخرج البیهقی فی الدلائل من طریق سلمه بن عبد یشوع عن أبیه عن جده: أن رسول الله ص کتب إلی أهل نجران- قبل أن ینزل علیه طس سلیمان:- بسم الله إله إبراهیم-و إسحاق و یعقوب من محمد رسول الله-إلی أسقف نجران و أهل

نجران-إن أسلمتم فإنی أحمد إلیکم الله-إله إبراهیم و إسحاق و یعقوب،أما بعد فإنی أدعوکم إلی عباده الله من عباده العباد،و أدعوکم إلی ولایه من الله من ولایه العباد-فإن أبیتم فالجزیه،و إن أبیتم فقد آذنتکم بالحرب و السلام،فلما قرأ الأسقف الکتاب فظع به و ذعر ذعرا شدیدا،فبعث إلی رجل من أهل نجران یقال له:شرحبیل بن وداعه- فدفع إلیه کتاب النبی ص فقرأه،فقال له الأسقف:ما رأیک؟فقال شرحبیل.

قد علمت ما وعد الله إبراهیم فی ذریه إسماعیل من النبوه-فما یؤمن أن یکون هذا الرجل؟ لیس لی فی النبوه رأی،لو کان رأی من أمر الدنیا أشرت علیک فیه،و جهدت لک، فبعث الأسقف إلی واحد بعد واحد من أهل نجران-فکلهم قالوا مثل قول شرحبیل- فاجتمع رأیهم علی أن یبعثوا شرحبیل بن وداعه،و عبد الله بن شرحبیل و جبار بن فیض فیأتونهم بخبر رسول الله ص.

فانطلق الوفد حتی أتوا رسول الله ص-فسألهم و سألوه فلم نزل به و بهم المسأله حتی قالوا له:ما تقول فی عیسی بن مریم؟فقال رسول الله ص-ما عندی فیه شیء یومی هذا فأقیموا حتی أخبرکم-بما یقال فی عیسی صبح الغد،فأنزل الله هذه الآیه:- إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ -إلی قوله: فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللّهِ عَلَی الْکاذِبِینَ ، فأبوا أن یقروا بذلک،فلما أصبح رسول الله ص الغد بعد ما أخبرهم الخبر-أقبل مشتملا علی الحسن و الحسین فی خمیله له-و فاطمه تمشی خلف ظهره للملاعنه،و له یومئذ عده نسوه،فقال شرحبیل لصاحبیه:إنی أری أمرا مقبلا إن کان هذا الرجل نبیا مرسلا-فلاعناه لا یبقی علی وجه الأرض منا شعر و لا ظفر إلا هلک-فقالا له:ما رأیک؟ فقال:رأیی أن أحکمه-فإنی أری رجلا لا یحکم شططا أبدا،فقالا له:أنت و ذلک، فتلقی شرحبیل رسول الله ص فقال:إنی قد رأیت خیرا من ملاعنتک،قال:

و ما هو؟قال-حکمک الیوم إلی اللیل و لیلتک إلی الصباح-فمهما حکمت فینا فهو جائز، فرجع رسول الله ص و لم یلاعنهم و صالحهم علی الجزیه:

و فیه،أخرج ابن جریر عن علباء بن أحمر الیشکری،قال: لما نزلت هذه الآیه ،فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ الآیه،أرسل رسول الله ص إلی علی و فاطمه و ابنیهما الحسن و الحسین،و دعا الیهود لیلاعنهم،فقال شاب من الیهود:ویحکم أ لیس عهدتم بالأمس إخوانکم-الذین مسخوا قرده و خنازیر؟لا تلاعنوا فانتهوا.

أقول:و الروایه تؤید أن یکون الضمیر فی قوله تعالی: فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ ، راجعا إلی الحق فی قوله: اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ ،فیتم بذلک حکم المباهله لغیر خصوص عیسی بن مریم(ع)،و تکون حینئذ هذه قصه أخری واقعه بعد قصه دعوه وفد نجران إلی المباهله علی ما تقصه الأخبار الکثیره المتظافره المنقوله أکثرها فیما تقدم.

و قال ابن طاووس فی کتاب سعد السعود،رأیت فی کتاب تفسیر ما نزل من القرآن فی النبی و أهل بیته تألیف محمد بن العباس بن مروان:أنه روی خبر المباهله من أحد و خمسین طریقا عمن سماه من الصحابه و غیرهم،و عد منهم الحسن بن علی(ع) و عثمان بن عفان و سعد بن أبی وقاص و بکر بن سمال و طلحه و الزبیر و عبد الرحمن بن عوف و عبد الله بن عباس و أبا رافع مولی النبی و جابر بن عبد الله و البراء بن عازب و أنس بن مالک.

و روی ذلک فی المناقب،عن عده من الرواه و المفسرین و کذا السیوطی فی الدر المنثور،

و من عجیب الکلام ما ذکره بعض المفسرین حیث قال:إن الروایات متفقه علی أن النبی ص اختار للمباهله علیا و فاطمه و ولدیهما،و یحملون کلمه نساءنا علی فاطمه، و کلمه أنفسنا علی علی فقط،و مصادر هذه الروایات الشیعه،و مقصدهم منها معروف،و قد اجتهدوا فی ترویجها ما استطاعوا حتی راجت علی کثیر من أهل السنه، و لکن واضعیها لم یحسنوا تطبیقها علی الآیه فإن کلمه نسائنا لا یقولها العربی و یرید بها بنته لا سیما إذا کان له أزواج و لا یفهم هذا من لغتهم.و أبعد من ذلک أن یراد بأنفسنا علی،ثم إن وفد نجران الذین قالوا:إن الآیه نزلت فیهم لم یکن معهم نساؤهم و أولادهم، و کل ما یفهم من الآیه أمر النبی ص إن یدعوا المحاجین و المجادلین فی عیسی من أهل الکتاب إلی الاجتماع رجالا و نساء و أطفالا و یجمع هو المؤمنین رجالا و نساء و أطفالا، و یبتهلون إلی الله تعالی بأن یلعن الکاذب فیما یقول عن عیسی.

و هذا الطلب یدل علی قوه یقین صاحبه،و ثقته بما یقول کما یدل امتناع من دعوا إلی ذلک من أهل الکتاب سواء کانوا نصاری نجران أو غیرهم علی امترائهم فی حجاجهم و مما رأتهم فیما یقولون و زلزالهم فیما یعتقدون،و کونهم علی غیر بینه و لا یقین،و إنی لمن یؤمن بالله أن یرضی بأن یجتمع هذا الجمع من الناس المحقین و المبطلین فی

صعید واحد متوجهین إلی الله فی طلب لعنه و إبعاده من رحمته و أی جرأه علی الله و استهزاء بقدرته و عظمته أقوی من هذا؟.

قال:أما کون النبی ص و المؤمنین کانوا علی یقین مما یعتقدون فی عیسی(ع) فحسبنا فی بیانه قوله تعالی: مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ ،فالعلم فی هذه المسائل الاعتقادیه لا یراد به إلا الیقین،و فی قوله: نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَکُمْ «إلخ»وجهان:

أحدهما:أن کل فریق یدعو الآخر فأنتم تدعون أبناءنا،و نحن ندعو أبناءکم، و هکذا الباقی.

و ثانیهما:أن کل فریق یدعو أهله فنحن المسلمون ندعو أبناءنا و نساءنا و أنفسنا، و أنتم کذلک.

و لا إشکال فی وجه من وجهی التوزیع فی دعوه الأنفس،و إنما الإشکال فیه علی قول الشیعه،و من شایعهم علی القول بالتخصیص،انتهی.

أقول:و هذا الکلام-و أحسب أن الناظر فیه یکاد یتهمنا فی نسبته إلی مثله، و اللبیب لا یرضی بإیداعه و أمثاله فی الزبر العلمیه-إنما أوردناه علی وهنه و سقوطه لیعلم أن النزعه و العصبیه إلی أین یورد صاحبه من سقوط الفهم و رداءه النظر فیهدم کل ما بنی علیه و یبنی کل ما هدمه و لا یبالی،و لأن الشر یجب أن یعلم لیجتنب عنه.

و الکلام فی مقامین أحدهما:دلاله الآیه علی أفضلیه علی(ع)،و هو بحث کلامی خارج عن الغرض الموضوع له هذا الکتاب،و هو النظر فی معانی الآیات القرآنیه.

و ثانیهما:البحث عما ذکره هذا القائل من حیث تعلقه بمدلول آیه المباهله، و الروایات الوارده فی ما جری بین النبی ص و بین وفد نجران،و هذا بحث تفسیری داخل فی غرضنا.

و قد عرفت ما تدل علیه الآیه،و أن الذی نقلناه من الأخبار المتکثره المتظافره هو الذی یطابق مدلول الآیه،و بالتأمل فی ذلک یتضح وجوه الفساد فی هذه الحجه المختلقه و النظر الواهی الذی لا یرجع إلی محصل،و هاک تفصیلها:

منها:أن قوله:و مصادر هذه الروایات الشیعه-إلی قوله:و قد اجتهدوا فی

ترویجها ما استطاعوا حتی راجت علی کثیر من أهل السنه،بعد قوله:إن الروایات متفقه،لیت شعری أی روایات یعنی بهذا القول؟أ مراده هـذه الروایات المتظافره التی أجمعت علی نقلها و عـدم طرحها المحدثون،و لیست بالواحده و الاثنتین و الثلاث أطبق علی نقلها و تلقیها بالقبول أهل الحـدیث،و أثبتها أرباب الجوامع فی جوامعهم،و منهم مسلم فی صحیحه و الترمـذی فی صحیحه و أیدها أهل التاریخ.

ثم أطبق المفسرون علی إیرادها و إیـداعها فی تفاسیرهم من غیر اعتراض أو ارتیاب، و فیهم جمع من أهل الحـدیث و التاریخ کـالطبری و أبی الفـداء بن کثیر و السیوطی و غیرهم ثم من الـذی یعنیه من الشیعه المصادر لهـذه الروایات؟أ یریـد بهم الـذین تنتهی إلیهم سلاسل الأسناد فی الروایات أعنی سعد بـن أبی وقـاص و جـابر بـن عبـد الله و عبـد الله بـن عبـاس و غیرهـم من الصحابه؟أو التابعین الذین نقلوا عنهم بالأخذ و الروایه کأبی صالح و الکلبی و السدی و الشعبی و غیرهم،و أنهم تشیعوا لنقلهم ما لا یرتضیه بهواه فهؤلاء و أمثالهم و نظراؤهم هم الوسائط فی نقل السنه،و مع رفضهم لا تبقی سنه مذکوره و لا سیره مأثوره،و کیف یسع لمسلم أو باحث حتی ممن لا ینتحل بالإسلام أن یبطل السنه ثم یروم أن یطلع علی تفاصیل ما جاء به النبی ص من تعلیم و تشریع و القرآن ناطق بحجیه قول النبی ص و سیرته،و ناطق ببقاء الـدین علی حیوته،و لو جاز بطلان السنه من رأس لم یبق للقرآن أثر و لا لإنزاله ثمر.

أو أنه یرید أن الشیعه دسوا هذه الأحادیث فی جوامع الحدیث و کتب التاریخ، فیعود محذور سقوط السنه،و بطلان الشریعه بل یکون البلوی أعم و الفساد أتم.

و منهـا:قوله:و یحملون کلمه نِسٰاءَنٰا علی فـاطمه،و کلمه أَنْفُسَنٰا علی علی فقـط، مراده به أنهم یقولون بـأن کلمه نِسٰاءَنٰا أطلقت و أریدت بها فاطمه و کذا المراد بکلمه أَنْفُسَنٰا علی فقط،و کأنه فهمه مما یشتمل علیه بعض الروایات السابقه:قال جابر:

نِسٰاءَنٰا

فاطمه و أَنْفُسَنٰا علی الخبر،و قـد أساء الفهم فلیس المراد فی الآیه بلفظ نسائنا فاطمه،و بلفظ أنفسنا علی بل المراد أنه(ص)إذ لم یأت فی مقام الامتثال إلا بها و به کشف ذلک أنها هی المصداق الفرد لنسائنا،و أنه هو المصداق الوحید لأنفسنا و أنهما مصداق أبنائنا،و کان المراد بالأبناء و النساء و الأنفس فی الآیه هو الأهل فهم

أهل بيت رسول الله و خاصته كما ورد فى بعض الروايات بعد ذكر إتيانه(ص)بهم

إنه قال: اللهم هؤلاء أهل بيتى فإن معنى الجمله أنى لم أجد من أدعوه غير هؤلاء.

و يدل على ما ذكرناه من المراد ما وقع فى بعض الروايات: أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ رسول الله و على،فإن اللفظ صريح فى أن المقصود بيان المصداق دون معنى اللفظ.

و منها:قوله:و لكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآيه فإن كلمه نِسٰاءَنٰا لا يقولها العربى و يريد بها بنته لا سيما إذا كان له أزواج و لا يفهم هذا من لغتهم،و أبعد من ذلك أن يراد بأنفسنا على،و هذا المعنى العجيب الذى توهمه هو الذى أوجب أن يطرح هذه الروايات على كثرتها ثم يطعن على رواتها و كل من تلقاها بالقبول،و يرميهم بما ذكره و قد كان من الواجب عليه أن يتنبه لموقفه من تفسير الكتاب،و يذكر هؤلاء الجم الغفير من أئمه البلاغه و أساتيذ البيان،و قد أوردوها فى تفسيرهم و سائر مؤلفاتهم من غير أى تردد أو اعتراض.

فهذا صاحب الكشاف-و هو الذى ربما خطأ أئمه القراءه فى قراءتهم-يقول فى ذيل تفسير الآيه:و فيه دليل لا شىء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء(ع) و فيه برهان واضح على صحه نبوه النبى ص لأنه لم يرو أحد من موافق و لا مخالف:أنهم أجابوا إلى ذلك،انتهى.

فكيف خفى على هؤلاء العظماء أبطال البلاغه و فرسان الأدب أن هذه الأخبار على كثرتها و تكررها فى جوامع الحديث تنسب إلى القرآن أنه يغلط فى بيانه فيطلق النساء(و هو جمع)فى مورد نفس واحده؟.

لا-و عمرى،و إنما التبس الأمر على هذا القائل و اشتبه عنده المفهوم بالمصداق فتوهم:أن الله عز اسمه لو قال لنبيه(ص): فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَكُمْ «إلخ»و صح أن المحاجين عند نزول الآيه وفد نجران و هم أربعه عشر رجلا على ما فى بعض الروايات ليس عندهم نساء و لا أبناء، و صح أيضا أن رسول الله ص خرج إلى مباهلتهم و ليس معه إلا على و فاطمه و الحسنان كان لازم ذلك أن معنى من حاج وفد نجران،و معنى نسائنا المرأه الواحده، و معنى أنفسنا النفس الواحده،و بقى نساؤكم و أبناؤكم لا معنى لهما إذ لم يكن مع

الوفد نساء و لا أبناء!.

و كان عليه أن يضيف إلى ذلك لزوم استعمال الأبناء و هو جمع فى التثنيه و هو أشنع من استعمال الجمع فى المفرد فإن استعمال الجمع فى المفرد ربما وجد فى كلام المولدين و إن لم يوجد فى العربيه الأصيله إلا فى التكلم لغرض التعظيم لكن استعمال الجمع فى المثنى مما لا مجوز له أصلا.

فهذا هو الذى دعاه إلى طرح الروايات و رماها بالوضع،و ليس الأمر كما توهمه.

توضيح ذلك أن الكلام البليغ إنما يتبع فيه ما يقتضيه المقام من كشف ما يهم كشفه فربما كان المقام مقام التخاطب بين متخاطبين أو قبيلين ينكر أو يجهل كل منهما حال صاحبه فيوضع الكلام على ما يقتضيه الطبع و العاده فيؤتى فى التعبير بما يناسب ذلك فأحد القبيلين المتخاصمين إذا أراد أن يخبر صاحبه أن الخصومه و الدفاع قائمه بجميع أشخاص قبيله من ذكور و إناث و صغير و كبير فإنما يقول:نخاصمكم أو نقاتلكم بالرجال و الظعائن و الأولاد فيضع الكلام على ما تقتضيه الطبع و العاده فإن العاده تقتضى أن يكون للقبيل من الناس نساء و أولاد و الغرض متعلق بأن يبين للخصم أنهم يد واحده على من يخاصمهم و يخاصمونه،و لو قيل:نخاصمكم أو نقاتلكم بالرجال و النساء و ابنين لنا كان إخبارا بأمر زائد على مقتضى المقام محتاجا إلى عنايه زائده و تعرفا إلى الخصم لنكته زائده.

و أما عند المتعارفين و الأصدقاء و الأخله فربما يوضع الكلام على مقتضى الطبع و العاده فيقال فى الدعوه للضيافه و الاحتفال:سنقرئكم بأنفسنا و نسائنا و أطفالنا، و ربما يسترسل فى التعرف فيقال:سنخدمكم بالرجال و البنت و السبطين الصبيين، و نحو ذلك.

فللطبع و العاده و ظاهر الحال حكم،و لواقع الأمر و خارج العين حكم،و ربما يختلفان،فمن بنى كلامه على حكايه ما يعلم من ظاهر حاله،و يقضى به الطبع و العاده فيه ثم بدا حقيقه حاله و واقع أمره على خلاف ما حكاه من ظاهر حاله لم يكن غالطا فى كلامه،و لا كاذبا فى خبره،و لا لاغيا هازلا فى قوله.

و الآيه جاريه على هذا المجرى فقوله: فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ وَ نِسَاءَنَا

وَ نِسٰاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنٰا وَ أَنْفُسَكَمْ

«إلخ»أريد به على ما تقدم:أدعهم إلى أن تحضر أنت و خاصتك من أهلك الذين يشاركونك فى الدعوى و العلم،و يحضروا بخاصتهم من أهليهم، ثم وضع الكلام على ما يعطيه ظاهر الحال أن لرسول الله فى أهله رجالا و نساء و أبناء و لهم فى أهليهم رجال و نساء و أبناء فهذا مقتضى ظاهر الحال،و حكم الطبع و العاده فيه و فيهم،أما واقع الأمر و حقيقته فهو أنه لم يكن له(ص)من الرجال و النساء و البنين إلا نفس و بنت و ابنان،و لم يكن لهم إلا رجال من غير نساء و لا أبناء،و لذلك لما أتاهم برجل و امرأه و ولدين لم يجبهوه بالتلحين و التكذيب،و لا أنهم اعتذروا عن الحضور بأنك أمرت بإحضار النساء و الأبناء و ليس عندنا نساء و لا أبناء،و لا أن من قصت عليه القصه رماها بالوضع و التمويه.

و من هنا يظهر فساد ما أورده بقوله ثم وفد نجران الذين قالوا إن الآيه نزلت فيهم لم يكن معهم نساء و لا أبناء.

و منها:قوله و كل ما يفهم من الآيه أمر النبى ص أن يدعو المحاجين و المجادلين فى عيسى من أهل الكتاب إلى الاجتماع رجالا و نساء و أطفالا،و يجمع هو المؤمنين رجالا و نساء و أطفالا،و يبتهلون إلى الله بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى-إلى قوله-:و أنى لمن يؤمن بالله أن يرضى أن يجتمع مثل هذا الجمع من الناس المحقين و المبطلين فى صعيد واحد متوجهين إلى الله تعالى فى طلب لعنه و إبعاده من رحمته؟و أى جرأه على الله و استهزاء بقدرته و عظمته أقوى من هذا؟.

و ملخصه أن الآيه تدعو الفريقين إلى الاجتماع بأنفسهم و نسائهم و ذراريهم فى صعيد واحد ثم الابتهال بالملاعنه،و ينبغى أن يستبان ما هذا الاجتماع المدعو إليه؟ أ هو اجتماع الفريقين كافه أعنى المؤمنين بأجمعهم و هم يومئذ (۱)عرب ربيعه و مضر جلهم أو كلهم من اليمن و الحجاز و العراق و غيرها،و النصارى و هم أهل نجران من اليمن و نصارى الشام و سواحل البحر الأبيض و أهل الروم و الإفرنج و الإنجليز و النمسا و غيرهم.

۱- ۱) و هو سنه تسع على ما ذكره بعض المؤرخين أو عشر على ما ذكره آخرون و إن لم يخل جميعا عن الإشكال على ما سيجىء فى البحث الروائى عن الآيات التاليه لهذه الآيات.

و هؤلاء الجماهير فی مشارق الأرض و مغاربها تربو نفوسهم بالرجال و النساء و الذراری یومئذ علی الملائین بعد الملائین و لا یشک ذو لب أن من المتعذر اجتماعهم فی صعید واحد فالأسباب العادیه تأبی ذلک بجمیع أرکانها،و لازم ذلک أن یندب القرآن الناس إلی المحال،و ینیط ظهور حجته،و تبین الحق الذی یدعیه علی ما لا یکون البته،و کان ذلک عذرا(و نعم العذر)للنصاری فی عدم إجابتهم دعوه النبی ص إلی المباهله،و کان ذلک أضر لدعواه منه لدعواهم.

أم هو اجتماع الحاضرین من الفریقین و من فی حکمهم أعنی المؤمنین من أهل المدینه و ما والاها،و أهل نجران و من والاهم،و هذا و إن کان أقل و أخف شناعه من الوجه السابق لکنه من حیث استحاله التحقق و امتناع الوقوع کسابقه فمن الذی کان یسعه یومئذ أن یجمع أهل المدینه و نجران قاطبه حتی النساء و الذراری منهم فی صعید للملاعنه، و هل هذه الدعوه إلا تعلیقا بالمحال،و اعترافا بأن الحق متعذر الظهور.

أم هو اجتماع المتلبسین بالخصام و الجدال من الفریقین أعنی النبی ص و الحاضرین عنده من المؤمنین،و وفد نجران من النصاری،و یرد علیه حینئذ ما أورده بقوله:

«ثم إن وفد نجران الذین قالوا:إن الآیه نزلت فیهم لم یکن معهم نساؤهم و أولادهم، و کان ذلک وقوعا فیما ذکره من المحذور».

و منها:قوله:أما کون النبی ص و المؤمنین کانوا علی یقین مما یعتقدون فی عیسی(ع)فحسبنا فی بیانه قوله تعالی: مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فالعلم فی هذه المسائل الاعتقادیه لا یراد به إلا الیقین.

أقول:أما کون العلم فیها بمعنی الیقین فهو حق و أما کون الآیه داله علی کون المؤمنین علی یقین من أمر عیسی(ع)فلیت شعری من أین له إثبات ذلک؟و الآیه غیر متعرضه بلفظها(فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَکَ «إلخ»)إلا لشأن رسول الله ص،و مقام التخاطب أیضا لا یشمل غیره(ص)من المؤمنین فإن الوفد من النصاری ما کان لهم هم إلا المحاجه و الخصام مع النبی ص،و لم یکن لهم هوی فی لقاء المؤمنین،و لا کلموهم بکلمه،و لا کلمهم المؤمنون بکلمه.

نعم لو دلت الآيه على حصول العلم لأحد غير النبى ص لدل فيمن جىء به للمباهله على ما استفدناه من قوله تعالى: عَلَى الْكاذِبِينَ فيما تقدم.

بل القرآن يدل على عدم عموم العلم و اليقين لجميع المؤمنين حيث يقول تعالى:

«وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ» :يوسف-١٠٦،فوصفهم بالشرك و كيف يجتمع الشرك مع اليقين،و يقول تعالى: «وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً» :الأحزاب-١٢،و يقول تعالى: «وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ،فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ،فَأَوْلى لَهُمْ طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ،(فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ)فَلَوْ صَدَقُوا اللّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ -Xإلى أن قال-X: أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ» :محمد-٢٣،فاليقين لا يتحقق به إلا بعض أولى البصيره من متبعى النبى ص،قال تعالى: «فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ» :آل عمران-٢٠،و قال تعالى: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي» :يوسف-١٠٨.

و منها:قوله و فى قوله نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ «إلخ»وجهان:أحدهما:أن كل فريق يدعو الآخر إلخ قد عرفت فساد وجهه الأول و عدم انطباقه على لفظ الآيه إذ قد عرفت أن الغرض كان مستوفى حاصلا لو قيل:تعالوا نبتهل فنجعل لعنه الله على الكاذبين،و إنما زيد عليه قوله: نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ،ليدل على لزوم إحضار كل من الفريقين عند المباهله أعز الأشياء عنده و أحبها إليه و هو الأبناء و النساء و الأنفس(الأهل و الخاصه)،و هذا إنما يتم لو كان معنى الآيه:

ندعو نحن أبناءنا و نساءنا و أنفسنا و تدعون أنتم أبناءكم و نساءكم و أنفسكم،ثم نبتهل، و أما لو كان المعنى ندعو نحن أبناءكم و نساءكم و أنفسكم و تدعون أنتم أبناءنا و نساءنا و أنفسنا ثم نبتهل بطل الغرض المذكور.

على أن هذا المعنى فى نفسه مما لا يرتضيه الطبع السليم فما معنى تسليط رسول الله ص النصارى على أبنائه و نسائه،و سؤاله أن يسلطوه على ذراريهم و نسائهم ليتداعوا فيتم الحضور و المباهله مع تأتى ذلك بدعوه كل فريق أهل نفسه لها؟.

على أن هذا المعنى يحتاج فى فهمه من الآيه إلى فهم معنى التسليط و ما يشابهه-كما

تقدم منها،و أنی لنا فهمه؟فالحق أن هذا الوجه ساقط،و أن الوجه الآخر و هو أن یکون المراد دعوه کل أهل نفسه هو المتعین.

و منها:قوله:و لا إشکال فی وجه من وجهی التوزیع فی دعوه الأنفس،و إنما الإشکال فیه علی قول الشیعه و من شایعهم علی القول بالتخصیص،یرید بالإشکال ما أورد علی الآیه من لزوم دعوه الإنسان نفسه،و هذا الإشکال غیر مرتبط بشیء من الوجهین أصلا و إنما هو إشکال علی القول بکون المراد بأنفسنا هو رسول الله ص کما یحکی عن بعض المناظرات المذهبیه حیث ادعی أحد الخصمین أن المراد بأنفسنا، رسول الله ص فأورد علیه بلزوم دعوه الإنسان نفسه و هو باطل تشیر إلیه الروایه الثانیه المنقوله عن العیون فیما تقدم.

و من هنا یظهر سقوط قوله:إنما الإشکال فیه علی قول الشیعه فإن قولهم علی ما قدمنا:أن المراد بأنفسنا هو الرجال من أهل بیت رسول الله ص،و هم بحسب المصداق رسول الله و علی(ع)،و لا إشکال فی دعوه بعضهم بعضا.

فلا إشکال علیهم حتی علی ما نسبه إلیهم بزعمه:أن معنی أنفسنا علی فإنه لا إشکال فی دعوه النبی ص علیا(ع).

و قال تلمیذه فی المنار،بعد الإشاره إلی الروایات:و

أخرج ابن عساکر عن جعفر بن محمد عن أبیه: « فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَکُمْ »الآیه،قال:فجاء بأبی بکر و ولده،و عمر و ولده،و عثمان و ولده. قال:و الظاهر أن الکلام فی جماعه المؤمنین.

ثم قال بعد نقل کلام أستاذه المنقول سابقا:و فی الآیه ما تری من الحکم بمشارکه النساء للرجال فی الاجتماع للمباراه القومیه و المناضله الدینیه،و هو مبنی علی اعتبار المرأه کالرجل حتی فی الأمور العامه إلا ما استثنی منها إلی آخر ما أطنب به من الکلام.

أقول:أما ما ذکره من الروایه فهی روایه شاذه تخالف جمیع روایات الآیه علی کثرتها و اشتهارها و قد أعرض عن هذه الروایه المفسرون،و هی مع ذلک تشتمل علی ما لا یطابق الواقع و هو جعله لکل من المذکورین فیه ولدا.و لا ولد یومئذ لجمیعهم البته.

و كأنه يريد بقوله:و الظاهر أن الكلام فى جماعه المؤمنين،أن يستظهر من الروايه الدلاله على أن رسول الله ص أحضر جميع المؤمنين و أولادهم فيكون قوله:

فجاء بأبى بكر و ولده«إلخ»كنايه عن إحضاره عامه المؤمنين،و كأنه يريد به تأييد شيخه فيما ذكره من المعنى.و أنت ترى ما عليه الروايه من الشذوذ و الإعراض و المتن ثم فى الدلاله على ما ذكره من المعنى.

و أما ما ذكره من دلاله الآيه على مشاركه النساء الرجال فى الحقوق العامه فلو تم ما ذكره دل على مشاركه الأطفال أيضا،و فى هذا وحده كفايه فى بطلان ما ذكره.

و قد قدمنا الكلام فى اشتراكهن معهم عند الكلام على آيات الطلاق فى الجزء الثانى من الكتاب و سيأتى شطر فى ما يناسبه من المورد من غير حاجه إلى مثل ما استفاده من الآيه

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۶۴ الى ۷۸]

اشاره

قُلْ يَا أَهْلَ اَلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اَللّٰهَ وَ لاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اَللّٰهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اِشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (۶۴) يَا أَهْلَ اَلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ مَا أُنْزِلَتِ اَلتَّوْرَاةُ وَ اَلْإِنْجِيلُ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلاَ تَعْقِلُونَ (۶۵) هَا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (۶۶) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لاَ نَصْرَانِيًّا وَ لٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ مَا كَانَ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (۶۷) إِنَّ أَوْلَى اَلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اِتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا اَلنَّبِيُّ وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ اَللّٰهُ وَلِيُّ اَلْمُؤْمِنِينَ (۶۸) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ مَا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (۶۹) يَا أَهْلَ اَلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اَللّٰهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۷۰) يَا أَهْلَ اَلْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ اَلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ اَلْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۷۱) وَ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ اَلنَّهَارِ وَ اُكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۷۲) وَ لاَ تُؤْمِنُوا إِلاّٰ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ اَلْهُدىٰ هُدَى اَللّٰهِ أَنْ يُؤْتىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ اَلْفَضْلَ بِيَدِ اَللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اَللّٰهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (۷۳) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اَللّٰهُ ذُو اَلْفَضْلِ اَلْعَظِيمِ (۷۴) وَ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاّٰ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي اَلْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۵) بَلىٰ مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ وَ اِتَّقىٰ فَإِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُتَّقِينَ (۷۶) إِنَّ اَلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اَللّٰهِ وَ أَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لاَ خَلاٰقَ لَهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ وَ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اَللّٰهُ وَ لاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ وَ لاَ يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۷۷) وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ اَلْكِتَابِ وَ مَا هُوَ مِنَ اَلْكِتَابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ مَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اَللّٰهِ اَلْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۸)

بیان

شروع فی المرحله الثانیه من البیان المتعرض لحال أهل الکتاب عامه و النصاری خاصه و ما یلحق بذلک.فقد کانت الآیات فیما مر تعرضت لحال أهل الکتاب عامه بقوله: «إِنَّ الدِّینَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ» :آل عمران-۱۹،و بقوله أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتٰابِ» :آل عمران-۲۳،ثم انعطف البیان إلی شأن النصاری خاصه بقوله: «إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفیٰ آدَمَ وَ نُوحاً XإلخX:آل عمران-۳۳،و تعرضت فی أثنائها لولایه المؤمنین للکافرین بقوله: «لاٰ یَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْکٰافِرِینَ أَوْلِیٰاءَ» :آل عمران- ۲۸،فهذا فی المرحله البادئه.

ثم عادت إلی بیان ما ذکرته ثانیا بلسان آخر و نظم دون النظم السابق فتعرضت لحال أهل الکتاب عامه فی هذه الآیات المنقوله آنفا،و ما سیلحق بذلک من متفرقات بحسب مساس خصوصیات البیانات بذلک کقوله: «قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لِمَ تَکْفُرُونَ بِآیٰاتِ اللّٰهِ XإلخX:آل عمران-۹۸،و قوله: «قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ XإلخX:آل عمران-۹۹،و تعرضت لحال النصاری و ما تدعیه فی أمر عیسی (ع)بقوله: «مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُؤْتِیَهُ اللّٰهُ الْکِتٰابَ» XالخX:آل عمران-۷۹، و تعرضت لأمور ترجع إلی المؤمنین من دعوتهم إلی الإسلام و الاتحاد و الاتقاء من ولایه الکفار و اتخاذ البطانه من دون المؤمنین فی آیات کثیره متفرقه.

قوله تعالی: قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلیٰ کَلِمَهٍ سَوٰاءٍ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمْ ،الخطاب لعامه أهل الکتاب،و الدعوه فی قوله: تَعٰالَوْا إِلیٰ کَلِمَهٍ «إلخ»بالحقیقه إنما هی إلی الاجتماع علی معنی الکلمه بالعمل به،و إنما تنسب إلی الکلمه لتدل علی کونها دائره بألسنتهم کقولنا اتفقت کلمه القوم علی کذا فیفید معنی الإذعان و الاعتراف و النشر و الإشاعه.فالمعنی:تعالوا نأخذ بهذه الکلمه متعاونین متعاضدین فی نشرها و العمل بما توجبه.

و السواء فی الأصل مصدر،و یستعمل وصفا بمعنی مساوی الطرفین،و سواء بیننا و بینکم أی مساو من حیث الأخذ و العمل بما توجبه،و علی هذا فتوصیف الکلمه بالسواء توصیف بحال المتعلق و هو الأخذ و العمل،و قد عرفت أن العمل إنما یتعلق

بمعنی الکلمه لا نفسها کما أن تعلیق الاجتماع أیضا علی المعنی لا یخلو من عنایه مجازیه ففی الکلام وجوه من لطائف العنایات: نسبه الاجتماع إلی المعنی ثم وضع الکلمه مکان المعنی ثم توصیف الکلمه بالسواء!.

و ربما قیل:إن معنی کون الکلمه سواء أن القرآن و التوراه و الإنجیل متفقه فی الدعوه إلیها،و هی کلمه التوحید،و لو کان المراد به ذلک کان قوله تعالی: أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ «إلخ»من قبیل وضع التفسیر الحق موضع الکلمه المتفق علیها،و الإعراض عما لعبت به أیدیهم من تفسیره غیر المرضی الذی تنطبق الکلمه بذلک علی أهوائهم من الحلول و اتخاذ الابن و التثلیث و عباده الأحبار و القسیسین و الأساقفه و یکون محصل المعنی: تَعالَوْا إِلی کَلِمَهٍ سَواءٍ بَیْنَنا وَ بَیْنَکُمْ و هی التوحید،و لازم التوحید رفض الشرکاء و عدم اتخاذ الأرباب من دون الله سبحانه.

و الذی تختتم به الآیه من قوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ یؤید المعنی الأول فإن محصل المعنی بالنظر إلیه أنه یدعو إلی هذه الکلمه و هی أن لا نعبد إلا الله «إلخ»لأنها مقتضی الإسلام لله الذی هو الدین عند الله،و إن کان الإسلام أیضا لازما من لوازم التوحید لکن الدعوه فی الآیه إنما هی إلی التوحید العملی و هو ترک عباده غیر الله سبحانه دون اعتقاد الوحده،فافهم ذلک.

قوله تعالی: أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَ لا نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لا یَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ ،تفسیر للکلمه السواء،و هی التی یوجبها الإسلام لله.

و المراد بقوله: أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ ،نفی عباده غیر الله لا إثبات عباده الله تعالی علی ما مرت الإشاره إلیه فی معنی کلمه الإخلاص(لا إله إلا الله):أن لازم کون إلا الله،بدلا لا استثناء کون الکلام مسوقا لبیان نفی الشریک دون إثبات الإله،فإن القرآن یأخذ إثبات وجود الإله و حقیته مفروغا عنه.

و لما کان الکلام مسوقا لنفی الشریک فی العباده و لا ینحسم به ماده الشرک اللازم من اعتقاد البنوه و التثلیث و نحو ذلک أردفه بقوله: وَ لا نُشْرِکَ بِهِ شَیْئاً وَ لا یَتَّخِذَ «إلخ» فإن تسمیه العباده بعباده الله لا تصیر العباده عباده لله سبحانه ما لم یخلص الاعتقاد و لم یتجرد الضمیر من الاعتقادات و الآراء المولوده من أصل الشرک لأن العباده حینئذ إنما

تكون عباده إله له شريك و العباده التى يعبد بها أحد الشريكين و إن خص باسمه و وجه نحوه ليست إلا نابته منبت التشريك لأنها لا تعدو أن تكون سهما يسهم له و حظا يقسم له من بين الشريكين أو الشركاء ففيها بعينها نحو عباده للغير.

و هذا الذى يدعو إليه النبى بأمر الله سبحانه،و هو الذى يدل عليه قوله:

أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ

،هو الذى يجمع غرض النبوه فى السيره التى كانت الأنبياء تدعو إليها و تبسطها على المجتمع الإنسانى.

فقد تقدم عند الكلام على قوله تعالى: «كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً» :البقره-۲۱۳ أن النبوه انبعاث إلهى و نهضه حقيقيه يراد بها بسط كلمه الدين و أن حقيقه الدين تعديل المجتمع الإنسانى فى سيره الحيوى،و يتبعه تعديل حيوه الإنسان الفرد فينزل بذلك الكل منزلته التى نزله عليها الفطره و الخلقه فيعطى به المجتمع موهبه الحريه و سعاده التكامل الفطرى على وجه العدل و القسط،و كذلك الفرد فهو فيه حر مطلق فى الانتفاع من جهات الحيوه فيما يهديه إليه فكره و إرادته إلا ما يضر بحيوه المجتمع و قد قيد جميع ذلك بالعبوديه و الإسلام لله سبحانه،و الخضوع لسيطره الغيب و سلطنته.

و خلاصه ذلك أن الذى كانت تندب إليه جماعه الأنبياء(ع)أن يسير النوع الإنسانى فرادى و مجتمعين على ما تنطق به فطرتهم من كلمه التوحيد التى تقضى بوجوب تطبيق الأعمال الفرديه و الاجتماعيه على الإسلام لله،و بسط القسط و العدل، أعنى بسط التساوى فى حقوق الحيوه،و الحريه فى الإراده الصالحه و العمل الصالح.

و لا يتأتى ذلك إلا بقطع منابت الاختلاف و البغى بغير الحق و استخدام القوى و استعباده للضعيف و تحكمه عليه،و تعبد الضعيف للقوى فلا إله إلا الله،و لا رب إلا الله،و لا حكم إلا لله سبحانه.

و هذا هو الذى تدل عليه الآيه:« أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ »الآيه،و قال تعالى فيما يحكيه عن يوسف(ع):

«يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» :يوسف-۴۰،و قال تعالى: «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ

وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاّ هُوَ» :التوبه-۳۱،إلى غير ذلك من الآيات.

و فيما حكاه القرآن عن الأنبياء السالفين كنوح و هود و صالح و إبراهيم و شعيب و موسى و عيسى(ع)مما كلموا به أممهم شىء كثير من هذا القبيل كقول نوح:

«رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلاّ خَساراً» :نوح-۲۱،و قول هود لقومه: «أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبّارِينَ» :الشعراء-۱۳۰،و قول صالح لقومه: «وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» :الشعراء-۱۵۱،و قول إبراهيم لأبيه و قومه: «ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» :الأنبياء-۵۴، و قوله تعالى لموسى و أخيه: «اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى -Xإلى أن قالX-: فَأْتِياهُ فَقُولا إِنّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ» :طه-۴۷،و قول عيسى لقومه: «وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَطِيعُونِ» :الزخرف-۶۳، فالدين الفطرى هو الذى ينفى البغى و الفساد،و هذه المظالم و السلطات بغير الحق الهادمه لأساس السعاده و المخربه لبنيان الحق و الحقيقه،و إلى ذلك يشير قول النبى ص فى حجه الوداع:(و قد ذكره المسعودى فى حوادث سنه عشر من الهجره فى مروج الذهب)،«ألا و إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات و الأرض» و كأنه(ص)يريد به رجوع الناس إلى حكم الفطره باستقرار سيره الإسلام بينهم.

و الكلام أعنى قوله تعالى: أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ «إلخ»،على كونه آخذا بمجامع غرض النبوه مفصح عن سبب الحكم و ملاكه.

أما قوله: أَلاّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ،فلأن الألوهيه هى التى يأله إليه و يتوله فيه كل شىء من كل وجه،و هو أن يكون منشأ لكل كمال فى الأشياء على كثرتها و ارتباطها و اتحادها فى الحاجه،و فيه كل كمال يفتاق إليه الأشياء،و هذا المعنى لا يستقيم إلا إذا كان واحدا غير كثير،و مالكا إليه تدبير كل شىء،فمن الواجب أن يعبد الله لأنه إله واحد لا شريك له،و من الواجب أن لا يتخذ له شريك فى عبادته،و بعباره أخرى،هذا العالم و جميع ما يحتوى عليه لا يصح و لا يجوز أن يخضع و يتصغر إلا لمقام واحد إذ هؤلاء المربوبون لوحده نظامهم و ارتباط وجودهم لا

رب لهم إلا واحد إذ لا خالق لهم إلا واحد.

و أما قوله تعالى: وَ لاٰ يَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ فمن حيث أفاد أن المجتمع الإنسانى على كثره أفراده و تفرق أشخاصه أبعاض من حقيقه واحده هى حقيقه الإنسان و نوعه فما أودعته فيه يد الصنع و الإيجاد من الاستحقاق و الاستعداد الموزع بينهم على حد سواء يقضى بتساويهم فى حقوق الحياه و استوائهم على مستوى واحد، و ما تفاوت فيه أحوال الأفراد و استعدادهم فى اقتناء مزايا الحياه من مواهب الإنسانيه العامه التى ظهرت فى مظاهر خاصه من هاهنا و هناك و هنالك يجب أن تعطاه الإنسانيه لكن من حيث تسأله،كما أن الازدواج و الولاده و المعالجه مثلا من مسائل الإنسانيه العامه لكن الذى يعطى الازدواج هو الإنسان البالغ الذكر أو الأنثى،و الولاده يعطاها الإنسان الأنثى و العلاج يعطاه الإنسان المريض.

و بالجمله أفراد الإنسان المجتمع أبعاض متشابهه من حقيقه واحده متشابهه فلا ينبغى أن يحمل البعض إرادته و هواه على البعض إلاـ أن يتحمل ما يعادله،و هو التعاون على اقتناء مزايا الحياه،و أما خضوع المجتمع أو الفرد لفرد أعنى الكل أو البعض لبعض بما يخرجه عن البعضيه ،و يرفعه عن التساوى بالاستعلاء و التسيطر و التحكم بأن يؤخذ ربا متبع المشيه،يحكم مطلق العنان،و يطاع فيما يأمر و ينهى ففيه إبطال الفطره و هدم بنيان الإنسانيه.

و أيضا من حيث إن الربوبيه مما يختص بالله لاـ رب سواه فتمكين الإنسان مثله من نفسه يتصرف فيه بما يريد من غير انعكاس،اتخاذ رب من دون الله لا يقدم عليه من يسلم لله الأمر.

فقد تبين أن قوله: وَ لاٰ يَتَّخِذَ بَعْضُنٰا بَعْضاً أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ يفصح عن حجتين فيما يفيده من المعنى:إحداهما كون الأفراد أبعاضا،و الآخر كون الربوبيه من خصائص الألوهيه.

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ استشهاد،بأنهم(و هم النبى ص و من اتبعه)على الدين المرضى عند الله تعالى و هو الإسلام،قال: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ» :آل عمران-١٩،فينقطع بذلك خصامهم و حجاجهم إذ لا حجه على الحق و أهله.

و فیه إشاره إلی أن التوحید فی العباده من لوازم الإسلام.

قوله تعالی: یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِی إِبْرٰاهِیمَ إلی آخر الآیه،الظاهر أنه مقول القول الواقع فی الآیه السابقه،و کذا ما یأتی بعد أربع آیات فیکون مقولا لرسول الله ص و إن کان ظاهر سیاق قوله:بعد آیتین: إِنَّ أَوْلَی النّٰاسِ بِإِبْرٰاهِیمَ لَلَّذِینَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِیُّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا الآیه،أن یکون الخطاب من الله لا من رسوله بإذنه.

و محاجتهم فی إبراهیم(ع)بضم کل طائفه إیاه إلی نفسها یشبه أن تکون أولا بالمحاجه لإظهار المحقیه کأن تقول الیهود:إن إبراهیم(ع)الذی أثنی الله علیه فی کتابه منا فتقول النصاری:إن إبراهیم کان علی الحق،و قد ظهر الحق بظهور عیسی معه،ثم تتبدل إلی اللجاج و العصبیه فتدعی الیهود أنه کان یهودیا،و تدعی النصاری أنه کان نصرانیا،و من المعلوم أن الیهودیه و النصرانیه إنما نشأتا جمیعا بعد نزول التوراه و الإنجیل و قد نزلا جمیعا بعد إبراهیم(ع)فکیف یمکن أن یکون(ع)یهودیا بمعنی المنتحل بالدین الذی یختص بموسی(ع)،و لا نصرانیا بمعنی المتعبد بشریعه عیسی (ع)،فلو قیل فی إبراهیم شیء لوجب أن یقال إنه کان علی الحق حنیفا من الباطل إلی الحق مسلما لله سبحانه و هذه الآیات فی مساق قوله تعالی: «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرٰاهِیمَ وَ إِسْمٰاعِیلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْبٰاطَ کٰانُوا هُوداً أَوْ نَصٰاریٰ،قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ کَتَمَ شَهٰادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّٰهِ» :البقره-۱۴۰.

قوله تعالی: هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ حٰاجَجْتُمْ فِیمٰا لَکُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِیمٰا لَیْسَ لَکُمْ بِهِ عِلْمٌ الآیه،الآیه تثبت لهم علما فی المحاجه التی وقعت بینهم و تنفی علما و تثبته لله تعالی، و لذلک ذکر المفسرون:أن المعنی:أنکم حاججتم:فی إبراهیم(ع)و لکم به علم ما،کالعلم بوجوده و نبوته،فلم تحاجون فیما لیس لکم به علم و هو کونه یهودیا أو نصرانیا و الله یعلم و أنتم لا تعلمون،أو أن المراد بالعلم علم ما بعیسی و خبره،و المعنی أنکم تحاجون فی عیسی و لکم بخبره علم فلم تحاجون فیما لیس لکم به علم و هو کون إبراهیم یهودیا أو نصرانیا،هذا ما ذکروه.

و أنت تعلم أن شیئا من الوجهین لا ینطبق علی ظاهر سیاق الآیه:أما الأول فلأنه لم تقع لهم محاجه فی وجود إبراهیم و نبوته،و أما الثانی فلأن المحاجه التی وقعت منهم فی عیسی لم یکونوا فیها علی الصواب بل کانوا مخطئین فی خبره کاذبین فی

دعواهم فيه فكيف يمكن أن يسمى محاجه فيما لهم به علم،و كلامه تعالى على أى حال يثبت منهم محاجه فيما لهم به علم كما يثبت لهم محاجه فيما ليس لهم به علم،فما هـذه المحاجه التى هى فيما لهم به علم؟على أن ظاهر الآيه أن هاتين إنما جرتا جميعا فيما بين أهل الكتاب أنفسـهم لا بينهم و بين المسـلمين و إلا كان المسـلمون على الباطل فى الحجاج الذى أهل الكتاب فيه على علم،و هو ظاهر.

و الـذى ينبغى أن يقـال-و الله العـالم-أن من المعلوم أن المحـاجه كانت جاريه بين اليهود و النصارى فى جميع موارد الاختلاف التى كـانت بينهم،و عمـده ذلـك نبوه عيسـى (ع)و مـا كـانت تقوله النصارى فى حقه (أنه الله،أو ابنه أو التثليث)فكانت النصارى تحاج اليهود فى بعثته و نبوته و هم على علم منه،و كانت اليهود تحاج النصارى، و تبطل ألوهيته و نبوته و التثليث و هم على علم منه فهذه محاجتهم فيما لهم به علم،و أما محاجتهم فيما ليس لهم به علم فمحاجتهم فى أمر إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا.

و ليس المراد بجهلهم به جهلهم بنزول التوراه و الإنجيـل بعـده و هو ظـاهر،و لاـ ذهولهم عن أن السابق لا يكون تابعا للاحق فإنه خلاـف مـا يـدل عليه قوله تعـالى: أَ فَلاـ تَعْقِلُونَ » فـإنه يـدل على أن الأـمر يكفى فيه أدنى تنبيه،فهم عالمون بأنه كان سابقا على التوراه و الإنجيـل لكنهم ذاهلون على مقتضـى علمهم و هو أنه لاـ يكون حينئـذ يهوديـا و لاـ نصـرانيا بـل على دين الله الـذى هو الإسلام لله.

لكن اليهود مع ذلك قالوا:إن الـدين الحق لا يكون إلا واحـدا و هو اليهوديه فلا محاله كان إبراهيم يهوديا،و قالت النصارى مثل ذلك فنصـرت إبراهيم،و قـد جهلوا فى ذلك أمرا و ليس بـذهول،و هو أن دين الله واحد،و هو الإسـلام لله،و هو واحد مسـتكمل بحسب مرور الزمان و استعداد الناس من حيث تدرجهم بالكمال،و اليهوديه و النصرانيه شعبتان من شعب كمال الإسلام الذى هو أصل الدين،و الأنبياء(ع) بمنزله بناه هذا البنيان،لكل منهم موقعه فيما وضعه من الأساس و مما بنى عليه من هذا البنيان الرفيع.

و بـالجمله فـاليهود و النصارى جهلوا أنه لا يلزم من كون إبراهيم مؤسـسا للإسـلام و هو الـدين الأصـيل الحق ثم ظهور دين حق باسم اليهوديه أو النصرانيه،و هو اسم شعبه من شعب كماله و مراتب تمامه أن يكون إبراهيم يهوديا و لا نصرانيا بل يكون مسلما

حنيفا متلبسا باسم الإسلام الذى أسسه و هو أصل اليهوديه و النصرانيه دون نفسهما، و الأصل لا ينسب إلى فرعه بل ينبغى أن يعطف الفرع عليه.

و تسميه إبراهيم مسلما لا يهوديا و لا نصرانيا غير عده تابعا لدين النبى و شريعه القرآن ليرد الإشكال بأنه كما كان متقدما على نزول التوراه و الإنجيل فلا ينبغى أن يعد يهوديا أو نصرانيا كذلك كان متقدما على نزول القرآن و ظهور الإسلام فلا ينبغى أن يعد مسلما(حذو النعل بالنعل).

و ذلك أن الإسلام بمعنى شريعه القرآن من الاصطلاحات الحادثه بعد نزول القرآن و انتشار صيت الدين المحمدى،و الإسلام الذى وصف به إبراهيم هو أصل التسليم لله سبحانه و الخضوع لمقام ربوبيته فالإشكال غير متوجه من أصله.

و لعل هذا الذى ذكرناه من وجه جهلهم بمعنى الدين الأصيل،و كونه حقيقه ذات مراتب مختلفه و متدرجه فى الاستكمال هو المراد بقوله تعالى: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ مٰا كٰانَ إِبْرٰاهِيمُ يَهُودِيًّا «إلخ»و يؤيده قوله: إِنَّ أَوْلَى النّٰاسِ بِإِبْرٰاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ الآيه،و قوله تعالى فى ذيل الآيات: «قُلْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ عَلَيْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبٰاطِ وَ مٰا أُوتِيَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» XالآيهX:آل عمران-۸۵،على ما سيجىء من البيان.

قوله تعالى: مٰا كٰانَ إِبْرٰاهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لاٰ نَصْرٰانِيًّا إلى آخر الآيه،قد مر تفسيره فيما مر،و قد قيل:إن اليهود و النصارى كما كانوا يدعون أن إبراهيم(ع)منهم و على دينهم كذلك عرب الجاهليه من الوثنيه كانت تدعى أنهم على الدين الحنيف دين إبراهيم (ع)حتى كان أهل الكتاب يسمونهم الحنفاء،و يدعون بالحنيفيه الوثنيه.

و لما وصف الله سبحانه إبراهيم(ع)بقوله: وَ لٰكِنْ كٰانَ حَنِيفاً ،وجب بيانه حتى لا يتوهم منه الوثنيه فلذلك أردفه بقوله: مُسْلِماً وَ مٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ،أى كان على الدين المرضى عند الله تعالى و هو الإسلام و ما كان من المشركين كعرب الجاهليه.

قوله تعالى: إِنَّ أَوْلَى النّٰاسِ بِإِبْرٰاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الآيه فى موضع التعليل للكلام السابق و بيان للحق فى المقام و المعنى-و الله العالم-

أن هذا النبى المعظم إبراهيم لو أخذت النسبه بينه و بين من بعده من المنتحلين و غيرهم لكان الحق أن لا يعد تابعا لمن بعده بل يعتبر الأولويه به و الأقربيه منه،و الأقرب من النبى الذى له شرع و كتاب هم الذين يشاركونه فى اتباع الحق،و التلبس بالدين الذى جاء به،و الأولى بهذا المعنى بإبراهيم(ع)هذا النبى و الذين آمنوا لأنهم على الإسلام الذى اصطفى الله به إبراهيم و كذا كل من اتبعه دون من يكفر بآيات الله و يلبس الحق بالباطل.

و فى قوله: لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ تعريض لأهل الكتاب من اليهود و النصارى بنحو الكنايه أى لستم أولى بإبراهيم لعدم اتباعكم إياه فى إسلامه لله.

و فى قوله: وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا إفراد للنبى(ع)و من اتبعه من المؤمنين من الذين اتبعوا إبراهيم إجلالا للنبى و صونا لمقامه أن يطلق عليه الاتباع كما يستشعر ذلك-مثل قوله تعالى: «أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّٰهُ فَبِهُدٰاهُمُ اقْتَدِهْ» :الأنعام-٩٠ حيث لم يقل:فبهم اقتده.

و قد تمم التعليل و البيان بقوله: وَ اللّٰهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ،فإن ولايه إبراهيم(ولى الله) من ولايه الله،و الله ولى المؤمنين دون غيرهم الكافرين بآياته اللابسين الحق بالباطل.

قوله تعالى: وَدَّتْ طٰائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ ، الطائفه الجماعه من الناس،و كان الأصل فيه أن الناس و خاصه العرب كانوا أولا يعيشون شعوبا و قبائل بدويين يطوفون صيفا و شتاء بماشيتهم فى طلب الماء و الكلإ،و كانوا يطوفون و هم جماعه تحذرا من الغيله و الغاره فكان يقال لهم جماعه طائفه،ثم اقتصر على ذكر الوصف(الطائفه)للدلاله على الجماعه.

و أما كون أهل الكتاب لا يضلون إلا أنفسهم فإن أول الفضائل الإنسانيه الميل إلى الحق و اتباعه فحب صرف الناس عن الحق إلى الباطل من جهه أنه من أحوال النفس و أخلاقها رذيله نفسانيه-و بئست الرذيله-و إثم من آثامها و معاصيها و بغيها بغير حق،و ما ذا بعد الحق إلا الضلال فحبهم لإضلال المؤمنين و هم على الحق إضلال بعينه لأنفسهم من حيث لا يشعرون.

و كذا لو تمكنوا من بعضهم بإلقاء الشبهات فأضلوه بذلك فإنما يضلون أولا أنفسهم

ص :٢٥٤

لأن الإنسان لا يفعل شيئا من خير أو شر إلا لنفسه كما قال تعالى: «مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَيْهٰا وَ مٰا رَبُّكَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ» :حم السجده-۴۶،و أما ضلال من ضل بإضلالهم فليس بتأثير منهم بل هو بسوء فعال الضال الغاوى و شامه إرادته بإذن من الله،قال تعالى: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» :الروم- ۴۴،و قال تعالى: «وَ مٰا أَصٰابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمٰا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ وَ مٰا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاٰ نَصِيرٍ» :الشورى-۳۱، و قد مر شطر من الكلام فى خواص الأعمال فى الكلام على قوله تعالى: «حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ» :البقره-۲۱۷،فى الجزء الثانى من الكتاب.

و هذا الذى ذكرناه من المعارف القرآنيه التى يفيدها التوحيد الأفعالى الذى يتفرع على شمول حكم الربوبيه و الملك،و به يوجه ما يفيده قوله تعالى: وَ مٰا يُضِلُّونَ إِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَ مٰا يَشْعُرُونَ ،من الحصر.

و أما ما ذكره المفسرون من التوجيه لمعنى الآيه فلا يغنى فى الحصر المذكور طائلا و لذلك أغمضنا عن نقله.

قوله تعالى: يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ،قد مر أن الكفر بآيات الله غير الكفر بالله تعالى،و أن الكفر بالله هو الالتزام بنفى التوحيد صريحا كالوثنيه و الدهريه،و الكفر بآيات الله إنكار شىء من المعارف الإلهيه بعد ورود البيان و وضوح الحق،و أهل الكتاب لا ينكرون أن للعالم إلها واحدا،و إنما ينكرون أمورا من الحقائق بينتها لهم الكتب السماويه المنزله عليهم و على غيرهم كنبوه النبى ص و كون عيسى عبدا لله و رسولا منه،و أن إبراهيم ليس بيهودى و لا نصرانى،و أن يد الله مبسوطه،و أن الله غنى،إلى غير ذلك،فأهل الكتاب فى لسان القرآن كافرون بآيات الله غير كافرين بالله،و لا ينافيه قوله تعالى: «قٰاتِلُوا الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاٰ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ» :التوبه-۲۹،حيث نفى الإيمان عنهم صريحا،و ليس إلا الكفر و ذلك أن ذكر عدم تحريمهم للحرام و عدم تدينهم بدين الحق فى الآيه يشهد بأن المراد من توصيفهم بعدم الإيمان هو التوصيف بلازم الحال فلازم حالهم من الكفر بآيات الله عدم الإيمان بالله و اليوم الآخر و إن لم يشعروا به،و ليس بالكفر الصريح.

و فی قوله تعالی: وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ -و الشهاده هو الحضور و العلم عن حس-دلاله علی أن المراد بکفرهم بآیات الله إنکارهم کون النبی ص هو النبی الموعود الذی بشر به التوراه و الإنجیل مع مشاهدتهم انطباق الآیات و العلائم المذکوره فیهما علیه.

و من هنا یظهر فساد ما ذکره بعضهم:أن لفظ الآیات عام شامل لجمیع الآیات و لا وجه لتخصیصه بآیات النبوه بل المراد کفرهم بجمیع الآیات الحقه و الوجه فی فساده ظاهر.

قوله تعالی: یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ إلی آخر الآیه، اللبس بفتح اللام إلقاء الشبهه و التمویه أی تظهرون الحق فی صوره الباطل.

و فی قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ دلاله أو تلویح علی أن المراد باللبس و الکتمان ما هو فی المعارف الدینیه غیر ما یشاهد من الآیات کالآیات التی حرفوها أو کتموها أو فسروها بغیر ما یراد منها.

و هاتان الآیتان أعنی قوله یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لِمَ تَکْفُرُونَ -إلی قوله: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ -تتمه لقوله تعالی: وَدَّتْ طٰائِفَهٌ الآیه،و علی هذا فعتاب الجمیع بفعال البعض بنسبته إلیهم من جهه اتحادهم فی العنصر و النسل و الصفه،و رضاء البعض بفعال البعض و هو کثیر الورود فی القرآن.

قوله تعالی: وَ قٰالَتْ طٰائِفَهٌ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ آمِنُوا بِالَّذِی أُنْزِلَ إلی آخر الآیه، المراد بوجه النهار بقرینه مقابلته بآخره هو أوله فإن وجه الشیء ما یبدو و یظهر به لغیره و هو فی النهار أوله،و سیاق قولهم یکشف عن نزول وحی علی النبی ص فی وجه النهار یوافق ما علیه أهل الکتاب و آخر فی آخره یخالف ما هم علیه فإنما هو الذی دعاهم إلی أن یقولوا هذا القول.

و علی هذا فقوله: بِالَّذِی أُنْزِلَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا أرید به شیء خاص من وحی القرآن یوافق ما عند أهل الکتاب،و قوله: وَجْهَ النَّهٰارِ منصوب علی الظرفیه و متعلق بقوله: أُنْزِلَ ،لا بقوله: آمِنُوا (صیغه الأمر)لأنه أقرب،و قوله: وَ اکْفُرُوا آخِرَهُ فی معنی و اکفروا بما أنزل فی آخره فیکون من وضع الظرف موضع المظروف بالمجاز العقلی نظیر قوله تعالی: «بَلْ مَکْرُ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ» :سبأ-٣٣.

ص :٢۵۶

و بـذلك يتأيـد مـا ورد فى سـبب النزول عن أئمه أهـل البيت:أن هـذه كلمه قالتها اليهود حين تغيير القبله حيث صـلى رسول الله صلاه الصبح إلى بيت المقدس و هو قبله اليهود،ثم حولت القبله فى صلاه الظهر نحو الكعبه فقالت طائفه من اليهود:

آمِنُوا بِالَّذِی أُنْزِلَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ

يريدون اسـتقبال بيت المقدس، وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ يريدون استقبال الكعبه.و يؤيده قولهم بعده على ما حكاه الله: وَ لا تُؤْمِنُوا إِلاّ لِمَنْ تَبِعَ دِینَکُمْ ،أى لا تثقوا بمن لا يتبع دينكم بالإيمان به فتفشوا عنـده شـيئا من أسـراركم و البشارات التى عندكم و كان من علائم النبى ص أنه يحول القبله إلى الكعبه.

و ذكر بعضهم أن قوله: وَجْهَ النَّهارِ متعلق بقوله: آمِنُوا (بصيغه الأمر)و المراد به أول النهار،و قوله: آخِرَهُ ظرف بتقدير فى،و متعلق بقوله وَ اکْفُرُوا ،و المراد بقولهم: آمِنُوا بِالَّذِی أُنْزِلَ «إلخ»أن يظهر عده منهم الإيمان بالقرآن و يلحقوا بجماعه المؤمنين ثم يرتدوا فى آخر النهار بإظهار أنهم إنما آمنوا أول النهار لما كاد يلوح لهم من أمارات الصدق و الحق من ظاهر الدعوه الإسـلاميه،و إنما ارتـدوا آخر النهـار لما تبين لهم من شواهـد البطلان و عـدم انطباق ما عنـدهم من بشارات النبوه و علائم الحقانيه على النبى ص فيكون ذلك مكيده تكاد بها المؤمنون فيرتابون فى دينهم، و يهنون فى عزيمتهم فينكسر بذلك سورتهم و تبطل أحدوثتهم.

و هذا المعنى فى نفسه غير بعيد و خاصه من اليهود الذين لم يألوا جهدا فى الكره على الإسـلام لإطفاء نوره من أى طريق ممكن غير أن لفظ الآيه لا ينطبق عليه، و سيأتى للكلام تتمه نتعرض لها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله العزيز.

و قـال بعضـهم:إن المراد آمنـوا بصـلاتهم إلى الكعبه أول النهـار و اكفروا به آخره لعلهم يرجعون و قـال آخرون:المعنى أظهروا الإيمان فى صدر النهار بما أقررتم به من صفه النبى ص و اكفروا آخره بإبداء أن ما وصف به النبى الموعود لا ينطبق عليه لعلهم يرتابون بذلك فيرجعوا عن دينهم،و هذان الوجهان لا شاهد عليهما.و كيف كان المراد،لا إجمال فى الآيه.

قوله تعالى: وَ لا تُؤْمِنُوا إِلاّ لِمَنْ تَبِعَ دِینَکُمْ «إلخ»،الذى يعطيه السـياق هو أن تكون هذه الجمله من قول أهل الكتاب تتمه لقولهم: آمِنُوا بِالَّذِی أُنْزِلَ عَلَی الَّذِینَ

آمَنُوا

،و كذا قوله تعالى: أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، و يكون قوله:« قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللّهِ »جمله معترضه هو جواب الله سبحانه عن مجموع ما تقدم من كلامهم أعنى قولهم: آمِنُوا بِالَّذِی أُنْزِلَ إلى قوله دِينَكُمْ ،على ما يفيده تغيير السياق ،و كذا قوله تعالى قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ جوابه تعالى عن قولهم: أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ إلى آخره،هذا هو الذى يقتضيه ارتباط أجزاء الكلام و اتساق المعانى فى الآيتين أولا،و ما تناظر الآيتين من الآيات الحاكيه لأقوال اليهود فى الجدال و الكيد ثانيا.

و المعنى-و الله أعلم-أن طائفه من أهل الكتاب-و هم اليهود-قالت أى قال بعضهم لبعض:صدقوا النبى و المؤمنين فى صلاتهم وجه النهار إلى بيت المقدس و لا تصدقوهم فى صلاتهم إلى الكعبه آخر النهار،و لا تثقوا فى الحديث بغيركم فيخبروا المؤمنين أن من شواهد نبوه النبى الموعود تحويل القبله إلى الكعبه فإن فى تصديقكم أمر الكعبه و إفشائكم ما تعلمونه من كونها من أمارات صدق الدعوه محذور أن يؤتى المؤمنون مثل ما أوتيتم من القبله فيذهب به سوددكم و يبطل تقدمكم فى أمر القبله، و محذور أن يقيموا عليكم الحجه عند ربكم أنكم كنتم عالمين بأمر القبله الجديده شاهدين على حقيته ثم لم تؤمنوا.

فأجاب الله تعالى عن قولهم فى الإيمان بما فى وجه النهار و الكفر فى آخره و أمرهم بكتمان أمر القبله لئلا يهتدى المؤمنون إلى الحق بأن الهدى الذى يحتاج إليه المؤمنون الذى هو حق الهدى إنما هو هدى الله دون هداكم،فالمؤمنون فى غنى عن ذلك فإن شئتم فاتبعوا و إن شئتم فاكفروا و إن شئتم فأفشوا و إن شئتم فاكتموا.

و أجاب تعالى عما ذكروه من مخافه أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا أو يحاجوهم عند عند ربهم بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا بيدكم حتى تحبسوه لأنفسكم و تمنعوا منه غيركم،و أما حديث الكتمان مخافه المحاجه فقد أعرض عن جوابه لظهور بطلانه كما فعل كذلك فى قوله تعالى فى هذا المعنى بعينه: «وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ» :البقره-۷۷،فقوله:

أَ وَ لا يَعْلَمُونَ ،إيذان بأن هذا القول بعد ما علموا أن الله لا يتفاوت فيه السر

و العلانيه كلام منهم لا يستوى على تعقل صحيح،و ليس جوابا لمكان الواو فى قوله:

أَ وَ لاٰ يَعْلَمُونَ .

و على ما مر من المعنى فقوله تعالى: وَ لاٰ تُؤْمِنُوا معناه،لا تثقوا و لا تصدقوا لهم الوثاقه و حفظ السر على حد قوله تعالى: «وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» :البراءه-۶۱،و المراد بقوله لِمَنْ تَبِعَ ،اليهود.

و المراد بـالجمله النهى عن إفشـاء مـا كان عنـدهم من حقيه تحويل القبله إلى الكعبه كما مر فى قوله تعالى: «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ -Xإلى أن قالX: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ -Xإلى أن قالX: اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» :البقره-۱۴۶.

و فى معنى الآيه أقوال شتى دائره بين المفسرين كقول بعضهم:إن قوله تعالى:

وَ لاٰ تُؤْمِنُوا

إلى آخر الآيه كلام لله تعالى لا للبهود،و خطاب الجمع فى قوله: وَ لاٰ تُؤْمِنُوا و قوله: مٰا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحٰاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ جميعا للمؤمنين،و خطاب الإفراد فى قوله: قُلْ ، فى الموضعين للنبى ص،و قول آخرين بمثله إلا أن خطاب الجمع فى قوله: أُوتِيتُمْ أَوْ يُحٰاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ،لليهود فى الكلام عتاب و تقريع.و قول آخرين إن قوله: وَ لاٰ تُؤْمِنُوا إِلاّٰ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ من كلام اليهود،و قوله: قُلْ إِنَّ الْهُدىٰ هُدَى اللّٰهِ أَنْ يُؤْتىٰ أَحَدٌ «إلخ» كلام لله تعالى جوابا عما قالته اليهود،و كذا الخلاف فى معنى الفضل أن المراد به الدين أو النعمه الدنيويه أو الغلبه أو غير ذلك.

و هذه الأقوال على كثرتها بعيده عما يعطيه السياق كما قدمنا الإشاره إليه و لذا لم نشتغل بها فضل اشتغال.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ ، الفضل هو الزائد عن الاقتصاد،و يستعمل فى المحمود كما أن الفضول يستعمل فى المذموم،قال الراغب:و كل عطيه لا تلزم من يعطي يقال لها فضل نحو قوله: وَ سْئَلُوا اللّٰهَ مِنْ فَضْلِهِ - ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ - ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ،و على هذا قوله: قُلْ بِفَضْلِ اللّٰهِ - وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ انتهى.

و على هذا فقوله: إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّٰهِ ،من قبيل الإيجاز بالقناعه بكبرى البيان

القياسی،و التقدیر:قل إن هذا الإنزال و الإیتاء الإلهی الذی تحتالون فی تخصیصه بأنفسکم بالتظاهر علی الإیمان و الکفر،و الإیصاء بالکتمان أمر لا نستوجبه معاشر الناس علی الله تعالی بل هو من الفضل،و الفضل بید الله الذی له الملک و له الحکم فله أن یؤتیه من یشاء و الله واسع علیم.

ففی الکلام نفی ما یدل علیه قولهم و فعلهم من تخصیص النعمه الإلهیه بأنفسهم بجمیع جهاته المحتمله فإن تنعم بعض الناس بفضل الله تعالی دون البعض کتنعم الیهود بنعمه الدین و القبله،و حرمان غیرهم إما أن یکون لأن الفضل منه تعالی یمکن أن یقع تحت تأثیر الغیر فیزاحم المشیه الإلهیه،و یحبس فضله عن جانب،و یصرفه إلی آخر،و لیس کذلک فإن الفضل بید الله یؤتیه من یشاء.

و إما أن یکون لأن الفضل قلیل غیر واف و المفضل علیهم کثیرون فیکون إیتاؤه علی البعض دون البعض یحتاج إلی انضمام مرجح فیحتال إلی إقامه مرجح لتخصیص البعض الذی ینعم علیه،و لیس کذلک فإن الله سبحانه واسع الفضل و المقدره.

و إما أن یکون لأن الفضل و إن کان واسعا و بید الله لکن یمکن أن یحتجب المفضل علیه عنه تعالی بجهل منه فلا ینال الفضل فیحتال فی حجبه و ستر حاله عنه تعالی حتی یحرم من فضله،و لیس کذلک فإن الله سبحانه علیم لا یطرأ علیه جهل.

قوله تعالی: یَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ یَشٰاءُ وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ ،فلما کان الفضل بید الله یؤتیه من یشاء و کان واسعا علیما أمکن أن یختص بعض عباده ببعض نعمه فإن له أن یتصرف فی ملکه کیف یشاء،و لیس إذا لم یکن ممنوع التصرف فی فضله و إیتائه عباده أن یجب علیه أن یؤتی کل فضله کل أحد فإن هذا أیضا نوع ممنوعیه فی التصرف بل له أن یختص بفضله من یشاء.

و قد ختم الکلام بقوله: وَ اللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ و هو بمنزله التعلیل لجمیع المعانی السابقه فإن لازم عظمه الفضل علی الإطلاق أن یکون بیده یؤتیه من یشاء،و أن یکون واسعا فی فضله،و أن یکون علیما بحال عباده و ما هو اللائق بحالهم من الفضل، و أن یکون له أن یختص بفضله من یشاء.

و فی تبدیل الفضل بالرحمه فی قوله: یَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ یَشٰاءُ ،دلاله علی أن

الفضل و هو العطيه غير الواجبه من شعب الرحمه،قال تعالى: «وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» :الأعراف-۱۵۶،و قال: «وَ لَوْ لاٰ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مٰا زَكىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً» :النور-۲۱،و قال تعالى: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزٰائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفٰاقِ» :إسراء-۱۰۰.

قوله تعالى: وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطٰارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ -إلى قوله:

سَبِيلٌ

-إشاره إلى اختلافهم فى حفظ الأمانات و العهود اختلافا فاحشا آخذا بطرفى التضاد و أن هذا و إن كان فى نفسه رذيله قوميه ضاره إلا أنه ناش بينهم فاش فى جماعتهم من رذيله أخرى اعتقاديه و هى ما يشتمل عليه قولهم: لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ، فإنهم كانوا يسمون أنفسهم بأهل الكتاب،و غيرهم بالأميين فقولهم: لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ معناه نفى أن يكون لغير إسرائيلى على إسرائيلى سبيل،و قد أسندوا الكلمه إلى الدين،و الدليل عليه قوله تعالى: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ بَلىٰ «إلخ».

فقد كانوا يزعمون-كما أنهم اليوم على زعمهم-أنهم هم المخصوصون بالكرامه الإلهيه لا تعدوهم إلى غيرهم بما أن الله سبحانه جعل فيهم نبوه و كتابا و ملكا فلهم السياده و التقدم على غيرهم،و استنتجوا من ذلك أن الحقوق المشرعه عندهم اللازمه المراعاه عليهم كحرمه أخذ الربا و أكل مال الغير:و هضم حقوق الناس إنما هى بينهم معاشر أهل الكتاب فالمحرم هو أكل مال الإسرائيلى على مثله،و المحظور هضم حقوق يهودى على أهل ملته،و بالجمله إنما السبيل على أهل الكتاب لأهل الكتاب،و أما غير أهل الكتاب فلا سبيل له على أهل الكتاب فلهم أن يحكموا فى غيرهم ما شاءوا و يفعلوا فى من دونهم ما أرادوا،و هذا يؤدى إلى معاملتهم مع غيرهم معامله الحيوان العجم كائنا من كان.

و هذا و إن لم يوجد فيما عندهم من الكتب المنسوبه إلى الوحى كالتوراه و غيرها لكنه أمر أخذوه من أفواه أحبارهم فقلدوهم فيه ثم لما كان الدين الموسوى لا يعدو بنى إسرائيل إلى غيرهم جعلوه جنسيه بينهم،و تولد من ذلك أن هذه الكرامه و السؤدد أمر جنسى خص بذلك بنو إسرائيل خاصه فالانتساب الإسرائيلى هو ماده الشرف و عنصر السؤدد و المنتسب إلى إسرائيل له التقدم المطلق على غيره،و هذه الروح الباغيه إذا دبت فى قالب قوم بعثتهم إلى إفساد الأرض و أماته روح الإنسانيه و آثارها

الحاکمه فی الجامعه البشریه.

نعم أصل هـذه الکلمه-و هو سـلب الحقوق العامه عن بعض الأفراد و الجوامع- مما لا مناص عنه فی الجامعه الإنسانیه لکن الذی یعتبره المجتمع الإنسانی الصالـح هو سـلب الحقوق عمن یریـد إبطال الحقوق و هـدم المجتمع،و الـذی یعتبره الإسـلام فی ثبوت الحق هو دین التوحیـد من الإسـلام أو الـذمه فمن لاـ إسـلام له و لاـ ذمه،فلاـ حق له من الحیوه و هو الـذی ینطبق علی النـاموس الفطری الذی سمعت أنه المعتبر إجمالا عند المجتمع الإنسانی.

و لنرجع إلی مـا کنـا فیه من الکلاـم فی الآـیه فقوله تعالی: وَ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ ، کان الظاهر أن یقال:و منهم،فهو من وضع الظاهر موضع الضمیر و الوجه فیه دفع أن یتوهم أن هؤلاء بعض من الطائفه المذکوره فی الآیتین السابقتین التی قالت: آمِنُوا بِالَّذِی أُنْزِلَ «إلخ»و لذلک لما اندفع التوهم المذکور قیل فی الآیه الآتیه: وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِیقاً یَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْکِتابِ الآیه.

و هناک وجه آخر و هو أن ذکر الوصف-و هو کونهم مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ مشـعر بنوع من التعلیل،و ذلک أن صـدور هـذا القول و الفعل منهم-أعنی قولهم: لَیْسَ عَلَیْنا فِی الْأُمِّیِّینَ سَبِیلٌ ،و أکلهم مال الناس بذلک لم یکن بذاک البعید المسـتغرب لو کانوا أمیین لاـخبر عنـدهم من النبوه و الوحی لکنهم أهـل الکتـاب و عنـدهم الکتـاب فیه حکم الله،و هم یعلمون أن الکتـاب لاـ یحکم لهم بـذلک،و لا یبیـح لهم مال غیرهم لأنه غیرهم فهذا الذی قالوه ثم فعلوه.و هم أهل الکتاب منهم أغرب و أبعد،و التوبیخ و التقبیح علیهم أوجه و ألزم.

و القنطار و الـدینار معروفان و المقابله بینهما-علی ما فیها من المحسـنات البـدیعیه- و المقام مقام یـذکر فیه الأمانه تفید أنه کنی بهما عن الکثیر و القلیل،و المراد أن منهم من لا یخون الأمانه و إن کثرت و ثقلت قیمتها،و منهم من یخونها و إن قلت و خفت.

و کـذا الخطاب الموضوع فی الکلاـم بقوله: إِنْ تَـأْمَنْهُ بِقِنْطـارٍ یُؤَدِّهِ إِلَیْـکَ ،غیر متوجه إلی مخـاطب معین بل هو للتکنیه عن أی مخاطب یمکن أن یخاطب بهذا الکلام للإشعار بأن الحکم عام غیر مقصور علی واحد دون واحد،و الکلام فی معنی قولنا:

إن يأمنه مؤتمن أی مؤتمن کان بقنطار یؤده إلیه.

و ما فی قوله: إِلّاٰ مٰا دُمْتَ عَلَيْهِ قٰائِماً ،مصدریه علی ما قیل،و التقدیر إلا أن تدوم قائما علیه،و ذکر القیام علیه للدلاله علی الإلحاح و الاستعجال فإن قیام المطالب علی ساقه عند المطالبه من غیر قعود دلیل علی ذلک و ربما قیل:إن مٰا ظرفیه،و لیس بشیء.

و قوله: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ،ظاهر السیاق أن ذلک إشاره إلی مجموع المضمون المأخوذ من سابق القول أی کون بعضهم یؤدی الأمانه و إن کانت خطیره مهمه،و بعضهم لا یؤدیها و إن کانت حقیره لا یعبأ بها إنما هو لقولهم، لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ فأوجب ذلک اختلافا بینهم فی الصفات الروحیه کحفظ الأمانات و الاتقاء عن تضییع حقوق الناس،و الاغترار بالکرامه مع أنهم یعلمون أن الله لم یسن لهم ذلک فی الکتاب و لا رضی بمثل هذه الأفعال منهم.

و یمکن أن یکون ذلک إشاره إلی حال الطائفه الثانیه المذکوره بقوله: وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينٰارٍ لاٰ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ،و یکون ذکر الطائفه الأولی الأمینه لاستیفاء تمام الأقسام،و التحفظ علی النصفه،و یجوز حینئذ أن تکون ضمائر الجمع فی قوله: وَ يَقُولُونَ و فی قوله: وَ هُمْ يَعْلَمُونَ راجعه إلی أهل الکتاب أو راجعه إلی قوله: مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينٰارٍ ،بحسب المعنی و کذا یجوز علی التقدیر الثانی أن یکون المراد بضمیر التکلم فی قوله: عَلَيْنٰا ،جمیع أهل الکتاب أو خصوص البعض،و یختلف المعنی باختلاف المحتملات إلا أن الجمیع صحیحه مستقیمه،و علیک بالتدبر فیها.

قوله تعالی: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ إبطال لدعواهم أنه لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ،و دلیل علی أنهم کانوا ینسبون ذلک إلی الوحی السماوی و التشریع الدینی کما مر.

قوله تعالی: بَلىٰ مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ وَ اتَّقىٰ فَإِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ،رد لکلامهم و إثبات لما نفوه بقولهم: لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ،و إیفاء العهد تتمیمه بالتحفظ من العذر و النقص،و التوفیه البذل و الإعطاء وافیا،و الاستیفاء الأخذ و التناول وافیا.

و المراد بالعهد ما أخذ الله المیثاق علیه من عباده أن یؤمنوا به و یعبدوه علی ما یشعر به قوله فی الآیه التالیه: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَ أَيْمٰانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ،أو مطلق

ص :۲۶۳

العهد الذی منه عهد الله تعالی.

و قوله: فَإِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ من قبيل وضع الكبری موضع الصغری إيثارا للإيجاز ،و التقدير فإن الله يحبه لأنه متق و الله يحب المتقين،و المراد أن كرامه الله لعباده المتقين حبه لهم لا ما زعمتموه من نفی السبيل.

فمفاد الكلام أن الكرامه الإلهيه ليست بذاک المبتذل السهل التناول حتی ينالها كل من انتسب إليه انتسابا أو يحسبها كل محتال أو مختال كرامه جنسيه أو قوميه بل يشترط فی نيلها الوفاء بعهد الله و ميثاقه و التقوی فی الدين فإذا تمت الشرائط حصلت الكرامه و هی المحبه و الولايه الإلهيه التی لا تعدو عباده المتقين،و أثرها النصره الإلهيه، و الحيوه السعيده التی تعمر الدنيا و تصلح بال أهلها،و ترفع درجات الآخره.

فهذه هی الكرامه الإلهيه لا أن يحمل قوما علی أكتاف عباده من صالح و طالح و يطلقهم و يخلی بينهم و بين ما يشاءون و ما يعملون فيقولوا يوما: لَيْسَ عَلَيْنٰا فِی الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ،و يوما نحن أولياء لله من دون الناس (١)،و يوما: نَحْنُ أَبْنٰاءُ اللّٰهِ وَ أَحِبّٰاؤُهُ (٢)فيهديهم ذلک إلی إفساد الأرض،و إهلاک الحرث و النسل.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَ أَيْمٰانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً تعليل للحكم المذكور فی الآيه السابقه،و المعنی أن الكرامه الإلهيه خاصه بمن أوفی بعهده و اتقی لأن غيرهم -و هم اَلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَ أَيْمٰانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً -لا كرامه لهم.

و لما كان نقض عهد الله و ترک التقوی إنما هو للتمتع بزخارف الدنيا و إيثار شهوات الأولی علی الأخری كان فيه وضع متاع الدنيا موضع إيفاء العهد و التقوی، و تبديل العهد به،و لذلک شبه عملهم ذلک بالمعامله فجعل عهد الله مبيعا يشتری بالمتاع، و سمی متاع الدنيا و هو قليل بالثمن القليل و الاشتراء هو البيع فقيل: يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَ أَيْمٰانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً ،أی يبدلون العهد و الأيمان من متاع الدنيا.

قوله تعالی: أُولٰئِکَ لاٰ خَلاٰقَ لَهُمْ فِی الْآخِرَهِ وَ لاٰ يُكَلِّمُهُمُ اللّٰهُ إلی آخر الآيه،

١- ١) قال تعالی:(قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس الآيه)الجمعه-١.

٢- ٢) قال تعالی:«و قالت اليهود و النصاری نحن أبناء الله و أحباؤه الآيه»المائده-١٨

الخلاق النصيب،و التزكيه هى الإنماء نموا صالحا،و لما كان الوصف المأخوذ فى بيان هذه الطائفه من الناس مقابلا للوصف المأخوذ فى الطائفه الأخرى المذكوره فى قوله: مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى ،ثم كانت التبعات المذكوره لوصفهم أمورا سلبيه أفاد ذلك:.

أولا:أن الإتيان فى الإشاره بلفظ أولئك الدال على البعد لإفاده بعد هؤلاء من ساحه القرب كما أن الموفون بعهدهم المتقون مقربون لمكان حب الله تعالى لهم.

و ثانيا:أن آثار محبه الله سبحانه هى الخلاق فى الآخره،و التكليم و النظر يوم القيامه،و التزكيه و المغفره،و هى رفع أليم العذاب.

و الخصال التى ذكرها الله تعالى لهؤلاء الناقضين لعهد الله و أيمانهم أمور ثلاثه:

أحدها:أنهم لا نصيب لهم فى الآخره،و المراد بالآخره هى الدار الآخره (من قيام الوصف مقام الموصوف)و يعنى بها الحياه التى بعد الموت كما أن المراد بالدنيا هى الدار الدنيا و هى الحياه الدنيا قبل الموت.

و نفى النصيب عنهم فى الآخره لاختيارهم نصيب الدنيا عليه،و من هنا يظهر أن المراد بالثمن القليل هو الدنيا،و إنما فسرناه فيما تقدم بمتاع الدنيا لمكان توصيفه تعالى إياه بالقليل،و قد وصف به متاع الدنيا فى قوله-عز من قائل- :«قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ» :النساء-٧٧،على أن متاع الدنيا هو الدنيا.

و ثانيها:أن الله لا يكلمهم و لا ينظر إليهم يوم القيامه،و قد حوذى به المحبه- الإلهيه للمتقين من حيث إن الحب يوجب تزود المحب من المحبوب بالاسترسال بالنظر و التكليم عند الحضور و الوصال،و إذ لا يحبهم الله فلا يكلمهم و لا ينظر إليهم يوم القيامه و هو يوم الإحضار و الحضور،و التدرج من التكليم إلى النظر لوجود القوه و الضعف بينهما فإن الاسترسال فى التكليم أكثر منه فى النظر فكأنه قيل:لا نشرفهم لا كثيرا و لا قليلا.

و ثالثها:أن الله لا يزكيهم و لهم عذاب أليم،و إطلاق الكلام يفيد أن المراد بهما ما يعم التزكيه و العذاب فى الدنيا و الآخره.

قوله تعالى: وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ

وَ مٰا هُوَ مِنَ الْكِتٰابِ

، اللی هو فتل الحبل،و لی الرأس و اللسان إمالتهما.قال تعالی:

«لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ :المنافقون-۵، و قال تعالی: «لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ» :النساء-۴۶، و الظاهر أن المراد بذلک أنهم یقرءون ما افتروه من الحدیث علی الله سبحانه بألحان یقرءون بها الکتاب تلبیسا علی الناس لیحسبوه من الکتاب و ما هو من الکتاب.

و تکرار لفظ الکتاب ثلاث مرات فی الکلام لدفع اللبس فإن المراد بالکتاب الأول هو الذی کتبوه بأیدیهم و نسبوه إلی الله سبحانه،و بالثانی الکتاب الذی أنزله الله تعالی بالوحی،و بالثالث هو الثانی کرر لفظه لدفع اللبس و للإشاره إلی أن الکتاب بما أنه کتاب الله أرفع منزله من أن یشتمل علی مثل تلک المفتریات،و ذلک لما فی لفظ الکتاب من معنی الوصف المشعر بالعلیه.

و نظیره تکرار لفظ الجلاله فی قوله: وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ مٰا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ،فالمعنی و ما هو من عند الله الذی هو إله حقا لا یقول إلا الحق قال تعالی:

«وَ الْحَقَّ أَقُولُ» :ص-۸۴.

و أما قوله: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ تکذیب بعد تکذیب لنسبتهم ما اختلقوه من الوحی إلی الله سبحانه فإنهم کانوا یلبسون الأمر علی الناس بلحن القول فأبطله الله بقوله: وَ مٰا هُوَ مِنَ الْكِتٰابِ ثم کانوا یقولون بألسنتهم هو من عند الله فکذبهم الله:أولا بقوله: وَ مٰا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ،و ثانیا بقوله: وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ ،و زاد فی الفائده أولا أن الکذب من دأبهم و دیدنهم،و ثانیا أن ذلک لیس کذبا صادرا عنهم بالتباس من الأمر علیهم بل هم عالمون به متعمدون فیه.

بحث روائی

فی الدر المنثور،: فی قوله تعالی: قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوٰاءٍ الآیه- أخرج-یعنی ابن جریر-عن السدی،قال:ثم دعاهم رسول الله ص-یعنی الوفد من نصاری نجران-فقال- يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوٰاءٍ الآیه.

أقول:و روی فیه هذا المعنی أیضا عن ابن جریر عن محمد بن جعفر بن الزبیر و ظاهر الروایه أن الآیه نزلت فیهم،و قد قدمنا الروایه فی أول السوره الداله علی أن

صدر السوره إلی نیف و ثمانین آیه نزلت فی نصاری نجران،و هذه الآیه منها لوقوعها قبل تمام العدد.

و ورد فی بعض الروایات أن رسول الله دعا یهود المدینه إلی الکلمه السواء حتی قبلوا الجزیه،و ذلک لا ینافی نزول الآیه فی وفد نجران.

و فی صحیح البخاری،بإسناده عن ابن عباس عن أبی سفیان فی حدیث طویل:

یذکر فیه کتاب رسول الله ص إلی هرقل عظیم الروم،قال أبو سفیان ثم دعا یعنی هرقل بکتاب رسول الله ص-فقرأ فإذا فیه:بسم الله الرحمن الرحیم-من محمد رسول الله إلی هرقل عظیم الروم،سلام علی من اتبع الهدی،أما بعد-فإنی أدعوک بدعایه الإسلام أسلم تسلم،و أسلم یؤتک الله أجرک مرتین-فإن تولیت فإن علیک إثم الأریسیین- و یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلیٰ کَلِمَهٍ سَوٰاءٍ-بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمْ أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّٰهَ -إلی قوله-:

اِشْهَدُوا بِأَنّٰا مُسْلِمُونَ

الحدیث.

أقول:و رواه أیضا مسلم فی صحیحه،و رواه السیوطی فی الدر المنثور،عن النسائی و عبد الرزاق و ابن أبی حاتم عن ابن عباس.

و قد قیل إن کتاب رسول الله ص إلی مقوقس عظیم القبط أیضا کان مشتملا علی قوله تعالی: یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ تَعٰالَوْا إِلیٰ کَلِمَهٍ سَوٰاءٍ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمْ ،و هناک نسخه منسوبه إلیه(ص)مخطوطه بالخط الکوفی تضاهی کتابه(ص)إلی هرقل و قد استنسخ منها أخیرا بالتصویر الشمسی ما یوجد عند کثیرین.

و کیف کان فقد ذکر المؤرخون أن رسول الله ص إنما کتب الکتب و أرسل الرسل إلی الملوک من قیصر و کسری و النجاشی سنه ست من الهجره،و لازمه نزول الآیه فی سنه ست أو قبلها و قد ذکر المؤرخون کالطبری و ابن الأثیر و المقریزی أن نصاری نجران إنما وفدوا علی رسول الله-ص-سنه عشر من الهجره،و ذکر آخرون کأبی الفداء فی البدایه و النهایه و نظیره فی السیره الحلبیه أن ذلک کان فی سنه تسع من الهجره،و لازم ذلک نزول هذه الآیه فی سنه تسع أو عشر.

و ربما قیل:إن الآیه مما نزلت أول الهجره علی ما تشعر به الروایات الآتیه، و ربما قیل:إن الآیه نزلت مرتین نقله الحافظ ابن حجر.

و الذی یؤیده اتصال آیات السوره سیاقا کما مرت الإشاره إلیه فی أول السوره:

أن الآیه نزلت قبل سنه تسع،و أن قصه الوفد إنما وقعت فی سنه ست من الهجره أو قبلها،و من البعید أن یکاتب(ص)عظماء الروم و القبط و فارس و یغمض عن نجران مع قرب الدار.

و فی الروایه نکته أخری و هی تصدیر الکتاب ببسم الله الرحمن الرحیم،و منه یظهر ما فی بعض ما نقلناه من الروایات

فی قصه وفد نجران کما عن البیهقی فی الدلائل،:

أن رسول الله ص کتب إلی أهل نجران-قبل أن ینزل علیه طس سلیمان:بسم الله إله إبراهیم و إسحاق و یعقوب من محمد رسول الله-إلی أسقف نجران إن أسلمتم فإنی أحمد إلیکم الله-إله إبراهیم و إسحاق و یعقوب،أما بعد-فإنی أدعوکم إلی عباده الله من عباده العباد-و إلی ولایه الله من ولایه العباد فإن أبیتم فالجزیه،و إن أبیتم فقد آذنتکم بالحرب و السلام ،الحدیث.

و ذلک أن سوره النمل من السور المکیه و مضامین آیاتها کالنص فی أنها نزلت قبل هجره النبی ص و کیف یجتمع ذلک مع قصه نجران علی أن الکتاب یشتمل علی أمور أخر لا یمکن توجیهها کحدیث الجزیه و الإیذان بالحرب و غیر ذلک،و الله أعلم.

و فی الدر المنثور،أخرج الطبرانی عن ابن عباس": أن کتاب رسول الله إلی الکفار: تَعٰالَوْا إِلیٰ کَلِمَهٍ سَوٰاءٍ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَکُمْ الآیه

و فی الدر المنثور،أیضا: فی قوله تعالی: یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لِمَ تُحَاجُّونَ الآیه-أخرج ابن إسحاق و ابن جریر و البیهقی فی الدلائل،عن ابن عباس قال:اجتمعت نصاری نجران و أحبار یهود عند رسول الله ص-فتنازعوا عنده،فقالت الأحبار:ما کان إبراهیم إلا یهودیا،و قالت النصاری ما کان إبراهیم إلا نصرانیا فأنزل الله فیهم: یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِی إِبْرٰاهِیمَ-وَ مٰا أُنْزِلَتِ التَّوْرٰاهُ وَ الْإِنْجِیلُ إِلاّٰ مِنْ بَعْدِهِ -إلی قوله وَ اللّٰهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ -فقال أبو رافع القرظی (1)أ ترید منا یا محمد أن نعبدک کما تعبد النصاری عیسی بن مریم-فقال رجل من أهل نجران أ ذلک ترید یا محمد فقال رسول الله ص-معاذ الله أن أعبد غیر الله أو آمر بعباده غیره-ما بذلک بعثنی و لا

۱- ۱) من یهود بنی قریظه.

أمرني فأنزل الله في ذلك من قولهما- مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ- ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ كُونُوا عِبٰاداً لِي مِنْ دُونِ اللّٰهِ -إلى قوله بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ -ثم ذكر ما أخذ عليهم و على آبائهم من الميثاق-بتصديقه إذا هو جاءهم و إقرارهم به على أنفسهم فقال- وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ النَّبِيِّينَ -إلى قوله مِنَ الشّٰاهِدِينَ .

أقول الآيات أعني قوله مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ إلى آخر الآيات أوفق سياقا و أسهل انطباقا على عيسى بن مريم(ع)منه برسول الله ص على ما سيجيء في الكلام على الآيات فلعل ما في الروايه من نزول الآيات في حق رسول الله ص استنباط و تطبيق من ابن عباس على أن المعهود من دأب القرآن التعرض لهذا النوع من القول في صوره السؤال و الجواب أو الحكايه و الرد.

و في تفسير الخازن،روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس و رواه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب بإسناده حديث هجره الحبشه قال لما هاجر جعفر بن أبي طالب و أناس من أصحاب النبي ص إلى أرض الحبشه و استقرت بهم الدار و هاجر النبي ص إلى المدينه و كان من أمر بدر ما كان اجتمعت قريش في دار الندوه و قالوا إن لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمد ثارا ممن قتل منكم ببدر فاجمعوا مالا و اهدوه إلى النجاشي لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم و لينتدب إليه رجلان من ذوي رأيكم.

فبعثوا عمرو بن العاص و عماره بن أبي معيط معهم الهدايا الأدم و غيره فركبا البحر حتى أتيا الحبشه فلما دخلا على النجاشي سجدا له و سلما عليه و قالا له إن قومنا لك ناصحون شاكرون و لأصحابك محبون و إنهم بعثونا إليك لنحذر هؤلاء الذين قدموا عليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج يزعم أنه رسول الله و لم يتابعه أحد منا إلا السفهاء و إنا كنا قد ضيقنا عليهم الأمر و ألجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد فقتلهم الجوع و العطش فلما اشتد عليه الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك و ملكك و رعيتك فاحذرهم و ادفعهم إلينا لنكفيكم قال و آيه ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك و لا يحيونك بالتحيه التي يحييك بها الناس رغبه عن دينك و سنتك.

قال:فدعاهم النجاشي فلما حضروا صاح جعفر بالباب:يستأذن عليك حزب

الله تعالی،فقال النجاشی:مروا هذا الصائح فلیعد کلامه،ففعل جعفر فقال النجاشی:

نعم فلیدخلوا بأمان الله و ذمته فنظر عمرو إلی صاحبه فقال:أ لا تسمع کیف یرطنون بحزب الله و ما أجابهم به الملک؟فأساءهما ذلک.

ثم دخلوا علیه فلم یسجدوا له فقال عمرو بن العاص:أ لا تری أنهم یستکبرون أن یسجدوا لک؟فقال لهم النجاشی:ما منعکم أن تسجدوا لی و تحیونی بالتحیه التی یحیینی بها من أتانی من الآفاق؟قالوا:نسجد لله الذی خلقک و ملکک،و إنما کانت تلک التحیه لنا و نحن نعبد الأوثان فبعث الله فینا نبیا صادقا،فأمرنا بالتحیه التی رضیها الله و هی السلام تحیه أهل الجنه فعرف النجاشی أن ذلک حق و أنه فی التوراه و الإنجیل، قال:أیکم الهاتف:یستأذن علیک حزب الله؟قال جعفر:أنا،قال:إنک ملک من ملوک الأرض من أهل الکتاب،و لا یصلح عندک کثره الکلام و لا الظلم،و إنما أحب أن أجیب عن أصحابی فمر هذین الرجلین فلیتکلم أحدهما و لینصت الآخر فتسمع محاورتنا فقال عمرو لجعفر:تکلم.

فقال جعفر للنجاشی:سل هذین الرجلین،أ عبید نحن أم أحرار؟فإن کنا عبیدا قد أبقنا من أربابنا فردنا علیهم.فقال النجاشی:أ عبید هم أم أحرار؟فقال بل أحرار کرام،فقال النجاشی:نجوا من العبودیه فقال جعفر:سلهما:هل أرقنا دما بغیر حق فیقتص منا؟فقال عمرو:لا و لا قطره،قال جعفر:سلهما هل أخذنا أموال الناس بغیر حق فعلینا قضاؤها،قال النجاشی:إن کان قنطارا فعلی قضاؤه،فقال عمرو لا و لا قیراط،فقال النجاشی:فما تطلبون منهم؟قال:کنا و إیاهم علی دین واحد، علی دین آبائنا فترکوا ذلک،و اتبعوا غیره فبعثنا قومنا لتدفعهم إلینا فقال النجاشی:

ما هذا الذی کنتم علیه و الدین الذی اتبعوه؟فقال جعفر:أما الدین الذی کنا علیه فهو دین الشیطان کنا نکفر بالله و نعبد الحجاره،و أما الذی تحولنا إلیه فهو دین الله الإسلام جاءنا به من عند الله رسول بکتاب مثل کتاب ابن مریم موافقا له،فقال النجاشی یا جعفر تکلمت بأمر عظیم.

ثم أمر النجاشی بضرب الناقوس فضرب و اجتمع إلیه کل قسیس و راهب فلما اجتمعوا عنده قال النجاشی:أنشدکم بالله الذی أنزل الإنجیل علی عیسی هل تجدون بین عیسی و بین یوم القیامه نبیا مرسلا؟قالوا اللهم نعم قد بشرنا فقال:من آمن به فقد

آمن بی و من کفر به فقد کفر بی فقال النجاشی لجعفر ما ذا یقول لکم هذا الرجل؟و ما یأمرکم به؟و ما ینهاکم عنه؟فقال یقرأ علینا کتاب الله،و یأمرنا بالمعروف و ینهانا عن المنکر،و یأمرنا بحسن الجوار و صله الرحم و بر الیتیم،یأمرنا أن نعبد الله وحده لا شریک له،فقال له:اقرأ علی مما یقرأ علیکم فقرأ علیه سوره العنکبوت و الروم ففاضت عینا النجاشی و أصحابه من الدمع،و قالوا:زدنا من هذا الحدیث الطیب فقرأ علیهم سوره الکهف فأراد عمرو أن یغضب النجاشی فقال إنهم یشتمون عیسی و أمه فقال النجاشی:فما تقولون فی عیسی و أمه؟فقرأ علیهم سوره مریم فلما أتی علی ذکر مریم و عیسی رفع النجاشی من سواکه قدر ما یقذی العین،و قال:و الله ما زاد المسیح علی ما تقولون هذا،ثم أقبل علی جعفر و أصحابه فقال اذهبوا فأنتم سیوم بأرضی یقول:آمنون من سبکم و آذاکم غرم.ثم قال:أبشروا و لا تخافوا فلا دهوره الیوم علی حزب إبراهیم فقال عمرو یا نجاشی و من حزب إبراهیم؟قال:هؤلاء الرهط و صاحبهم الذی جاءوا من عنده و من اتبعهم فأنکر ذلک المشرکون و ادعوا دین إبراهیم ثم رد النجاشی علی عمرو و صاحبه المال الذی حملوه و قال:إنما هدیتکم إلی رشوه فاقبضوها فإن الله ملکنی و لم یأخذ منی رشوه،قال جعفر:فانصرفنا فکنا فی خیر جوار،و أنزل الله عز و جل فی ذلک علی رسول الله ص فی خصومتهم فی إبراهیم و هو فی المدینه: إِنَّ أَوْلَی النّٰاسِ بِإِبْرٰاهِیمَ لَلَّذِینَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِیُّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ اللّٰهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ .

أقول:و هذه القصه مرویه من طرق أخری و من طرق أهل البیت(ع) و إنما نقلناها علی طولها لاشتمالها علی فوائد هامه فی بلاء المسلمین من المهاجرین الأولین، و لیست من سبب النزول فی شیء.

و فی تفسیر العیاشی،عن الصادق(ع): فی قوله تعالی: مٰا کٰانَ إِبْرٰاهِیمُ یَهُودِیًّا وَ لاٰ نَصْرٰانِیًّا ،قال:قال أمیر المؤمنین لا یهودیا یصلی إلی المغرب،و لا نصرانیا یصلی إلی المشرق-لکن کان حنیفا مسلما علی دین محمد ص.

أقول:قد تقدم فی البیان السابق معنی کونه علی دین محمد ص، و قد اعتبر فی الروایه استقبال الکعبه و قد حولت القبله إلیها فی المدینه و الکعبه فی نقطه جنوبها تقریبا،و تأبی الیهود و النصاری عن قبولها أوجب لهم الانحراف عنها إلی

جهتی المغرب التی بها بیت المقدس،و المشرق التی یستقبلها النصاری فعد ذلک من الطائفتین انحرافا عن حاق الوسط،و قد أید هذه العنایه لفظ الآیه وَ کَذٰلِکَ جَعَلْنٰاکُمْ أُمَّةً وَسَطاً الآیه،و بالجمله فإنما هی عنایه لطیفه لا تزید علی ذلک.

و فی الکافی،عن الصادق(ع): خالصا مخلصا لیس فیه شیء من عباده الأوثان.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی: إِنَّ أَوْلَی النّٰاسِ بِإِبْرٰاهِیمَ الآیه،قال أمیر المؤمنین (ع):إن أولی الناس بالأنبیاء أعملهم بما جاءوا به-ثم تلا هذه الآیه و قال:إن ولی محمد من أطاع الله و إن بعدت لحمته،و إن عدو محمد من عصی الله و إن قربت لحمته.

و فی الکافی،و تفسیر العیاشی،عن الصادق(ع): هم الأئمه و من اتبعهم.

و فی تفسیری القمی،و العیاشی،عن عمر بن أذینه عنه(ع)قال: أنتم و الله من آل محمد،فقلت:من أنفسهم جعلت فداک؟قال:نعم و الله من أنفسهم ثلاثا،ثم نظر إلی و نظرت إلیه،فقال:یا عمر إن الله یقول فی کتابه: إِنَّ أَوْلَی النّٰاسِ الآیه ،.

و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی: وَ قٰالَتْ طٰائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ آمِنُوا الآیه، عن الباقر(ع):أن رسول الله ص لما قدم المدینه-و هو یصلی نحو بیت المقدس أعجب ذلک القوم-فلما صرفه الله عن بیت المقدس إلی بیت الله الحرام-وجدت الیهود من ذلک،و کان صرف القبله صلاه الظهر،فقالوا صلی محمد الغداه و استقبل قبلتنا-فآمنوا بالذی أنزل علی محمد وجه النهار-و اکفروا آخره یعنوه القبله-حین استقبل رسول الله ص المسجد الحرام.

أقول:و الروایه کما تری تجعل قوله وَجْهَ النَّهٰارِ ،ظرفا لقوله: أُنْزِلَ ،دون قوله: آمِنُوا ،و قد تقدم الکلام فیه فی البیان السابق.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم من طریق العوفی عن ابن عباس":

فی قوله: وَ قٰالَتْ طٰائِفَةٌ الآیه،قال:إن طائفه من الیهود قالت:إذا لقیتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا،و إذا کان آخره فصلوا صلاتکم لعلهم یقولون:هؤلاء أهل الکتاب و هم أعلم منا لعلهم ینقلبون عن دینهم.

أقول:و رواه فیه أیضا عن السدی و مجاهد.

ص :۲۷۲

و فی الکافی،: فی قوله تعالی: إِنَّ اَلَّذِینَ یَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اَللّٰهِ الآیه)-عن الباقر(ع) قال:أنزل فی العهد: إِنَّ اَلَّذِینَ یَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اَللّٰهِ وَ أَیْمٰانِهِمْ ثَمَناً قَلِیلاً-أُولٰئِکَ لاٰ خَلاٰقَ لَهُمْ فِی اَلْآخِرَهِ وَ لاٰ یُکَلِّمُهُمُ اَللّٰهُ-وَ لاٰ یَنْظُرُ إِلَیْهِمْ یَوْمَ اَلْقِیٰامَهِ(وَ لاٰ یُزَکِّیهِمْ)وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ ،و الخلاق النصیب فمن لم یکن له نصیب فی الآخره-فبأی شیء یدخل الجنه.

و فی أمالی الشیخ،بإسناده عن عدی بن عدی عن أبیه قال: اختصم امرؤ القیس و رجل من حضرموت-إلی رسول الله ص فی أرض فقال:أ لک بینه؟قال:لا، قال:فبیمینه،قال:إذن و الله یذهب بأرضی،قال:إن ذهب بأرضک بیمینه کان ممن لا ینظر الله إلیه یوم القیامه-و لا یزکیه و له عذاب ألیم،قال:ففزع الرجل و ردها إلیه.

أقول:و الروایه کما تری لا تدل علی نزول الآیه فی مورد القصه،و قد روی من طرق أهل السنه فی عده روایات أن الآیه نزلت فی هذا الشأن،و هی متعارضه من حیث مورد القصه:ففی بعضها أن النزاع کان بین امرئ القیس و رجل من حضرموت کما مر فی الروایه السابقه،و فی بعضها أنه کان بین الأشعث بن القیس و بین رجل من الیهود فی أرض له،و فی بعضها أنها نزلت فی رجل من الکفار و قد کان أقام سلعه له فی السوق فحلف بالله لقد أعطی بها ما لم یعطه لیوقع بها رجلا من المسلمین فنزلت الآیه.

و قد عرفت فی البیان السابق أن ظاهر الآیه أنها واقعه موقع التعلیل لمضمون الآیه السابقه علیها:فالوجه حمل الروایات إن أمکن علی بیان انطباق الآیه علی مورد القصه دون النزول بالمعنی المعهود منه.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۷۹ الی ۸۰]

اشاره

مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُؤْتِیَهُ اَللّٰهُ اَلْکِتٰابَ وَ اَلْحُکْمَ وَ اَلنُّبُوَّهَ ثُمَّ یَقُولَ لِلنّٰاسِ کُونُوا عِبٰاداً لِی مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ لٰکِنْ کُونُوا رَبّٰانِیِّینَ بِمٰا کُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ اَلْکِتٰابَ وَ بِمٰا کُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (۷۹) وَ لاٰ یَأْمُرَکُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا اَلْمَلاٰئِکَهَ وَ اَلنَّبِیِّینَ أَرْبٰاباً أَ یَأْمُرُکُمْ بِالْکُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۸۰)

بيان

وقوع الآيات عقيب الآيات المرتبطه بأمر عيسى(ع)يفيد أنها بمنزله الفصل الثانى من الاحتجاج على براءه ساحه المسيح مما يعتقده فى حقه أهل الكتاب من النصارى، و الكلام بمنزله قولنا:إنه ليس كما تزعمون فلا هو رب و لا أنه ادعى لنفسه الربوبيه:

أما الأول:فلأنه مخلوق بشرى حملته أمه و وضعته و ربته فى المهد غير أنه لا أب له كآدم(ع)فمثله عند الله كمثل آدم،و أما الثانى:فلأنه كان نبيا أوتى الكتاب و الحكم و النبوه و النبى الذى هذا شأنه لا يعدو طور العبوديه و لا يتعرى عن زى الرقيه فكيف يتأتى أن يقول للناس اتخذونى ربا و كونوا عبادا لى من دون الله،أو يجوز ذلك فى حق غيره من عباد الله من ملك أو نبى فيعطى لعبد من عباد الله ما ليس له بحق،أو ينفى عن نبى من الأنبياء ما أثبت الله فى حقه من الرساله فيأخذ منه ما هو له من الحق.

قوله تعالى: مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ كُونُوا عِبٰاداً لِي مِنْ دُونِ اللّٰهِ ، البشر مرادف للإنسان،و يطلق على الواحد و الكثير فالإنسان الواحد بشر كما أن الجماعه منه بشر.

و قوله: مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ ،اللام للملك أى لا يملك ذلك أى ليس له بحق كقوله تعالى: «مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذٰا» :النور-۱۶،و قوله: «وَ مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ» :آل عمران-۱۶۱.

و قوله تعالى: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتٰابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ،اسم كان إلا أنه توطئه لما يتبعه من قوله: ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ ،و ذكر هذه التوطئه مع صحه المعنى بدونها ظاهرا يفيد وجها آخر لمعنى قوله مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ ،فإنه لو قيل ما كان لبشر أن يقول للناس، كان معناه أنه لم يشرع له هذا الحق و إن أمكن أن يقول ذلك فسقا و عتوا،و لكنه

إذا قيل: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ،ثُمَّ يَقُولَ: كان معناه أن إيتاء الله له العلم و الفقه مما عنده و تربيته له بتربيه ربانيه لا يدعه أن يعدو طور العبوديه، و لا يوسع له أن يتصرف فيما لا يملكه و لا يحق له كما يحكيه تعالى عن عيسى(ع)فى قوله: «وَ إِذْ قالَ اللّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلهَیْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قالَ سُبْحانَکَ ما یَکُونُ لِی أَنْ أَقُولَ ما لَیْسَ لِی بِحَقٍّ» :المائده-۱۱۶.

و من هنا تظهر النكته فى قوله: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّهُ «إلـخ»دون أن يقال:ما كان لبشر آتاه الله الكتاب و الحكم و النبوه أن يقول«إلخ»فإن العباره الثانيه تفيد معنى أصل التشريع كما تقدم بخلاف قوله: أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّهُ «إلـخ»فإنه يفيد أن ذلك غير ممكن البته أى إن التربيه الربانيه و الهدايه الإلهيه لا تتخلف عن مقصدها كما قال تعالى:

«أُولئِکَ الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ یَکْفُرْ بِها هؤُلاءِ X(يعنى قوم رسول الله صX) فَقَدْ وَکَّلْنا بِها قَوْماً لَیْسُوا بِها بِکافِرِینَ» :الأنعام-۸۹.

فمحصل المعنى أنه لا يسع لبشر أن يجمع بين هذه النعم الإلهيه و بين دعوه الناس إلى عباده نفسه بأن يؤتى الكتاب و الحكم و النبوه ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله،فالآيه بحسب السياق بوجه كقوله تعالى: «لَنْ یَسْتَنْکِفَ الْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلّهِ وَ لاَ الْمَلائِکَةُ الْمُقَرَّبُونَ -Xإلى أن قالX-: وَ أَمَّا الَّذِینَ اسْتَنْکَفُوا وَ اسْتَکْبَرُوا فَیُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً» :النساء-۱۷۳،فإن المستفاد من الآيه:أن المسيح و كذا الملائكه المقربون أجل شأنا و أرفع قدرا أن يستنكفوا عن عباده الله فإن الاستنكاف عن عبادته يستوجب أليم العذاب،و حاشا أن يعذب الله كرام أنبيائه و مقربى ملائكته.

فإن قلت:الإتيان بثم الداله على التراخى فى قوله: ثُمَّ يَقُولَ لِلنّاسِ ،ينافى الجمع الذى ذكرته.

قلت:ما ذكرناه من معنى الجمع محصل المعنى،و كما يصح اعتبار الاجتماع و المعيه بين المتحدين زمانا كذلك يصح اعتباره بين المترتبين و المتتاليين فهو نوع من الجمع.

و أما قوله: كُونُوا عِباداً لِی مِنْ دُونِ اللّهِ ،فالعباد كالعبيد جمع عبد،و الفرق بينهما أن العباد يغلب استعماله فيما إذا نسب إلى الله سبحانه،يقال:عباد الله،و لا

يقال:غالبا عباد الناس،بل عبيد الناس و تقييد قوله: عِبٰاداً لِي بقوله: مِنْ دُونِ اللّٰهِ تقييد قهرى فإن الله سبحانه لا يقبل من العباده إلا ما هو خالص لوجهه الكريم كما قال تعالى:

«أَلاٰ لِلّٰهِ الدِّينُ الْخٰالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلاّٰ لِيُقَرِّبُونٰا إِلَى اللّٰهِ زُلْفىٰ إِنَّ اللّٰهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مٰا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ» :الزمر -۳،فرد عباده من يعبد مع عبادته غيره حتى بعنوان التقرب و التوسل و الاستشفاع.

على أن حقيقه العباده لا تتحقق إلا مع إعطاء استقلال ما للمعبود حتى فى صوره الإشراك فإن الشريك من حيث إنه شريك مساهم ذو استقلال ما،و الله سبحانه له الربوبيه المطلقه فلا يتم ربوبيته و لا تستقيم عبادته إلا مع نفى الاستقلال عن كل شىء من كل جهه فعباده غير الله عباده له من دون الله و إن عبد الله معه.

قوله تعالى: وَ لٰكِنْ كُونُوا رَبّٰانِيِّينَ بِمٰا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتٰابَ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ الربانى منسوب إلى الرب،زيد عليه الألف و النون للدلاله على التفخيم كما يقال لحيانى لكثير اللحيه و نحو ذلك،فمعنى الربانى شديد الاختصاص بالرب و كثير الاشتغال بعبوديته و عبادته،و الباء فى قوله: بِمٰا كُنْتُمْ ،للسببيه و ما مصدريه،و الكلام بتقدير القول و المعنى،و لكن يقول:كونوا ربانيين بسبب تعليمكم الكتاب للناس و دراستكم إياه فيما بينكم.

و الدراسه أخص من التعليم فإنه يستعمل غالبا فيما يتعلم عن الكتاب بقراءته قال الراغب:درس الدار بقى أثرها،و بقاء الأثر يقتضى انمحاءه فى نفسه،فلذلك فسر الدروس بالانمحاء،و كذا درس الكتاب،و درست العلم تناولت أثره بالحفظ، لما كان تناول ذلك بمداومه القراءه عبر عن إدامه القراءه بالحفظ،قال تعالى: وَ دَرَسُوا مٰا فِيهِ ،و قال: بِمٰا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتٰابَ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ،وَ مٰا آتَيْنٰاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهٰا انتهى.

و محصل الكلام أن البشر الذى هذا شأنه إنما يدعوكم إلى التلبس بالإيمان و اليقين بما فى الكتاب الذى تعلمونه و تدرسونه من أصول المعارف الإلهيه،و الاتصاف و التحقق بالملكات و الأخلاق الفاضله التى يشتمل عليها،و العمل بالصالحات التى تدعون الناس إليها حتى تنقطعوا بذلك إلى ربكم،و تكونوا به علماء ربانيين.

و قوله: بِمٰا كُنْتُمْ ،حيث اشتمل على الماضى الدال على التحقق لا يخلو عن دلاله ما على أن الكلام فى الآيه مسوق للتعريض بالنصارى من أهل الكتاب فى قولهم:إن عيسى أخبرهم بأنه ابنه و كلمته على الخلاف فى تفسير البنوه،و ذلك أن بنى إسرائيل هم الذين كان فى أيديهم كتاب سماوى يعلمونه و يدرسونه و قد اختلفوا فيه اختلافا يصاحب التغيير و التحريف ،و ما بعث عيسى(ع)إلا ليبين لهم بعض ما اختلفوا فيه،و ليحل بعض الذى حرم عليهم،و بالجمله ليدعوهم إلى القيام بالواجب من وظائف التعليم و التدريس و هو أن يكونوا ربانيين فى تعليمهم و دراستهم كتاب الله سبحانه.

و الآيه و إن لم تأب الانطباق على رسول الله ص بوجه فقد كانت لدعوته أيضا مساس بأهل الكتاب الذين كانوا يعلمون و يدرسون كتاب الله لكن عيسى(ع) أسبق انطباقا عليه،و كانت رسالته خاصه ببنى إسرائيل بخلاف رسول الله ص.

و أما سائر الأنبياء العظام من أولى العزم و الكتاب:كنوح و إبراهيم و موسى فمضمون الآيه لا ينطبق عليهم و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ لاٰ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاٰئِكَهَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْبٰاباً عطف على قوله يَقُولَ :

على القراءه المشهوره التى هى نصب يأمركم،و هذا كما كان طائفه من أهل الكتاب كالصابئين يعبدون الملائكه و يسندون ذلك إلى الدعوه الدينيه،و كعرب الجاهليه حيث كانوا يقولون إن الملائكه بنات الله،و هم يدعون أنهم على دين إبراهيم(ع) هذا فى اتخاذ الملائكه أربابا.

و أما اتخاذ النبيين أربابا فكقول اليهود:عزير بن الله على ما حكاه القرآن و لم يجوز لهم موسى(ع)ذلك،و لا وقع فى التوراه إلا توحيد الرب و لو جوز لهم ذلك لكان آمرا به حاشاه من ذلك.

و قد اختلفت الآيتان:أعنى قوله: ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ كُونُوا عِبٰاداً لِي مِنْ دُونِ اللّٰهِ و قوله: وَ لاٰ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاٰئِكَهَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْبٰاباً من جهتين فى سياقهما:الأولى:

أن المأمور فى الأولى(ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ)الناس،و فى الثانيه هم المخاطبون بالآيه، و الثانيه:أن المأمور به فى الأولى العبوديه له و فى الثانيه الاتخاذ أربابا.

أما الأولى فحيث كان الكلام مسوقا للتعريض بالنصارى فى عبادتهم لعيسى،

و قولهم بألوهيته صريحا مسندين ذلک إلی دعوته کان ذلک نسبه منهم إليه أنه قال:

کُونُوا عِبٰاداً لِي

بخلاف اتخاذ الملائکه و النبيين أربابا بالمعنی الذی قيل فی غير عيسی فإنه يضاد الألوهيه بلازمه لا بصريحه فلذلک قيل:أربابا،و لم يقل:آلهه.

و أما الثانيه فالوجه فيه أن التعبيرين کليهما(کُونُوا عِبٰاداً لِي - لاٰ يَأْمُرَکُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا)أمر لو تعلق بأحد تعلق بهؤلاء الذين يخاطبون بهذه الآيات من أهل الکتاب و العرب لکن التعبير لما وقع فی الآيه الأولی بالقول،و القول يقضی بالمشافهه و لم يکن الحاضرون فی زمن نزول الآيه حاضرين إذ ذاک لا جرم قيل: ثُمَّ يَقُولَ لِلنّٰاسِ ،و لم يقل:

ثم يقول لکم،و هذا بخلاف لفظ الأمر المستعمل فی الآيه الثانيه فإنه لا يستلزم شفاها بل يتم مع الغيبه فإن الأمر المتعلق بالأسلاف متعلق بالأخلاف مع حفظ الوحده القوميه،و أما القول فهو لإفادته بحسب الانصراف إسماع الصوت يقضی بالمشافهه و الحضور إلا أن يعنی به مجرد معنی التفهيم.

و علی هذا فالأصل فی سياق هذه الآيات الحضور و خطاب الجمع،کما جری عليه قوله تعالی وَ لاٰ يَأْمُرَکُمْ إلی آخر الآيه.

قوله تعالی: أَ يَأْمُرُکُمْ بِالْکُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ،ظاهر الخطاب أنه متعلق بجميع المنتحلين بالنبوه من أهل الکتاب أو المدعين للانتساب إلی الأنبياء کما کانت عرب الجاهليه تزعم أنهم حنفاء و الکلام موضوع علی الفرض و التقدير فالمعنی أنکم علی تقدير إجابتکم هذا البشر الذی أوتی الکتاب و الحکم و النبوه تکونون مسلمين لله متحلين بحليه الإسلام مصبوغين بصبغته فکيف يمکنه أن يأمرکم بالکفر و يضلکم عن السبيل الذی هداکم إليه بإذن الله سبحانه.

و من هنا يظهر أن المراد بالإسلام هو دين التوحيد الذی هو دين الله عند جميع الأنبياء علی ما يدل عليه أيضا احتفاف الآيات بهذا المعنی من الإسلام أعنی قوله تعالی من قبل: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللّٰهِ الْإِسْلاٰمُ» :آل عمران-۱۹،و قوله تعالی من بعد: «أَ فَغَيْرَ دِينِ اللّٰهِ يَبْغُونَ» -Xإلی أن قالX-: «وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَهِ مِنَ الْخٰاسِرِينَ» :آل عمران-۸۵.

و قد ذکر بعض المفسرين أن المراد بقوله تعالی: مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ إلی آخر

الآیتین رسول الله ص بناء علی ما روی فی سبب النزول و حاصله أن أبا رافع القرظی و رجلا من نصاری نجران قالا لرسول الله ص:أ ترید أن نعبدک یا محمد؟ فأنزل الله: مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُؤْتِیَهُ اللّٰهُ إلی آخر الآیتین الحدیث ثم أیده بقوله فی آخرهما بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فإن الإسلام هو الدین الذی جاء به محمد ص.

و فیه أنه خلط بین الإسلام فی عرف القرآن و هو دین التوحید الذی بعث به جمیع الأنبیاء و بین الإسلام بالاصطلاح الحادث بین المسلمین بعد عصر النزول،و قد تقدم الکلام فیه.

(خاتمه فیها فصول)

۱-ما هی قصه عیسی و أمه فی القرآن؟

کانت أم المسیح مریم بنت عمران حملت بها أمها فنذرت أن تجعل ما فی بطنها إذا وضعته محررا یخدم المسجد و هی تزعم أن ما فی بطنها ذکور فلما وضعتها و بان لها أنها أنثی حزنت و تحسرت ثم سمتها مریم أی الخادمه و قد کان توفی أبوها عمران قبل ولادتها فأتت بها المسجد تسلمها للکهنه و فیهم زکریا فتشاجروا فی کفالتها ثم اصطلحوا علی القرعه و ساهموا فخرج لزکریا فکفلها حتی إذا أدرکت ضرب لها من دونهم حجابا فکانت تعبد الله سبحانه فیها لا یدخل علیها إلا زکریا و کُلَّمٰا دَخَلَ عَلَیْهٰا زَکَرِیَّا الْمِحْرٰابَ وَجَدَ عِنْدَهٰا رِزْقاً،قٰالَ یٰا مَرْیَمُ أَنّٰی لَکِ هٰذٰا؟قٰالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ،إِنَّ اللّٰهَ یَرْزُقُ مَنْ یَشٰاءُ بِغَیْرِ حِسٰابٍ ،و قد کانت(ع)صدیقه،و کانت معصومه بعصمه الله،طاهره مصطفاه محدثه حدثها الملائکه:بأن الله اصطفاها و طهرها و کانت من القانتین و من آیات الله للعالمین(سوره آل عمران آیه ۳۵-۴۴،سوره مریم آیه ۱۶، سوره الأنبیاء آیه ۹۱،سوره التحریم آیه ۱۲).

ثم إن الله تعالی أرسل إلیها الروح و هی محتجبه فَتَمَثَّلَ لَهٰا بَشَراً سَوِیًّا ،و ذکر لها أنه رسول من ربها لیهب لها بإذن الله ولدا من غیر أب،و بشرها بما سیظهر من ولدها من المعجزات الباهره،و أخبرها أن الله سیؤیده بروح القدس،و یعلمه الکتاب و الحکمه و التوراه و الإنجیل،و رسولا إلی بنی إسرائیل ذا الآیات البینات،و أنبأها

بشأنه و قصته ثم نفخ الروح فيها فحملت بها حمل المرأه بولدها الآيات من آل عمران:

(۳۵-۴۴).

ثم انتبذت مريم به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخله قالت يا ليتنى مت قبل هذا و كنت نسيا منسيا فناداها من تحتها أن لاـ تحزنى قد جعل ربک تحتک سريا و هزى إليک بجذع النخله تساقط عليک رطبا جنيا فكلى و اشربى و قرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا فأتت به قومها تحمله(سوره مريم آيه ۲۰-۲۷)،و كان حمله و وضعه و كلامه و سائر شئون وجوده من سنخ ما عند سائر الأفراد من الإنسان.

فلما رآها قومها-و الحال هذه-ثاروا عليها بالطعنه و اللوم بما يشهد به حال امرأه حملت و وضعت من غير بعل،و قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا؟ قَالَ:إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا وَ جَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلاَهِ وَ الزَّكَاهِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا، وَ السَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا: سوره مريم آيه-۲۷-۳۳ فكان هذا الكلام منه(ع)كبراعه الاستهلال بالنسبه إلى ما سينهض على البغى و الظلم و إحياء شريعه موسى(ع)و تقويمه،و تجديد ما اندرس من معارفه،و بيان ما اختلفوا فيه من آياته.

ثم نشأ عيسى(ع)و شب و كان هو و أمه على العاده الجاريه فى الحياه البشريه يأكلان و يشربان و فيهما ما فى سائر الناس من عوارض الوجود إلى آخر ما عاشا.

ثم إن عيسى(ع)أوتى الرساله إلى بنى إسرائيل فانبعث يدعوهم إلى دين التوحيد،و يقول: أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَهٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَهِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ،إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَهً لَكُمْ ،... إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ .

و كان يدعوهم إلى شريعته الجديده و هو تصديق شريعه موسى(ع)إلا أنه

نسخ بعض ما حرم فی التوراه تشدیدا علی الیهود،و کان یقول: قَدْ جِئْتُکُمْ بِالْحِکْمَهِ وَ لِأُبَیِّنَ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِیهِ ،و کان یقول: یَا بَنِی إِسْرَائِیلَ إِنِّی رَسُولُ اللَّهِ إِلَیْکُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَیْنَ یَدَیَّ مِنَ التَّوْرَاهِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ یَأْتِی مِنْ بَعْدِی اسْمُهُ أَحْمَدُ .

و أنجز(ع)ما ذکره لهم من المعجزات کخلق الطیر و إحیاء الموتی و إبراء الأکمه و الأبرص و الإخبار عن المغیبات بإذن الله.

و لم یزل یدعوهم إلی توحید الله و شریعته الجدیده حتی أیس من إیمانهم لما شاهد من عتو القوم و عنادهم و استکبار الکهنه و الأحبار عن ذلک فانتخب من الشرذمه التی آمنت به الحواریین أنصارا له إلی الله.

ثم إن الیهود ثاروا علیه یریدون قتله فتوفاه الله و رفعه إلیه،و شبه للیهود:

فمن زاعم أنهم قتلوه،و من زاعم أنهم صلبوه، وَ لٰکِنْ شُبِّهَ لَهُمْ آل عمران آیه ۴۵-۵۸،الزخرف آیه ۶۳-۶۵،الصف آیه ۶ و ۱۴،المائده آیه ۱۱۰ و ۱۱۱، النساء آیه ۱۵۷ و ۱۵۸)فهذه جمل ما قصه القرآن فی عیسی بن مریم و أمه.

۲ منزله عیسی عند الله و موقفه فی نفسه:

کان(ع)عبدا لله و کان نبیا(سوره مریم آیه ۳۰)و کان رسولا إلی بنی إسرائیل(آل عمران آیه ۴۹)و کان واحدا من الخمسه أولی العزم صاحب شرع و کتاب و هو الإنجیل(الأحزاب آیه ۷،الشوری آیه ۱۳،المائده آیه ۴۶)و کان سماه الله بالمسیح عیسی(آل عمران آیه ۴۵)و کان کلمه لله و روحا منه(النساء آیه ۱۷۱)و کان إماما(الأحزاب آیه ۷)و کان من شهداء الأعمال(النساء آیه ۱۵۹، المائده آیه ۱۱۷)و کان مبشرا برسول الله ص(الصف آیه ۶)و کان وجیها فی الدنیا و الآخره و من المقربین(آل عمران آیه ۴۵)و کان من المصطفین(آل عمران آیه ۳۳)و کان من المجتبین،و کان من الصالحین(الأنعام آیه ۸۵-۸۷)و کان مبارکا أینما کان و کان زکیا و کان آیه للناس و رحمه من الله و برا بوالدته و کان مسلما علیه(مریم آیه ۱۹ ۳۳)و کان ممن علمه الله الکتاب و الحکمه(آل عمران آیه ۴۸)، فهذه اثنتان و عشرون خصله من مقامات الولایه هی جمل ما وصف الله به

هذا النبی المکرم و رفع بها قدره،و هی علی قسمین:اکتسابیه کالعبودیه و القرب و الصلاح،و اختصاصیه،و قد شرحنا کلا منها فی الموضع المناسب له من هذا الکتاب بما نطیق فهمه فلیرجع فیها إلی مظانها منه.

۳-ما الذی قاله عیسی(ع)؟و ما الذی قیل فیه؟

ذکر القرآن أن عیسی کان عبدا رسولا،و أنه لم یدع لنفسه ما نسبوه إلیه،و لا تکلم معهم إلا بالرساله،کما قال تعالی: «وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ یٰا عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِی وَ أُمِّی إِلٰهَیْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ قٰالَ سُبْحٰانَکَ مٰا یَکُونُ لِی أَنْ أَقُولَ مٰا لَیْسَ لِی بِحَقٍّ إِنْ کُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِی وَ لاٰ أَعْلَمُ مٰا فِی نَفْسِکَ إِنَّکَ أَنْتَ عَلاّٰمُ الْغُیُوبِ، مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِی بِهِ:أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً مٰا دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُکَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ، قٰالَ اللّٰهُ هٰذٰا یَوْمُ یَنْفَعُ الصّٰادِقِینَ صِدْقُهُمْ» :المائده-۱۱۶ ۱۱۹.

و هذا الکلام العجیب الذی یشتمل من العبودیه علی عصارتها،و یتضمن من بارع الأدب علی مجامعه یفصح عما کان یراه عیسی المسیح(ع)من موقفه نفسه تلقاء ربوبیه ربه،و تجاه الناس و أعمالهم فذکر أنه کان یری نفسه بالنسبه إلی ربه عبدا لا شأن له إلا الامتثال لا یرد إلا عن أمر،و لا یصدر إلا عن أمر،و لم یؤمر إلا بالدعوه إلی عباده الله وحده و لم یقل لهم إلا ما أمر به: أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّی وَ رَبَّکُمْ .

و لم یکن له من الناس إلا تحمل الشهاده علی أعمالهم فحسب،و أما ما یفعله الله فیهم و بهم یوم یرجعون إلیه فلا شأن له فی ذلک،غفر أو عذب.

فإن قلت:فما معنی ما تقدم فی الکلام علی الشفاعه أن عیسی(ع)من الشفعاء یوم القیامه یشفع فیشفع؟.

قلت:القرآن صریح أو کالصریح فی ذلک،قال تعالی: «وَ لاٰ یَمْلِکُ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَهَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ» :الزخرف-۸۶،و قد قال تعالی فیه: «وَ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً» :النساء-۱۵۹،و قال تعالی: «وَ إِذْ

عَلَّمْتُکَ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَهَ وَ التَّوْرٰاهَ وَ الْإِنْجِیلَ :المائده-۱۱۰،و قد تقدم إشباع الکلام فی معنی الشفاعه،و هذا غیر التفدیه التی یقول بها النصاری ،و هی إبطال الجزاء بالفدیه و العوض فإنها تبطل السلطنه المطلقه الإلهیه علی ما سیجیء من بیانه،و الآیه إنما تنفی ذلک،و أما الشفاعه فالآیه غیر متعرضه لأمرها لا إثباتا و لا نفیا فإنها لو کانت بصدد إثباتها-علی منافاته (۱)للمقام-لکان حق الکلام أن یقال:و إن تغفر لهم فإنک أنت الغفور الرحیم،و لو کانت بصدد نفیها لم یکن لذکر الشهاده علی الناس وجه، و هذا إجمال ما سیأتی فی تفسیر الآیات تفصیله إن شاء الله تعالی.

و أما ما قاله الناس فی عیسی(ع)فإنهم و إن تشتتوا فی مذاهبهم بعده، و اختلفوا فی مسالکهم بما ربما جاوز السبعین من حیث کلیات ما اختلفوا فیه، و جزئیات المذاهب و الآراء کثیره جدا.

لکن القرآن إنما یهتم بما قالوا به فی أمر عیسی نفسه و أمه لمساسه بأساس التوحید الذی هو الغرض الوحید فیما یدعو إلیه القرآن الکریم و الدین الفطری القویم،و أما بعض الجزئیات کمسأله التحریف و مسأله التفدیه فلم یهتم به ذاک الاهتمام.

و الذی حکاه القرآن الکریم عنهم أو نسبه إلیهم ما فی قوله تعالی: «وَ قٰالَتِ النَّصٰاریٰ الْمَسِیحُ ابْنُ اللّٰهِ» :التوبه-۳۰،و ما فی معناه،کقوله تعالی: «وَ قٰالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ» :الأنبیاء-۲۶،و ما فی قوله تعالی: «لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِیحُ ابْنُ مَرْیَمَ» :المائده-۷۲، و ما فی قوله تعالی: «لَقَدْ کَفَرَ الَّذِینَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ ثٰالِثُ ثَلاٰثَهٍ» :المائده-۷۳،و ما فی قوله تعالی: «وَ لاٰ تَقُولُوا ثَلاٰثَهٌ» :النساء-۱۷۱.

و هذه الآیات و إن اشتملت بظاهرها علی کلمات مختلفه ذوات مضامین و معان متفاوته،و لذلک ربما حملت (۲)علی اختلاف المذاهب فی ذلک کمذهب الملکانیه القائلین بالبنوه الحقیقیه،و النسطوریه القائلین بأن النزول و البنوه من قبیل إشراق النور علی جسم شفاف کالبلور،و الیعقوبیه القائلین بأنه من الانقلاب،و قد انقلب الإله سبحانه لحما و دما.

۱- ۱) فإن المقام مقام التذلل دون الاسترسال.

۲- ۲) کما فعله الشهرستانی فی الملل و النحل.

لکن الظاهر أن القرآن لا یهتم بخصوصیات مذاهبهم المختلفه،و إنما یهتم بکلمه واحده مشترکه بینهم جمیعا و هو البنوه،و أن المسیح من سنخ الإله سبحانه،و ما یتفرع علیه من حدیث التثلیث و إن اختلفوا فی تفسیرها اختلافا کثیرا،و تعرقوا فی المشاجره و النزاع،و الدلیل علی ذلک وحده الاحتجاج الوارد علیهم فی القرآن لسانا.

بیان ذلک:أن التوراه و الأناجیل الحاضره جمیعا تصرح بتوحید الإله تعالی،من جانب و الإنجیل یصرح بالبنوه من جانب آخر،و صرح بأن الابن هو الأب لا غیر.

و لم یحملوا البنوه الموجوده فیه علی التشریف و التبریک مع ما فی موارد منه من التصریح بذلک کقوله:«و أنا أقول لکم أحبوا أعداءکم،و بارکوا علی لاعنیکم و أحسنوا إلی من أبغضکم،و صلوا علی من یطردکم و یعسفکم کیما تکونوا بنی أبیکم الذی فی السماوات لأنه المشرق شمسه علی الأخیار و الأشرار و الممطر علی الصدیقین و الظالمین،و إذا أحببتم من یحبکم فأی أجر لکم؟أ لیس العشارون یفعلون کذلک؟ و إن سلمتم علی إخوتکم فقط فأی فضل لکم؟أ لیس کذلک یفعل الوثنیون کونوا کاملین مثل أبیکم السماوی فهو کامل»آخر الإصحاح الخامس من إنجیل متی (۱).

و قوله أیضا:فلیضیء نورکم قدام الناس لیروا أعمالکم الحسنه و یمجدوا أباکم الذی فی السماوات»إنجیل متی-الإصحاح الخامس.

و قوله أیضا:«لا تصنعوا جمیع مراحمکم قدام الناس کی یروکم فلیس لکم أجر عند أبیکم الذی فی السماوات».

و قوله أیضا فی الصلوه:«و هکذا تصلون أنتم یا أبانا الذی فی السماوات یتقدس اسمک«إلخ».

و قوله:أیضا«فإن غفرتم للناس خطایاهم غفر لکم أبوکم السمائی خطایاکم»کل ذلک فی الإصحاح السادس من إنجیل متی.

و قوله:«و کونوا رحماء مثل أبیکم الرحیم»إنجیل لوقا-الإصحاح السادس.

۱- ۱) النسخه العربیه المطبوعه سنه ۱۸۱۱ میلادیه و عنها ننقل جمیع ما ننقله فی هذا البحث عن کتب العهد العربیه.

و قوله لمريم المجدليه:«امضى إلى إخوتى و قولى لهم:إنى صاعد إلى أبى الذى هو أبوكم و إلهى الذى هو إلهكم»إنجيل يوحنا-الإصحاح العشرون.

فهذه و أمثالها من فقرات الأناجيل تطلق لفظ الأب على الله تعالى و تقدس بالنسبه إلى عيسى و غيره جميعا كما ترى بعنايه التشريف و نحوه.

و إن كان ما فى بعض الموارد منها يعطى أن هذه البنوه و الأبوه نوع من الاستكمال المؤدى إلى الاتحاد كقوله:«تكلم اليسوع بهذا و رفع عينيه إلى السماء فقال:

يا أبه قد حضرت الساعه فمجد ابنك ليمجدك ابنك ثم ذكر دعاءه لرسله من تلامذته ثم قال:«و لست أسأل فى هؤلاء فقط بل و فى الذين يؤمنون بى بقولهم ليكونوا بأجمعهم واحدا كما أنك يا أبه ثابت فى و أنا أيضا فيك ليكونوا أيضا فينا واحدا ليؤمن العالم أنك أرسلتنى و أنا أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى ليكونوا واحدا كما نحن واحد أنا فيهم و أنت فى و يكونوا كاملين لواحد لكى يعلم العالم أنك أرسلتنى و أننى أحببتهم كما أحببتنى»إنجيل يوحنا-الإصحاح السابع عشر.

لكن وقع فيها أقاويل يتأبى ظواهرها عن تأويلها إلى التشريف و نحوه كقوله:

«قال له توما:يا سيد ما نعلم أين تذهب؟و كيف نقدر أن نعرف الطريق؟قال له يسوع:أنا هو الطريق و الحق و الحياه لا يأتى أحد إلى أبى إلا بى لو كنتم تعرفوننى لعرفتم أبى أيضا و من الآن تعرفونه و قد رأيتموه أيضا،قال له فيلبس:يا سيد أرنا الأب و حسبنا،قال له يسوع:أنا معكم كل هذا الزمان و لم تعرفنى يا فيلبس؟من رآنى فقد رأى الأب فكيف تقول أنت:أرنا الأب؟أ ما تؤمن أنى فى أبى و أبى فى و هذا الكلام الذى أقوله لكم ليس هو من ذاتى وحدى بل أبى الحال فى هو يفعل هذه الأفعال آمنوا بى،أنا فى أبى و أبى فى»إنجيل يوحنا-الإصحاح الرابع عشر.

و قوله:«لكنى خرجت من الله و جئت و لم آت من عندى بل هو أرسلنى» إنجيل-يوحنا الإصحاح الثامن.

و قوله:أنا و أبى واحد نحن»إنجيل يوحنا-الإصحاح العاشر.

و قوله لتلامذته:«اذهبوا و تلمذوا كل الأمم و عمدوهم (۱)باسم الأب و الابن

۱- ۱) التعميد نوع من التغسيل عند النصارى يتطهر به المغتسل من الذنوب و هو من فرائض الكنيسه.

و روح القدس»إنجيل متى-الإصحاح الثامن و العشرون.

و قوله:«فى البدء كان الكلمه و الكلمه كان عند الله،و الله كان الكلمه منذ البدء كان هذا عند الله كل به كان و بغيره لم يكن شىء مما كان به كانت الحياه،و الحياه كانت نور الناس»إنجيل يوحنا-الإصحاح الأول.

فهذه الكلمات و ما يماثلها مما وقع فى الإنجيل هى التى دعت النصارى إلى القول بالتثليث فى الوحده.

و المراد به حفظ«أن المسيح بن الله»مع التحفظ على التوحيد الذى نص عليه المسيح فى تعليمه كما فى قوله:«إن أول كل الوصايا:اسمع يا إسرائيل الرب إلهك إله واحد هو»إنجيل مرقس-الإصحاح الثانى عشر.

و محصل ما قالوا به(و إن كان لا يرجع إلى محصل معقول):أن الذات جوهر واحد له أقانيم ثلاث،و المراد بالأقنوم هو الصفه التى هى ظهور الشىء و بروزه و تجليه لغيره و ليست الصفه غير الموصوف،:و الأقانيم الثلاث هى:أقنوم الوجود و أقنوم العلم،و هو الكلمه،و أقنوم الحياه و هو الروح.

و هذه الأقانيم الثلاث هى:الأب و الابن و الروح القدس:و الأول أقنوم الوجود، و الثانى أقنوم العلم و الكلمه،و الثالث أقنوم الحياه،فالابن و هو الكلمه و أقنوم العلم نزل من عند أبيه و هو أقنوم الوجود بمصاحبه روح القدس و هو أقنوم الحيوه التى بها يستنير الأشياء.

ثم اختلفوا فى تفسير هذا الإجمال اختلافا عظيما أوجب تشتتهم و انشعابهم شعبا و مذاهب كثيره تجاوز السبعين،و سيأتيك نبؤها على قدر ما يلائم حال هذا الكتاب.

إذا تأملت ما قدمناه عرفت:أن ما يحكيه القرآن عنهم،أو ينسبه إليهم بقوله:« وَ قالَتِ النَّصارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ،الآيه»،و قوله:« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ،الآيه»،و قوله:« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ ، الآيه»،و قوله:« وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا ،الآيه»،كل ذلك يرجع إلى معنى واحد (و هو تثليث الوحده)هو المشترك بين جميع المذاهب المستحدثه فى النصرانيه،و هو الذى قدمناه فى معنى تثليث الوحده.

و إنما اقتصر فيه على هذا المعنى المشترک لأن الذی يرد على أقوالهم فی خصوص المسيح(ع)على كثرتها و تشتتها مما يحتج به القرآن أمر واحد يرد على وتيره واحده كما سيتضح.

۴-احتجاج القرآن على مذهب التثليث

يرد القرآن فی الاحتجاج،و يرد قول المثلثه من طريقين،أحدهما:الطريق العام،و هو بيان استحاله الابن عليه تعالى فی نفسه أی سواء كان عيسى هو الابن أو غيره،الثانی:الطريق الخاص و هو بيان أن عيسى بن مريم ليس ابنا إلها بل عبد مخلوق.

أما الطريق الأول فتوضيحه أن حقيقه البنوه و التولد هو أن يجزئ واحد من هذه الموجودات الحيه الماديه كالإنسان و الحيوان بل النبات أيضا شيئا من ماده نفسه ثم يجعله بالتربيه التدريجيه فردا آخر من نوعه مماثلا لنفسه يترتب عليه من الخواص و الآثار ما كان يترتب على المجزأ منه كالحيوان يفصل من نفسه النطفه،و النبات يفصل من نفسه اللقاح ثم يأخذ فی تربيته تدريجا حتى يصيره حيوانا أو نباتا آخر مماثلا لنفسه، و من المعلوم أن الله سبحانه يمتنع عليه ذلک:أما أولا فلاستلزامه الجسميه الماديه،و الله سبحانه منزه من الماده و لوازمها الافتقاريه كالحركه و الزمان و المكان و غير ذلک، و أما ثانيا فلأن الله سبحانه لإطلاق ألوهيته و ربوبيته له القيوميه المطلقه على ما سواه فكل شیء سواه مفتقر الوجود إليه قائم الوجود به فكيف يمكن فرض شیء غيره يماثله فی النوعيه يستقل عنه بنفسه،و يكون له من الذات و الأوصاف و الأحكام ما له من غير افتقار إليه،و أما ثالثا فلأن جواز الإيلاد و الاستيلاد عليه تعالى يستلزم جواز الفعل التدريجی عليه تعالى،و هو يستلزم دخوله تحت ناموس الماده و الحركه و هو خلف بل ما يقع بإرادته و مشيته تعالى إنما يقع من غير مهله و تدريج.

و هذا البيان هو الذی يفيده قوله تعالى: «وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» :البقره-۱۱۷،و على ما قربناه فقوله: سُبْحَانَهُ برهان، و قوله: لَهُ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ برهان آخر و قوله: بَدِيعُ

السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذٰا قَضىٰ «إلخ»برهان ثالث.

و يمكن أن يجعل قوله: بَدِيعُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ من قبيل إضافه الصفه إلى فاعلها،و يستفاد منه أن خلقه تعالى على غير مثال سابق فلا يمكن منه الإيلاد لأنه خلق على مثال نفسه لأن مفروضهم العينيه فيكون هذه الفقره وحدها برهانا آخر.

و لو فرض قولهم:اتخذ الله ولدا كلاما ملقى لا على وجه الحقيقه بل على وجه التوسع فى معنى الابن و الولد بأن يراد به انفصال شيء عن شيء يماثله في الحقيقه من غير تجز مادى أو تدريج زماني(و هذا هو الذى يرومه النصارى بقولهم:المسيح بن الله بعد تنقيحه)ليتخلص بذلك عن إشكال الجسميه و الماديه و التدريج بقى إشكال المماثله.

توضيحه أن إثبات الابن و الأب إثبات للعدد بالضروره،و هو إثبات للكثره الحقيقيه و إن فرضت الوحده النوعيه بين الأب و الابن كالأب و الابن من الإنسان هما واحد فى الحقيقه الإنسانيه،و كثير من حيث إنهما فردان من الإنسان،و على هذا فلو فرض وحده الإله كان كل ما سواه و من جملتها الابن غيرا له مملوكا مفتقرا إليه فلا يكون الابن المفروض إلها مثله،و لو فرض ابن مماثل له غير مفتقر إليه بل مستقل مثله بطل التوحيد فى الإله عز اسمه.

و هذا البيان هو المدلول عليه بقوله تعالى: «وَ لاٰ تَقُولُوا ثَلاٰثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللّٰهُ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ سُبْحٰانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ،وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً» :النساء-١٧١.

و أما الطريق الثانى و هو بيان أن شخص عيسى بن مريم(ع)ليس ابنا لله مشاركا له فى الحقيقه الإلهيه فلما كان فيه من البشريه و لوازمها.

و توضيحه أن المسيح(ع)حملت به مريم،و ربته جنينا فى رحمها،ثم وضعته وضع المرأه ولدها،ثم ربته كما يتربى الولد فى حضانه أمه،ثم أخذ فى النشوء و قطع مراحل الحيوه و الارتقاء فى مدارج العمر من الصبا و الشباب و الكهوله،و فى جميع ذلک كان حاله حال إنسان طبيعى فى حيوته،يعرضه من العوارض و الحالات ما يعرض الإنسان:من جوع و شبع،و سرور و مساءه،و لذه و ألم،و أكل و شرب، و نوم و يقظه،و تعب و راحه،و غير ذلک.

فهذا ما شوهد من حال المسيح(ع)حين مكثه بين الناس،و لا يرتاب ذو عقل أن من كان هذا شأنه فهو إنسان كسائر الأناسی من نوعه و إذا كان كذلك فهو مخلوق مصنوع كسائر أفراد نوعه،و أما صدور الخوارق و تحقق المعجزات بيده كإحياء الأموات و خلق الطير و إبراء الأكمه و الأبرص،و كذا تحقق الخوارق من الآيات فی وجوده كتكونه من غير أب فإنما هی أمور خارقه للعاده المألوفه و السنه الجاريه فی الطبيعه فإنها نادره الوجود لا مستحيلته فهذا آدم تذكر الكتب السماويه أنه خلق من تراب و لا أب له،و هؤلاء أنبياء الله كصالح و إبراهيم و موسی (ع)جرت بأيديهم آيات معجزه كثيره مذكوره فی مسفورات الوحی من غير أن تقتضی فيهم ألوهيه،و لا خروجا عن طور الإنسانيه.

و هذه الطريقه هی المسلوكه فی قوله تعالی: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّٰهَ ثَالِثُ ثَلاٰثَهٍ وَ مَا مِنْ إِلٰهٍ إِلاّٰ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ -Xإلی أن قالX-: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاّٰ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَهٌ كٰانٰا يَأْكُلاٰنِ الطَّعٰامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيٰاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنّٰی يُؤْفَكُونَ :المائده-۷۵،و قد خص أكل الطعام من بين جميع الأفعال بالذكر لكونه من أحسنها دلاله علی الماديه و استلزاما للحاجه و الفاقه المنافيه للألوهيه، فمن المعلوم أن من يجوع و يظمأ بطبعه ثم يشبع بأكله أو يرتوی بشربه ليس عنده غير الحاجه و الفاقه التی لا يرفعها إلا غيره،و ما معنی ألوهيه من هذا شأنه؟فإن الذی قد أحاطت به الحاجه و احتاج فی رفعها إلی الخارج من نفسه فهو ناقص فی نفسه مدبر بغيره،و ليس بإله غنی بذاته بل هو مخلوق مدبر بربوبيه من ينتهی إليه تدبيره.

و إلی هذا يمكن أن يرجع قوله تعالی: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللّٰهِ شَيْئاً إِنْ أَرٰادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ عَلیٰ كُلِّ شَیْءٍ قَدِيرٌ» :المائده-۱۷.

و كذا قوله تعالی فی ذيل الآيه المنقوله سابقا(آيه ۷۵)خطابا للنصاری: «قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مٰا لاٰ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً وَ اللّٰهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» :المائده-۷۶.

فإن الملاک فی هذا النوع من الاحتجاجات هو أن الذی شوهد من أمر المسيح

أنه كـان يعيش على الناموس الجارى فى حيوه الإنسان متصـفا بجميع صـفاته و أفعاله و أحواله النوعيه كالأكل و الشـرب و سائر الاحتياجات الإنسانيه،و الخواص البشريه و لم يكن هذا التلبس و الاتصاف بحسب ظاهر الحس أو تسويل الخيال فحسب بل كان على الحقيقه و كـان المسيح(ع)إنسانـا ذا هـذه الأوصـاف و الأحوال و الأفعـال،و الأناجيـل مشـحونه بتسـميته نفسه إنسانا و ابن الإنسـان،مملوءه بالقصـص الناطقه بأكله و شـربه و نومه و مشـيه و مسافرته و تعبه و تكلمه و نحو ذلك بحيث لا يقبل شـىء منها صرفا و لا تأويلا،و مع تسـليم هذه الأمور يجرى على المسـيح ما يجرى على غيره فهو لا يملك من غيره شـيئا كغيره،و يمكن أن يهلك كغيره.

و كـذا حـديث عبـادته و دعـائه بحيث لا يرتـاب فى أن ما كان يأتيه من عباده فإنما للتقرب من الله و الخضوع لقـدس ساحته لا لتعليم الناس أو لأغراض أخر تشابه ذلك.

و إلى حـديث العبـاده و الاحتجـاج به يومئ قوله تعـالى: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلّٰهِ وَ لاَ الْمَلاٰئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً» :النساء-۱۷۲،فعبـاده المسـيح أول دليـل على أنه ليس بإله،و أن الألوهيه لغيره لا نصـيب له فيهـا،فـأى معنى لنصب الشـىء نفسه فى مقـام العبوديه و المملوكيه لنفسه؟و كون الشـىء قائما بنفسه من عين الجهه التى بهـا يقوم نفسه و الأمر ظاهر و كـذا عباده الملائكه كاشـفه عن أنها ليست ببنات الله سـبحانه و لا أن روح القـدس إله بعـد مـا كـانوا بـأجمعهم عابـدين لله طائعين له كما قال تعالى: «وَ قٰالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ بَلْ عِبٰادٌ مُكْرَمُونَ لاٰ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مٰا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ وَ لاٰ يَشْفَعُونَ إِلاّٰ لِمَنِ ارْتَضىٰ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ» :الأنبياء-۲۸.

على أن الأناجيل مشحونه بأن الروح طائع لله و رسله مؤتمر للأمر محكوم بالحكم و لا معنى لأمر الشىء نفسه و لا لطاعته لذاته،و لا لانقياده و ائتماره لمخلوق نفسه.

و نظير عباده المسيح لله سبحانه فى الدلاله على المغايره دعوته الناس إلى عباده الله كما يشير إليه قوله تعالى لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ،وَ قٰالَ الْمَسِيحُ يٰا بَنِى إِسْرٰائِيلَ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّى وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْوٰاهُ النّٰارُ وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ :المائده-۷۲،و سبيل الآيه و احتجاجها ظاهر.

و الأناجيل أيضا مشحونه فی دعوته إلی الله سبحانه،و هی و إن لم تشتمل علی هذا اللفظ الجامع(اُعْبُدُوا اللّهَ رَبِّی وَ رَبَّکَمْ)لکنها مشتمله علی الدعوه إلی عباده الله، و علی اعترافه بأنه ربه الذی بیده زمام أمره،و علی اعترافه بأنه رب الناس،و لا تتضمن دعوته إلی عباده نفسه صریحا و لا مره مع ما فیها من قوله:أنا و أبی واحد نحن»إنجیل یوحنا-الإصحاح العاشر،فمن الواجب أن یحمل علی تقدیر صحته علی أن المراد:أن إطاعتی إطاعه الله کما قال تعالی فی کتابه الکریم: «مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللّٰهَ» :النساء-۸۰.

۵-المسیح من الشفعاء عند الله و لیس بفاد:

زعمت النصاری:أن المسیح فداهم بدمه الکریم،و لذلک لقبوه بالفادی،قالوا:

إن آدم لما عصی الله بالأکل من الشجره المنهیه فی الجنه أخطأ بذلک و لزمته الخطیئه، و کذلک لزمت ذریته من بعده ما توالدوا و تناسلوا،و جزاء الخطیئه العقاب فی الآخره و الهلاک الأبدی الذی لا مخلص منه،و قد کان الله سبحانه رحیما عادلا.

فبدا إذ ذاک إشکال عویص لا انحلال له،و هو أنه لو عاقب آدم و ذریته بخطیئتهم کان ذلک منافیا لرحمته التی لها خلقهم،و لو غفر لهم کان ذلک منافیا لعدله فإن مقتضی العدل أن یعاقب المجرم الخاطئ بجرمه و خطیئته کما أن مقتضاه أن یثاب المحسن المطیع بإحسانه و إساءته (۱).

و لم تزل هذه العویصه علی حالها حتی حلها ببرکه المسیح،و ذلک بأن حل المسیح (و هو ابن الله،و هو الله نفسه)رحم واحده من ذریه آدم و هو مریم البتول و تولد منها کما یتولد إنسان فکان بذلک إنسانا کاملا لأنه ابن إنسان،و إلها کاملا لأنّه ابن الله،و ابن الله هو الله(تعالی)معصوما عن جمیع الذنوب و الخطایا.

و بعد أن عاش بین الناس برهه یسیره من الزمان یعاشرهم و یخالطهم،و یأکل و یشرب معهم،و یکلمهم و یستأنس بهم،و یمشی فیهم تسخر لأعدائه لیقتلوه شر

۱- ۱) هذا ما علیه معظمهم و یظهر من بعضهم کالقسیس مار إسحاق أن التخلف فی مجازاه الجریمه و الخطیئه و بعباره أخری خلف الوعید جائز دون خلف الوعد.

قتله،و هی قتله الصلب التی لعن صاحبها فی الکتاب الإلهی فاحتمل اللعن و الصلب بما فیه من الزجر و الأذی و العذاب ففدی الناس بنفسه لیخلصوا بذلک من عقاب الآخره و هلاک السرمد و هو کفاره لخطایا المؤمنین به بل لخطایا کل العالم (۱)هذا ما قالوه.

و قد جعلت النصاری هذه الکلمه أعنی مسأله الصلب و الفداء أساس دعوتهم فلا یبدءون إلا بها،و لا یختمون إلا علیها کما أن القرآن یجعل أساس الدعوه الإسلامیه هو التوحید کما قال الله مخاطبا لرسوله(ص): «قُلْ هٰذِهِ سَبِیلِی أَدْعُوا إِلَی اللّٰهِ عَلیٰ بَصِیرَهٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِی وَ سُبْحٰانَ اللّٰهِ وَ مٰا أَنَا مِنَ الْمُشْرِکِینَ» :یوسف-۱۰۸،مع أن المسیح(علی ما یصرح به الأناجیل،و قد تقدم نقله).کان یجعل أول الوصایا هو التوحید و محبه الله سبحانه.

و قد ناقشهم غیرهم من المسلمین و سائر الباحثین فیما یشتمل علیه قولهم هذا من وجوه الفساد و البطلان،و ألفت فیها کتب و رسائل و ملئت بها صحف و طوامیر ببیان منافاتها لضروره العقل،و مناقضتها لکتب العهدین.و الذی یهمنا و یوافق الغرض الموضوع له هذا الکتاب بیان جهات منافاته لأصول تعلیم القرآن و ختمه ببیان الفرق بین ما یثبته القرآن من الشفاعه و ما یثبتونه من الفداء.

علی أن القرآن یذکر صراحه أنه إنما یخاطب الناس و یکلمهم ببیان ما یقرب من أفق عقولهم،و یمکن بیاناته من فقههم و فهمهم،و هو الأمر الذی به یمیز الإنسان الحق من الباطل فینقاد لهذا و یأبی ذاک،و یفرق بین الخیر و الشر و النافع و الضار فیأخذ بهذا و یترک ذاک،و الذی ذکرناه من اعتبار القرآن فی بیاناته حکم العقل السلیم مما لا غبار علیه عند من راجع الکتاب العزیز.

فأما ما ذکروه ففیه أولا:أنهم ذکروا معصیه آدم(ع)بالأکل من الشجره المنهیه،و القرآن یدفع ذلک من جهتین:

الأولی:أن النهی هناک کان نهیا إرشادیا یقصد به صلاح المنهی و وجه الرشد

۱- ۱) فی الرساله الأولی لیوحنا-الفصل الأول«یا أولادی هذه الألفاظ أکتبها إلیکم لئلا تخطئوا و إن یخطئ أحدکم فلنا لدی الرب معزی عدل یسوع المسیح و ذلک هو اغتفار من أجل خطایانا فقط بل و من أجل العالم کله.

فی أمره لا إعمال المولویه و الأمر الذی هو من هذا القبیل لا یترتب علی امتثاله و لا ترکه ثواب و لا عقاب مولوی کأوامر المشیر و نواهیه لمن یستشیره،و أوامر الطبیب و نواهیه للمریض بل إنما یترتب علی امتثال التکلیف الإرشادی الرشد المنظور لمصلحه المکلف،و علی مخالفته الوقوع فی مفسده المخالفه و ضرر الفعل بما أنه فعل،و بالجمله لم یلحق بآدم(ع)إلا أنه أخرج من الجنه و فاته راحه القرب و سرور الرضا،و أما العقاب الأخروی فلا لأنه لم یعص معصیه مولویه حتی یستتبع عقابا،راجع تفسیر الآیات ۳۵-۳۹،من سوره البقره.

و الثانیه:أنه(ع)کان نبیا و القرآن ینزه ساحه الأنبیاء(ع)و یبرئ نفوسهم الشریفه عن اقتراف المعاصی و الفسق عن أمر الله سبحانه،و البرهان العقلی أیضا یؤید ذلک،راجع ما ذکرناه فی البحث عن عصمه الأنبیاء فی تفسیر الآیه ۲۱۳ من سوره البقره.

و ثانیا:قولهم:إن الخطیئه لزمت آدم فإن القرآن یدفعه بقوله: «ثُمَّ اجْتَبٰاهُ رَبُّهُ فَتٰابَ عَلَیْهِ وَ هَدیٰ» :طه-۱۲۲،و قوله: «فَتَلَقّٰی آدَمُ مِنْ رَبِّهِ کَلِمٰاتٍ فَتٰابَ عَلَیْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّٰابُ الرَّحِیمُ» :البقره-۳۷.

و الاعتبار العقلی یؤید ذلک بل یبینه فإن الخطیئه و تبعه الذنب إنما هو أمر محذور مخوف منه یعتبره العقل أو المولی لازما للمخالفه و التمرد لیستحکم بذلک أمر التکلیف فلو لا العقاب و الثواب لم یستقم أمر المولویه و لم یمتثل أمر و لا نهی و کما أن من شئون المولویه بسط العقاب علی المجرمین فی جرائمهم کالثواب علی المطیعین فی طاعاتهم کذلک من شئون المولویه إطلاق التصرف فی دائره مولویته فللمولی أن یغمض عن خطیئه المخطئین و معصیه العاصین بالعفو و المغفره فإنه نوع تصرف و حکومه کما أن له أن یؤاخذ بها و هی نوع حکومه،و حسن العفو و المغفره عن الموالی و أولی القوه و السطوه فی الجمله مما لا ریب فیه،و العقلاء من الإنسان یستعملونه إلی هذا الحین فکون کل خطیئه صادره من الإنسان لازمه للإنسان مما لا وجه له البته و إلا لم یکن لأصل العفو و المغفره تحقق لأن المغفره و العفو إنما یکون لإمحاء الخطیئه و إبطال أثر الذنب، و مع فرض أن الخطیئه لازمه غیر منفکه لا یبقی موضوع للعفو و المغفره،مع أن الوحی الإلهی مملو بحدیث العفو و المغفره،و کتب العهدین کذلک حتی أن هذا الکلام

المنقـول منهم لاـ يخلـو عنه،و بـالجمله دعـوى كون ذنب من الـذنوب أو خطيئه من الخطايـا لاـزمه غير قـابله فى نفسه للمغفره و الإمحاء حتى بالتوبه و الإنابه و الرجوع و الندم مما لا يقبله عقل سليم و لا طبع مستقيم.

و ثالثـا:أن قولهم:إن خطيئه آدم كما لزمته كـذلك لزمت ذريته إلى يوم القيامه يسـتلزم أن يشـمل تبعه الـذنب الصادر من واحد غيره أيضـا ممن لم يـذنب فى المعاصـى المولويه.و بعباره أخرى أن يصـدر فعل عن واحـد و يعم عصـيانه و تبعته غير فاعله كما يشـمل فـاعله،و هـذا غير أن يـأتى قوم بالمعصـيه و يرضـى به آخرون من أخلاـفهم فتحسب المعصـيه على الجميع و بـالجمله هو تحمل الوزر من غير صـدور الذنب و القرآن يرد ذلك كما فى قوله: «أَلاّ تَزِرُ وازِرَهٌ وِزْرَ أُخْرى- وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعى» :النجم-۳۹، و العقل يساعـده عليه لقبح مؤاخذه من لم يذنب بذنب لم يصدر عنه.راجع أبحاث الأفعال فى تفسير آيه ۲۱۶-۲۱۸ من سوره البقره.

و رابعـا:أن كلاـمهم مبنى على كون تبعه جميع الخطايـا و الـذنوب هو الهلاـك الأبـدى من غير فرق بينهـا،و لازمه أن لا يختلف الخطايـا و الـذنوب من حيث الصـغر و الكبر بل يكون جميعها كبائر موبقات،و الـذى يراه القرآن الكريم فى تعليمه أن الخطايا و المعاصـى مختلفه فمنهـا كبائر،و منها صـغائر،و منها ما تناله المغفره،و منها ما لا تناله إلا بالتوبه كالشـرک،قال تعالى: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ» :النساء-۳۱،و قال تعالى: «إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْـرَکَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ يَشاءُ» :النساء-۴۸،فجعـل تعـالى من المحرمـات المنهى عنهـا و هى الخطايـا و الـذنوب ما هى كبائر،و ما هى سـيئات أى صـغائر بقرينه المقـابله،و جعـل تعـالى من الـذنوب ما لا يقبل المغفره،و منها ما يقبلها فالـذنوب على أى حال مختلفه،و ليس كل ذنب بموجب للخلود فى النار و الهلاک الأبدى.

على أن العقل يأبى عن نضد جميع الذنوب و نظمها فى سلك واحد فاللطم غير القتل و النظر المريب غير الزنا،و هكذا،و العقلاء من الإنسـان فى جميع الأـدوار لم يضـعوا كـل ذنب و خطإ موضع غيره،و يرون للمعاصـى المختلفه تبعـات و مؤاخـذات مختلفه فكيف يصـح إجراء الجميع مجرى واحـدا مع هذا الاختلاف الفاحش بينها،و إذا فرض اختلافها لم يصح إلا جعل العقاب الخالد و الهلاک الأبدى لبعضها كالشرک بالله،

کما یقول القرآن الکریم.و من المعلوم أن مخالفه نهی ما فی الأکل من الشجره لیس یحل محل الکفر بالله العظیم و ما یشابه ذلک فلا وجه لجعل عقابه و تبعته هو العذاب المؤبد (راجع بحث الأفعال السابق الذکر).

و خامسا:ما ذکروه من وقوع الإشکال،و حدوث التزاحم بین صفه الرحمه و صفه العدل ثم الاحتیال إلی رفعه بنزول المسیح و صعوده بالوجه الذی ذکروه.

و المتأمل فی هذا الکلام و ما یستتبعه من اللوازم یجد أنهم یرون أن الله تعالی و تقدس موجود خالق ینسب و ینتهی إلیه هذا العالم المخلوق بجمیع أجزائه غیر أنه إنما یفعل بإراده و علم فی نفسه،و إرادته فی تحققها تتوقف إلی ترجیح علمی کما أن الإنسان إنما یرید شیئا إذا رجحه بعلمه،فهناک مصالح و مفاسد یطبق الله أفعاله علیها فیفعلها، و ربما أخطأ فی التطبیق فندم (1)علی الفعل،و ربما فکر فی أمر و لم یهتد إلی طریق صلاحه،و ربما جهل أمرا،و بالجمله هو تعالی فی أوصافه و أفعاله کالإنسان إنما یفعل ما یفعل بالتفکر و التروی و یروم فیه تطبیق فعله علی المصلحه فهو محکوم بحکم المصالح و مقهور بعملها فیه من الخارج،و یمکن له الاهتداء إلی الصلاح و یمکن له الضلال و الاشتباه و الغفله فربما یعلم و ربما یجهل،و ربما یغلب و ربما یغلب علیه فقدرته محدوده کعلمه،و إذا جاز علیه هذا الذی ذکر جاز علیه سائر ما یطرأ الفاعل المتفکر المرید فی فعله من سرور و حزن و حمد و ندم و ابتهاج و انفعال و غیر ذلک،و الذی هذا شأنه یکون موجودا مادیا جسمانیا واقعا تحت ناموس الحرکه و التغیر و الاستکمال،و الذی هو کذلک ممکن مخلوق بل إنسان مصنوع،و لیس بالواجب تعالی،الخالق لکل شیء.

و أنت بالرجوع إلی کتب العهدین تجد صدق جمیع ما نسبناه إلیهم فی الواجب تعالی من جسمیته و اتصافه بجمیع أوصاف الجسمانیات و خاصه الإنسان.

و القرآن فی جمیع هذه المعانی المذکوره ینزه الله تعالی عن هذه الأوهام الخرافیه، کما یقول تعالی: «سُبْحانَ اللّهِ عَمّا یَصِفُونَ» :الصافات-159،و البراهین العقلیه القاطعه قائمه علی أنه تعالی ذات مستجمع لجمیع صفات الکمال فله الوجود من غیر شائبه عدم،

1- 1) فی الإصحاح السادس من سفر التکوین من التوراه:و کره الله خلقه ولد آدم علی الأرض (التوراه العربیه مطبوعه سنه 1811 المیلادیه).

و القدره المطلقه من غير عجز،و العلم المطلق من غير طرو جهل،و الحيوه المطلقه من غير إمكان موت و فناء،و إذا كان كذلك لم يجز عليه تغير حال فی وجوده أو علمه أو قدرته أو حيوته.

و إذا كان كذلك لم يكن جسما و لا- جسمانيا لأن الأجسام و الجسمانيات محاط التغيرات و التحولات،و محال الإمكانات و الافتقارات و الاحتياجات،و إذا لم يكن جسما و لا جسمانيا لم يطرأ عليه الحالات المختلفه و الطوارى المتنوعه:من غفله و سهو و غلط و ندم و تحير و تأثر و انفعال و هوان و صغر و مغلوبيه و نحوها،و قد استوفينا البحث البرهانی المتعلق بهذه المعانی فی هذا الكتاب فی موارد يناسبها،يجدها المراجع إذا راجع.

و على الناقد المتبصر و المتأمل المتدبر أن يقايس بين القولين:ما يقول به القرآن الكريم فی إله العالم فيثبت له كل صفه كمال،و ينزهه عن كل صفه نقص،و بالأخره يعده أكبر و أعظم من أن يحكم فيه أفهامنا بما صحبته من عالم الحد و التقدير،و بين ما يثبته العهدان فی البارى تعالى بما لا يوجد إلا فی أساطير يونان،و خرافات هند القديم و الصين،و أمور كان الإنسان الأولى يتوهمها فيتأثر مما قدمه إليه وهمه.

و سادسا:قولهم إن الله أرسل ابنه المسيح و أمره أن يحل رحما من الأرحام ليتولد إنسانا و هو إله ،و هذا هو القول غير المعقول الذی انتهض لبيان بطلانه القرآن الكريم على ما أوضحناه فی البيان السابق فلا نعيد.

و من المعلوم أن العقل أيضا لا يساعد عليه فإنك إذا تأملت فيما يجب من الصفات أن يقال باتصاف الواجب تعالى بها كالثبات السرمدی،و عدم التغير،و عدم تحدد الوجود،و الإحاطه بكل شیء،و التنزه عن الزمان و المكان و ما يتبعهما،و تأملت فی تكون إنسان من حين كونه نطفه فجنينا فی رحم سواء اعتبرت فی معناه تفسير الملكانيين لهذه الكلمه أو تفسير النسطوريين،أو تفسير اليعقوبيين أو غيرهم إذ لا- نسبه بين ما له الجسميه و جميع أوصاف الجسميه و آثارها و بين ما ليس فيه جسميه و لا شیء مما يتصف به من زمان أو مكان أو حركه أو غير ذلك فكيف يمكن تعقل الاتحاد بينهما بوجه.

و عدم انطباق القول المذکور علی القضایا الضروریه العقلیه هو السر فیما یذکره بولس و غیره من رؤسائهم القدیسین من تقبیح الفلسفه و الإزراء بالأحکام العقلیه،یقول بولس:«قد کتب لأهلکن حکمه الحکماء و لأخالفن فهم الفقهاء أین الحکیم أین الکاتب أین مستفحص هذا الدهر بتعمق؟أ و لیس قد حمق الله حکمه هذا العالم-إلی أن قال-:و إذ الیهود یسألون آیه و الیونانیون یطلبون حکمه نکرز (۱)نحن بالمسیح مصلوب» رساله بولس-الإصحاح الأول،و نظائر هذه الکلمات کثیره فی کلامه و کلام غیره و لیست إلا لسیاسه النشر و الإذاعه و التبلیغ و العظه،یوقن بذلک من أرعی نظره فی هذه الرسائل و الکتب و تعمق فی طریق تکلیمها الناس و إلقاء بیاناتها إلیهم.

و من ما مر یظهر ما فی قولهم:إنه تعالی معصوم من الذنوب و الخطایا فإن الإله الذی صوروه غیر مصون عن الخطإ أصلا بمعنی الغلط فی الإدراک و الغلط فی الفعل من غیر أن ینتهی إلی مخالفه من یجب موافقته.

و أما الذنب و المعصیه بمعنی التمرد فیما یجب فیه الطاعه و الانقیاد فهو غیر متصور فی حقه تعالی فالعصمه أیضا غیر متصوره فی حقه سبحانه.

و سابعا:قولهم:إنه بعد أن صار إنسانا عاشر الناس معاشره الإنسان للإنسان حق تسخر لأعدائه فیه تجویز اتصاف الواجب بحقیقه من حقائق الممکنات حتی یکون إلها و إنسانا فی عرض واحد،فکان من الجائز أن یصیر الواجب شیئا من مخلوقاته أی یتصف بحقیقه کل نوع من هذه الأنواع الخارجیه،فتاره یکون إنسانا من الأناسی، و تاره فرسا،و تاره طائرا،و تاره حشره،و تاره غیر ذلک،و تاره یکون أزید من نوع واحد من الأنواع کالإنسان و الفرس و الحشره معا.

و هکذا یجوز أن یصدر عنه أی فعل فرض من أفعال الموجودات لجواز أن یصیر هو ذلک النوع فیفعل فعله المختص به،و کذا یجوز أن یصدر عنه أفعال متقابله معا کالعدل و الظلم،و أن یتصف بصفات متقابله کالعلم و الجهل،و القدره و العجز،و الحیاه و الموت و الغنی و الفقر،تعالی الملک الحق،و هذا غیر المحذور المتقدم فی الأمر السادس.

۱- ۱) کرز کرزا،وعظ و نادی.

و ثامنـا:قولهم:إنه تحمـل الصـلب و اللعن أيضـا لأـن المصـلوب ملعون ،مـا ذا يريـدون بقولهم:إنه تحمل اللعن؟و ما ذا يراد بهـذا اللعن؟أ هـو هـذا اللعن الـذى يعرفه العرف و اللغه و هو الإبعـاد من الرحمه و الكرامه أو غير ذلـك؟فـإن كـان هو الـذى نعرفه، و تعرفه اللغه فما معنى إبعاده تعالى نفسه من الرحمه أو إبعاد غيره إياه من الرحمه؟فهل الرحمه إلا الفيض الوجودى و موهبه النعمه و الاختصـاص بمزايـا الوجود فيرجع هـذا الإبعـاد و اللعن بحسب المعنى إلى الفقر فى المـال أو الجاه أو نحو ذلك فى الـدنيا أو الآخره أو كلتيهما،و حينئـذ فما معنى لحوق اللعن بالله تعالى و تقـدس بأى وجه تصورروه؟مع أنه الغنى بالذات الذى هو يسد باب الفقر عن كل شىء.

و التعليم القرآنى على خلاف هذا التعليم العجيب بتمام معنى الكلمه،قال تعالى:

«يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ إِلَى اللّٰهِ وَ اللّٰهُ هُوَ الْغَنِيُّ» :الفـاطر-١۵،و القرآن يسـميه تعالى بأسـماء و يصـفه بصفات يستحيل معها عروض أى فقر و فاقه و حاجه و نقيصه و فقد و عدم و سوء و قبح و ذل و هوان إلى ساحه قدسه و كبريائه.

فـإن قيـل:إن اتصـافه بـالهوان،و حمله اللعن بواسـطه اتحـاده بالإنسـان،و إلا فهو تعالى فى نفسه و حيال ذاته أجل من أن يعرضـه ذلك.

قيـل لهم:هـل يوجب هـذا الاتحـاد حمله اللعن و اتصـافه بهـذه الأـمور الشـاقه حقيقه و من غير مجـاز أو لاـ؟فـإن كـان الأول لزم المحـذور الـذى ذكرنـاه،و إن كـان الثـانى عـاد الإشـكال،أعنى أن تولـد المسـيح لـم يـوجب انحلاـل إشـكال تزاحـم الرحمه و العـدل،فإن تحمل غيره تعالى للمصائب و أقسام العـذاب و اللعن لا يتم أمر الفـديه أى صـيروره الله فـديه عن أفراد الإنسان،و هو ظاهر.

و تاسـعا:قولهم:إن ذلـك كفـاره لخطايـا المؤمنين بعيسـى بـل لخطايـا كل العالم، يـدل ذلك على أنهم لم يحصـلوا حقيقه معنى الذنوب و الخطايا و كيفيه اسـتتباعها للعقاب الأخروى و كيف يتحقق هذا العقاب،و لم يعرفوا حقيقه الارتباط بين هذه الذنوب و الخطايا و بين التشريع،و ما هو موقف التشريع من ذلك؟على ما يتكفله البيان القرآنى و تعليمه.

فقد بينا فى المباحث السابقه فى هذا الكتاب و من جملتها ما فى تفسير قوله تعالى:

«إِنَّ اللّهَ لاٰ یَسْتَحْیِی أَنْ یَضْرِبَ مَثَلاً مٰا» :البقره-۲۶،و فی ذیل قوله تعالی: «کٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً :البقره-۲۱۳،أن الأحکام و القوانین التی یقع فیها المخالفه و التمرد ثم الذنب و الخطیئه إنما هی أمور وضعیه اعتباریه أرید بوضعها و اعتبارها أن یحفظ مصالح المجتمع الإنسانی بالعمل بها و الرقوب لها،و أن العقاب المترتب علی المعصیه و المخالفه إنما هو تبعه سوء اعتبروه و وضعوه لیکون ذلک صارفا للإنسان المکلف عن اقتراف المعصیه و التمرد عن الطاعه،هذا ما عند العقلاء البانین للمجتمع الإنسانی.

لکن التعلیم القرآنی یعطی فی هذا المعنی ما هو أرقی من ذلک و أرق و یؤیده البحث العقلی علی ما مر و هو أن الإنسان بانقیاده للشرع المنصوب له من جانب الله و عدم انقیاده له تتهیأ فی نفسه حقائق من الصفات الباطنه الحمیده الفاضله أو الرذیله الخسیسه الخبیثه،و هذه هی التی تهیئ للإنسان نعمه أخرویه أو نقمه أخرویه اللتین ممثلهما الجنه و النار و حقیقتهما القرب و البعد من الله فالحسنات أو الخطایا تتکی و تنتهی إلی أمور حقیقیه لها نظام حقیقی غیر اعتباری.

و من البین أیضا أن التشریع الإلهی إنما هو تتمه للتکمیل الإلهی فی الخلقه،و إنهاء الهدایه التکوینیه إلی غایتها و هدفها من الخلقه،و بعباره أخری،شأنه تعالی إیصال کل نوع إلی کمال وجوده و هدف ذاته و من کمال وجود الإنسان النظام النوعی الصالح فی الدنیا،و الحیوه الناعمه السعیده فی الآخره،و الطریق إلی ذلک الدین الذی یتکفل قوانین صالحه لإصلاح الاجتماع و جهات من التقرب باسم العبادات یعمل بها الإنسان فینتظم بذلک معاشه و یتهیأ فی نفسه و یصلح فی ذاته و عمله للکرامه الإلهیه فی الدار الآخره، کل ذلک من جهه النور المجعول فی قلبه و الطهاره الحاصله فی نفسه هذا حق الأمر.

فللإنسان قرب و بعد من الله سبحانه هما الملاکان فی سعادته و شقاوته الدائمتین و لصلاح اجتماعه المدنی فی الدنیا،و الدین هو العامل الوحید فی إیجاد هذا القرب و البعد، و جمیع ذلک أمور حقیقیه غیر مبتنیه علی اللغو و الجزاف.

و إذا فرضنا أن اقتراف معصیه واحده کالأکل من الشجره المنهیه من آدم أوجب له الهلاک الدائم و لا له فحسب بل و لجمیع ذریته ثم لم یکن هناک ما یعالج به الداء و یفرج به الهم إلا فداء المسیح فما فائده تشریع الدین قبل المسیح؟و ما فائده تشریعه معه؟و ما فائده تشریعه بعده؟!.

و ذلـک أنه لمـا فرض أن الهلاـک الـدائم و العقاب الأخروی محتوم من جهه صـدور المعصـيه لا ينفع فی صـرفه عن الإنسان لا عمل و لا توبه إلا بنحو الفداء لم يكن معنی لتشريع الشرائع و إنزال الكتب و إرسال الرسل من عند الله سبحانه،و لم يزل الوعد و الوعيد و الإنذار و التبشير خاليه عن وجه الصحه فما ذا كاد يصلحه هذا السعی بعد وجوب العذاب و حتم الفساد.

و إذا فرض هنـاک من تكمـل بالعمـل بالشـرائع السـابقه(و كم من الأنبيـاء و الربـانيين من الأـمم السالفه كـذلک كالنبی المكرم إبراهيم و موسـی(ع)و غيرهمـا)و قـد قضوا و مـاتوا قبل إدراک زمان الفـداء فما ذا تری أ تری أنهم ختموا الحيوه علی الشـقاء أو السعاده؟و ما الذی استقبلهم به الموت و عالم الآخره؟استقبلهم بالعقاب و الهلاک أم بالثواب و الحيوه السعيده؟.

مع أن المسـيح يصـرح بـأنه إنمـا أرسـل لتخليص المـذنبين و المخطئين و أما الصـلحاء و الأخيار فلا حاجه لهم إلی ذلک؟ (۱)و بالجمله فلا يبقی لتشـريع الشرائع الإلهيه و جعل النواميس الدينيه قبل فداء المسيح غرض صحيح يصونه عن العبث و اللغويه،و لا لهـذا الفعـل العجيب من الله(تعـالی و تقـدس)-محمل حق إلا أن يقال،إنه تعالی كان يعلم أن لو لم يرفع محـذور خطيئه آدم لم ينفعه شـیء من هـذه التشـريعات قط،و إنما شـرع هذه الشـرائع علی سبيل الاحتياط برجاء أن سـيوفق يوما لرفع المحذور و يجنی ثمره تشريعه بعـد ذلـک،و يبلغ غـايته و يظفر بأمنيته إذ ذاک فشـرع ما شـرع بكتمان الأمر عن الأنبياء و الناس،و إخفاء أن هاهنا محـذورا لو لم يرتفع خابت مساعی الأنبياء و المؤمنين كافه،و ذهبت الشـرائع سـدی،و إظهار أن التشـريع و الـدعوه علی الجـد و الحقيقه.

فغر الناس و غر نفسه:أما غرور الناس فبإظهار أن العمل بالشـرائع يضـمن مغفرتهم و سـعادتهم،و أما غرور نفسه فلأن التشريع بعد رفع المحذور بالفداء يعود

۱- ۱) فتقمقم الفريسـيون و الكتبه علی تلاميـذه قائلين لما تأكلون و تشـربون مع العشارين و الخطاه أجابهم يسوع قائلا لا يحتاج الأصحاء إلی الطبيب لكن المرضی لم آت لأدعو الصديقين لكن الخطاه إلی التوبه إنجيل لوقا-الإصحاح الخامس.

لغوا لا- أثر له فی سعاده الناس کما أنه من غیر رفع المحذور کان لا أثر له فهذا،حال تشریع الدین قبل وصول أوان الفداء و تحققه!.

و أما فی زمان الفداء و بعده فالأمر فی صیروره التشریع و الدعوه الدینیه و الهدایه الإلهیه لغوا أوضح و أبین ،فما هی الفائده فی الإیمان بالمعارف الحقه و الإتیان بالأعمال الصالحه بعد ارتفاع محذور الخطیئه،و استیجاب نزول المغفره و الرحمه علی الناس مؤمنهم و کافرهم،برهم و فاجرهم،من غیر فرق بین أتقی الأتقیاء و أشقی الأشقیاء فی أنهما یشترکان فی الهلاک المؤبد مع بقاء الخطیئه،و فی الرحمه اللازمه مع ارتفاعها بالفداء و المفروض أنه لا ینفع أی عمل صالح فی رفعها لو لا الفداء.

فإن قیل:إن الفداء إنما ینفع فی حق من آمن بالمسیح فللدعوه ثمره کما یصرح به المسیح فی بشارته (۱).

قیل:مضافا إلی أنه مناقض لما تقدمت الإشاره إلیه من کلام یوحنا فی رسالته، أنه هدم لجمیع الأصول الماضیه إذ لا یبقی من الناس-آدم فمن دونه-فی حظیره النجاه و الخلاص إلا شرذمه منهم و هم المؤمنون بالمسیح و الروح بل واحده من طوائفهم المختلفه فی الأصول و أما غیرهم فهم باقون علی الهلاک الدائم،فلیت شعری إلی ما یئول أمر الأنبیاء المکرمین قبل المسیح و أمر المؤمنین من أممهم؟و بما ذا یتصف الدعوه التی جاءوا بها من کتاب و حکم،أ بالصدق أم بالکذب؟و الأناجیل تصدق التوراه و دعوتها، و لیس فیها دعوه إلی قصه الروح و الفداء!و هل هی تصدق ما هو صادق أو تصدق الکاذب.

فإن قیل:إن الکتب السماویه السابقه فیما نعلم تبشر بالمسیح،و هذه منهم دعوه إجمالیه إلی المسیح و إن لم تفصل القول فی کیفیه نزوله و فدائه فلم یزل الله یبشر أنبیاءه بظهور المسیح لیؤمنوا به و یطیبوا نفسا بما سیصنعه.

قیل:أولا:إن القول به قبل موسی تخرص علی الغیب،علی أن البشاره لو کانت

ص :۳۰۱

۱- ۱) «أقول لکم إن کل من اعترف لی قدام الناس فابن الإنسان یعترف به أیضا.قدام ملائکه الله، و من أنکرنی قدام الناس أنکره أیضا قدام ملائکه الله،و کل من یقول کلمه فی ابن الإنسان یغفر له و من یجدف علی روح القدس لا یغفر له»إنجیل لوقا-الإصحاح الثانی عشر.

فإنما هی بشاره بالخلاص و لیست بـدعوه إلی الإیمان و التـدین به.و ثانیا:إن ذلک لا یدفع محذور لغویه الدعوه فی فروع الدین من الأخلاق و الأفعال حتی من المسـیح نفسه، و الأناجیل مملوءه بـذلک.و ثالثا:إن محذور الخطیئه و انتقاض الغرض الإلهی باق علی حـاله فإن الله تعالی إنما خلقهم لیرحم جمیعهم و یبسط النعمه و السـعاده علی کافتهم و قـد آل أمره إلی عقابهم و الغضـب علیهم و إهلاکهم للأبد إلا شرذمه منهم.

فهـذه نبـذه من وجوه فساده عنـد العقل،و یؤیده و یجری علیه القرآن الکریم، قال تعالی: «الَّذِی أَعْطیٰ کُلَّ شَیْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدیٰ» :طه-۵۰،فبین أن کـل شـیء مهـدی إلی غـایته و ما یبتغیه بوجوده،و الهـدایه تعم التکوینیه و التشـریعیه فالسـنه الإلهیه جاریه علی بسط الهدایه،و منها هدایه الإنسان هدایه دینیه.

ثم قـال تعـالی و هو أول هـدایه دینیه ألقاهـا إلی آدم و من معه حین إهباطهم من الجنه: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهٰا جَمِیعاً فَإِمّٰا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُـدیً فَمَنْ تَبِعَ هُـدٰایَ فَلاٰ خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لاٰ هُمْ یَحْزَنُونَ وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَـذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا أُولٰئِکَ أَصْـحٰابُ النّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِـدُونَ» :البقره-۳۹،و مـا یشـتمل علیه بمنزله التلخیص لتفاصـیل الشـرائع إلی یوم القیامه ففیه تشـریع و وعـد و وعیـد علیه من غیر تردد و ارتیاب،و قد قال تعالی:

«الْحَقَّ أَقُولُ» :ـص-۸۴،و قال تعالی: «مٰا یُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَیَّ وَ مٰا أَنَا بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ» :ق-۲۹،فبین أنه لا یتردد فیما جزم به من الأمر و لا ینقض ما أنفـذه من الأمر فما یقضـیه،هو الـذی یمضـیه،و إنما یفعل ما قاله،فلا ینحرف فعله عن المجری الذی أراد علیه لا من جهه نفسه بأن یریـد شیئا ثم یتردد فی فعله،أو یریده ثم یبدو له فلا یفعله و لا جهه غیره بأن یرید شـیئا و یقطع به و یعزم علیه ثم یمنعه مـانع من العقل أو یبـدو إشـکال یعترض علیه فی طریق الفعل فکل ذلک من قهر القاهر،و غلبه المانع الخارجی قال تعالی: «وَ اللّٰهُ غٰالِبٌ عَلیٰ أَمْرِهِ» :یوسف-۲۱،و قال تعالی: «إِنَّ اللّٰهَ بٰالِغُ أَمْرِهِ» :الطلاق-۳،و قال تعالی حکایه عن موسی: «قٰالَ عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی فِی کِتٰابٍ لاٰ یَضِـلُّ رَبِّی وَ لاٰ یَنْسـیٰ» :طه-۵۲،و قـال تعـالی: «الْیَوْمَ تُجْزیٰ کُـلُّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَـبَتْ لاٰ ظُلْمَ الْیَوْمَ إِنَّ اللّٰهَ سَـرِیعُ الْحِسٰابِ :المؤمن-۱۷.

تدل هذه الآیات و ما یشابهها علی أنه تعالی إنما خلق الخلق و لم یغفل عن أمره، و لم یجهل شیئا مما سیظهر منه و لم یندم علی ما فعله ،ثم شرع لهم الشرائع تشریعا

جـديا فاصـلا من غير هزل و لا خوف و لا رجاء،ثم إنه يجزى كل ذى عمل بعمله،إن خيرا فخير و إن شـرا فشـر من غير أن يغلبه تعالى غالب،أو يحكم عليه حاكم من شريک أو فديه أو خله أو شفاعه من دون إذنه فكل ذلک ينافى ملكه المطلق لما سواه من خلقه.

و عاشـرا:مـا ذكروه من حـديث الفـداء و حقيقه الفـداء أن يلزم الإنسـان أو مـا يتعلق به من نفس أو مال أثر سـيئ من قتل أو فناء فيعوض بغيره أى شـىء كان ليصان بذلک من لحوق ذلک الأثر به كما يفدى الإنسان الأسير بنفس أو مال و كما تفدى الجرائم و الجنايات بالأموال و يسـمى البـدل فـديه و فداء،فالتفديه نوع معامله ينتزع بها حق صاحب الحق و سـلطنته عن المفدى عنه إلى الفداء فيستنقذ به المفدى عنه من أن يلحق به الشر.

و من هنـا يظهر أن الفـداء غير معقول فى مـا يتعلق بـالله سبحانه فـإن السـلطنه الإلـهيه-على خلاـف السـلطنه الوضـعيه الاعتبـاريه الإنسانيه-سـلطنه حقيقيه واقعيه غير جائزه التبديل مسـتحيله الصـرف،فالأشياء بأعيانها و آثارها موجوده قائمه بالله سبحانه و كيف يتصور تغيير الواقع عما هو عليه فليس إلا أمرا لا يمكن تعقله فضـلا عن أن يمكن وقوعه و هذا بخلاف الملک و السلطنه و الحق و أمثالها الدائره بيننا معاشـر أبناء الاجتماع فإنها و أمثالها أمور وضعيه اعتباريه زمامها بأيدينا،نحن المجتمعين نبطلها مره، و نبدلها أخرى على حسب تغير مصالحنا فى الحيوه و المعاش(راجع ما تقدم من البحث فى تفسير قوله تعالى: «مٰالِکِ يَوْمِ الدِّينِ :الحمد-۴،و قوله تعالى: «قُلِ اللّٰهُمَّ مٰالِکَ الْمُلْکِ Xالآيه X:آل عمران-۲۶.

و قـد نفى الله سـبحانه الفـديه بالخصوص فى قوله: «فَالْيَوْمَ لاٰ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَهٌ وَ لاٰ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوٰاكُمُ النّٰارُ» :الحديد-۱۵،و قـد تقـدم فيمـا مر أن من هـذا القبيـل قول المسيح فيما يحكيه الله تعالى عنه: «وَ إِذْ قٰالَ اللّٰهُ يٰا عِيسَـى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّٰاسِ اتَّخِذُونِى وَ أُمِّى إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّٰهِ قٰالَ سُبْحٰانَکَ مٰا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مٰا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ -Xإلى أن قالX- مٰا قُلْتُ لَهُمْ إِلاّٰ مٰا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ رَبِّى وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـهِيداً مٰا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّٰا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبٰادُکَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» :المائده-۱۱۸

فإن قوله: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ «إلخ»فی معنی أنه لم یکن لی شأن فیهم إلا ما أنت وظفته علی و عینته و هو تبلیغ الرساله و الشهاده علی الأعمال ما دمت فیهم،و أما هلاکهم و نجاتهم و عذابهم و مغفرتهم فإنما ذلک إلیک من غیر أن یرتبط بی شیء من ذلک أو یکون لی شأن فیه فأملک لهم شیئا منک أخرجهم به من عذابک أو تسلطک علیهم، و فی ذلک نفی الفداء إذ لو کان هناک فداء لم یصح تبریه من أعمالهم و إرجاع العذاب و المغفره معا إلی الله سبحانه بنفی ارتباطهما به أصلا.

و فی معنی هذه الآیات قوله تعالی: «وَ اتَّقُوا یَوْماً لاٰ تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئاً وَ لاٰ یُقْبَلُ مِنْهٰا شَفٰاعَهٌ وَ لاٰ یُؤْخَذُ مِنْهٰا عَدْلٌ وَ لاٰ هُمْ یُنْصَرُونَ» :البقره-۴۸ ،و کذا قوله تعالی: «یَوْمٌ لاٰ بَیْعٌ فِیهِ وَ لاٰ خُلَّهٌ وَ لاٰ شَفٰاعَهٌ» :البقره-۲۵۴،و قوله تعالی: «یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ مٰا لَکُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عٰاصِمٍ» :المؤمن-۳۳،فإن العدل فی الآیه الأولی و البیع فی الآیه الثانیه و العصمه من الله فی الآیه الثالثه مما ینطبق علیه الفداء فنفیها نفی الفداء.

نعم أثبت القرآن الشریف فی مورد المسیح الشفاعه بدل ما یثبتونه من الفداء و الفرق بینهما أن الشفاعه(کما تقدم البحث عنها فی قوله تعالی: «وَ اتَّقُوا یَوْماً لاٰ تَجْزِی»، :البقره-۴۸،نوع من ظهور قرب الشفیع و مکانته لدی المشفوع عنده من غیر أن یملک الشفیع منه شیئا أو یسلب عنه ملک أو سلطنه،أو یبطل حکمه الذی خالفه المجرم أو یبطل قانون المجازاه بل إنما هو نوع دعاء و استدعاء من الشفیع لتصرف المشفوع عنده و هو الرب ما یجوز له من التصرف فی ملکه،و هذا التصرف الجائز مع وجود الحق هو العفو الجائز للمولی مع کونه ذا حق أن یعذبه لمکان المعصیه و قانون العقوبه.

فالشفیع یحضه و یستدعی منه أن یعمل بالعفو و المغفره فی مورد استحقاق العذاب للمعصیه من غیر أن یسلب من المولی ملک أو سلطان بخلاف الفداء فإنه کما مر معامله یتبدل به سلطنه من شیء إلی شیء آخر هو الفداء و یخرج المفدی عنه عن سلطان القابل الآخذ للفداء.

و یدل علی هذا الذی ذکرناه قوله تعالی: «وَ لاٰ یَمْلِکُ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَهَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ یَعْلَمُونَ» :الزخرف-۸۶فإنه صریح فی وقوع الشفاعه من المستثنی،و المسیح(ع)ممن کانوا یدعونهم من دون الله،و قد نص القرآن بأن

الله علمه الکتاب و الحکمه،و بأنه من الشهداء یوم القیامه،قال تعالی: «وَ یُعَلِّمُهُ الْکِتٰابَ وَ الْحِکْمَةَ» :آل عمران-۴۸،و قال تعالی حکایه عنه: «وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً مٰا دُمْتُ فِیهِمْ» :المائده-۱۱۷،و قال تعالی: «وَ یَوْمَ الْقِیٰامَةِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً» :النساء-۱۵۹، فالآیات کما تری تدل علی کون المسیح(ع)من الشفعاء،و قد تقدم تفصیل القول فی هذا المعنی فی تفسیر قوله تعالی: «وَ اتَّقُوا یَوْماً لاٰ تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئاً XالآیهX:البقره-۴۸.

۶ من أین نشأ هذه الآراء؟

القرآن ینفی أن یکون المسیح(ع)هو الملقی لهذه الآراء و العقائد إلیهم و المروج لها فیما بینهم بل إنهم تعبدوا لرؤسائهم فی الدین و سلموا الأمر إلیهم و هم نقلوا إلیهم عقائد الماضین من الوثنیین کما قال تعالی: «وَ قٰالَتِ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابْنُ اللّٰهِ وَ قٰالَتِ النَّصٰاریٰ الْمَسِیحُ ابْنُ اللّٰهِ ذٰلِکَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ یُضٰاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قٰاتَلَهُمُ اللّٰهُ أَنّٰی یُؤْفَکُونَ اتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ وَ الْمَسِیحَ ابْنَ مَرْیَمَ وَ مٰا أُمِرُوا إِلاّٰ لِیَعْبُدُوا إِلٰهاً وٰاحِداً لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ سُبْحٰانَهُ عَمّٰا یُشْرِکُونَ» XالآیاتX: التوبه-۳۱.

و هؤلاء الکافرون الذین یشیر تعالی إلیهم بقوله: یُضٰاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ،لیسوا هم عرب الجاهلیه فی وثنیتهم حیث قالوا:إن الملائکه بنات الله فإن قولهم بأن لله ابنا أقدم تاریخا من تماسهم مع العرب و اختلاطهم بهم و خاصه قول الیهود بذلک مع أن ظاهر قوله: مِنْ قَبْلُ ،أنهم سابقون فیه علی الیهود و النصاری،علی أن اتخاذ الأصنام فی الجاهلیه مما نقل إلیهم من غیرهم و لم یکونوا بمبتکرین فی ذلک (۱).

۱- ۱) ذکروا أن أول من وضع الأصنام علی الکعبه و دعا الناس إلیها عمرو بن لحی و کان فی زمان سابور ذی الأکتاف ساد قومه بمکه و استولی علی سدانه البیت ثم سافر إلی مدینه البلقاء بأرض الشام فرأی قوما یعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أرباب اتخذناها علی شکل الهیاکل العلویه و الأشخاص البشریه نستنصر بها فننصر،و نستمطر بها فنمطر فطلب منهم صنما من أصنامهم فدفعوا إلیه هبل فرجع إلی مکه و وضعه علی الکعبه و دعا الناس إلی عبادتها،و کان معه إساف و نائله علی شکل زوجین فدعا الناس إلیهما و التقرب إلی الله بهما-ذکره فی الملل و النحل و غیره.و من عجیب الأمر أن القرآن یذکر أسماء من أصنام العرب فی قصه نوح و شکواه من قومه قال تعالی حکایه عنه:«و قالوا لا تذرن آلهتکم و لا تذرن ودا و لا سواعا و لا یغوث و یعوق و نسرا»نوح-۲۳.

على أن الوثنيه من الروم و يونـان و مصـر و سوريه و الهنـد كـانوا أقرب إلى أهـل الكتـاب القـاطنين بفلسـطين و حواليه،و انتقال العقائد و المزاعم الدينيه إليهم منهم أسهل،و الأسباب بذلك أوفق.

فليس المراد بالذين كفروا الذين ضاهاهم أهل الكتاب فى القول بالبنوه إلا قدماء وثنيه الهند و الصـين و وثنيه الغرب من الروم و يونان و شـمال إفريقا كما أن التاريـخ يحكى عنهم نظائر هذه المزاعم الموجوده فى أهل الكتاب من اليهود و النصارى من البنوه و الأبوه و التثليث و حديث الصلب و الفداء و غير ذلك،و هذا من الحقائق التاريخيه التى ينبه عليها القرآن الشريف.

و نظير الآيات السابقه فى الـدلاله على هـذه الحقيقه قوله تعالى: «قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعُوا أَهْوٰاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَـلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَوٰاءِ السَّبِيلِ» :المائده-٧٧،فإن الآيه تبين أن غلوهم فى الدين بغير الحق إنما طرأ عليهم بالتقليد و اتباع أهواء قوم ضالين من قبلهم.

و ليس المراد بهؤلاء القوم أحبارهم و رهبانهم،فإن الكلام مطلق غير مقيد و لم يقل:قوم منكم،و أضلوا كثيرا منكم،و ليس المراد بهم عرب الجـاهليه كمـا تقـدم، على أنه وصف هؤلاـء القوم بـأنهم أضـلوا كثيرا أى كـانوا أئمه ضـلال مقلـدين متبعين (بصـيغه المفعول فيهما)و لم يكن العرب يومئذ إلا شـرذمه مضطهدين أميين ليس عندهم من العلم و الحضاره و التقدم ما يتبعهم به و فيه غيرهم من الأمم كفارس و الروم و الهند و غيرهم.

فليس المراد بهؤلاء القوم المذكورين إلا وثنيه الصين و الهند و الغرب كما تقدم.

٧-ما هو الكتاب الذى ينتسب إليه أهل الكتاب و كيف هو؟

الروايه و إن عـدت المجوس من أهـل الكتـاب،و لاـزم ذلـك أن يكون لهم كتـاب خـاص أو ينتموا إلى واحـد من الكتب الـتى يـذكرها القرآن ككتـاب،نوح و صـحف إبراهيم،و توراه موسـى،و إنجيل عيسـى،و زبور داود،لكن القرآن لا يـذكر شأنهم، و لا يذكر كتابا لهم،و الذى عندهم من«أوستا»لا ذكر منه فيه،و ليس عندهم من سائر الكتب اسم.

و إنما يطلق القرآن«أهل الكتاب»فيما يطلق،و يريد بهم اليهود و النصارى لكان الكتاب الذى أنزله الله عليهم.

و الذى عند اليهود من الكتب المقدسه خمسه و ثلاثون كتابا منها توراه موسى مشتمله على خمسه أسفار (۱)،و منها كتب المؤرخين اثنا عشر كتابا (۲)،و منها كتاب أيوب،و منها زبور داود،و منها ثلاثه كتب لسليمان (۳)،و منها كتب النبوات سبعه عشر كتابا (۴).

و لم يذكر القرآن من بينها إلا توراه موسى و زبور داود(ع).

و الذى عند النصارى من مقدسات الكتب،الأناجيل الأربعه:و هى إنجيل متى،و إنجيل مرقس،و إنجيل لوقا،و إنجيل يوحنا،و منها كتاب أعمال الرسل، و منها عده من الرسائل (۵).،و منها رؤيا يوحنا.

و لم يذكر القرآن شيئا من هذه الكتب المقدسه المختصه بالنصارى إلا أنه ذكر أن هناك كتابا سماويا أنزله الله على عيسى بن مريم يسمى بالإنجيل ،و هو إنجيل واحد ليس بالأناجيل،و النصارى و إن كانوا لا يعرفونه و لا يعترفون به إلا أن فى كلمات

۱- ۱) و هى سفر الخليقه،و سفر الخروج،و سفر الأحبار،و سفر العدد،و سفر الاستثناء.

۲- ۲) و هى كتاب يوشع،و كتاب قضاه بنى إسرائيل،و كتاب راعوث،و السفر الأول من أسفار صموئيل،و الثانى منها،و السفر الأول من أسفار الملوك،و الثانى منها.و السفر الأول من أخبار الأيام، و السفر الثانى منها،و السفر الأول لعزرا،و الثانى له،و سفر إستير.

۳- ۳) و هى كتاب الأمثال،و كتاب تسبيح التسابيح

۴- ۴) و هى كتاب نبوه أشعيا،و كتاب نبوه أرميا،و مراثى أرميا،و كتاب حزقيال،و كتاب نبوه دانيال،و كتاب نبوه هوشع،و كتاب نبوه يوييل،و كتاب نبوه عاموص،و كتاب نبوه عويذيا، و كتاب نبوه يونان،و كتاب نبوه ميخا،و كتاب نبوه ناحوم،و كتاب نبوه حيقوق،و كتاب نبوه صفونيا،و كتاب نبوه حجى،و كتاب نبوه زكريا،و كتاب نبوه ملاخيا.

۵- ۵) و هى أربع عشره رساله لبولس،و رساله ليعقوب،و رسالتان لبطرس،و ثلاث وسائل ليوحنا،و رساله ليهوذا

رؤسائهم لقیطات تتضمن الاعتراف بأنه کان للمسیح کتاب اسمه إنجیل (۱).

و القرآن مع ذلک لا یخلو من إشعار بأن بعضا من التوراه الحقه موجود فیما عند الیهود،و کذا بعض من الإنجیل الحق موجود فی أیدی النصاری،قال تعالی: «وَ کَیْفَ یُحَکِّمُونَکَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراهُ فِیها حُکْمُ اللّهِ» :المائده-۴۳،و قال تعالی: «وَ مِنَ الَّذِینَ قالُوا إِنّا نَصاری أَخَذْنا مِیثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمّا ذُکِّرُوا بِهِ» :المائده-۱۴،و الدلاله ظاهره.

بحث تاریخی

۱-قصه التوراه الحاضره:

بنو إسرائیل هم الأسباط من آل یعقوب کانوا یعیشون أولا عیشه القبائل البدویین ثم أشخصهم الفراعنه إلی مصر و کانوا یعامل معهم معامله الأسراء المملوکین حتی نجاهم الله بموسی من فرعون و عمله.

و کانوا فی زمن موسی یسیرون مسیر الحیوه بالإمام و هو موسی و بعده یوشع (ع)ثم کانوا برهه من الزمان یدبر أمرهم القضاه مثل إیهود و جدعون و غیرهما.

و بعد ذلک یشرع فیهم عصر الملک و أول الملوک فیهم شاءول و هو الذی یسمیه القرآن الشریف بطالوت ثم داود ثم سلیمان.

ثم انقسمت المملکه و انشعبت القدره و مع ذلک ملک فیهم ملوک کثیرون کرحبعام و أبیام و یربعام و یهوشافاط و یهورام و غیرهم بضعه و ثلاثون ملکا.

و لم تزل تضعف القدره بعد الانقسام حتی تغلبت علیهم ملوک بابل و تصرفوا فی أورشلیم و هو بیت المقدس،و ذلک فی حدود سنه ستمائه قبل المسیح،و ملک بابل یومئذ بخت نصر(نبوکد نصر)ثم تمردت الیهود عن طاعته فأرسل إلیهم عساکره

۱- ۱) فی رساله بولس إلی أهل غلاطیه-الإصحاح الأول:«إنی أتعجب أنکم تنتقلون هکذا سریعا عن الذی دعاکم بنعمه المسیح إلی إنجیل آخر لیس هو آخر غیر أنه یوجد قوم یزعجونکم و یریدون أن یحولوه أی یغیروه. و قد استشهد النجار فی قصص الانبیاء بما مر و بموارد من کلمات بولس فی رسائله علی أنه کان هناک إنخمل غیر الاربعهٔ یسمی إنجیل المسیح.

فحاصروهم ثم فتحوا البلده،و نهبوا خزائن الملک،و خزائن الهيكل(المسجد الأقصى) و جمعوا من أغنيائهم و أقويائهم و صناعهم ما يقرب من عشره آلاف نفسا و ساروا بهم إلى بابل،و ما أبقوا فى المحل إلا الضعفاء و الصعاليک،و نصب بخت نصر«صديقا» و هو آخر ملوک بنى إسرائيل ملكا عليهم،و عليه الطاعه لبخت نصر.

و كان الأمر على ذلک قريبا من عشر سنين حتى وجد صدقيا بعض القوه و الشده، و اتصل بعض الاتصال بواحد من فراعنه مصر فاستكبر و تمرد عن طاعه بخت نصر.

فأغضب ذلک بخت نصر غضبا شديدا فساق إليهم الجيوش و حاصر بلادهم فتحصنوا عنه بالحصون،و تمادى بهم التحصن قريبا من سنه و نصف حتى ظهر فيهم القحط و الوباء.

و أصر بخت نصر على المحاصره حتى فتح الحصون،و ذلک فى سنه خمسمائه و ست و ثمانين قبل المسيح،و قتل نفوسهم،و خرب ديارهم و خربوا بيت الله،و أفنوا كل آيه و علامه دينيه،و بدلوا هيكلهم تلا من تراب ،و فقدت عند ذلک التوراه و التابوت الذى كانت تجعل فيه.

و بقى الأمر على هذا الحال خمسين سنه تقريبا و هم قاطنون ببابل و ليس من كتابهم عين و لا أثر،و لا من مسجدهم و ديارهم إلا تلال و رياع.

ثم لما جلس كورش من ملوک فارس على سرير الملک،و كان من أمره مع البابليين ما كان،و فتح بابل و دخله أطلق أسراء بابل من بنى إسرائيل،و كان عزرا المعروف من المقربين عنده فأمره عليهم،و أجاز له أن يكتب لهم كتابهم التوراه،و يبنى لهم الهيكل،و يعيدهم إلى سيرتهم الأولى و كان رجوع عزرا بهم إلى بيت المقدس سنه أربعمائه و سبعه و خمسين قبل المسيح،و بعد ذلک جمع عزرا كتب العهد العتيق و صححها،و هى التوراه الدائره اليوم (۱).

و أنت ترى بعد التدبر فى القصه أن سنه التوراه الدائره اليوم مقطوعه غير

۱- ۱) مأخوذه من قاموس الكتاب تأليف مستر هاكس الأمريكائى الهمدانى و مآخذ أخرى من التواريخ.

متصله بموسی(ع)إلا بواحد(و هو عزرا)،لا نعرفه أولا و لا نعرف کیفیه اطلاعه و تعمقه ثانیا،و لا نعرف مقدار أمانته ثالثا،و لا نعرف من أین أخذ ما جمعه من أسفار التوراه رابعا،و لا ندری بالاستناد إلی أی مستند صحح الأغلاط الواقعه أو الدائره خامسا.

و قد أعقبت هذه الحادثه المشئومه أثرا مشئوما آخر و هو إنکار عده من باحثی المؤرخین من الغربیین وجود موسی و ما یتبعه،و قولهم:إنه شخص خیالی کما قیل نظیره فی المسیح عیسی بن مریم(ع)،لکن ذلک لا یسع لمسلم فإن القرآن الشریف یصرح بوجوده(ع)و ینص علیه.

٢-قصه المسیح و الإنجیل:

اشاره

الیهود مهتمون بتاریخ قومیتهم،و ضبط الحوادث الظاهره فی الأعصار التی مرت بهم،و مع ذلک فإنک لو تتبعت کتبهم و مسفوراتهم لم تعثر فیها علی ذکر المسیح عیسی بن مریم(ع):لا علی کیفیه ولادته،و لا علی ظهوره و دعوته و لا علی سیرته و الآیات التی أظهرها الله علی یدیه،و لا علی خاتمه حیوته من موت أو قتل أو صلب أو غیر ذلک،فما هو السبب فی ذلک؟و ما هو الذی أوجب خفاء أمره علیهم أو إخفاءهم أمره.

و القرآن یذکر عنهم أنهم قذفوا مریم و رموها بالبهتان فی ولاده عیسی، و أنهم ادعوا قتل عیسی،قال تعالی: «وَ بِکُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلیٰ مَرْیَمَ بُهْتٰاناً عَظِیماً وَ قَوْلِهِمْ إِنّٰا قَتَلْنَا الْمَسِیحَ عِیسَی ابْنَ مَرْیَمَ رَسُولَ اللّٰهِ وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰکِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِینَ اخْتَلَفُوا فِیهِ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبٰاعَ الظَّنِّ وَ مٰا قَتَلُوهُ یَقِیناً» :النساء-١٥٧.

فهل کانت دعواهم تلک مستنده إلی حدیث دائر بینهم کانوا یذکرونه بین قصصهم القومیه من غیر أن یکون مودعا فی کتاب؟و عند کل أمه أحادیث دائره من واقعیات و أساطیر لا اعتبار بها ما لم تنته إلی مآخذ صحیحه قویمه.

أو أنهم سمعوا من النصاری الذکر المکرر من المسیح و ولادته و ظهوره و دعوته أخذوا ذلک من أفواههم و باهتوا مریم و ادعوا قتل المسیح؟لا طریق إلی استبانه شیء

من ذلك غير أن القرآن-كما يظهر بالتدبر فى الآيه السابقه-لا ينسب إليهم صريحا إلا دعوى القتل دون الصلب،و يذكر أنهم على ريب من الأمر،و أن هناك اختلافا! (۱).

[الأناجيل الأربعه]

و أما حقيقه ما عند النصارى من قصه المسيح و أمر الإنجيل و البشاره فهى أن قصته(ع)و ما يتعلق بها تنتهى عندهم إلى الكتب المقدسه عندهم و هى الأناجيل الأربعه التى هى أناجيل متى و مرقس و لوقا و يوحنا،و كتاب أعمال الرسل للوقا، و عده رسائل لبولس و بطرس و يعقوب و يوحنا و يهوذا،و اعتبار الجميع ينتهى إلى اعتبار الأناجيل فلنشتغل بها:

أما إنجيل متى فهو أقدم الأناجيل فى تصنيفه و انتشاره ذكر بعضهم أنه صنف سنه ۳۸ الميلاديه،و ذكر آخرون أنه كتب ما بين سنه ۵۰ إلى سنه ۶۰ (۲).فهو مؤلف بعد المسيح.

و المحققون من قدمائهم و متأخريهم على أنه كان أصله مكتوبا بالعبرانيه ثم ترجم إلى اليونانيه و غيرها أما النسخه الأصليه العبرانيه فمفقوده،و أما الترجمه فلا يدرى حالها،و لا يعرف مترجمها (۳).

و أما إنجيل مرقس:فمرقس هذا كان تلميذا لبطرس،و لم يكن من الحواريين و ربما ذكروا أنه إنما كتب إنجيله بإشاره بطرس و أمره،و كان لا يرى إلهيه المسيح (۴)، و لذلك ذكر بعضهم أنه إنما كتب إنجيله للعشائر و أهل القرى فعرف المسيح تعريف رسول إلهى مبلغ لشرائع الله (۵)،و كيف كان فقد كتب إنجيله سنه ۶۱ ميلاديه.

و أما إنجيل لوقا فلوقا هذا لم يكن حواريا و لا رأى المسيح و إنما تلقن النصرانيه من بولس،و بولس كان يهوديا متعصبا على النصرانيه يؤذى المؤمنين بالمسيح و يقلب

۱- ۱) قاموس الكتاب المقدس للمستر هاكس ماده-متى

۲- ۲) قاموس الكتاب المقدس للمستر هاكس ماده-متى

۳- ۳) كتاب ميزان الحق،و اعترف به على تردد فى قاموس الكتاب المقدس.

۴- ۴) نقل ذلك عبد الوهاب النجار فى قصص الأنبياء عن كتاب مروج الأخبار فى تراجم الأخيار لبطرس قرماج.

۵- ۵) ذكره فى قاموس الكتاب المقدس،يقول فيه:إن نص تواتر السلف على أن مرقس كتب إنجيله بروميه،و انتشر بعد وفاه بطرس و بولس لكنه ليس له كثير اعتبار لأن ظاهر إنجيله أنه كتبه لأهل القبائل و القرويين لا لأهل البلاد و خاصه الروميه،فتدبر فى كلامه!

الأمور عليهم،ثم اتفق مفاجأه أن ادعى أنه صرع و فى حال الصرع لمسه المسيح و لامه و زجره عن الإساءه إلى متبعيه و أنه آمن بالمسيح و أرسله المسيح ليبشر بإنجيله.

و بولس هذا هو الذى شيد أركان النصرانيه الحاضره على ما هى عليها (1)فبنى التعليم على أن الإيمان بالمسيح كاف فى النجاه من دون عمل،و أباح لهم أكل الميته و لحم الخنزير و نهى عن الختنه و كثيرا مما فى التوراه (2)مع أن الإنجيل لم يأت إلا مصدقا لما بين يديه من التوراه،و لم يحلل إلا أشياء معدوده،و بالجمله إنما جاء عيسى ليقوم شريعه التوراه و يرد إليها المنحرفين و الفاسقين لا ليبطل العمل و يقصر السعاده على الإيمان الخالى.

و قد كتب لوقا إنجيله بعد إنجيل مرقس.و ذلك بعد موت بطرس و بولس،و قد صرح جمع بأن إنجيله ليس كتابا إلهاميا كسائر الأناجيل (3)كما يدل عليه ما وقع فى مبتدإ إنجيله.

و أما إنجيل يوحنا فقد ذكر كثير من النصارى أن يوحنا هذا هو يوحنا بن زبدى الصياد أحد التلاميذ الاثنى عشر(الحواريين)الذى كان يحبه المسيح حبا شديدا (4).

و ذكروا أن«شيرينطوس»و«أبيسون»و جماعتهما لما كانوا يرون أن المسيح ليس إلا إنسانا مخلوقا لا يسبق وجوده وجود أمه اجتمعت أساقفه آسيا و غيرهم فى

۱- ۱) راجع ماده بولس من قاموس الكتاب المقدس.

۲- ۲) راجع كتاب أعمال الرسل و رسائل بولس.

۳- ۳) قال فى أول إنجيل لوقا:«لأجل أن كثيرين راموا كتب قصص الأمور التى نحن بها عارفون كما عهد إلينا أولئك الأولون الذين كانوا من قبل معاينين و كانوا خداما للكلمه رأيت أنا أيضا إذ كنت تابعا لكل شيء بتحقيق أن أكتب إليك أيها العزيز تأويلا»،و دلالته على كون الكتاب نظريا غير إلهامى ظاهره و قد نقل ذلك أيضا عن مستر كدل فى رساله الإلهام و صرح جيروم أن بعض القدماء كانوا يشكون فى البابين الأولين من إنجيل لوقا و أنهما ما كانا فى نسخه فرقه مارسيونى،و جزم إكهارن فى كتابه ص ۹۵ أن من ف ۴۳ إلى ۴۷ من الباب ۲۲ من إنجيل لوقا إلحاقيه،و ذكر إكهارن أيضا فى ص ۶۱ من كتابه:قد اختلط الكذب الروائى ببيان المعجزات التى نقلها لوقا و الكاتب ضمه على طريق المبالغه الشاعريه لكن تمييز الصدق عن الكذب فى هذا الزمان عسير،و قول«كلي مى شيس أن متى و مرقس يتخالفان فى التحرير و إذا اتفقا ترجح قولهما على قول لوقا»نقل عن قصص الأنبياء للنجار-ص ۴۷۷.

۴- ۴) راجع قاموس الكتاب المقدس ماده يوحنا.

سنه ۹۶ میلادیه عند یوحنا و التمسوا منه أن یکتب ما لم یکتبه الآخرون فی أناجیلهم، و یبین بنوع خصوصی لاهوت المسیح فلم یسعه أن ینکر إجابه طلبهم (۱).

و قد اختلفت کلماتهم فی السنه التی ألف فیها هذا الإنجیل فمن قائل إنها سنه ۶۵، و قائل إنها سنه ۹۶،و قائل إنها سنه ۹۸.

و قال جمع منهم إنه لیس تألیف یوحنا التلمیذ:فبعضهم علی أنه تألیف طالب من طلبه المدرسه الإسکندریه (۲)،و بعضهم علی أن هذا الإنجیل کله و کذا رسائل یوحنا لیست من تصنیفه بل إنما صنفه بعضهم فی ابتداء القرن الثانی،و نسبه إلی یوحنا لیعتبره الناس (۳)،و بعضهم علی أن إنجیل یوحنا کان فی الأصل عشرین بابا فألحقت کنیسه«أفاس»الباب الحادی و العشرین بعد موت یوحنا (۴)،فهذه حال هذه الأناجیل الأربعه،و إذا أخذنا بالقدر المتیقن من هذه الطرق انتهت إلی سبعه رجال هم:متی،مرقس،لوقا،یوحنا،بطرس،بولس،یهوذا،ینتهی رکونهم کله إلی هذه الأناجیل الأربعه و ینتهی الأربعه إلی واحد هو أقدمها و أسبقها و هو إنجیل متی، و قد مر أنه ترجمه مفقود الأصل لا یدری من الذی ترجمه؟و کیف کان أصله و علی ما ذا کان یبنی تعلیمه،أ برساله المسیح أم بألوهیته.

و هذا الإنجیل الموجود یترجم أنه ظهر فی بنی إسرائیل رجل یدعی عیسی بن یوسف النجار و أقام الدعوه إلی الله،و کان یدعی أنه ابن الله مولود من غیر أب بشری و أن أباه أرسله لیفدی به الناس عن ذنوبهم بالصلب و القتل،و أنه أحیا المیت،و أبرأ الأکمه و الأبرص،و شفی المجانین بإخراج الجن من أبدانهم،و أنه کان له اثنا عشر تلمیذا:أحدهم متی صاحب الإنجیل بارک لهم و أرسلهم للدعوه و تبلیغ الدین المسیحی «إلخ».

۱- ۱) نقله فی قصص الأنبیاء عن جرجس زوین الفتوحی اللبنانی فی کتابه.

۲- ۲) نقل ذلک من کتاب«کاتلک هرالد»فی المجلد السابع المطبوع سنه ۱۸۴۴ ص ۲۰۵،نقله عن استادلن(عن القصص)،و أشار إلیه فی القاموس فی ماده یوحنا.

۳- ۳) قال ذلک«برطشنیدر»علی ما نقل عن کتاب الفاروق المجلد الأول(عن القصص).

۴- ۴) المدرک السابق.

فهذا ملخص ما تنتهى إليه الدعوه المسيحيه على انبساطها على شرق الأرض و غربها،و هو لا يزيد على خبر واحد مجهول الاسم و الرسم،مبهم العين و الوصف.

و هذا الوهن العجيب فى مبدإ القصه هو الذى أوجب لبعض أحرار الباحثين من أروبا أن ادعى أن المسيح عيسى بن مريم شخص خيالى صوره بعض النزعات الدينيه على حكومات الوقت أو لها و تأيد ذلك بموضوع خرافى آخر يشبهه كل الشبه فى جميع شئون القصه،و هو موضوع«كرشنا»الذى تدعى وثنيه الهند القديمه أنه ابن الله نزل عن لاهوته،و فدى الناس بنفسه صلبا ليخلصهم من الأوزار و الخطايا كما يدعى فى عيسى المسيح حذو النعل بالنعل(كما سيجىء ذكره).

و أوجب لآخرين من منتقدى الباحثين أن يذهبوا إلى أن هناك شخصين مسميين بالمسيح:المسيح غير المصلوب،و المسيح المصلوب،و بينهما من الزمان ما يزيد على خمسه قرون.

و أن التاريخ الميلاد الذى سنتنا هذه سنه ألف و تسعمائه و سته و خمسين منه لا ينطبق على واحد منهما بل المسيح الأول غير المصلوب يتقدم عليه بما يزيد على مائتين و خمسين سنه و قد عاش نحوا من ستين سنه،و المسيح الثانى المصلوب يتأخر عنه بما يزيد على مائتين و تسعين سنه و قد عاش نحو من ثلاث و ثلاثين سنه (۱).

على أن عدم انطباق التاريخ الميلاد على ميلاد المسيح فى الجمله مما لم يسع للنصارى إنكاره (۲)و هو سكته تاريخيه.

على أن هاهنا أمورا مريبه موهمه أخرى فقد ذكروا أنه كتب فى القرنين الأولين من الميلاد أناجيل كثيره أخرى ربما أنهوها إلى نيف و مائه من الأناجيل،و الأناجيل الأربعه منها ثم حرمت الكنيسه جميع تلك الأناجيل إلا الأناجيل الأربعه التى عرفت

۱- ۱) و قد فصل القول فى ذلك الزعيم الفاضل«بهروز»فى كتاب ألفه جديدا.فى البشارات النبويه. و أرجو أن أوفق لإيداع شذره منه فى تفسير آخر سوره النساء من هذا الكتاب،و القدر المتيقن(الذى يهمنا منه)اختلال التاريخ المسيحى.

۲- ۲) راجع ماده مسيح من قاموس الكتاب المقدس.

قانونيه لموافقه متونها تعليم الكنيسه (۱).

[إنجيل برنابا]

و من جمله الأناجيل المتروكه إنجيل برنابا الذى ظهرت نسخه منها منذ سنين فترجمت إلى العربيه و الفارسيه و هو يوافق فى عامه قصصه ما قصه القرآن فى المسيح عيسى بن مريم (۲).

و من العجيب أن المواد التاريخيه المأثوره عن غير اليهود أيضا ساكته عن تفاصيل ما ينسبه الإنجيل إلى الدعوه المسيحيه من حديث البنوه و الفداء و غيرهما ذكر المؤرخ الأمريكى الشهير هندريك ويلم وان لون فى تأليفه فى تاريخ البشر كتابا كتبه الطبيب إسكولابيوس كولتلوس الرومى سنه ۶۲ الميلاديه إلى ابن أخيه جلاديوس أنسا و كان جنديا فى عسكر الروم بفلسطين يذكر فيه أنه عاد مريضا بروميه يسمى بولس فأعجبه كلامه و قد كان بولس كلمه بالدعوه المسيحيه و ذكر له طرفا من أخبار المسيح و دعوته.

ثم يذكر أنه ترك بولس و لم يره حتى سمع بعد حين أنه قتل فى طريق أوستى ثم يسأل ابن أخيه أن يبحث عن أخبار هذا النبى الإسرائيلى الذى كان يذكره بولس و عن أخبار بولس نفسه و يكتب إليه ما بلغه من ذلك.

فكتب إليه جلاديوس أنسا بعد سته أسابيع من معسكر الروم بأورشليم

۱- ۱) و لقد لام«شيلسوس»الفيلسوف فى القرن الثانى النصارى فى كتابه«الخطاب الحقيقى» على تلاعبهم بالأناجيل،و محوهم بالغد ما أدرجوه بالأمس،و فى سنه ۳۸۴ م،أمر البابا داماسيوس أن تحرر ترجمه لاتينيه جديده من العهدين القديم و الحديث تعتبر قانونيه فى الكنائس و كان تيودوسيس الملك قد ضجر من المخاصمات الجدليه بين الأساقفه،و تمت تلك الترجمه التى تسمى(فولكانا)و كان ذلك خاصا بالأناجيل الأربعه:متى و مرقس و لوقا و يوحنا،و قد قال مرتب تلك الأناجيل:(بعد أن قابلنا عددا من النسخ اليونانيه القديمه رتبناها بمعنى أننا نقحنا ما كان فيها مغايرا للمعنى،و أبقينا الباقى على ما كان عليه)،ثم إن هذه الترجمه قد ثبتها المجمع«التريدنيتنى»سنه ۱۵۴۶ أى بعدها بأحد عشر قرنا، ثم خطأها سيستوس الخامس سنه ۱۵۹۰ و أمر بطبع نسخ جديده،ثم خطأ كليمنضوس الثامن هذه النسخه الثانيه أيضا،و أمر بطبعه جديده منقحه هى الدارجه اليوم عند الكاثوليكيين(تفسير الجواهر -الجزء الثانى-ص ۱۲۱ الطبعه الثانيه).

۲- ۲) و قد وجد هذا الانجيل بالخط الايطالى منذ سنين و ترجمه إلى العربيه الدكتور خليل سعاده بمصر و ترجمه إلى الفارسيه الحبر الفاضل«سردار كابلى»بإيران.

أنی سألت عده من شیوخ البلد و معمریهم عن عیسی المسیح فوجدتهم لا یحسنون مجاوبتی فیما أسألهم هذا و السنه سنه ۶۲ میلادیه و هم شیوخ.

حتی لقیت بیاع زیتون فسألته هل یعرفه فأنعم لی فی الجواب ثم دلنی علی رجل اسمه یوسف و ذکر أنه کان من أتباعه و محبیه و أنه خبیر بقصصه بصیر بأخباره یستطیع أن یجیبک فیما تسأله عنه.

فلقیت یوسف الیوم بعد ما تفحصت أیاما فوجدته شیخا هرما و قد کان قدیما یصطاد السمک فی بعض البحیرات من هذه الناحیه.

کان الرجل علی کبر سنه صحیح المشاعر جید الحافظه و قص لی جمیع الأخبار و القضایا الحادثه فی ذلک الأوان أوان الاغتشاش و الفتنه.

ذکر أن فونتیوس فیلاطوس کان حاکما علی سامرا و یهودیه فی عهد القیصر تی بریوس.

فاتفق أن وقع أیام حکومته فتنه فی أورشلیم فسافر فونتیوس فیلاطوس إلیه لإخماد ما فیه من نار الفتنه و کانت الفتنه هی ما شاع یومئذ أن ابن نجار من أهل الناصره یدعو الناس و یستنهضهم علی الحکومه.

فلما تحققوا أمره تبین أن ابن النجار المتهم شاب عاقل متین لم یرتکب ما یوجب علیه سیاسه غیر أن رؤساء المذهب من الیهود کانوا یخالفونه و یباغضونه بأشد ما یکون و قد قالوا لفیلاطوس إن هذا الشاب الناصری یقول لو أن یونانیا أو رومیا أو فلسطینیا عامل الناس و عاشرهم بالعداله و الشفقه کان عند الله کمن صرف عمره فی مطالعه کتاب الله و تلاوه آیاته.

و کان هذه التعرضات و الاقتراحات لم تؤثر فی فیلاطوس أثرها لکنه لما سمع ازدحام الناس قبال المعبد و هم یریدون أن یقبضوا علی عیسی و أصحابه و یقطعوهم إربا إربا رأی أن الأصلح أن یقبض هو علی هذا الشاب النجار و یسجنه حتی لا یقتل بأیدی الناس فی غوغائهم.

و کان فیلاطوس لم یتضح له سبب ما ینقمه الناس من عیسی کل الاتضاح و کلما

کلم الناس فی أمره و سألهم و استوضحهم علت أصواتهم و تنادوا هو کافر هو ملحد هو خائن فلم ینته الأمر إلی طائل.

حتی استقر رأی فیلاطوس أن یکلم عیسی بنفسه فأشخصه و کلمه و سأله عما یقصده بما یبلغه من الدین فأجابه عیسی أنه لا یهتم بأمر الحکومه و السیاسه و لا له فی ذلک غرض و أنه یهتم بالحیاه الروحانیه أکثر مما یهتم بأمر الحیاه الجسمانیه و أنه یعتقد أن الإنسان یجب أن یحسن إلی الناس و یعبد الله الفرد الواحد وحده الذی هو فی حکم الأب لجمیع أرباب الحیاه من المخلوقات.

و کان فیلاطوس ذا خبره فی مذاهب الرواقیین و سائر فلاسفه یونان فکأنه لم یر فی ما کلمه به عیسی موضع غمضه و لا محل مؤاخذه و لذلک عزم ثانیا أن یخلص هذا النبی السلیم المتین من شر الیهود و سوف فی حکم قتله و إنجازه.

لکن الیهود لم یرضوا بذلک و لم یترکوه علی حاله بل أشاعوا علیه أنه فتن بأکاذیب عیسی و أقاویله و أن فیلاطوس یرید الخیانه علی قیصر و أخذوا یستشهدون علیه و یسجلون الطوامیر علی ذلک یریدون به عزله من الحکومه و قد کان برز قبل ذلک فتن و انقلابات فی فلسطین و القوی المؤمنه القیصریه قلیله العده لا تقوی علی إسکات الناس فیها کل القوه.

و کان علی الحکام و سائر المأمورین من ناحیه قیصر أن لا یعاملوا الناس بما یجلب شکواهم و عدم رضایتهم.

فلهذه الأسباب لم یر فیلاطوس بدا من أن یفدی هذا الشاب المسجون للأمن العام و یجیب الناس فیما سألوه من قتله.

و أما عیسی فإنه لم یجزع من الموت بل استقبله علی شهامه من نفسه و قد عفا قبل موته عمن تسبب إلی قتله من الیهود ثم قضی به علی الصلیب و الناس یسخرون منه و یشتمونه و یسبونه.

قال جلادیوس أنسا هذا ما قص لی یوسف من قصه عیسی و دموعه تجری علی خدیه و حین ودعنی للمفارقه قدمت إلیه شیئا من المسکوک الذهبی لکنه أبی أن یأخذه و قال لی یوجد هاهنا من هو أفقر منی فأعطه إیاه.

و سألته عن بولس رفيقك المعهود فما كان يعرفه معرفه تامه و القـدر الـذى تبين من أمره أنه كان رجلا خياما ثم ترك شـغله و اشـتغل بالتبليغ لهـذا المـذهب الجديـد مذهب الرب الرءوف الرحيم الإله الذى بينه و بين يهوه إله يهود الذى لا نزال نسـمعه من علماء اليهود من الفرق ما هو أبعد مما بين السماء و الأرض.

و الظـاهر أن بولس سـافر أولا ـ إلى آسـيا الصـغرى ثم إلى يونان و أنه كان يقول للعبيـد و الأرقاء إنهم جميعا أبناء لأب يحبهم و يرأف بهـم و أن السـعاده ليسـت تخص بعض النـاس دون بعض بـل تعـم جميـع النـاس مـن فقير و غنى بشـرط أن يعاشـروا على المؤاخاه و يعيشوا على الطهاره و الصداقه انتهى ملخصا.

هذه عامه فقرات هذا الكتاب مما يرتبط بما نحن فيه من البحث.

و بالتأمل فى جمل مضامين هذا الكتاب يتحصل للمتأمل أن ظهور الدعوه المسـيحيه كيف كان فى بنى إسرائيل بعيد عيسى(ع)و أنه لم يكن إلا ظهور دعوه نبويه بالرساله من عنـد الله لا ظهور دعوه إلهيه بظهور اللاهوت و نزولها إليهم و تخليصـهم بالفداء ثم إن عـده من تلامذه عيسـى أو المنتسبين إليه كبولس و تلامذه تلامذتهم سافروا بعد وقعه الصـلب إلى مختلف أقطار الأرض من الهند و إفريقيه و روميه و غيرها و بسـطوا الدعوه المسيحيه لكنهم لم يلبثوا دون أن اختلفوا فى مسائل أصليه من التعليم كلاهوت المسـيح و كفايه الإيمان بالمسـيح عن العمل بشـريعه موسـى و كون دين الإنجيل دينا أصـيلا ناسـخا لـدين موسـى أو كونه تابعا لشريعه التوراه مكملا إياها (۱) فافترقوا عند ذلك فرقا.

و الذى يجب الإمعان فيه أن الأمم التى بسـطت الدعوه المسـيحيه و ظهرت فيها أول ظهورها كالروم و الهند و غيرهما كانوا قبلها منتحلين بـالوثنيه الصـابئه أو الـبرهمنيه أو البوذائيه و فيهـا أصول من مـذاق التصوف من جهه و الفلسـفه البرهمنيه من جهه و فيها جميعا شطر وافر من ظهور اللاهوت فى مظهر الناسوت على أن القول بتثليث

۱- ۱) يشير إليه كتاب أعمال الرمل و وسائل بولس،و قد اعترضت به النصارى.

الوحده و نزول اللاهوت فی لباس الناسوت و تحملها الصلب (۱)و العذاب فداء کان دائرا بین القدماء من وثنیه الهند و الصین و مصر و کلدان و الآشور و الفرس،و کذا قدماء وثنیه الغرب کالرومان و الإسکندناویین و غیرهم علی ما یوجد فی الکتب المؤلفه فی الأدیان و المذاهب القدیمه.

ذکر«دوان»فی کتابه«خرافات التوراه و ما یماثلها فی الأدیان الأخری»إذا رجعنا البصر إلی الهند نری أن أعظم و أشهر عبادتهم اللاهوتیه هو التثلیث،و یسمون هذا التعلیم بلغتهم«تری مورتی»و هی عباره مرکبه من کلمتین بلغتهم السنسکریتیه « تری »و معناها الثلاثه و« مورتی »و معناها هیئات أو أقانیم،و هی«برهما»، و فشنو،و سیفا»ثلاثه أقانیم متحده لا ینفک عن الوحده فهی إله واحد بزعمهم.

ثم ذکر:أن برهما عندهم هو الأب و فشنو هو الابن و سیفا هو روح القدس.

ثم ذکر أنهم یدعون سیفا«کرشنا (۲)»الرب المخلص و الروح العظیم الذی ولد منه«فشنو»الإله الذی ظهر بالناسوت علی الأرض لیخلص الناس فهو أحد الأقانیم الثلاثه التی هی الإله الواحد.

و ذکر أیضا:أنهم یرمزون للأقنوم الثالث بصوره حمامه کما یقوله النصاری.

و قال مستر«فابر»فی کتابه«أصل الوثنیه»کما نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفا من«برهما»و«فشنو»و«سیفا»نجد عند البوذیین ثالوثا فإنهم یقولون:إن«بوذ» إله له ثلاثه أقانیم،و کذلک بوذیو(جینست)یقولون:إن«جیفا»مثلث الأقانیم.

۱- ۱) القتل بالصلب علی الصلیب من القواعد القدیمه جدا فقد کانوا یقتلون من اشتد جرمه و فظع ذنبه بالصلب الذی هو من أشد أسباب القتل عذابا و أسوئها ذکرا،و کانت الطریقه فیه أن یصنع من خشبتین تقاطع إحداهما الأخری ما هو علی شکل الصلیب المعروف بحیث ینطبق علیه إنسان لو حمل علیه ثم یوضع المجرم علیه مبسوط الیدین و یدق من باطن راحتیه علی طرفی الخشبه المتعرضه بالمسامیر،و کذا تدق قدماه علی الخشبه و ربما شدتا من غیر دق ثم تقام الخشبه بنصب طرفها علی الأرض بحیث یکون ما بین قدمه إلی الأرض ما یقرب من ذراعین فیبقی الصلیب علی ذلک یوما أو أیاما ثم تکسر قدماه من الساقین و یقتل علی الصلیب أو ینزل فیقتل بعد الإنزال،و کان المصلوب یعذب قبل الصلب بالجلد أو المثله،و کان من العار الشنیع علی قوم أن یقتل واحد منهم بالصلب.

۲- ۲) و هو المعبر عنه بالإنکلیزیه«کرس»و هو المسیح المخلص.

قال:و الصينيون يعبدون بوذه و يسمونه«فو»و يقولون إنه ثلاثه أقانيم كما تقول الهنود.

و قال دوان فى كتابه المتقدم ذكره:و كان قسيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم:إن الأول خلق الثانى و الثانى خلق الثالث،و بذلك تم الثالوث المقدس.

و سأل توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكى أن يخبره:هل كان قبله أحد أعظم منه؟و هل يكون بعده أحد أعظم منه؟فأجابه الكاهن:نعم يوجد من هو أعظم و هو الله قبل كل شىء ثم الكلمه و معهما روح القدس،و لهذه الثلاثه طبيعه واحده،و هم واحد بالذات و عنهم صدرت القوه الأبديه،فاذهب يا فانى يا صاحب الحياه القصيره.

و قال بونويك فى كتابه«عقائد قدماء المصريين»أغرب كلمه عم انتشارها فى ديانه المصريين هى قولهم بلاهوت الكلمه،و أن كل شىء حصل بواسطتها،و أنها منبثقه من الله،و أنها هى الله،انتهى،و هذا عين العباره التى يبتدى بها إنجيل يوحنا.

و قال«هيجين»فى كتاب«الإنكلوساكسون»كان الفرس يدعون متروسا الكلمه و الوسيط و مخلص الفرس.

و نقل عن كتاب سكان أوروبه الأولين: أنه كان الوثنيون القدماء يقولون:

إن الإله مثلث الأقانيم.

و نقل عن اليونان و الرومان و الفنلنديين و الإسكندناويين قضيه الثالوث السابق الذكر،و كذا القول بالكلمه عن الكلدانيين و الآشوريين و الفينيقيين.

و قال دوان فى كتابه«خرافات التوراه و ما يقابلها من الديانات الأخرى» (_ص ۱۸۱ ۱۸۲)ما ترجمته بالتلخيص:

«إن تصور الخلاص بواسطه تقديم أحد الآلهه ذبيحه فداء عن الخطيئه قديم العهد جدا عند الهنود الوثنيين و غيرهم»و ذكر شواهد على ذلك:

منها قوله:يعتقد الهنود أن كرشنا المولود البكر-الذى هو نفس الآلهه فشنو الذى لا ابتداء له و لا انتهاء على رأيهم-تحرك حنوا كى يخلص الأرض من ثقل حملها

فأتاها و خلص الإنسان بتقديم ذبيحه عنه.

و ذكر أن«مستر مور»قد صور كرشنا مصلوبا كما هو مصور فى كتب الهنود مثقوب اليدين و الرجلين،و على قميصه صوره قلب الإنسان معلقا،و وجدت له صوره مصلوبا و على رأسه إكليل من الذهب،و النصارى تقول:إن يسوع صلب و على رأسه إكليل من الشوك.

و قال«هوك»فى_ص ۳۲۶ من المجلد الأول من رحلته:و يعتقد الهنود الوثنيون بتجسد بعض الآلهه،و تقديم ذبيحه فداء للناس من الخطيئه.

و قال«موريفورليمس»فى_ص ۲۶ من كتابه(الهنود)و يعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئه الأصليه،و مما يدل على ذلك ما جاء فى مناجاتهم و توسلاتهم التى يتوسلون بها بعد«الكياترى»و هو،إنى مذنب و مرتكب الخطيئه،و طبيعتى شريره،و حملتنى أمى بالإثم فخلصنى يا ذا العين الحندقوقيه يا مخلص الخاطئين من الآثام و الذنوب.

و قال القس«جورج كوكس»فى كتابه(الديانات القديمه)فى سياق الكلام عن الهنود:و يصفون كرشنا بالبطل الوديع المملوء لاهوتا لأنه قدم شخصه ذبيحه.

و نقل«هيجين»عن«اندارادا الكروزوبوس»و هو أول أوروبى دخل بلاد التيبال و التبت:أنه قال فى الإله«اندرا»الذى يعبدونه:أنه سفك دمه بالصلب و ثقب المسامير لكى يخلص البشر من ذنوبهم،و أن صوره الصلب موجوده فى كتبهم.

و فى كتاب«جورجيوس»الراهب صوره الإله«اندرا»هذا مصلوبا،و هو بشكل صليب أضلاعه متساويه العرض متفاوته الطول فالرأسى أقصرها-و فيه صوره وجهه- و السفلى أطولها،و لو لا صوره الوجه لما خطر لمن يرى الصوره أنها تمثل شخصا،هذا.

و أما ما يروى عن البوذيين فى بوذا فهو أكثر انطباقا على ما يرويه النصارى عن المسيح من جميع الوجوه حتى أنهم يسمونه المسيح،و المولود الوحيد،و مخلص العالم، و يقولون إنه إنسان كامل و إله كامل تجسد بالناسوت،و أنه قدم نفسه ذبيحه ليكفر ذنوب البشر و يخلصهم من ذنوبهم فلا يعاقبوا عليها،و يجعلهم وارثين لملكوت السماوات،

ص :۳۲۱

بين ذلک کثير من علماء الغرب:منهم«بيل»فی کتابه،و«هوک»فی رحلته، و«موالر»فی کتابه تاريخ الآداب السنسکريتيه،و غيرهم (۱).

فهذه نبذه أو أنموذجه من عقيده تلبس اللاهوت بالناسوت،و حديث الصلب و الفداء فی الديانات القديمه التی کانت الأمم متمسکين بها منکبين عليها يوم شرعت الديانه النصرانيه تنبسط علی الأرض،و أخذت الدعوه المسيحيه تأخذ بمجامع القلوب فی المناطق التی جال الدعاه المسيحيون فيها،فهل هذا إلا أن الدعاه المسيحيين أخذوا أصول المسيحيه و أفرغوها فی قالب الوثنيه و استمالوا بذلک قلوب الناس فی تقبل دعوتهم و هضم تعليمهم؟.

و يؤيد ذلک ما تری فی کلمات بولس و غيره من الطعن فی حکمه الحکماء و فلسفتهم و الإزراء بطرق الاستدلالات العقليه،و أن الإله الرب يرجح بلاهه الأبله علی عقل العاقل.

و ليس ذلک إلا لأنهم قابلوا بتعليمهم مکاتب التعقل و الاستدلال فرده أهله بأنه لا طريق إلی قبوله بل إلی تعقله الصحيح من جهه الاستدلال فوضعوا الأساس علی المکاشفه و الامتلاء بالروح المقدس فشاکلوا بذلک ما يصر به جهله المتصوفه أن طريقتهم طور وراء طور العقل.

ثم إن الدعاه منهم ترهبوا و جالوا فی البلاد(علی ما يحکيه کتاب أعمال الرسل و التواريخ)و بسطوا الدعوه المسيحيه و استقبلتهم فی ذلک العامه فی شتات البلاد، کان من سر موفقيتهم و خاصه فی إمبراطوريه الروم هی الضغطه الروحيه التی عمت البلاد من فشو الظلم و التعدی،و شمول أحکام الاسترقاق و الاستعباد،و البون البعيد فی حيوه الطبقه الحاکمه و المحکومه و الآمره و المأموره و الفصل الشاسع بين عيشه الأغنياء و أهل الإتراف و الفقراء و المساکين و الأرقاء.

و قد کانت الدعاه تدعو إلی المؤاخاه و المحابه و التساوی و المعاشره الجميله بين الناس،و رفض الدنيا و عيشتها الکدره الفانيه،و الإقبال علی الحيوه الصافيه السعيده التی فی ملکوت السماء،و لهذا بعينه ما کان يعنی بحالهم الطبقه الحاکمه من الملوک

---

۱ – ۱) يجد القارئ هذه المنقولات فی تفسير المنار–الجزء السادس فی تفسير سوره النساء و فی دوائر المعارف،و فی کتاب العقائد الوثنيه فی الديانه النصرانيه و غيرها.

و القياصره كل العنايه،و لا يقصدونهم بالأذى و السياسه و الطرد.

فلم يزالوا يزيدون عددا من غير تظاهر و تنافس و ينمون قوه و شده حتى حصل لهم جم غفير فى إمبراطوريه الروم و إفريقيه و الهند و غيرها من البلاد،و لم يزالوا كلما بنوا كنيسه و فتحوا بابها على وجوه الناس هدموا بذلك واحدا من بيوت الأوثان أغلقوا بابه.

و كانوا لا يعتنون بمزاحمه رؤساء الوثنيه فى هدم أساسهم،و لا بملوك الوقت و حكامه فى التعالى عن خضوعهم و فى مخالفه أحكامهم و دساتيرهم،و ربما كان ذلك يؤديهم إلى الهلاك و القتل و الحبس و العذاب فكان لا تزال تقتل طائفه و تسجن أخرى و تشرد ثالثه.

و كان الأمر على هذه الصفه إلى أوان ملك القيصر«كنستانتين»فآمن بالمله المسيحيه و أعلن بها فأخذ التنصر بالرسميه و بنيت الكنائس فى الروم و ما يتبع إمبراطوريته من الممالك،و ذلك فى النصف الأخير من القرن الرابع الميلادى.

تمركزت النصرانيه يومئذ فى كنيسه الروم و أخذت تبعث القسيسين إلى أكناف الأرض من البلاد التابعه يبنون الكنائس و الديرات و مدارس يدرسون بها التعليم الإنجيلى.

و الذى يجب إلفات النظر إليه أنهم وضعوا البحث على أصول مسلمه إنجيليه فأخذوا التعاليم الإنجيليه كمسأله الأب و الابن و الروح،و مسأله الصلب و الفداء و غير ذلك أصولا مسلمه و بنوا البحث و التنقير عليها.

و هذا أول ما ورد على أبحاثهم الدينيه من الوهن و الوهاء فإن استحكام البناء المبنى و إن بلغ ما بلغ و استقامته لا يغنى عن وهن الأساس المبنى عليه شيئا،و ما بنوا عليه من مسأله تثليث الوحده و الصلب و الفداء أمر غير معقول.

و قد اعترف عده من باحثيهم فى التثليث بأنه أمر غير معقول لكنهم اعتذروا عنه بأنه من المسائل الدينيه التى يجب أن تقبل تعبدا فكم فى الأديان من مسأله تعبديه تحيلها العقول.

و هو من الظنون الفاسده المتفرعه على أصلهم الفاسد،و كيف يتصور وقوع مسأله مستحيله فى دين حق؟و نحن إنما نقبل الدين و نميز كونه دين حق بالعقل و كيف يمكن

عند العقل أن تشتمل العقيده الحقه على أمر يبطله العقل و يحيله؟و هل هذا إلا تناقض صريح؟.

نعم يمكن أن يشتمل الدين على ممكن يخرق العاده الجاريه،و السنه الطبيعيه القائمه،و أما المحال الذاتى فلا البته.

و هذا الطريق المذكور من البحث هو الذى أوجب وقوع الخلاف و المشاجره بين الباحثين المتفكرين منهم فى أوائل انتشار صيت النصرانيه و انكباب المحصلين على الأبحاث المذهبيه فى مدارس الروم و الإسكندريه و غيرهما.

فكانت الكنيسه تزيد كل يوم فى مراقبتها لوحده الكلمه و تهيئ مجمعا مشكلا عند ظهور كل قول حديث و بدعه جديده من البطارقه و الأساقفه لإقناعهم بالمذهب العام و تكفيرهم و نفيهم و طردهم و قتلهم إذا لم يقنعوا.

و أول مجمع عقدوه مجمع نيقيه لما قال أريوس:إن أقنوم الابن غير مساو لأقنوم الأب،و إن القديم هو الله و المسيح مخلوق.

اجتمعت البطارقه و المطارفه و الأساقفه فى قسطنطينيه بمحضر من القيصر كنستانتين و كانوا ثلاثمائه و ثلاثه عشر رجلا،و اتفقوا على هذه الكلمه«نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء،و صانع ما يرى و ما لا يرى،و بالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد،بكر الخلائق كلها،و ليس بمصنوع،إله حق من إله حق،من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم و كل شيء،الذى من أجلنا و من أجل خلاصنا نزل من السماء،و تجسد من روح القدس،و ولد من مريم البتول،و صلب أيام فيلاطوس،و دفن ثم قام فى اليوم الثالث،و صعد إلى السماء،و جلس عن يمين أبيه،و هو مستعد للمجيء تاره أخرى للقضاء بين الأموات و الأحياء،و نؤمن بروح القدس الواحد،روح الحق الذى يخرج من أبيه،و بمعموديه (۱)واحده لغفران الخطايا،و بجماعه واحده قدسيه

۱- ۱) المراد بالمعموديه طهاره الباطن و قداسته.

مسیحیه-جاثلیقیه،و بقیام أبداننا (۱)و الحیوه أبد الآبدین (۲)».

هـذا هو المجمع الأـول و کم من مجمع بعـد ذلک عقـدوه للتبری عن المـذاهب المستحدثه کمـذهب النسـطوریه و الیعقوبیه و الألیانیه و الیلیارسیه و المقدانوسیه و السبالیوسیه و النوئتوسیه و البولسیه و غیرها.

و مع هـذا کـانت الکنیسه تقوم بـالواجب من مراقبتها و لا تتوانی و لا تهن فی دعوتها و تزیـد کل یوم فی قوتها و سیطرتها حتی وفقت لجلب سـائر دول أوروبـا إلی التنصـر کفرنسـا و الإـنجلیز و النمسـا و البروس و الإسـبانیا و البرتغال و البلجیک و هولنـدا و غیرهم إلا الروسیا أواخر القرن الخامس المیلاد سنه ۴۹۶.

و لم تزل تتقدم و ترتقی الکنیسه من جانب و من جانب آخر کانت تهاجم الأمم الشمالیه و العشائر البدویه علی الروم و الحروب و الفتن تضعف سلطنه القیاصره و آل الأمر إلی أن أجمعت أهل الروم و الأمم المتغلبه علی إلقاء زمام أمور المملکه إلی الکنیسه کمـا کـانت زمـام أمور الـدین بیـدها فـاجتمعت السـلطنه الروحانیه و الجسـمانیه لرئیس الکنیسه الیوم و هو البابا جریجوار و کان ذلک سنه ۵۹۰ المیلادیه.

و صـارت کنیسه الروم لهـا الرئاسه المطلقه للعالم المسـیحی غیر أن الروم لما کانت انشـعبت إمبراطوریته إلی الروم الغربی الـذی عاصـمتها روما و الروم الشرقی الذی عاصمتها قسطنطینیه کانت قیاصره الروم الشرقی یعدون أنفسهم رؤساء دینیین لمملکتهم من غیر أن یتبعوا کنیسه روما و هذا مبدأ انشعاب المسیحیه إلی الکاثولیک أتباع کنیسه روما و الأورثوذکس و هم غیرهم.

و کان الأمر علی ذلک حتی إذا فتحت قسـطنطینیه بید آل عثمان و قتل القیصر بالی اولوکوس و هو آخر قیاصره الروم الشرقی و قسیس الکنیسه الیوم قتل فی

---

۱ – ۱) أورد علیه أنه یستلزم القـول بالمعـاد الجسـمانی و النصـاری تقول بالمعـاد الروحـانی کمـا یـدل علیه الإنجیـل. و أظن أن الإنجیل إنما یـدل علی عـدم وجود اللذائذ الجسـمانیه الدنیویه فی القیامه،و أما کون الإنسان روحا مجردا من غیر جسم فلا دلاله فیه علیه بـل یـدل علی أن الإنسان یصـیر فی المعاد کالملائکه لا ازدواج بینهم و ظاهر العهـدین أن الله سبحانه و ملائکته جمیعا أجسام فضلا عن الإنسان یوم القیامه.

۲– ۲) الملل و النحل للشهرستانی.

كنيسه أياصوفيا.

[انشعاب الكنائس]

و ادعى وراثه هـذا المنصب الـدينى أعنى رئـاسه الكنيسه قياصـره روسـيا لقرابه سـببيه كـانت بينهم و بين قياصـره الروم و كـانت الروس تنصـرت فى القرن العاشـر الميلاد فصارت ملوك روسـيا قسيسـى كنيسه أرضهم غير تابعه لكنيسه روما و كان ذلك سنه ١۴۵۴ الميلاديه.

و بقى الأمر على هذا الحال نحوا من خمسه قرون حتى قتل تزار نيكولا و هو آخر قياصـره الروسـيا قتل هو و جميع أهل بيته سـنه ١٩١٨ الميلاديه بيد الشيوعيين فعادت كنيسه روما تقريبا إلى حالها قبل الانشعاب.

لكن الكنيسه فى أثر ما كانت تحاول رؤساؤها السلطه على جميع جهات حيوه الناس فى القرون الوسطى التى كانت الكنيسه فيها فى أوج ارتقائها و ارتفاعها ثار عليها جماهير من المتدينين تخلصا من القيود التى كانت تحملها عليهم الكنيسه.

فخرجـت طـائفه عـن تبعيـه أحكـام رؤسـاء الكنيسه و البابـاوات و طـاعتهم مـع البقـاء على طـاعه التعليم الإـنجيلى على مـا يفهمه مجامعهم و يقرره اتفاق علمائهم و قسيسهم و هؤلاء هم الأورثوذكس.

و طـائفه خرجت عن متـابعه كنيسه روما أصـلا فليسوا بتابعين فى التعليم الإنجيلى لكنيسه روما و لا معتنين للأوامر الصادره منها و هؤلاء هم البروتستانت.

فانشعب العالم المسيحى اليوم إلى ثلاث فرق الكاثوليك و هى التابعه لكنيسه روما و تعليمها و الأورثوذكس و هى التابعه لتعليم الكنيسه دون نفسـها و قد حدثت شـعبتهم بحدوث الانشعاب فى الكنيسه و خاصه بعد انتقال كنيسه قسطنطينيه إلى مسكو بروسيا كما تقدم و البروتسـتانت و هى الخارجه عن تبعيه الكنيسه و تعليمها جميعا و قد اسـتقلت طريقتهم و تظاهرت فى القرن الخامس عشر الميلاد.

هـذا إجمال ما جرى عليه أمر الدعوه المسـيحيه فى زمان يقرب من عشـرين قرنا و البصـير بالغرض الموضوع له هذا الكتاب يعلم أن القصـد من ذكر جمل تاريخهم أولا أن يكون الباحث على بصـيره من التحولات التاريخيه فى مـذهبهم و المعانى التى يمكن أن تنتقل إلى عقائدهم الدينيه بنحو التوارث أو السرايه أو الانفعال بالامتزاج

أو الألف و العاده من عقائد الوثنيه و الأفكار الموروثه منهم أو المأخوذه عنهم.

و ثانيا أن اقتدار الكنيسه و خاصه كنيسه روما بلغ بالتدريج فى القرون الوسطى الميلاديه إلى نهايه أوجه حتى كانت لهم سيطره الدين و الدنيا و انقادت لهم كراسى الملك بأوربا فكان لهم عزل من شاءوا و نصب من شاءوا (١).

يروى أن البابا مره أمر إمبراطور ألمانيا أن يقف ثلاثه أيام حافيا على باب قصره فى فصل الشتاء لزله صدرت منه يريد أن يغفرها له (٢).

و رفس البابا مره تاج الملك برجله حيث جاءه جاثيا يطلب المغفره (٣).

و قد كانوا وصفوا المسلمين لأتباعهم وصفا لم يدعهم إلا أن يروا دين الإسلام دين الوثنيه يستفاد ذلك من الشعارات و الأشعار التى نظموها فى استنهاض النصارى و تهييجهم على المسلمين فى الحروب الصليبيه التى نشبت بينهم و بين المسلمين سنين متطاوله.

فإنهم كانوا (۴)يرون أن المسلمين يعبدون الأصنام و أن لهم آلهه ثلاثه أسماؤها على الترتيب ماهوم و يسمى بافوميد و ماهومند و هو أول الآلهه و هو محمد و بعده ايلين و هو الثانى و بعده ترفاجان و هو الثالث و ربما يظهر من بعض كلماتهم أن للمسلمين إلهين آخرين و هما مارتوان وجوبين و لكنهما بعد الثلاثه المتقدمه رتبه و كانوا يقولون إن محمدا بنى دعوته على دعوى الألوهيه و ربما قالوا إنه كان اتخذ لنفسه صنما من ذهب.

و فى أشعار ريشار التى قالها لاستنهاض الإفرنج على المسلمين قوموا و قلبوا ماهومند و ترفاجان و ألقوهما فى النار تقربا من إلهكم.

و فى أشعار رولان فى وصف ماهوم إله المسلمين أنه مصنوع تاما من الذهب و الفضه و لو رأيته أيقنت أنه لا يمكن لصانع أن يصور فى خياله أجمل منه ثم

١- ١) الفتوحات الاسلاميه.

٢- ٢) المدرک السابق.

٣- ٣) المدرک السابق.

۴- ۴) هذا و ما بعده الى آخر الفصل منقول عن ترجمه كتاب(هنرى در كالسترى)الديانه الإسلاميه،الفصل الأول منه.

یصنعه عظیمه جثته جیده صنعته و فی سیمائه آثار الجلاله ظاهره ماهوم مصنوع من الذهب و الفضه یکاد سنا برقه یذهب بالبصر و قد أقعد علی فیل هو من أحسن المصنوعات و أجودها بطنه خال و ربما أحس الناظر من بطنه ضوءا هو مرصعه بالأحجار الثمینه المتلألئه یری باطنه من ظاهره و لا یوجد له فی جوده الصنعه نظیر.

و لما کانت آلهه المسلمین یوحون إلیهم فی مواقع الشده و قد انهزم المسلمون فی بعض حروبهم بعث قائد القوم واحدا فی طلب إلههم الذی کان بمکه یعنی محمدا ص یروی بعض من شاهد الواقعه أن الإله یعنی محمدا جاءهم و قد أحاط به جم غفیر من أتباعه و هم یضربون الطبول و العیدان و المزامیر و البوقات المعموله من فضه و یتغنون و یرقصون حتی أتوا به إلی المعسکر بسرور و ترح و مرح و قد کان خلیفته منتظرا لقدومه فلما رآه قام علی ساقه و اشتغل بعبادته بخضوع و خشوع.

و یذکر«ریشار»أیضا فی وصف وحی الإله(ماهوم)الذی سمعت وصفه فیقول:«إن السحره سخروا واحدا من الجن و جعلوه فی بطن ذلک الصنم،و کان ذلک الجنی یرعد و یعربد أولا ثم یأخذ فی تکلیم المسلمین و هم ینصتون له».

و أمثال هذه الطرف توجد کثیرا ۴۰۰ فی بطن ذلک الصنم و کان ذلک الجنی یرعد و یعربد أولا ثم یأخذ فی کتبهم المؤلفه فی سنی الحروب الصلیبیه أو المتعرضه لشئونها و إن کان ربما أبهتت القارئ و أدهشته تعجبا و حیره،و کاد أن لا یصدق صحه النقل حین یحدث له أمور لم یشاهدها مسلم فی یقظه و لا رآها فی نومه أو نعسه.

و ثالثا:أن یتحقق الباحث المتدبر کیفیه طرق التطور علی الدعوه المسیحیه فی مسیرها خلال القرون الماضیه حتی الیوم،فإن العقائد الوثنیه وردت فیها بخفی دبیبها أولا بالغلو فی حق المسیح(ع)ثم تمکنت فأفرغت الدعوه فی قالب التثلیث:

الأب و الابن و الروح،و القول بالصلب و الفداء،و استلزم ذلک القول برفض العمل و الاکتفاء بالاعتقاد.

و کان ذلک أولا فی صوره الدین و کان یعقد أزمتهم بالکنیسه بإتیان أشیاء من صوم و صلاه و تعمید لکن لم یزل الإلحاد ینمو جسمه و یقوی روحه و یبرز الانشعابات حتی ظهرت البروتستانت،و قامت القوانین الرسمیه مقام الهرج و المرج فی السیاسات مدونه علی أساس الحریه فی ما وراء القانون(الأحکام العملیه المضمونه الإجراء)فلم یزل

التعليم الـديني يضـعف أثرا و يخيب سـعيا حتى انثلمت تـدريجا أركـان الأخلاـق و الفضائـل الإنسانيه عقيب شـيوع الماديه التى استتبعتها الحريه التامه.

و ظهرت الشيوعيه و الاـشتراك بالبنـاء على فلسـفه ماتريـاليسم ديالكتيـك و رفض القول باللاهوت و الأخلاق الفاضـله الثابته و الأعمال الدينيه فانهدمت الإنسانيه المعنويه، و ورثتها الحيوانيه الماديه مؤلفه من سـبعيه و بهيميه،و انتهضت الدنيا تسـير إليها سيرا حثيثا.

و أمـا النهضـات الـدينيه التى عمت الـدنيا أخيرا فليست إلاـ ملاـعب سياسيه يلعب بهـا رجال السـياسه للتوسل بها إلى غاياتهم و أمانيهم فالسياسه الفنيه اليوم تدق كل باب و تدب كل جحر و ثقب.

ذكر الدكتور جوزف شيتلر»أستاذ العلوم الدينيه فى كليه لوتران فى شيكاغو:

«أن النهضه الـدينيه الجديـده فى أمريكا ليست إلا تطبيق الدين على المجموعه من شئون الحيوه فى المدنيه الحديثه،و تثبيت أن المدنيه الحاضره لا تضاد الدين.

و أن فيه خطر أن يعتقـد عـامه النـاس أنهم متـدينون بالـدين الحق بما فى أيـديهم من نتائـج المـدنيه الحاضـره حتى يسـتغنوا عن الالتحاق إلى النهضه الحقيقيه الدينيه لو ظهرت يوما بينهم فلا يلتفتوا إليها» (١).

و ذكر الـدكتور جرج فلوروفسـكى أكبر مـدافع أرثوذكس روسـيا بإمريكـا أن التعليمـات الـدينيه بإمريكا ليست إلا سـلوه كاذبه للقلوب لأنها لو كانت نهضه حيه حقيقيه دينيه لكان من الواجب أن تتكئ على تعليمات عميقه واقعيه (٢).

فـانظر مـن أيـن خرج وفـد الـدين و فى أيـن نزل.بـدأت الـدعوه بـاسم إحيـاء الـدين (العقيـده)و الأخلاـق(الملكـات)الحسـنه و الشريعه(الأعمال)و اختتمت بإلغاء الجميع و وضع التمتع الحيوانى موضعها.

و ليس ذلك كله إلا تطور الانحراف الأولى الواقع من بولس المدعو بالقديس،

١- ١) المجله الإمريكيه«لايف»الجزء المؤرخ ۶ فوريه ١٩٥۶.

٢- ٢) كسابقه.

بولس الحواری و أعضاده فلو أنهم سموا هذه المدنیه الحاضره التی تعترف الدنیا بأنها تهدد الإنسانیه بالفناء«مدنیه بولسیه»کان أحق بالتصدیق من قولهم:إن المسیح هو قائد الحضاره و المدنیه الحاضره و حامل لوائها.

بحث روائی

فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُؤْتِیَهُ اللّٰهُ الْکِتٰابَ الآیه:إن عیسی لم یقل للناس:إنی خلقتکم فکونوا عبادا لی من دون الله،و لکن قال لهم:

کُونُوا رَبّٰانِیِّینَ

أی علماء.

أقول:و قد مر فی البیان السابق ما یؤیده من القرائن،و قوله:لم یقل للناس:

إنی خلقتکم،بمنزله الاحتجاج علی عدم قوله ذلک أی لو کان قال لهم ذلک لوجب أن یخبرهم بأنه خلقهم و لم یخبر و لم یفعل.

و فیه،أیضا": فی قوله تعالی: وَ لاٰ یَأْمُرَکُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاٰئِکَهَ وَ النَّبِیِّینَ أَرْبٰاباً الآیه، قال:کان قوم یعبدون الملائکه،و قوم من النصاری زعموا أن عیسی رب،و الیهود قالوا: عُزَیْرٌ ابْنُ اللّٰهِ فقال الله :وَ لاٰ یَأْمُرَکُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاٰئِکَهَ وَ النَّبِیِّینَ أَرْبٰاباً .

أقول:و قد تقدم بیانه.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن إسحاق و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و البیهقی فی الدلائل،عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظی حین اجتمعت الأحبار من الیهود، و النصاری من أهل نجران عند رسول الله ص،و دعاهم إلی الإسلام:أ ترید یا محمد أن نعبدک-کما تعبد النصاری عیسی بن مریم؟فقال رجل من أهل نجران نصرانی،یقال له الرئیس:أ و ذاک ترید منا یا محمد؟.

فقال رسول الله ص:معاذ الله أن نعبد غیر الله-أو نأمر بعباده غیره ما بذلک بعثنی و لا بذلک أمرنی،فأنزل الله من قولهما: مٰا کٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ یُؤْتِیَهُ اللّٰهُ الْکِتٰابَ -إلی قوله- :بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

و فیه،أیضا و أخرج عبد بن حمید عن الحسن،قال: بلغنی أن رجلا قال:یا رسول الله -نسلم علیک کما یسلم بعضنا علی بعض أ فلا نسجد لک؟قال:لا و لکن أکرموا

نبيكم و اعرفوا الحق لأهله-فإنه لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله فأنزل الله- مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ الْكِتٰابَ -إلى قوله بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

أقول و قد روى فى سبب النزول غير هذين السببين و الظاهر أن ذلك من الاستنباط النظرى و قد تقدم تفصيل الكلام فى ذلك و من الممكن أن تجتمع عده أسباب فى نزول آيه و الله أعلم

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٨١ الى ٨۵]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذَ اَللّٰهُ مِيثٰاقَ اَلنَّبِيِّينَ لَمٰا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتٰابٍ وَ حِكْمَهٍ ثُمَّ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قٰالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِى قٰالُوا أَقْرَرْنٰا قٰالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ اَلشّٰاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلّٰى بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (٨٢) أَ فَغَيْرَ دِينِ اَللّٰهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ وَ مٰا أُنْزِلَ عَلَيْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ اَلْأَسْبٰاطِ وَ مٰا أُوتِىَ مُوسىٰ وَ عِيسىٰ وَ اَلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨۴) وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ اَلْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى اَلْآخِرَهِ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (٨۵)

بيان

الآيات غير خاليه عن الارتباط بما قبلها و السياق سياق واحد مستمر جار على وحدته و كأنه تعالى لما بين أن أهل الكتاب لم يزالوا يبغون فيما حملوه من علم الكتاب

ص: ٣٣١

و الدين يحرفون الكلم عن مواضعه،و يستغشون بتلبيس الأمر على الناس و التفرقه بين النبيين و إنكار آيات نبوه رسول الله ص،و نفى أن يكون نبى من الأنبياء كموسى و عيسى(ع)يأمرهم باتخاذ نفسه أو غيره من النبيين و الملائكه أربابا على ما هو صريح قول النصارى،و ظاهر قول اليهود.

شدد النكير عليهم فى ذلك بأنه كيف يتأتى ذلك و قد أخذ الله الميثاق من النبيين أن يؤمنوا بكل نبى يأتيهم ممن تقدمهم أو تأخر عنهم و ينصروه،و ذلك بتصديق كل منهم لمن تقدم عليه من الأنبياء،و تبشيره بمن تأخر عنه كتصديق عيسى(ع) لموسى و شريعته،و تبشيره بمحمد ص و كذا أخذه تعالى الميثاق منهم أن يأخذوا العهد على ذلك من أممهم و أشهدهم عليهم،و بين أن هذا هو الإسلام الذى شمل حكمه من فى السماوات و الأرض.

ثم أمر نبيه أن يجرى على هذا الميثاق جرى قبول و طاعه فيؤمن بالله و بجميع ما أنزله على أنبيائه من غير تفرقه بينهم،و أن يسلم لله سبحانه،و أن يأتى بذلك عن نفسه و عن أمته،و هو معنى أخذ الميثاق منه بلا واسطه و من أمته بواسطته كما سيجىء بيانه.

قوله تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ النَّبِيِّينَ لَمٰا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتٰابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ ،الآيه تنبئ عن ميثاق مأخوذ،و قد أخذ الله هذا الميثاق للنبيين كما يدل عليه قوله تعالى: ثُمَّ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ «إلخ»كما أنه تعالى أخذه من النبيين على ما يدل عليه قوله: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي «إلخ»، و قوله بعد: قُلْ آمَنّٰا بِاللّٰهِ إلى آخر الآيه فالميثاق ميثاق مأخوذ للنبيين و مأخوذ منهم و إن كان مأخوذا من غيرهم أيضا بواسطتهم.

و على هذا فمن الجائز أن يراد بقوله تعالى: مِيثٰاقَ النَّبِيِّينَ الميثاق المأخوذ منهم أو المأخوذ لهم و الميثاق واحد،و بعباره أخرى يجوز أن يراد بالنبيين،المأخوذ لهم الميثاق و المأخوذ منهم الميثاق إلا أن سياق قوله تعالى: مٰا كٰانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللّٰهُ إلى آخر الآيتين فى اتصاله بهذه الآيه يؤيد كون المراد بالنبيين هم الذين أخذ منهم الميثاق فإن وحده السياق تعطى أن المراد:أن النبيين بعد ما آتاهم الله الكتاب و الحكم و النبوه لا يتأتى لهم أن يدعوا إلى الشريك و كيف يتأتى لهم ذلك؟و قد أخذ منهم الميثاق

على الإيمان و النصره لغيرهم من النبيين الذين يدعون إلى توحيد الله سبحانه،فالأنسب أن يبدأ بذكر الميثاق من حيث أخذه من النبيين.

و قوله: لَمٰا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتٰابٍ وَ حِكْمَهٍ القراءه المشهوره،و هى قراءه غير حمزه بفتح اللام و التخفيف فى لَمٰا و عليها فما موصوله و آتيتكم،-و قرأ آتيناكم- صلته،و الضمير محذوف،يدل عليه قوله: مِنْ كِتٰابٍ وَ حِكْمَهٍ ،و الموصول مبتدأ خبره قوله: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ «إلخ»و اللام فى لما ابتدائيه،و فى لتؤمنن به لام القسم، و المجموع بيان للميثاق المأخوذ،و المعنى:للذى آتيتكموه من كتاب و حكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم آمنتم به و نصرتموه البته.

و يمكن أن يكون ما شرطيه و جزاؤها قوله لتؤمنن به،و المعنى مهما آتيتكم من كتاب و حكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به و لتنصرنه،و هذا أحسن لأن دخول اللام المحذوف قسمها فى الجزاء أشهر،و المعنى عليه أسلس و أوضح،و الشرط فى موارد المواثيق أعرف،و أما قراءه كسر اللام فى«لما»فاللام فيها للتعليل و ما موصوله،و الترجيح لقراءه الفتح.

و الخطاب فى قوله: آتَيْتُكُمْ ،و قوله: جٰاءَكُمْ ،و إن كان بحسب النظر البدوى للنبيين لكن قوله بعد: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي ،قرينه على أن الخطاب للنبيين و أممهم جميعا أى أن الخطاب مختص بهم و حكمه شامل لهم و لأممهم جميعا فعلى الأمم أن يؤمنوا و ينصروا كما على النبيين أن يؤمنوا و ينصروا.

و ظاهر قوله: ثُمَّ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمٰا مَعَكُمْ ،التراخى الزمانى أى إن على النبى السابق أن يؤمن و ينصر النبى اللاحق،و أما ما يظهر من قوله: قٰالَ آمَنّٰا بِاللّٰهِ «إلخ»أن الميثاق مأخوذ من كل من السابق و اللاحق للآخر،و أن على اللاحق أن يؤمن و ينصر السابق كالعكس فإنما هو أمر يشعر به فحوى الخطاب دون لفظ الآيه كما سيجىء إن شاء الله العزيز.

و قوله: لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ ،الضمير الأول و إن كان من الجائز أن يرجع إلى الرسول كالضمير الثانى إذ لا ضير فى إيمان نبى لنبى آخر،قال تعالى: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ مَلاٰئِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ» XالآيهX:البقره-۲۸۵،

لکن الظاهر من قوله: قُلْ آمَنّا بِاللّهِ وَ مٰا أُنْزِلَ عَلَيْنٰا وَ مٰا أُنْزِلَ عَلىٰ إِبْرٰاهِيمَ «إلخ»، رجوعه إلی ما أوتوا من کتاب و حکمه،و رجوع الضمیر الثانی إلی الرسول،و المعنی لتؤمنن بما آتیتکم من کتاب و حکمه و لتنصرن الرسول الذی جاءکم مصدقا لما معکم.

قوله تعالی: قٰالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي قٰالُوا أَقْرَرْنٰا ،الاستفهام للتقریر،و الإقرار معروف،و- الإصر -هو العهد،و هو مفعول أخذتم،و أخذ العهد یستلزم مأخوذا منه غیر الأخذ و لیس إلا أمم الأنبیاء،فالمعنی أ أقررتم أنتم بالمیثاق، و أخذتم علی ذلکم عهدی من أممکم قالوا:أقررنا.

و قیل:المراد بأخذ العهد قبول الأنبیاء ذلک لأنفسهم فیکون قوله: وَ أَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي عطف بیان لقوله أَقْرَرْتُمْ ،و یؤیده قوله: قٰالُوا أَقْرَرْنٰا من غیر أن یذکر الأخذ فی الجواب،و علی هذا یکون المیثاق لا یتعدی الأنبیاء إلی غیرهم من الأمم و یبعده قوله: قٰالَ فَاشْهَدُوا ،لظهور الشهاده فی أنها علی الغیر،و کذا قوله بعد:

قُلْ آمَنّا بِاللّهِ

«إلخ»من غیر أن یقول:قل آمنت فإن ظاهره أنه إیمان من رسول الله ص من قبل نفسه و أمته إلا أن یقال:إن اشتراک الأمم مع الأنبیاء إنما یستفاد من هاتین الجملتین:أعنی قوله: فَاشْهَدُوا ،و قوله: قُلْ آمَنّا بِاللّهِ ،من غیر أن یفید قوله:

وَ أَخَذْتُمْ

،فی ذلک شیئا.

قوله تعالی: قٰالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّٰاهِدِينَ ،ظاهر الشهاده کما مر أن یکون علی الغیر فهی شهاده من الأنبیاء و أممهم جمیعا،و یشهد لذلک کما مر قوله: قُلْ آمَنّا بِاللّهِ ،و یشهد لذلک السیاق أیضا،فإن الآیات مسوقه للاحتجاج علی أهل الکتاب فی ترکهم إجابه دعوه رسول الله ص کما أنها تحتج علیهم فی ما نسبوه إلی عیسی و موسی(ع)و غیرهما کما یدل علیه قوله تعالی: أَ فَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ ،و غیره.

و ربما یقال:إن المراد بقوله: فَاشْهَدُوا ،شهاده بعض الأنبیاء علی بعض کما ربما یقال:إن المخاطبین بقوله: فَاشْهَدُوا ،هم الملائکه دون الأنبیاء.

و المعنیان و إن کانا جائزین فی نفسهما غیر أن اللفظ غیر ظاهر فی شیء منهما بغیر قرینه،و قد عرفت أن القرینه علی الخلاف.

و من اللطائف الواقعه فی الآیه أن المیثاق مأخوذ من النبیین للرسل علی ما یعطیه

قوله: وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثٰاقَ النَّبِيِّينَ -إلى قوله:- ثُمَّ جٰاءَكُمْ رَسُولٌ ،و قد مر فى ذيل قوله تعالى: «كٰانَ النّٰاسُ أُمَّةً وٰاحِدَةً» XالآيهX:البقره-۲۱۳،الفرق بين النبوه و الرساله و أن الرسول أخص مصداقا من النبى.

فعلى ظاهر ما يفيده اللفظ يكون الميثاق مأخوذا من مقام النبوه لمقام الرساله من غير دلاله على العكس.

و بذلك يمكن المناقشه فيما ذكر بعضهم أن المحصل من معنى الآيه أن الميثاق مأخوذ من عامه النبيين أن يصدق بعضهم بعضا،و يأمر بعضهم بالإيمان ببعض،أى إن الدين واحد يدعو إليه جميع الأنبياء،و هو ظاهر.

فمحصل معنى الآيه على ما مر:أن الله أخذ الميثاق من الأنبياء و أممهم أن لو آتاهم الله الكتاب و الحكمه و جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن بما آتاهم و ينصرن الرسول و ذلك من الأنبياء تصديق من المتأخر للمتقدم و المعاصر،و بشاره من المتقدم بالمتأخر و توصيه الأمه،و من الأمه الإيمان و التصديق و النصره،و لازم ذلك وحده الدين الإلهى.

و ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالآيه أن الله أخذ الميثاق من النبيين أن يصدقوا محمدا ص،و يبشروا أممهم بمبعثه،فهو و إن كان صحيحا إلا أنه أمر يدل عليه سياق الآيات كما مرت الإشاره إليه دون الآيه فى نفسها لعموم اللفظ بل من حيث وقوع الآيه ضمن الاحتجاج على أهل الكتاب و لومهم و عتابهم على انكبابهم على تحريف كتبهم و كتمان آيات النبوه و العناد و العتو مع صريح الحق.

قوله تعالى: فَمَنْ تَوَلّٰى بَعْدَ ذٰلِكَ «إلخ»تأكيد للميثاق المأخوذ المذكور، و المعنى واضح.

قوله تعالى: أَ فَغَيْرَ دِينِ اللّٰهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ ،تفريع على الآيه السابقه المتضمنه لأخذ ميثاق النبيين،و المعنى فإذا كان دين الله واحدا و هو الذى أخذ عليه الميثاق من عامه النبيين و أممهم و كان على المتقدم من الأنبياء و الأمم أن يبشروا بالرسول المتأخر و يؤمنوا بما عنده و يصدقوه فما ذا يقصده هؤلاء معاشر أهل الكتاب و قد كفروا بك و ظاهر حالهم أنهم يبغون الدين فهل يبغون غير الإسلام الذى هو دين الله الوحيد؟

و لـذلك لا يصـدقونك و لا يتمسـكون بـدين الإسـلام مع أنه كان يجب عليهم الاعتصام بالإسـلام لأنه الـدين الذى يبتنى على الفطره،و كـذلك يجب أن يكون الدين،و الدليل عليه أن من فى السـماوات و الأرض من أولى العقل و الشـعور مسـلمون لله فى مقام التكوين فيجب أن يسلموا عليه فى مقام التشريع.

قوله تعالى: وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً ،هذا الإسـلام الذى يعم من فى السماوات و الأرض و منهم أهل الكتاب الذين يذكر أنهم غير مسـلمين، و لفظ أسلم صيغه ماض ظاهره المضى و التحقق لا محاله و هو التسليم التكوينى لأمر الله دون الإسلام بمعنى الخضوع العبودى،و يؤيده أو يدل عليه قوله طَوْعاً وَ كَرْهاً .

و على هذا فقوله: وَ لَهُ أَسْلَمَ ،من قبيل الاكتفاء بذكر الدليل و السبب عن ذكر المدلول و المسبب،و تقدير الكلام:أ فغير الإسلام يبغون؟و هو دين الله لأن من فى السـماوات و الأرض مسـلمون له منقادون لأمره،فإن رضوا به كان انقيادهم طوعا من أنفسـهم،و إن كرهوا ما شاءه و أرادوا غيره كان الأمر أمره و جرى عليهم كرها من غير طوع.

و من هنـا يظهر أن الـواو فى قوله: طَوْعـاً وَ كَرْهـاً ،للتقسـيم،و أن المراد بـالطوع و الكره رضـاهم بمـا أراد الله فيهم ممـا يحبونه،و كراهتهم لما أراده فيهم مما لا يحبونه كالموت و الفقر و المرض و نحوها.

قوله تعالى: وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ هـذا سبب آخر لوجوب ابتغاء الإسـلام دينا فإن مرجعهم إلى الله مولاهم الحق لا إلى ما يهـديهم إليه كفرهم و شركهم.

قـوله تعـالى: قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ،أمر النـبى أن يجرى على الميثـاق الـذى أخـذ منه و من غيره فيقول عن نفسه و عن المؤمنين من أمته: آمَنّا بِاللّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا «إلخ».

و هذا من الشواهد على أن الميثاق مأخوذ من الأنبياء و أممهم جميعا كما مرت الإشاره إليه آنفا.

قوله تعالى: وَ مَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ إلى آخر الآيه،هؤلاء المـذكورون بأسـمائهم هم الأنبياء من آل إبراهيم،و لا تخلو الآيه من إشعار بأن المراد بالأسباط

هم الأنبياء من ذريه يعقوب أو من أسباط بنى إسرائيل كداود و سليمان و يونس و أيوب و غيرهم.

و قوله: وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ،تعميم للكلام ليشمل آدم و نوحا و من دونهما،ثم جمع الجميع بقوله: لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

قوله تعالى: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ «إلخ»نفى لغير مورد الإثبات من الميثاق المأخوذ،و فيه تأكيد لوجوب الجرى على الميثاق.

بحث روائی

فى المجمع،عن أمير المؤمنين(ع): أن الله أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا-أن يخبروا أممهم بمبعثه و نعته،و يبشروهم به و يأمروهم بتصديقه.

و فى الدر المنثور،أخرج ابن جرير عن على بن أبى طالب رضى الله عنه،قال:

لم يبعث الله نبيا آدم فمن بعده-إلا أخذ عليه العهد فى محمد-لئن بعث و هو حى ليؤمنن به و لينصرنه،و يأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا: وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ النَّبِيِّينَ لَمٰا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتٰابٍ وَ حِكْمَةٍ الآيه.

أقول:و الروايتان تفسران الآيه بمجموع ما يدل عليه اللفظ و السياق كما مر.

و فى المجمع،و الجوامع،عن الصادق(ع): فى الآيه معناه و إذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين-كل أمه بتصديق نبيها،و العمل بما جاءهم به-فما وفوا به و تركوا كثيرا من شرائعهم و حرفوا كثيرا.

أقول:و ما ذكر فى الروايه من قبيل ذكر المصداق المنطبقه عليه الآيه فلا ينافى شمول المراد بالآيه الأنبياء و أممهم جميعا.

و فى المجمع،أيضا عن أمير المؤمنين(ع): فى قوله تعالى: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ الآيه، قال:أ أقررتم و أخذتم العهد بذلك على أممكم،قالوا أى قال الأنبياء و أممهم:أقررنا بما أمرتنا

بالإقرار به قال الله:فاشهدوا بذلک علی أممکم،و أنا معکم من الشاهدین علیکم و علی أممکم.

و فی الـدر المنثور،أخرج ابن جریر عن علی بن أبی طالب: فی قوله قٰالَ فَاشْـهَدُوا یقول:فاشـهدوا علی أممکم بذلک،و أنا معکم من الشاهـدین علیکم و علیهم-فمن تولی عنک یا محمد بعد هذا العهد من جمیع الأمم-فأولئک هم الفاسـقون،هم العاصون فی الکفر.

أقول:و قد مر توجیه معنی الروایه.

و فی تفسیر القمی،عن الصـادق(ع): قـال لهم فی الـذر: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَـذْتُمْ عَلیٰ ذٰلِکُمْ إِصْـرِی أی عهـدی- قٰالُوا:أَقْرَرْنٰا ،قال الله للملائکه فَاشْهَدُوا .

أقول:لفظ الآیه لا یأباه و إن کان لا یستفاد من ظاهره کما تقدم.

و فی الـدر المنثور،: فی قوله تعالی: وَ مَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ الْإِسْـلاٰمِ دِیناً الآیه:،أخرج أحمد و الطبرانی فی الأوسط عن أبی هریره،قال:قال رسول الله ص:تجیء الأعمال یوم القیامه فتجیء الصلوه فتقول:یا رب أنا الصلوه فیقول:إنک علی خیر،و تجیء الصدقه فتقول یا رب أنـا الصـدقه-فیقول:إنـک علی خیر،ثم یجیء الصـیام فیقول:أنـا الصـیام فیقول:إنـک علی خیر،ثم تجیء الأعمال کل ذلک یقول الله:إنـک علی خیر، بـک الیوم آخـذ،و بـک أعطی.قـال الله فی کتـابه: وَ مَنْ یَبْتَغِ غَیْرَ الْإِسْـلاٰمِ دِیناً فَلَنْ یُقْبَلَ مِنْهُ-وَ هُوَ فِی الْآخِرَهِ مِنَ الْخٰاسِرِینَ ..

و فی التوحید،و تفسیر العیاشی،: فی الآیه عن الصادق(ع):هو توحیدهم لله عز و جل.

أقول:التوحید المذکور یلازم التسلیم فی جمیع ما یریده الله تعالی من عباده فیرجع إلی المعنی الذی قدمناه فی البیان.

و لو أرید به مجرد نفی الشریک کان الطوع و الکره هما الدلاله الاختیاریه و الاضطراریه.

و اعلم:أن هاهنا عده روایات أخر رواها العیاشی و القمی فی تفسیریهما،و غیرهما

فی معنی قوله: وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ الآيه،و فيها لتؤمنن برسول الله،و لتنصرن أمير المؤمنين(ع)،و ظاهرها تفسير الآيه بإرجاع ضمير لتؤمنن به إلى رسول الله ص،و ضمير و لتنصرنه إلى أمير المؤمنين(ع)من غير دليل يدل عليه من اللفظ.

لكن في

ما رواه العياشي ما رواه عن سلام بن المستنير عن أبي عبد الله(ع) قال: لقد تسموا باسم ما سمى الله به أحدا-إلا على بن أبى طالب و ما جاء تأويله.

قلت:جعلت فداك متى يجيء تأويله؟قال:إذا جاء جمع الله أمامه النبيين و المؤمنين حتى ينصروه و هو قول الله:- وَ إِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ -لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ -إلى قوله- وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ .

و بذلك يهون أمر الإشكال فإنه إنما يرد لو كانت الروايات وارده مورد التفسير و أما التأويل فقد عرفت أنه ليس من قبيل المعنى،و لا مرتبطا باللفظ فى ما تقدم من تفسير قوله: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ» XالآيهX:آل عمران-٧.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ٨٦ الى ٩١]

اشاره

كَيْفَ يَهْدِي اَللّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ اَلرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ اَلْبَيِّناتُ وَ اَللّهُ لا يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلظّالِمِينَ (٨٦) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اَللّهِ وَ اَلْمَلائِكَةِ وَ اَلنّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ اَلْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ اَلَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اَللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ اِزْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ اَلضّالُّونَ (٩٠) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ اَلْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ اِفْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٩١)

بیان

الآیات ممکنه الارتباط بما تقدمها من الکلام علی أهل الکتاب و إن کان یمکن أن تستقل بنفسها و تنفصل عما تقدمها،و هو ظاهر.

قوله تعالی: کَیْفَ یَهْدِی اللّٰهُ قَوْماً کَفَرُوا بَعْدَ إِیمٰانِهِمْ ،الاستفهام یفید الاستبعاد و الإنکار،و المراد به استحاله الهدایه،و قد ختم الآیه بقوله: وَ اللّٰهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ ،و قد مر فی نظیر هذه الجمله أن الوصف مشعر بالعلیه أی لا یهدیهم مع وجود هذا الوصف فیهم،و ذلک لا ینافی هدایته لهم علی تقدیر رجوعهم و توبتهم منه.

و أما قوله: وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ،فإن کان المراد بهم أهل الکتاب فشهادتهم هو مشاهدتهم أن آیات النبوه التی عندهم منطبقه علی رسول الله ص کما یفیده قوله:

وَ جٰاءَهُمُ الْبَیِّنٰاتُ

،و إن کان المراد بهم أهل الرده من المسلمین فشهادتهم هی إقرارهم بالرساله لا-إقرارا صوریا مبنیا علی الجهاله و الحمیه و نحوهما بل إقرارا مستندا إلی ظهور الأمر کما یفیده قوله: وَ جٰاءَهُمُ الْبَیِّنٰاتُ .

و کیف کان الأمر فانضمام قوله: وَ شَهِدُوا «إلخ»إلی أول الکلام یفید أن المراد بالکفر هو الکفر بعد ظهور الحق و تمام الحجه فیکون کفرا عن عناد مع الحق و لجاج مع أهله و هو البغی بغیر الحق و الظلم الذی لا یهتدی صاحبه إلی النجاه و الفلاح.

و قد قیل فی قوله: وَ شَهِدُوا «إلخ»إنه معطوف علی قوله: إِیمٰانِهِمْ لما فیه من معنی الفعل،و التقدیر کفروا بعد أن آمنوا و شهدوا«إلخ»أو أن الواو للحال، و الجمله حالیه بتقدیر«قد».

قوله تعالی: أُولٰئِکَ جَزٰاؤُهُمْ أَنَّ عَلَیْهِمْ لَعْنَهَ اللّٰهِ -إلی قوله-: وَ لاٰ هُمْ یُنْظَرُونَ ، قد مر الکلام فی معنی عود جمیع اللعنه علیهم فی تفسیر قوله تعالی: «أُولٰئِکَ یَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَ یَلْعَنُهُمُ اللاّٰعِنُونَ» :البقره-۱۵۹.

قوله تعالی: إِلاَّ الَّذِینَ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ وَ أَصْلَحُوا «إلخ»أی دخلوا فی الصلاح، و المراد به کون توبتهم نصوحا تغسل عنهم درن الکفر و تطهر باطنهم بالإیمان،و أما

الإتیان بالأعمال الصالحه فهو و إن کان مما یتفرع علی ذلک و یلزمه غیر أنه لیس بمقوم لهـذه التوبه و لا رکنا منها،و لا فی الآیه دلاله علیه.

و فی قوله: فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ وضع العله موضع المعلول و التقدیر فیغفر الله له و یرحمه فإن الله غفور رحیم.

قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بَعْدَ إِیمٰانِهِمْ ثُمَّ ازْدٰادُوا کُفْراً إلی آخر الآیتین تعلیل لما یشتمل علیه قوله أولا. کَیْفَ یَهْدِی اللّٰهُ قَوْماً کَفَرُوا «إلـخ»و هو من قبیل التعلیل بتطبیق الکلی العام علی الفرد الخاص،و المعنی أن الـذی یکفر بعـد ظهور الحق و تمام الحجه علیه،و لا یتوب بعده توبه مصلحه إنما هو أحد رجلین إما کافر یکفر ثم یزید کفرا فیطغی،و لا سبیل للصلاح إلیه فهذا لا یهدیه الله و لا یقبل توبته لأنه لا یرجع بالحقیقه بل هو منغمر فی الضلال،و لا مطمع فی اهتدائه.

و إما کافر یموت علی کفره و عناده من غیر توبه یتوبها فلا یهدیه الله فی الآخره بأن یدخله الجنه إذ لم یرجع إلی ربه و لا بدل لذلک حتی یفتدی به،و لا شفیع و لا ناصر حتی یشفع له أو ینصره.

و من هنـا یظهر أن قوله: وَ أُولٰئِکَ هُمُ الضّٰالُّونَ باشتماله علی اسمیه الجمله،و الإشاره البعیده فی أولئک،و ضمیر الفصل،و الاسمیه و اللام فی الخبر یدل علی تأکد الضلال فیهم بحیث لا ترجی هدایتهم.

و کذا یظهر أن المراد بقوله: وَ مٰا لَهُمْ مِنْ نٰاصِرِینَ نفی انتفاعهم بالشفعاء الـذین هم الناصرون یوم القیامه فإن الإتیان بصیغه الجمع یدل علی تحقق ناصرین یوم القیامه کما مر نظیره فی الاستدلال علی الشفاعه بقوله تعالی: فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِینَ الآیه فی مبحث الشفاعه(آیه ۴۸ من سوره البقره) فارجع إلیه.

و قد اشتملت الآیه الثانیه علی ذکر نفی الفداء و الناصرین لکونهما کالبدل، و البدل إنما یکون من فائت یفوت الإنسان و قد فاتتهم التوبه فی الدنیا و لا بدل لها یحل محلها فی الآخره.

و من هنـا یظهر أن قوله: وَ مٰاتُوا وَ هُمْ کُفّٰارٌ فی معنی:و فاتتهم التوبه فلا ینتقض هـذا البیان الظاهر فی الحصر بما ذکره الله تعالی فی قوله: «وَ لَیْسَتِ التَّوْبَهُ لِلَّذِینَ یَعْمَلُونَ

السَّيِّئَاتِ حَتّٰى إِذٰا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفّٰارٌ أُولٰئِكَ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً» :النساء-١٨ فإن المراد بحضور الموت ظهور آثار الآخره و انقطاع الدنيا و تفوت عند ذلك التوبه.

و الملء فی قوله: مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً مقدار ما يسعه الإناء من شیء فاعتبر الأرض إناء يملؤه الذهب فالجمله من قبيل الاستعاره التخييليه و الاستعاره بالكنايه.

بحث روائی

فی المجمع،: فی قوله تعالی كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْماً الآيه:قيل نزلت الآيات فی رجل من الأنصار-يقال له حارث بن سويد بن الصامت،و كان قتل المجدر بن زياد البلوی غدرا،و هرب و ارتد عن الإسلام،و لحق بمكه-ثم ندم فأرسل إلی قومه أن يسألوا لرسول الله ص-هل لی من توبه؟فسألوا فنزلت الآيه-إلی قوله:- إِلاَّ الَّذِينَ تٰابُوا ، فحملها إليه رجل من قومه فقال:إنی لأعلم أنك لصدوق،و رسول الله أصدق منك، و إن الله أصدق الثلاثه،و رجع إلی المدينه و تاب و حسن إسلامه:،عن مجاهد و السدی و هو المروی عن أبی عبد الله(ع):

و فی الدر المنثور،أخرج ابن إسحاق و ابن المنذر عن ابن عباس": أن الحارث بن سويد قتل المجدر بن زياد-و قيس بن زيد أحد بنی ضبيعه يوم أحد-ثم لحق بقريش فكان بمكه ثم بعث إلی أخيه الجلاس-يطلب التوبه ليرجع إلی قومه فأنزل الله فيه:- كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْماً إلی آخر القصه.

أقول:و روی القصه بطرق أخری و فيها اختلافات،و من جملتها

ما رواه عن عكرمه": أنها نزلت فی أبی عامر الراهب-و الحارث بن سويد بن الصامت و وحوح بن الأسلت-فی اثنی عشر رجلا رجعوا عن الإسلام و لحقوا بقريش،ثم كتبوا إلی أهلهم هل لنا من توبه؟فنزلت إِلاَّ الَّذِينَ تٰابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ الآيات.

و منها ما فی المجمع،": فی قوله تعالی:- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰانِهِمْ ثُمَّ ازْدٰادُوا الآيه، أنها نزلت فی أحد عشر من أصحاب الحارث بن سويد-لما رجع الحارث قالوا نقيم بمكه علی الكفر ما بدا لنا-فمتی ما أردنا الرجعه رجعنا فينزل فينا-ما نزل فی الحارث فلما

افتتح رسول الله ص مكه دخل فی الإسلام-من دخل منهم فقبلت توبته فنزل فیمن مات منهم کافرا- ،إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ کُفّارٌ الآیه،نسبها إلی بعضهم.

و قیل إنها نزلت فی أهل الکتاب،و قیل:إن قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بَعْدَ إِیمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا کُفْراً الآیه نزلت فی الیهود خاصه حیث آمنوا ثم کفروا بعیسی ثم ازدادوا کفرا بمحمد ص،و قیل غیر ذلک.

و التأمل فی هذه الأقوال و الروایات یعطی أن جمیعها من الأنظار الاجتهادیه من سلف المفسرین کما تنبه له بعضهم.

و أما الروایه عن الصادق(ع)فمرسله ضعیفه،علی أن من الممکن أن یتعدد أسباب النزول فی آیه أو آیات،و الله أعلم.

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۹۲ الی ۹۵]

اشاره

لَنْ تَنالُوا اَلْبِرَّ حَتّی تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَیْءٍ فَإِنَّ اَللّهَ بِهِ عَلِیمٌ (۹۲) کُلُّ اَلطَّعامِ کانَ حِلاًّ لِبَنِی إِسْرائِیلَ إِلاّ ما حَرَّمَ إِسْرائِیلُ عَلی نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ اَلتَّوْراهُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراهِ فَاتْلُوها إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۹۳) فَمَنِ افْتَری عَلَی اَللّهِ اَلْکَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ اَلظّالِمُونَ (۹۴) قُلْ صَدَقَ اَللّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّهَ إِبْراهِیمَ حَنِیفاً وَ ما کانَ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ (۹۵)

بیان

ارتباط الآیه الأولی بما قبلها غیر واضح و من الممکن أن لا تکون نازله فی ضمن بقیه الآیات التی لا غبار علی ارتباط بعضها ببعض،و قد عرفت نظیر هذا الإشکال فی قوله تعالی: «قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ تَعالَوْا» XالآیهX:آل عمران-۶۴،من حیث تاریخ النزول.

و ربما يقال:إن الخطاب فی الآيه موجه إلی بنی إسرائيل،و لا يزال موجها إليهم،و محصل المعنی بعد ما مر من توبيخهم و لومهم علی حب الدنيا و إيثار المال و المنال علی دين الله:أنكم كاذبون فی دعواكم أنكم منسوبون إلی الله سبحانه و أنبيائه و أنكم أهل البر و التقوی،فإنكم تحبون كرائم أموالكم و تبخلون فی بذلها و لا تنفقون منها إلا الردی الذی لا تتعلق به النفوس مما لا يعبأ بزواله و فقده مع أنه لا ينال البر إلا بإنفاق الإنسان ما يحبه من كرائم ماله،و لا يفوت الله سبحانه حفظه،هذا محصل ما قيل:و فيه تمحل ظاهر!.

و أما بقيه الآيات فارتباطها بالبيانات السابقه ظاهر لا غبار عليه.

قوله تعالی: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتّی تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ ، النيل هو الوصول،و البر هو التوسع فی فعل الخير،قال الراغب: البر خلاف البحر،و تصور منه التوسع فاشتق منه البر أی التوسع فی فعل الخير،انتهی.

و مراده من فعل الخير أعم مما هو فعل القلب كالاعتقاد الحق و النيه الطاهره أو فعل الجوارح كالعباده لله و الإنفاق فی سبيل الله تعالی،و قد اشتمل علی القسمين جميعا قوله تعالی: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلاٰئِكَهِ وَ الْكِتٰابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمٰالَ عَلىٰ حُبِّهِ ذَوِی الْقُرْبىٰ وَ الْيَتٰامىٰ وَ الْمَسٰاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السّٰائِلِينَ وَ فِی الرِّقٰابِ وَ أَقٰامَ الصَّلاٰهَ وَ آتَى الزَّكٰاهَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذٰا عٰاهَدُوا وَ الصّٰابِرِينَ فِی الْبَأْسٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ» XالآيهX:البقره-١٧٧.

و من انضمام الآيه إلی قوله: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ الآيه،يتبين أن المراد بها أن إنفاق المال علی حبه،أحد أركان البر التی لا يتم إلا باجتماعها نعم جعل الإنفاق غايه لنيل البر لا يخلو عن العنايه و الاهتمام بأمر هذا الجزء بخصوصه لما فی غريزه الإنسان من التعلق القلبی بما جمعه من المال،و عده كأنه جزء من نفسه إذا فقده فكأنه فقد جزء من حيوه نفسه بخلاف سائر العبادات و الأعمال التی لا يظهر معها فوت و لا زوال منه.

و من هنا يظهر ما فی قول بعضهم إن البر هو الإنفاق مما تحبون،و كان هذا القائل جعلها من قبيل قول القائل:لا تنجو من ألم الجوع حتی تأكل،و نحو ذلك، لكنه محجوج بما مر من الآيه.

و یتبین من آیه البقره المذکوره أیضا أن المراد بالبر هو ظاهر معناه اللغوی أعنی التوسع فی الخیر فإنها بینته بمجامع الخیرات الاعتقادیه و العملیه،و منه یظهر ما فی قول بعضهم:إن المراد بالبر هو إحسان الله و إنعامه،و ما فی قول آخرین:إن المراد به الجنه.

قوله تعالی: وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَیْءٍ فَإِنَّ اللّٰهَ بِهِ عَلِیمٌ ،تطییب لنفوس المنفقین أن ما ینفقونه من المال المحبوب عندهم لا یذهب مهدورا من غیر أجر فإن الله الذی یأمرهم به علیم بإنفاقهم و ما ینفقونه.

قوله تعالی: کُلُّ الطَّعٰامِ کٰانَ حِلاًّ لِبَنِی إِسْرٰائِیلَ إِلاّٰ مٰا حَرَّمَ إِسْرٰائِیلُ عَلیٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰاهُ ، الطعام کل ما یطعم و یتغذی به و کان یطلق عند أهل الحجاز علی البر خاصه و ینصرف إلیه عندهم لدی الإطلاق،و الحل مقابل الحرمه،و کأنه مأخوذ من الحل مقابل العقد و العقل فیفید معنی الإطلاق،و إسرائیل هو یعقوب النبی (ع)سمی به لأنه کان مجاهدا فی الله مظفرا به،و یقول أهل الکتاب:إن معناه المظفر الغالب علی الله سبحانه لأنه صارع الله فی موضع یسمی فنیئیل فغلبه(علی ما فی التوراه)و هو مما یکذبه القرآن و یحیله العقل.

و قوله: إِلاّٰ مٰا حَرَّمَ إِسْرٰائِیلُ عَلیٰ نَفْسِهِ استثناء من الطعام المذکور آنفا،و قوله:

مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰاهُ

متعلق بکان فی الجمله الأولی،و المعنی لم یحرم الله قبل نزول التوراه شیئا من الطعام علی بنی إسرائیل إلا ما حرم إسرائیل علی نفسه.

و فی قوله تعالی: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرٰاهِ فَاتْلُوهٰا إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ ،دلاله علی أنهم کانوا ینکرون ذلک،أعنی حلیه کل الطعام علیهم قبل التوراه،و یدل علیه أنهم کانوا ینکرون النسخ فی الشرائع و یحیلون ذلک کما مر ذکره فی ذیل قوله تعالی: «مٰا نَنْسَخْ مِنْ آیَهٍ أَوْ نُنْسِهٰا» XالآیهX:البقره-۱۰۶،فهم کانوا ینکرون بالطبع قوله تعالی:

«فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَیْهِمْ طَیِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» :النساء-۱۶۰.

و کذا یدل قوله تعالی بعد: قُلْ صَدَقَ اللّٰهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّهَ إِبْرٰاهِیمَ حَنِیفاً ،أنهم کانوا یجعلون ما ینکرونه(من حلیه کل الطعام علیهم قبل التوراه،و کون التحریم إنما نزل علیهم لظلمهم بنسخ الحل بالحرمه)وسیله إلی إلقاء الشبهه علی المسلمین،و الاعتراض علی ما کان یخبر به رسول الله ص عن ربه أن دینه هو مله إبراهیم الحنیف،و هی مله فطریه لا إفراط فیها و لا تفریط،کیف؟و هم کانوا یقولون:إن إبراهیم کان

یهودیا علی شریعه التوراه،فکیف یمکن أن تشتمل مله علی حلیه ما حرمتها التوراه، و النسخ غیر جائز؟.

فقد تبین أن الآیه إنما تتعرض لدفع شبهه أوردتها الیهود،و یظهر من عدم تعرض الآیه لنقل الشبهه عنهم کما یجری علیه القرآن فی غالب الموارد کقوله تعالی:

«وَ قالَتِ الْیَهُودُ یَدُ اللّهِ مَغْلُولَهٌ» :المائده-۶۴،و قوله: «وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّارُ إِلاّ أَیّاماً مَعْدُودَهً» :البقره-۸۰،و قوله «وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ» :البقره-۸۸ إلی غیر ذلک من الآیات الکثیره.

و کذا قوله تعالی بعد عده آیات: «قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ -Xإلی أن قالX-: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تُطِیعُوا فَرِیقاً مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ یَرُدُّوکُمْ بَعْدَ إِیمانِکُمْ کافِرِینَ XالآیاتX:آل عمران ۱۰۰-۹۸.

و بالجمله یظهر من ذلک أنها کانت شبهه تلقیه الیهود لا علی رسول الله ص بل علی المؤمنین فی ضمن ما کانوا یتلاقون و یتحاورون.

و حاصلها:أنه کیف یکون النبی صادقا و هو یخبر بالنسخ،و أن الله إنما حرم الطیبات علی بنی إسرائیل لظلمهم،و هذا نسخ لحل سابق لا یجوز علی الله سبحانه بل المحرمات محرمه دائما من غیر إمکان تغییر لحکم الله،و حاصل الجواب من النبی ص بتعلیم من الله تعالی:أن التوراه ناطقه بکون کل الطعام حلا قبل نزولها فأتوا بالتوراه و اتلوها إن کنتم صادقین فی قولکم،و هو قوله تعالی: کُلُّ الطَّعامِ کانَ حِلاًّ لِبَنِی إِسْرائِیلَ -إلی قوله- :إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ .

فإن أبیتم الإتیان بالتوراه و تلاوتها فاعترفوا بأنکم المفترون علی الله الکذب و أنکم الظالمون،و ذلک قوله تعالی: فَمَنِ افْتَری - إلی قوله اَلظّالِمُونَ .

و قد تبین بذلک أنی صادق فی دعوتی فاتبعوا ملتی و هی مله إبراهیم حنیفا، و ذلک قوله تعالی: قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّهَ إِبْراهِیمَ إلی آخر الآیه.

و للمفسرین فی توضیح معنی الآیه بیانات مختلفه لکنهم علی أی حال ذکروا أن الآیه متعرضه لبیان شبهه أوردتها الیهود مرتبطه بالنسخ کما مر.

و أعجب ما قیل فی المقام ما ذکره بعضهم:أن الآیه متعرضه لجواب شبهه

أوردتها اليهود فى النسخ،و تقريرها:أن اليهود كأنها قالت:إذا كنت يا محمد على مله إبراهيم و النبيين بعده-كما تدعى- فكيف تستحل ما كان محرما عليه و عليهم كلحم الإبل؟أما و قد استبحت ما كان محرما عليهم فلا ينبغى لک أن تدعى أنک مصدق لهم،و موافق فى الدين،و لا أن تخص إبراهيم بالذكر فتقول:إنى أولى به.

و محصل الجواب:أن كل الطعام كان حلا لعامه الناس و منهم بنو إسرائيل لكن بنى إسرائيل حرموا أشياء على أنفسهم بما ارتكبوا من المعاصى،و السيئات كما قال تعالى: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هٰادُوا حَرَّمْنٰا عَلَيْهِمْ طَيِّبٰاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» XالآيهX:النساء-١۶٠، فالمراد بإسرائيل شعب إسرائيل كما هو مستعمل عندهم،لا يعقوب وحده،و معنى تحريمهم ذلک على أنفسهم:أنهم ارتكبوا الظلم و اجترحوا السيئات فكانت سببا للتحريم،و قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰاةُ متعلق بقوله: حَرَّمَ إِسْرٰائِيلُ ،و لو كان المراد بقوله:إسرائيل هو يعقوب نفسه لكان قوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰاةُ لغوا زائدا من الكلام لبداهه أن يعقوب كان قبل التوراه زمانا فلا وجه لذكره.

هذا محصل ما ذكره و ذكر بعض آخر نظير ما ذكره إلا أنه قال:إن المراد من تحريم بنى إسرائيل على أنفسهم تحريمهم ذلک تشريعا من عند أنفسهم من غير أن يستند إلى وحى من الله سبحانه إلى بعض أنبيائهم كما كانت عرب الجاهليه تفعل ذلک على ما قصه الله تعالى فى كتابه.

و قد ارتكبا جميعا من التكلف ما لا يرتضيه ذو خبره فأخرجا الكلام من مجراه، و عمده ما حملهما على ذلک حملهما قوله تعالى: مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰاةُ على أنه متعلق بقوله: حَرَّمَ إِسْرٰائِيلُ ،مع كونه متعلقا بقوله: كٰانَ حِلاًّ ،فى صدر الكلام و قوله إِلاّٰ مٰا حَرَّمَ ،استثناء معترض.

و من ذلک يظهر أن لا حاجه إلى أخذ إسرائيل بمعنى بنى إسرائيل كما توهما مستندين إلى عدم استقامه المعنى دونه.

على أن إطلاق إسرائيل و إراده بنى إسرائيل و إن كان جائزا على حد قولهم:

بكر و تغلب و نزار و عدنان يريدون بنى بكر و بنى تغلب و بنى نزار و بنى عدنان لكنه فى بنى إسرائيل من حيث الوقوع استعمال غير معهود عند العرب فى عهد النزول،و لا

أن القرآن سلك هذا المسلك فى هذه الكلمه(فى غير هذا المورد الذى يدعيانه)مع أن بنى إسرائيل مذكور فيه فيما يقرب من أربعين موضعا،و من جملتها نفس هذه الآيه:

كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِى إِسْرائِيلَ إِلاّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ

،فما هو الفرق على قولهما بين الموضعين فى الآيه؟حيث عبر عنهم أولا ببنى إسرائيل،ثم أردف ذلك بقوله:

إِسْرائِيلَ

،مع أن المقام من أوضح مقامات الالتباس،و ناهيک فى ذلک أن الجم الغفير من المفسرين فهموا منه أن المراد به يعقوب لا بنوه.

و من أحسن الشواهد على أن المراد به يعقوب قوله تعالى: عَلى نَفْسِهِ بإرجاع ضمير المفرد المذكر إلى إسرائيل و لو كان المراد به بنى إسرائيل لكان من اللازم أن يقال:على نفسها أو على أنفسهم.

قوله تعالى: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أى حتى يتبين أن أى الفريقين على الحق،أنا أم أنتم،و هذا إلقاء جواب منه تعالى على نبيه ص.

قوله تعالى: فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ ، ظاهره أنه كلام لله سبحانه يخاطب به نبيه ص،و على هذا ففيه تطييب لنفس النبى ص بأن أعداءه من اليهود هم الظالمون بعد هذا البيان لافترائهم الكذب على الله،و تعريض لليهود،و الكلام يجرى مجرى الكنايه.

و أما احتمال كون الكلام من تتمه كلام النبى ص فلا يلائمه ظاهر إفراد خطاب الإشاره فى قوله: مِنْ بَعْدِ ذلِكَ ،و على هذا أيضا يجرى الكلام مجرى الكنايه و الستر على الخصم المغلوب ليقع الكلام موقعه من القبول كما فى قوله تعالى: «إِنّا أَوْ إِيّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ» :سبأ-۲۴،و المشار إليه بذلک هو البيان و الحجه.

و إنما قال:من بعد ذلک مع أن المفترى ظالم على أى حال لأن الظلم لا يتحقق قبل التبين كما قيل،و القصر فى قوله: فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ قصر قلب على أى حال.

قوله تعالى: قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً «إلخ»أى فإذا كان الحق معى فيما أخبرتكم به و دعوتكم إليه فاتبعوا دينى و اعترفوا بحليه لحم الإبل و غيره من الطيبات التى أحلها الله،و إنما كان حرمها عليكم عقوبه لاعتدائكم و ظلمكم كما أخبر تعالى به.

فقوله: فَاتَّبِعُوا «إلخ»کالکنایه عن اتباع دینه،و إنما لم یذکره بعینه لأنهم کانوا معترفین بمله إبراهیم،لیکون إشاره إلی کون ما یدعو إلیه من الدین حنیفا فطریا لأن الفطره لا تمنع الإنسان من أکل الطیبات من اللحوم و سائر الرزق.

(بحث روائی)

فی الکافی،و تفسیر العیاشی،عن الصادق(ع): أن إسرائیل کان إذا أکل لحم الإبل-هیج علیه وجع الخاصره فحرم علی نفسه لحم الإبل-و ذلک قبل أن تنزل التوراه- فلما نزلت التوراه لم یحرمه و لم یأکله.

أقول:و ما یقرب منه مروی من طرق أهل السنه و الجماعه.

و قوله فی الروایه:لم یحرمه و لم یأکله ضمیرا الفاعل راجعان إلی موسی لدلاله المقام علیه،و المعنی لم یحرمه موسی و لم یأکله،و یحتمل أن یکون لم یأکله من التأکیل بمعنی التمکین من الأکل،و یظهر من التاج،أن التفعیل و المفاعله فیه بمعنی واحد

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۹۶ الی ۹۷]

اشاره

إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ مُبارَکاً وَ هُدیً لِلْعالَمِینَ (۹۶) فِیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِیمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً وَ لِلّهِ عَلَی النّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلاً وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ (۹۷)

بیان

الآیتان جواب عن شبهه أخری کانت الیهود توردها علی المؤمنین من جهه النسخ، و هی ما حدث فی أمر القبله بتحویلها من بیت المقدس إلی الکعبه،و قد مر فی تفسیر قوله تعالی: «فَوَلِّ وَجْهَکَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» XالآیهX:البقره-۱۴۴ أن تحویل،

القبله کـان من الأمور الهامه التی کانت له تأثیرات عمیقه مادیه و معنویه فی حیوه أهل الکتاب-و خاصه الیهود-مضافا إلی کونه مخالفا لمذهبهم من النسخ،و لذلک طالت المشاجرات و المشاغبات بینهم و بین المسلمین بعد نزول حکم القبله إلی أمد بعید.

و المستفاد من الآیه- إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ «إلخ»-أنهم جمعوا فی شبهتهم بین شبهه النسخ و بین انتساب الحکم إلی مله إبراهیم فیکون محصل الشبهه:أن الکعبه کیف یمکن أن یکون قبله فی مله إبراهیم مع أن الله جعل بیت المقدس قبله و هل هذا إلا القول بحکم نسخی فی مله إبراهیم الحقه مع کون النسخ محالا باطلا؟.

و الجواب:أن الکعبه موضوعه للعباده قبل غیرها کبیت المقدس فلقد بناها إبراهیم من غیر شک و وضعها للعباده،و فیها آیات بینات تدل علی ذلک کمقام إبراهیم، و أما بیت المقدس فبانیه سلیمان و هو بعد إبراهیم بقرون.

قوله تعالی: إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ إلی آخر الآیه،البیت معروف،و المراد بوضع البیت للناس وضعه لعبادتهم و هو أن یجعلوه ذریعه یتوسل به إلی عباده الله سبحانه،و یستعان به فیها بأن یعبد الله فیه،و بقصده و المسیر إلیه و غیر ذلک،و الدلیل علی ذلک ما یشتمل علیه الکلام من کونه مبارکا و هدی للعالمین و غیر ذلک،و یشعر به التعبیر عن الکعبه بالذی ببکه فإن فیه تلویحا إلی ازدحام الناس عنده فی الطواف و الصلوه و غیرهما من العبادات و المناسک،و أما کونه أول بیت بنی علی الأرض و وضع لینتفع به الناس فلا دلاله علی ذلک من جهه اللفظ.

و المراد ببکه أرض البیت سمیت بکه لازدحام الناس فیها،و ربما قیل إن بکه هی مکه،و أنه من تبدیل المیم باء کما فی قولهم لازم و لازب و راتم و راتب و نحو ذلک،و قیل:هو اسم للحرم،و قیل:المسجد،و قیل:المطاف.

و المبارکه مفاعله من البرکه و هی الخیر الکثیر،فالمبارکه إفاضه الخیر الکثیر علیه و جعله فیه ،و هی و إن کانت تشمل البرکات الدنیویه و الأخرویه،إلا أن ظاهر مقابلتها مع قوله: هُدیً لِلْعٰالَمِینَ أن المراد بها إفاضه البرکات الدنیویه و عمدتها وفور الأرزاق و توفر الهمم و الدواعی إلی عمرانه بالحج إلیه و الحضور عنده و الاحترام له و إکرامه فیئول المعنی إلی ما یتضمنه قوله تعالی فی دعوه إبراهیم: «رَبَّنٰا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی

بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» :إبراهيم-٣٧.

و كونه هدى هو إراءته للناس سعاده آخرتهم،و إيصاله إياهم إلى الكرامه و القرب و الزلفى بما وضعه الله للعباده،و بما شرع عنده من أقسام الطاعات و النسك و لم يزل منذ بناه إبراهيم مقصدا للقاصدين و معبدا للعابدين.

و قد دل القرآن على أن الحج شرع أول ما شرع فی زمن إبراهيم(ع)بعد الفراغ من بنائه،قال تعالى: «وَ عَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعَاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» :البقره-١٢٥،و قال:خطابا لإبراهيم: «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» :الحج-٢٧،و الآيه كما ترى تدل على أن هذا الأذان و الدعوه سيقابل بتلبيه عامه من الناس الأقربين و الأبعدين من العشائر و القبائل.

و دل أيضا على أن هذا الشعار الإلهی كان على استقراره و معروفيته فی زمن شعيب عند الناس كما حكاه الله عنه فی قوله لموسى(ع): «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ» :القصص-٢٧،فقد أراد بالحج سنه و ليس إلا لكون السنين تعد بالحج لتكررها بتكرره.

و كذا فی دعوه إبراهيم(ع)شیء كثير يدل على كون البيت لم يزل معمورا بالعباده آيه فی الهدايه(راجع سوره إبراهيم).

و كان عرب الجاهليه يعظمونه و يأتون بالحج بعنوان أنه من شرع إبراهيم،و قد ذكر التاريخ أن سائر الناس أيضا كانوا يعظمونه،و هذا فی نفسه نوع من الهدايه لما فيه من التوجه إلى الله سبحانه و ذكره،و أما بعد ظهور الإسلام فالأمر أوضح،و قد ملأ ذكره مشارق الأرض و مغاربها،و هو يعرض نفسه لأفهام الناس و قلوبهم بنفسه و بذكره، و فی عبادات المسلمين و طاعاتهم و قيامهم و قعودهم و مذابحهم و سائر شئونهم.

فهو هدى بجميع مراتب الهدايه آخذه من الخطور الذهنی إلى الانقطاع التام الذی لا يمسه إلا المطهرون من عباد الله المخلصين.

على أنه يهدى عالم المسلمين إلى سعادتهم الدنيويه التى هى وحده الكلمه و ائتلاف الأمه و شهاده منافعهم،و يهدى عالم غيرهم بإيقاظهم و تنبيههم إلى ثمرات هذه الوحده و ائتلاف القوى المختلفه المتشتته.

و من هنا يظهر أولا:أنه هدى إلى سعاده الدنيا و الآخره كما أنه هدى بجميع مراتب الهدايه،فالهدايه مطلقه.

و ثانيا:أنه هدى للعالمين لا لعالم خاص و جماعه مخصوصه كآل إبراهيم أو العرب أو المسلمين و ذلك لما فيه من سعه الهدايه.

قوله تعالى: فِيهِ آيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ مَقٰامُ إِبْرٰاهِيمَ ،الآيات و إن وصفت بالبينات، و أفاد ذلك تخصصا ما فى الموصوف إلا أنها مع ذلك لا تخرج عن الإبهام،و المقام مقام بيان مزايا البيت و مفاخره التى بها يتقدم على غيره فى الشرف و لا يناسب ذلك إلا الإتيان ببيان واضح،و الوصف بما لا غبار عليه بالإبهام و الإجمال،و هذا من الشواهد على كون قوله: مَقٰامُ إِبْرٰاهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كٰانَ آمِناً وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ إلى آخر الآيه بيانا لقوله: آيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ فالآيات هى: مَقٰامُ إِبْرٰاهِيمَ ،و تقرير الأمن فيه،و إيجاب حجه على الناس المستطيعين.

لكن لا-كما يتراءى من بعض التفاسير من كون الجمل الثلاث بدلا أو عطف بيان من قوله: آيٰاتٌ لوضوح أن ذلك يحتاج إلى رجوع الكلام بحسب التقدير إلى مثل قولنا:

هى مقام إبراهيم،و الأمن لمن دخله،و حجه لمن استطاع إليه سبيلا،و فى ذلك إرجاع قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ ،سواء كان إنشاء أو إخبارا إلى المفرد بتقدير أن و إرجاع قوله:

وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ

،و هى جمله إنشائيه إلى الخبريه ثم عطفه على الجمله السابقه و تأويلها إلى المفرد بذلك أو بتقدير أن فيها أيضا،و كل ذلك مما لا يساعد عليه الكلام البته.

و إنما سيقت هذه الجمل الثلاث أعنى قوله: مَقٰامُ إِبْرٰاهِيمَ «إلخ»،كل لغرض خاص من إخبار أو إنشاء حكم ثم تتبين بها الآيات فتعطى فائده البيان كما يقال:فلان رجل شريف هو ابن فلان و يقرى الضيف و يجب علينا أن نتبعه.

قوله تعالى: مَقٰامُ إِبْرٰاهِيمَ مبتدأ لخبر محذوف و التقدير فيه مقام إبراهيم،و هو الحجر الذى عليه أثر قدمى إبراهيم الخليل(ع)،و قد استفاض النقل بأن الحجر مدفون

فی المکان الـذی یـدعی الیوم بمقـام إبراهیم علی حـافه المطـاف حیـال الملتزم،و قـد أشار إلیه أبو طالب عم النبی فی قصـیدته اللامیه:

و موطئ إبراهیم فی الصخر رطبه

علی قدمیه حافیا غیر ناعل

و ربما یفهم من قوله: مَقامُ إِبْراهِیمَ أن البیت أو فی البیت موضع قیام إبراهیم بعباده الله سبحانه.

و یمکن أن یکون تقدیر الکلام:هی مقام إبراهیم و الأمن و الحج ثم وضع قوله:

وَ مَنْ دَخَلَهُ

،و قوله: وَ لِلّهِ عَلَی النّاسِ ،و همـا جملتان مشـتملتان علی حکم إنشائی موضع الخبرین،و هـذا من أعاجیب أسـلوب القرآن حیث یسـتخدم الکلاـم المسوق لغرض فی سبیـل غرض آخر فیضـعه موضـعه لینتقل منه إلیه فیفیـد فائـدتین،و یحفظ الجهتین کحکایه الکلام فی موضع الإخبار کقوله: «کُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَ مَلائِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» :البقره-۲۸۵،و کما مر فی قـوله تعـالی «أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِی حَاجَّ إِبْراهِیمَ فِی رَبِّهِ» Xالآیه X:البقره-۲۵۸،و قـوله: «أَوْ کَالَّذِی مَرَّ عَلی قَرْیَهٍ» Xالآیه X:البقره - ۲۵۹،و قـد بینـا النکته فی ذلـک فی تفسـیر الثـانیه ،و کما فی قوله تعالی: «یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلاّ مَنْ أَتَی اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ» :الشعراء-۸۹،و کمـا فی قوله تعالی: «وَ لکِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ Xالآیه X:البقره-۱۷۷،حیث وضع صاحب البر،مکان البر،و کما فی قوله تعـالی: «وَ مَثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا کَمَثَلِ الَّذِی یَنْعِقُ بِما لا یَسْمَعُ» Xالآیه X:البقره-۱۷۱ و مثله غـالب الأمثـال الوارده فی القرآن الکریم.

و علی هذا فوزان قوله: فِیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِیمَ -إلی قوله- عَنِ الْعالَمِینَ فی التردد بین الإنشاء و الإخبار،وزان قوله: «وَ اذْکُرْ عَبْدَنا أَیُّوبَ إِذْ نادی رَبَّهُ أَنِّی مَسَّنِیَ الشَّیْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ ارْکُضْ بِرِجْلِکَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَهً مِنّا وَ ذِکْری لِأُولِی الْأَلْبابِ وَ خُذْ بِیَدِکَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّابٌ» :ص- ۴۴.

و هـذا الـذی ذکرناه غیر ما ذکره بعضـهم من حدیث البدلیه،و إن کان بدلا و لا بد فالأولی جعل قوله: مَقامُ إِبْراهِیمَ بدلا و جعل الجملتین التالیتین مستأنفتین

دالتين على بدلين محذوفين.و التقدير فيه آيات بينات مقام إبراهيم و أمن الداخل و حج المستطيع للبيت.

و لا ريب فى كون كل واحد من هذه الأمور آيه بينه داله بوقوعها على الله سبحانه مذكره لمقامه إذ ليست الآيه إلا العلامه الداله على الشيء بوجه،و أى علامه داله عليه تعالى مذكره لمقامه أعظم و أجلى فى نظر أهل الدنيا من موقف إبراهيم و من حرم آمن يأمن من دخله و من مناسك و عبادات يأتى بها الألوف بعد الألوف من الناس تتكرر بتكرر السنين،و لا تنسخ بانتساخ الليالى و الأيام،و أما كون كل آيه أمرا خارقا للعاده ناقضا لسنه الطبيعه فليس من الواجب،و لا لفظ الآيه بمفهومه يدل عليه،و لا استعماله فى القرآن ينحصر فيه.قال تعالى: «مٰا نَنْسَخْ مِنْ آيَهٍ أَوْ نُنْسِهٰا» XالآيهX:البقره -۱۰۶،و هى تشمل الأحكام المنسوخه فى الشرع قطعا،و قال تعالى: «أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَهً تَعْبَثُونَ» :الشعراء-۱۲۸،إلى غير ذلك من الآيات.

و من هنا يظهر ما فى إصرار بعض المفسرين على توجيه كون المقام آيه خارقه، و كون الأمن و الحج مذكورين لغير غرض بيان الآيه.

و كذا إصرار آخرين على أن المراد بالآيات البينات أمور أخر من خواص الكعبه (و قد أغمضنا عن ذكرها،و من أرادها فليراجع بعض مطولات التفاسير)فإن ذلك مبنى على كون المراد من الآيات الآيات المعجزه و خوارق العاده،و لا دليل على ذلك كما مر.

فالحق أن قوله: وَ مَنْ دَخَلَهُ كٰانَ آمِناً :مسوق لبيان حكم تشريعى لا خاصه تكوينيه غير أن الظاهر أن يكون الجمله إخباريه يخبر بها عن تشريع سابق للأمن كما ربما استفيد ذلك من دعوه إبراهيم المذكوره فى سورتى إبراهيم و البقره و قد كان هذا الحق محفوظا للبيت قبل البعثه بين عرب الجاهليه و يتصل بزمن إبراهيم(ع).

و أما كون المراد من حديث الأمن هو الإخبار بأن الفتن و الحوادث العظام لا تقع و لا ينسحب ذيلها إلى الحرم فيدفعه وقوع ما وقع من الحروب و المقاتلات و اختلال الأمن فيه،و خاصه ما وقع منها قبل نزول هذه الآيه،و قوله تعالى «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنّٰا جَعَلْنٰا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النّٰاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» :العنكبوت-۶۷،لا يدل على أزيد من استقرار الأمن و استمراره فى الحرم،و ليس ذلك إلا لما يراه الناس من

حرمه هذا البیت و وجوب تعظیمه الثابت فی شریعه إبراهیم(ع)و ینتهی بالأخره إلی جعله سبحانه و تشریعه.

و کذا ما وقع فی دعاء إبراهیم المحکی فی قوله تعالی: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» :إبراهیم-۳۵،و قوله: «رَبِّ اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً آمِناً» :البقره-۱۲۶،حیث سأل الأمن لبلد مکه فأجابه الله بتشریع الأمن و سوق الناس سوقا قلبیا إلی تسلیم ذلک و قبوله زمانا بعد زمان.

قوله تعالی: وَ لِلّٰهِ عَلَی النّٰاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطٰاعَ إِلَیْهِ سَبِیلاً ، الحج بالکسر (و قرئ بالفتح)هو القصد ثم اختص استعماله بقصد البیت علی نهج مخصوص بینه الشرع،و قوله: سَبِیلاً تمییز من قوله: اِسْتَطٰاعَ .

و الآیه تتضمن تشریع الحج إمضاء لما شرع لإبراهیم(ع)کما یدل علیه قوله تعالی حکایه لما خوطب به إبراهیم: «وَ أَذِّنْ فِی النّٰاسِ بِالْحَجِّ» :XالآیهXالحج-۲۷،و من هنا یظهر أن وزان قوله: وَ لِلّٰهِ عَلَی النّٰاسِ «إلخ»وزان قوله تعالی: وَ مَنْ دَخَلَهُ کٰانَ آمِناً فی کونه إخبارا عن تشریع سابق و إن کان من الممکن أن یکون إنشاء علی نحو الإمضاء لکن الأظهر من السیاق هو الأول کما لا یخفی.

قوله تعالی: وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعٰالَمِینَ ،الکفر هاهنا من الکفر بالفروع نظیر الکفر بترک الصلوه و الزکاه فالمراد بالکفر الترک.و الکلام من قبیل وضع المسبب أو الأثر مقام السبب أو المنشإ کما أن قوله: فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِیٌّ «إلخ»من قبیل وضع العله موضع المعلول،و التقدیر:و من ترک الحج فلا یضر الله شیئا فإن الله غنی عن العالمین.

(بحث روائی)

عن ابن شهرآشوب عن أمیر المؤمنین(ع): فی قوله تعالی: إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ : الآیه-فقال له رجل أ هو أول بیت؟قال لا قد کان قبله بیوت،و لکنه أول بیت وضع للناس مبارکا،فیه الهدی و الرحمه و البرکه.و أول من بناه إبراهیم،ثم بناه قوم من العرب من جرهم-ثم هدم فبنته العمالقه ثم هدم فبناه قریش.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم من طریق الشعبی عن علی بن أبی طالب: فی قوله «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ قال:کانت البیوت قبله و لکنه کان أول بیت وضع لعباده الله).

أقول:و رواه أیضا عن ابن جریر عن مطر مثله،

و الروایات فی هذه المعانی کثیره.

و فی العلل،عن الصادق(ع): موضع البیت بکه،و القریه مکه.

و فیه،أیضا عنه(ع): إنما سمیت بکه بکه لأن الناس یبکون فیها.

أقول:یعنی یزدحمون.

و فیه،عن الباقر(ع): إنما سمیت مکه بکه لأنه یبک بها الرجال و النساء، و المرأه تصلی بین یدیک،و عن یمینک،و عن شمالک و معک-و لا بأس بذلک إنما یکره ذلک فی سائر البلدان.

و فیه،عن الباقر(ع)قال: لما أراد الله أن یخلق الأرض أمر الریاح-فضربن متن الماء حتی صار موجا ثم أزبد فصار زبدا واحدا-فجمعه فی موضع البیت ثم جعله جبلا-من زبد-ثم دحی الأرض من تحته و هو قول الله:- إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّٰاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ مُبٰارَكاً ،فأول بقعه خلقت من الأرض الکعبه-ثم مدت الأرض منها.

أقول:و الأخبار فی دحو الأرض من تحت الکعبه کثیره،و لیست مخالفه للکتاب،و لا أن هناک برهانا یدفع ذلک غیر ما کانت تزعمه القدماء من علماء الطبیعه أن الأرض عنصر بسیط قدیم،و قد بان بطلان هذا القول بما لا یحتاج إلی بیان.

و هذا تفسیر ما ورد من الروایات فی أن الکعبه أول بیت(أی بقعه)فی الأرض و إن کان الظاهر من الآیه ما تشتمل علیه الروایتان الأولیان.

و فی الکافی،و تفسیر العیاشی،عن الصادق(ع): فی قوله تعالی: فِيهِ آيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ :

أنه سئل ما هذه الآیات البینات؟قال:مقام إبراهیم حیث قام علی الحجر فأثرت فیه قدماه،و الحجر الأسود،و منزل إسماعیل.

أقول:و فی هذا المعنی روایات أخر،و لعل ذکره هذه الأمور من باب العد و إن لم تشتمل علی بعضها الآیه.

و فی تفسیر العیاشی،عن عبد الصمد،قال: طلب أبو جعفر أن یشتری من أهل مکه بیوتهم-أن یزید فی المسجد فأبوا فأرغبهم فامتنعوا-فضاق بذلک فأتی أبا عبد الله (ع)فقال له:إنی سألت هؤلاء شیئا من منازلهم و أفنیتهم-لنزید فی المسجد و قد منعوا فی ذلک فقد غمنی غما شدیدا،فقال أبو عبد الله(ع):لم یغمک ذلک و حجتک علیهم فیه ظاهره،فقال:و بما أحتج علیهم؟فقال:بکتاب الله،فقال:فی أی موضع؟فقال:قول الله:- إِنَّ أَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذِی بِبَکَّهَ ،و قد أخبرک الله:

أن أول بیت وضع للناس هو الذی ببکه-فإن کانوا هم تولوا قبل البیت فلهم أفنیتهم، و إن کان البیت قدیما فیهم فله فناؤه،فدعاهم أبو جعفر فاحتج علیهم بهذا فقالوا له:

اصنع ما أحببت.

و فیه،عن الحسن بن علی بن النعمان،قال: لما بنی المهدی فی المسجد الحرام-بقیت دار فی تربیع المسجد فطلبها من أربابها فامتنعوا-فسأل عن ذلک الفقهاء فکل قال له:

إنه لا ینبغی أن تدخل شیئا فی المسجد الحرام غصبا،فقال له علی بن یقطین:یا أمیر المؤمنین-إنی أکتب إلی موسی بن جعفر(ع)لأخبرک بوجه الأمر فی ذلک-فکتب إلی والی المدینه أن یسأل موسی بن جعفر(ع)-عن دار أردنا أن ندخلها فی المسجد الحرام-فامتنع علیها صاحبها،فکیف المخرج من ذلک؟.

فقال ذلک لأبی الحسن(ع)،فقال أبو الحسن(ع):فلا بد من الجواب فی هذا؟فقال له:الأمر لا بد منه،فقال له:اکتب-بسم الله الرحمن الرحیم-إن کانت الکعبه هی النازله بالناس فالناس أولی بفنائها،و إن کان الناس هم النازلون بفناء الکعبه-فالکعبه أولی بفنائها.

فلما أتی الکتاب إلی المهدی أخذ الکتاب فقبله-ثم أمر بهدم الدار فأتی أهل الدار أبا الحسن(ع)-فسألوه أن یکتب إلی المهدی کتابا فی ثمن دارهم-فکتب إلیه أن أوضح (۱)لهم شیئا فأرضاهم.

أقول:و الروایتان مشتملتان علی استدلال لطیف،و کان أبو جعفر المنصور کان هو البادئ بتوسعه المسجد الحرام ثم تم الأمر للمهدی.

۱- ۱) ارضخ(خ).

و فی الکافی،عن الصادق(ع): فی قوله تعالی: وَ لِلّٰهِ عَلَی النّٰاسِ حِجُّ الْبَیْتِ «إلخ»، یعنی به الحج و العمره جمیعا لأنهما مفروضان.

أقول:و رواه العیاشی فی تفسیره،و قد فسر الحج فیه بمعناه اللغوی و هو القصد.

و فی تفسیر العیاشی،عن الصادق(ع):

وَ مَنْ کَفَرَ

قال:ترک.

أقول:و رواه الشیخ فی التهذیب،و قد عرفت أن الکفر ذو مراتب کالإیمان، و أن المراد منه الکفر بالفروع.

و فی الکافی،عن علی بن جعفر عن أخیه موسی(ع)فی حدیث قال: قلت:

فمن لم یحج منا فقد کفر؟قال:لا،و لکن من قال:لیس هذا هکذا فقد کفر.

أقول:و الروایات فی هذه المعانی کثیره،و الکفر فی الروایه بمعنی الرد، و الآیه تحتمله، فالکفر فیها بمعناه اللغوی و هو الستر علی الحق،و علی حسب الموارد تتعین له مصادیق.

(بحث تاریخی) [ملخص تاریخ الکعبه]

من المتواتر المقطوع به أن الذی بنی الکعبه إبراهیم الخلیل(ع)و کان القاطنون حولها یومئذ ابنه إسماعیل و جرهم من قبائل الیمن و هی بناء مربع تقریبا و زوایاها الأربع إلی الجهات الأربع تتکسر علیها الریاح و لا تضرها مهما اشتدت.

ما زالت الکعبه علی بناء إبراهیم حتی جددها العمالقه ثم بنو جرهم(أو بالعکس) کما مر فی الروایه عن أمیر المؤمنین(ع).

ثم لما آل أمر الکعبه إلی قصی بن کلاب أحد أجداد النبی ص(القرن الثانی قبل الهجره)هدمها و بناها فأحکم بناءها،و سقفها بخشب الدوم و جذوع النخل و بنی إلی جانبها دار الندوه،و کان فی هذه الدار حکومته و شوراه مع أصحابه،ثم قسم جهات الکعبه بین طوائف قریش فبنوا دورهم علی المطاف حول الکعبه،و فتحوا علیه أبواب دورهم.

[بناء الکعبه]

و قبل البعثه بخمس سنین هدم السیل الکعبه فاقتسمت الطوائف العمل لبنائها

ص :۳۵۸

و کان الذی یبنیها یاقوم الرومی،و یساعده علیه نجار مصری،و لما انتهوا إلی وضع الحجر الأسود تنازعوا بینهم فی أن أیها یختص بشرف وضعه فرأوا أن یحکموا محمدا ص،و سنه إذ ذاک خمس و ثلاثون سنه لما عرفوا من وفور عقله و سداد رأیه،فطلب رداء و وضع علیه الحجر،و أمر القبائل فأمسکوا بأطرافه و رفعوه حتی إذا وصل إلی مکانه من البناء فی الرکن الشرقی أخذه هو فوضعه بیده فی موضعه.

و کانت النفقه قد بهظتهم فقصروا بناءها علی ما هی علیه الآن و قد بقی بعض ساحته خارج البناء من طرف الحجر حجر إسماعیل لاستصغارهم البناء.

و کان البناء علی هذا الحال حتی تسلط عبد الله بن الزبیر علی الحجاز فی عهد یزید بن معاویه فحاربه الحصین قائد یزید بمکه،و أصاب الکعبه بالمنجنیق فانهدمت و أحرقت کسوتها و بعض أخشابها،ثم انکشف عنها لموت یزید،فرأی ابن الزبیر أن یهدم الکعبه و یعید بناءها فأتی لها بالجص النقی من الیمن،و بناها به و أدخل الحجر فی البیت،و ألصق الباب بالأرض،و جعل قبالته بابا آخر لیدخل الناس من باب و یخرجوا من آخر،و جعل ارتفاع البیت سبعه و عشرین ذراعا و لما فرغ من بنائها ضمخها بالمسک و العبیر داخلا و خارجا،و کساها بالدیباج،و کان فراغه من بنائها ۱۷ رجب سنه ۶۴ هجریه.

ثم لما تولی عبد الملک بن مروان الخلافه بعث الحجاج بن یوسف قائده فحارب ابن الزبیر حتی غلبه فقتله،و دخل البیت فأخبر عبد الملک بما أحدثه ابن الزبیر فی الکعبه،فأمره بإرجاعها إلی شکلها الأول،فهدم الحجاج من جانبها الشمالی سته أذرع و شبرا،و بنی ذلک الجدار علی أساس قریش،و رفع الباب الشرقی و سد الغربی ثم کبس أرضها بالحجاره التی فضلت منها.

و لما تولی السلطان سلیمان العثمانی الملک سنه ستین و تسعمائه غیر سقفها،و لما تولی السلطان أحمد العثمانی سنه إحدی و عشرین بعد الألف أحدث فیها ترمیما و لما حدث السیل العظیم سنه تسع و ثلاثین بعد الألف هدم بعض حوائطها الشمالیه و الشرقیه و الغربیه فأمر السلطان مراد الرابع من ملوک آل عثمان بترمیمها و لم یزل علی ذلک حتی الیوم و هو سنه ألف و ثلاث مائه و خمس و سبعین هجریه قمریه و سنه ألف و ثلاثمائه و ثمانیه و ثلاثین هجریه شمسیه.

شكل الكعبه:

شكل الكعبه مربع تقريبا و هى مبنيه بالحجاره الزرقاء الصلبه و يبلغ ارتفاعها سته عشر مترا،و قد كانت فى زمن النبى ص أخفض منه بكثير على ما يستفاد من حديث رفع النبى ص عليا(ع)على عاتقه يوم الفتح لأخذ الأصنام التى كانت على الكعبه و كسرها.

و طول الضلع الذى فيه الميزاب و الذى قبالته عشره أمتار و عشره سانتيمترات، و طول الضلع الذى فيه الباب و الذى قبالته اثنا عشر مترا،و الباب على ارتفاع مترين من الأرض،و فى الركن الذى على يسار الباب للداخل،الحجر الأسود على ارتفاع متر و نصف من أرض المطاف،و الحجر الأسود حجر ثقيل بيضى الشكل غير منتظم لونه أسود ضارب إلى الحمره،و فيه نقط حمراء،و تعاريج صفراء،و هى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه،قطره نحو ثلاثين سانتى مترا.

و تسمى زوايا الكعبه من قديم أيامها بالأركان فيسمى الشمالى بالركن العراقى، و الغربى بالشامى و الجنوبى باليمانى،و الشرقى الذى فيه الحجر الأسود بالأسود،و تسمى المسافه التى بين الباب و ركن الحجر بالملتزم لالتزام الطائف إياه فى دعائه و استغاثته، و أما الميزاب على الحائط الشمالى و يسمى ميزاب الرحمه فمما أحدثه الحجاج بن يوسف ثم غيره السلطان سليمان سنه ۹۵۴ إلى ميزاب من الفضه ثم أبدله السلطان أحمد سنه ۱۰۲۱ بآخر من فضه منقوشه بالميناء الزرقاء يتخللها نقوش ذهبيه،ثم أرسل السلطان عبد المجيد من آل عثمان سنه ۱۲۷۳ ميزابا من الذهب فنصب مكانه و هو الموجود الآن.

و قباله الميزاب حائط قوسى يسمى بالحطيم،و هو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت الشماليه و الغربيه،و يبعدان عنهما مقدار مترين و ثلاثه سانتيمترات، و يبلغ ارتفاعه مترا،و سمكه مترا و نصف متر،و هو مبطن بالرخام المنقوش، و المسافه بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبه ثمانيه أمتار و أربعه و أربعون سانتى مترا.

و الفضاء الواقع بين الحطيم و بين حائط البيت هو المسمى بحجر إسماعيل،و قد كان يدخل منه ثلاثه أمتار تقريبا فى الكعبه فى بناء إبراهيم،و الباقى كان زريبه لغنم هاجر و ولدها،و يقال:إن هاجر و إسماعيل مدفونان فى الحجر.

و أما تفصيل ما وقع فى داخل البيت من تغيير و ترميم،و ما للبيت من السنن

و التشریفات فلا یهمنا التعرض له.

کسوه الکعبه:

قد تقدم فی ما نقلناه من الروایات فی سوره البقره فی قصه هاجر و إسماعیل و نزولهما أرض مکه أن هاجر علق کساءها علی باب الکعبه بعد تمام بنائها.

و أما کسوه البیت نفسه فیقال:إن أول من کساها تبع أبو بکر أسعد کساها بالبرود المطرزه بأسلاک الفضه،و تبعه خلفاؤه ثم أخذ الناس یکسونها بأردیه مختلفه فیضعونها بعضها علی بعض،و کلما بلی منها ثوب وضع علیها آخر إلی زمن قصی، و وضع قصی علی العرب رفاده لکسوتها سنویا و استمر ذلک فی بنیه و کان أبو ربیعه بن المغیره یکسوها سنه و قبائل قریش سنه.

و قد کساها النبی ص بالثیاب الیمانیه،و کان علی ذلک حتی إذا حج الخلیفه العباسی المهدی شکی إلیه سدنه الکعبه من تراکم الأکسیه علی سطح الکعبه، و ذکروا أنه یخشی سقوطه فأمر برفع تلک الأکسیه،و إبدالها بکسوه واحده کل سنه،و جری العمل علی ذلک حتی الیوم ،و للکعبه کسوه من داخل،و أول من کساها من داخل أم العباس بن عبد المطلب لنذر نذرته فی ابنها العباس.

منزله الکعبه:

کانت الکعبه مقدسه معظمه عند الأمم المختلفه فکانت الهنود یعظمونها،و یقولون:إن روح«سیفا»و هو الأقنوم الثالث عندهم حلت فی الحجر الأسود حین زار مع زوجته بلاد الحجاز.

و کانت الصابئه من الفرس و الکلدانیین یعدونها أحد البیوت السبعه المعظمه (۱)، و ربما قیل:إنه بیت زحل لقدم عهده و طول بقائه.

و کانت الفرس یحترمون الکعبه أیضا زاعمین أن روح هرمز حلت فیها،و ربما حجوا إلیها زائرین.

و کانت الیهود یعظمونها و یعبدون الله فیها علی دین إبراهیم،و کان بها صور

---

۱ - ۱) البیوت المعظمه هی:۱-الکعبه،۲-مارس علی رأس جبل بأصفهان،۳-مندوسان ببلاد الهند،۴-نوبهار بمدینه بلخ،۵-بیت غمدان بمدینه صنعاء،۶-کاوسان بمدینه فرغانه من خراسان،۷-بیت بأعالی بلاد الصین.

و تماثيل منها تمثال إبراهيم و إسماعيل،و بأيديهما الأزلام،و منها صورتا العذراء و المسيح، و يشهد ذلك على تعظيم النصارى لأمرها أيضا كاليهود.

و كانت العرب أيضا تعظمها كل التعظيم،و تعدها بيتا لله تعالى،و كانوا يحجون إليها من كل جهه و هم يعدون البيت بناء لإبراهيم،و الحج من دينه الباقى بينهم بالتوارث.

ولايه الكعبه:

كانت الولايه على الكعبه لإسماعيل ثم لولده من بعده حتى تغلبت عليهم جرهم فقبضوا بولايتها ثم ملكتها العماليق و هم طائفه من بنى كركر بعد حروب وقعت بينهم،و قد كانوا ينزلون أسفل مكه كما أن جرهم كانت تنزل أعلى مكه و فيهم ملوكهم.

ثم كانت الدائره لجرهم على العماليق فعادت الولايه إليهم فتولوها نحو من ثلاثمائه سنه،و زادوا فى بناء البيت و رفعته على ما كان فى بناء إبراهيم.

ثم لما نشأت ولد إسماعيل و كثروا و صاروا ذوى قوه و منعه و ضاقت بهم الدار حاربوا جرهم فغلبوهم و أخرجوهم من مكه و مقدم الإسماعيليين يومئذ عمرو بن لحى، و هو كبير خزاعه فاستولى على مكه و تولى أمر البيت،و هو الذى وضع الأصنام على الكعبه و دعا الناس إلى عبادتها،و أول صنم وضعه عليها هو«هبل»،حمله معه من الشام إلى مكه و وضعه عليها ثم أتبعه بغيره حتى كثرت و شاعت عبادتها بين العرب، و هجرت الحنيفيه.

و فى ذلك يقول شحنه بن خلف الجرهمى يخاطب عمرو بن لحى.

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهه

شتى بمكه حول البيت أنصابا

و كان للبيت رب واحد أبدا

فقد جعلت له فى الناس أربابا

لتعرفن بأن الله فى مهل

سيصطفى دونكم للبيت حجابا

و كانت الولايه فى خزاعه إلى زمن حليل الخزاعى فجعلها حليل من بعده لابنته و كانت تحت قصى بن كلاب،و جعل فتح الباب و غلقها لرجل من خزاعه يسمى أبا غبشان الخزاعى فباعه أبو غبشان من قصى بن كلاب ببعير و زق خمر،و فى ذلك يضرب المثل السائر«أخسر ممن صفقه أبى غبشان».

فانتقلت الولایه إلی قریش،و جدد قصی بناء البیت کما قدمناه و کان الأمر علی

ص :۳۶۲

ذلك حتى فتح النبى ص مكه،و دخل الكعبه و أمر بالصور و التماثيل فمحيت، و أمر بالأصنام فهدمت و كسرت،و قد كان مقام إبراهيم و هو الحجر الذى عليه أثر قدمى إبراهيم موضوعا بمعجن فى جوار الكعبه ثم دفن فى محله الذى يعرف به الآن، و هو قبه قائمه على أربعه أعمده يقصدها الطائفون للصلاه.

و أخبار الكعبه و ما يتعلق بها من المعاهد الدينيه كثيره طويله الذيل اقتصرنا منها على ما تمسه حاجه الباحث المتدبر فى آيات الحج و الكعبه.

و من خواص هذا البيت الذى بارك الله فيه و جعله هدى أنه لم يختلف فى شأنه أحد من طوائف الإسلام .

[سوره آل عمران (۳): الآيات ۹۸ الى ۱۰۱]

اشاره

قُلْ يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ شَهِيدٌ عَلىٰ مٰا تَعْمَلُونَ (۹۸) قُلْ يٰا أَهْلَ اَلْكِتٰابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَدٰاءُ وَ مَا اَللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ (۹۹) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمٰانِكُمْ كٰافِرِينَ (۱۰۰) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ آيٰاتُ اَللّٰهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۰۱)

بيان

الآيات كما ترى باتصال السياق تدل على أن أهل الكتاب(فريق منهم و هم اليهود أو فريق من اليهود)كانوا يكفرون بآيات الله،و يصدون المؤمنين عن سبيل الله بإراءته إياهم عوجا غير مستقيم،و تمثيل سبيل الضلال المعوج المنحرف سبيلا لله،

و ذلك بإلقاء شبهات إلى المؤمنين يرون بها الحق باطلا،و الباطل الذى يدعونهم إليه حقا،و الآيات السابقه تدل على ما انحرفوا فيه من إنكار حليه كل الطعام قبل التوراه، و إنكار نسخ استقبال بيت المقدس،فهذه الآيات متممات للآيات السابقه المتعرضه لحل الطعام قبل التوراه،و كون الكعبه أول بيت وضع للناس فهى تشتمل على الإنكار و التوبيخ لليهود فى إلقائهم الشبهات و تفتينهم المؤمنين فى دينهم،و تحذير للمؤمنين أن يطيعوهم فيما يدعون إليه فيكفروا بالدين،و ترغيب و تحريص لهم أن يعتصموا بالله فيهتدوا إلى صراط الإيمان و تدوم هدايتهم.

و قد ورد عن زيد بن أسلم كما رواه السيوطى فى لباب النقول،على ما قيل (۱): أن شاش بن قيس-و كان يهوديا-مر على نفر من الأوس و الخزرج يتحدثون-فغاظه ما رأى من تألفهم بعد العداوه-فأمر شابا معه من اليهود أن يجلس بينهم-فيذكرهم يوم بعاث ففعل،فتنازعوا و تفاخروا-حتى وثب رجلان.أوس بن قرظى من الأوس، و جبار بن صخر من الخزرج فتقاولا و غضب الفريقان،و تواثبوا للقتال فبلغ ذلك رسول الله ص فجاء-حتى وعظهم و أصلح بينهم فسمعوا و أطاعوا-فأنزل الله فى أوس و جبار:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً-مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

الآيه،و فى شاش بن قيس:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

الآيه.

و الروايه مختصره مستخرجه مما رواه فى الدر المنثور،عن زيد بن أسلم مفصلا و روى ما يقرب منها عن ابن عباس و غيره.

و كيف كان،الآيات أقرب انطباقا على ما ذكرنا منها على الروايه كما هو ظاهر، على أن الآيات يذكر الكفر و الإيمان،و شهاده اليهود،و تلاوه آيات الله على المؤمنين، و نحو ذلك،و كل ذلك لما ذكرناه أنسب،و يؤيد ذلك قوله تعالى: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» :XالآيهXالبقره- ۱۰۹ فالحق كما ذكرنا أن الآيات متممه لسابقتها.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ «إلخ»،المراد بالآيات بقرينه وحده السياق حليه الطعام قبل نزول التوراه،و كون القبله هى الكعبه فى الإسلام.

۱- ۱) المجلد الرابع من تفسير المنار:سوره آل عمران-تفسير الآيه.

قوله تعالی: قُلْ یٰا أَهْلَ الْکِتٰابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ إلی قوله: عِوَجاً ، الصد الصرف،و قوله: تَبْغُونَهٰا أی تطلبون السبیل،و قوله: عِوَجاً : العوج المعطوف المحرف،و المراد طلب سبیل الله معوجا من غیر استقامه.

قوله تعالی: وَ أَنْتُمْ شُهَدٰاءُ ،أی تعلمون أن الطعام کان حلا قبل نزول التوراه و أن من خصائص النبوه تحویل القبله إلی الکعبه،و قد حاذی فی عدهم شهداء فی هذه الآیه ما فی الآیه السابقه من عد نفسه تعالی شهیدا علی فعلهم و کفرهم،و فیه من اللطف ما لا یخفی فهم شهداء علی حقیقه ما ینکرونه و الله شهید علی إنکارهم و کفرهم.

و لما نسب الشهاده إلیهم فی هذه الآیه أبدل ما ذیل به الآیه السابقه أعنی قوله: وَ اللّٰهُ شَهِیدٌ عَلیٰ مٰا تَعْمَلُونَ من قوله فی ذیل هذه الآیه .وَ مَا اللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ فأفاد ذلک أنهم شهداء علی الحقیه،و الله سبحانه شهید علی الجمیع.

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا -إلی قوله:- وَ فِیکُمْ رَسُولُهُ ،المراد بالفریق کما تقدم هم الیهود أو فریق منهم،و قوله تعالی: وَ أَنْتُمْ تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ آیٰاتُ اللّٰهِ وَ فِیکُمْ رَسُولُهُ أی یمکنکم أن تعتصموا بالحق الذی یظهر لکم بالإنصات إلی آیات الله و التدبر فیها ثم الرجوع فیما خفی علیکم منها لقله التدبر أو الرجوع ابتداء إلی رسوله الذی هو فیکم غیر محتجب عنکم و لا بعید عنکم،و استظهار الحق بالرجوع إلیه ثم إبطال شبهه ألقتها الیهود إلیکم و التمسک بآیات الله و برسوله و الاعتصام بهما اعتصام بالله، وَ مَنْ یَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ فَقَدْ هُدِیَ إِلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ .

فالمراد بالکفر فی قوله: وَ کَیْفَ تَکْفُرُونَ ،الکفر بعد الإیمان،و قوله: وَ أَنْتُمْ تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ ،کنایه من إمکان الاعتصام فی الاجتناب عن الکفر بآیات الله و برسوله، و قوله: وَ مَنْ یَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ ،بمنزله الکبری الکلیه لذلک و المراد بالهدایه إلی صراط مستقیم الاهتداء إلی إیمان ثابت و هو الصراط الذی لا یختلف و لا یتخلف أمره،و یجمع سالکیه فی مستواه و لا یدعهم یخرجون عن الطریق فیضلوا.

و فی تحقیق الماضی فی قوله: فَقَدْ هُدِیَ ،مع حذف الفاعل دلاله علی تحقق الفعل من غیر شعور بفاعله.

و یتبین من الآیه أن الکتاب و السنه کافیان فی الدلاله علی کل حق یمکن أن یضل فیه.

ص :۳۶۵

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۰۲ الی ۱۱۰]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِتَّقُوا اَللّهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ وَ لاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّٰ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۲) وَ اِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اَللّهِ جَمِیعاً وَ لاٰ تَفَرَّقُوا وَ اُذْکُرُوا
نِعْمَتَ اَللّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ کُنْتُمْ أَعْدٰاءً فَأَلَّفَ بَیْنَ قُلُوبِکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوٰاناً وَ کُنْتُمْ عَلیٰ شَفٰا حُفْرَهٍ مِنَ اَلنّٰارِ فَأَنْقَذَکُمْ مِنْهٰا کَذٰلِکَ
یُبَیِّنُ اَللّهُ لَکُمْ آیٰاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰۳) وَ لْتَکُنْ مِنْکُمْ أُمَّهٌ یَدْعُونَ إِلَی اَلْخَیْرِ وَ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمُنْکَرِ وَ أُولٰئِکَ
هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۱۰۴) وَ لاٰ تَکُونُوا کَالَّذِینَ تَفَرَّقُوا وَ اِخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ اَلْبَیِّنٰاتُ وَ أُولٰئِکَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِیمٌ (۱۰۵) یَوْمَ
تَبْیَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا اَلَّذِینَ اِسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِیمٰانِکُمْ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ (۱۰۶) وَ أَمَّا
اَلَّذِینَ اِبْیَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِی رَحْمَتِ اَللّهِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۱۰۷) تِلْکَ آیٰاتُ اَللّهِ نَتْلُوهٰا عَلَیْکَ بِالْحَقِّ وَ مَا اَللّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعٰالَمِینَ
(۱۰۸) وَ لِلّهِ مٰا فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِی اَلْأَرْضِ وَ إِلَی اَللّهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (۱۰۹) کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّٰاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ
تَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمُنْکَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ اَلْکِتٰابِ لَکٰانَ خَیْراً لَهُمْ مِنْهُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ وَ أَکْثَرُهُمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۱۱۰)

ص: ۳۶۶

بیان

الآیات من تتمه ما خاطب به المؤمنین بالتحذیر من أهل الکتاب و تفتینهم،و أن عندهم ما یمکنهم أن یعتصموا به فلا یضلوا و لا یسقطوا فی حفر المهالک،و هی مع ذلک کلام اعتقبه کلام،و لا تغیر السیاق السابق أعنی أن التعرض لحال أهل الکتاب لم یختتم بعد،و الدلیل علی ذلک قوله تعالی بعد هذه الآیات: لَنْ یَضُرُّوکُمْ إِلاّٰ أَذیً «إلخ».

قوله تعالی: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ ،قد مر فیما مر أن التقوی و هو نوع من الاحتراز إذا کان تقوی الله سبحانه کان تجنبا و تحرزا من عذابه کما قال تعالی: «فَاتَّقُوا النّٰارَ الَّتِی وَقُودُهَا النّٰاسُ وَ الْحِجٰارَةُ» :البقره-۲۴،و ذلک إنما یتحقق بالجری علی ما یریده و یرتضیه فهو امتثال أوامره تعالی،و الانتهاء عن نواهیه،و الشکر لنعمه،و الصبر عند بلائه،و یرجع الأخیران جمیعا إلی الشکر بمعنی وضع الشیء موضعه و بالجمله تقوی الله سبحانه أن یطاع و لا یعصی و یخضع له فیما أعطی أو منع.

لکنه إذا أخذ التقوی حق التقوی الذی لا یشوبه باطل فاسد من سنخه کان محض العبودیه التی لا تشوبها إنیه و غفله و هی الطاعه من غیر معصیه،و الشکر من غیر کفر،و الذکر من غیر نسیان،و هو الإسلام الحق أعنی الدرجه العلیا من درجاته، و علی هذا یرجع معنی قوله: وَ لاٰ تَمُوتُنَّ إِلاّٰ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ إلی نحو قولنا:و دوموا علی هذه الحال(حق التقوی)حتی تموتوا.

و هذا المعنی غیر ما یستفاد من قوله تعالی: «فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» :التغابن- ۱۶،فإن هذه الآیه فی معنی أن لا تذروا التقوی فی شیء مما تستطیعونه غیر أن الاستطاعه تختلف باختلاف قوی الأشخاص و أفهامهم و هممهم،و لا ریب أن حق التقوی بالمعنی الذی ذکرناه لیس فی وسع کثیر من الناس،فإن فی هذا المسیر الباطنی مواقف و معاهد و مخاطر لا یعقلها إلا العالمون،و دقائق و لطائف لا یتنبه لها إلا المخلصون،فرب مرحله من مراحل التقوی لا یصدق الفهم العامی بکونها مما تستطیعه النفس الإنسانیه فیجزم بکونها غیر مستطاعه و إن کان أهل التقوی الحقه خلفوها وراء ظهورهم،و أقبلوا بهممهم علی ما هو أشق و أصعب.

فقوله: فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ الآیه کلام یتلقاه الأفهام المختلفه بمعان مختلفه علی

حسب ما يطبقه كل فهم على ما يستطيعه صاحبه ثم يكون ذلك وسيله ليفهم من هذه الآيه أعنى قوله ،اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَ لاَ تَمُوتُنَّ إِلاّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أن المراد أن يقعوا فى صراط حق التقوى،و يقصدوا نيل هذا المقام و الشخوص و المثول فيه،و ذلك نظير الاهتداء إلى الصراط المستقيم الذى لا يتمكن منه إلا الأوحديون،و مع ذلك يدعى إليه جميع الناس،فيكون محصل الآيتين:(اِتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ - فَاتَّقُوا اللّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)أن يندب جميع الناس و يدعوا إلى حق التقوى ثم يؤمروا بالسير إلى هذا المقصد ما قدروا و استطاعوا،و ينتج ذلك أن يقع الجميع فى صراط التقوى إلا أنهم فى مراحل مختلفه،و على درجات مختلفه على طبق ما عندهم من الأفهام و الهمم،و على ما يفاض عليهم من توفيق الله و تأييده و تسديده،فهذا ما يعطيه التدبر فى معنى الآيتين.

و منه يظهر:أن الآيتين غير مختلفتين بحسب المضمون،و لا أن الآيه الأولى أعنى قوله: اِتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ الآيه،أريد بها عين ما أريد من قوله: فَاتَّقُوا اللّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ الآيه،بل الآيه الأولى تدعو إلى المقصد و الثانيه تبين كيفيه السلوك.

قوله تعالى: وَ لاَ تَمُوتُنَّ إِلاّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ الموت من الأمور التكوينيه التى هى خارجه عن حومه اختيارنا،و لذلك يكون الأمر و النهى المتعلقان به و بأمثاله أمرا و نهيا تكوينيين كقوله: «فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُوا» :البقره-۲۴۳،و قوله: «أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» :يس-۸۲،إلا أنه ربما يجعل الأمر غير الاختيارى مضافا إلى أمر اختيارى فيتركبان بنحو و ينسب المركب إلى الاختيار فيتأتى الأمر و النهى الاعتبارى حينئذ كقوله تعالى: «فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» :البقره-۱۴۷،و قوله: «وَ لاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ» :هود-۴۲،و قوله: «وَ كُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ» :التوبه-۱۱۹،و غير ذلك،فإن أصل الكون لازم تكوينى للإنسان لا أثر لاختياره فيه لكنه بارتباطه بأمر اختيارى كالامتراء و الكفر و التزام الصدق مثلا يعد أمرا اختياريا فيؤمر به و ينهى عنه أمرا و نهيا مولويين.

و بالجمله النهى عن الموت إلا مع الإسلام إنما هو لمكان عده اختياريا و يرجع بالأخره إلى الكنايه عن لزوم التزام الإسلام فى جميع الحالات حتى يقع الموت فى واحده من هذه الحالات،فيكون الميت مات فى حال الإسلام.

قوله تعالى: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَ لاَ تَفَرَّقُوا ،ذكر سبحانه فيما مر

من قوله: وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلىٰ عَلَيْكُمْ آيٰاتُ اللّٰهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّٰهِ الآيه أن التمسک بآيات الله و برسوله(الكتاب و السنه)اعتصام بالله مأمون معه المتمسک المعتصم،مضمون له الهدى،و التمسک بذيل الرسول تمسک بذيل الكتاب فإن الكتاب هو الذى يأمر بذلک فى مثل قوله وَ مٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا :الحشر-٧.

و قد بدل فى هذه الآيه الاعتصام المندوب إليه فى تلک الآيه بالاعتصام بحبل الله فأنتج ذلک أن حبل الله هو الكتاب المنزل من عند الله،و هو الذى يصل ما بين العبد و الرب و يربط السماء بالأرض،و إن شئت قلت:إن حبل الله هو القرآن و النبى ص فقد عرفت أن مآل الجميع واحد.

و القرآن و إن لم يدع إلا إلى حق التقوى و الإسلام الثابت لكن غرض هذه الآيه غير غرض الآيه السابقه الآمره بحق التقوى و الموت على الإسلام فإن الآيه السابقه تتعرض لحكم الفرد،و هذه الآيه تتعرض لحكم الجماعه المجتمعه و الدليل عليه قوله:

« جَمِيعاً »و قوله:« وَ لاٰ تَفَرَّقُوا فالآيات تأمر المجتمع الإسلامى بالاعتصام بالكتاب و السنه كما تأمر الفرد بذلک.

قوله تعالى:« وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدٰاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوٰاناً » جمله إِذْ كُنْتُمْ ،بيان لما ذكر من النعمه،و عليه يعطف قوله: «وَ كُنْتُمْ عَلىٰ شَفٰا حُفْرَةٍ مِنَ النّٰارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهٰا .

و الأمر بذكر هذه النعمه مبنى على ما عليه دأب القرآن أن يضع تعليمه على بيان العلل و الأسباب،و يدعو إلى الخير و الهدى من وجهه من غير أن يأمر بالتقليد العامى المعمى،و حاشا التعليم الإلهى أن يهدى الناس إلى السعاده و هى العلم النافع و العمل الصالح ثم يأمر بالوقوع فى تيه التقليد و ظلمه الجهل.

لكن يجب أن لا يشتبه الأمر و لا يختلط الحال على المتدبر الباحث،فالله سبحانه يعلم الناس حقيقه سعادتهم،و يعلم الوجه فيها ليتبصروا بارتباط الحقائق بعضها ببعض، و أن الجميع فائضه من منبع التوحيد مع وجوب إسلامهم لله لأنه الله رب العالمين

و اعتصامهم بحبله لأنه حبل الله رب العالمين كما يومئ إليه ما فى آخر الآيات من قوله:

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ

،الآيتان.

و بالجمله هو أمرهم أن لا يقبلوا قولا،و لا يطيعوا أمرا إلا عن علم بوجهه،ثم أمرهم بالتسليم المطلق لنفسه و بين وجهه أنه هو الله الذى يملكهم على الإطلاق فليس لهم إلا ما أراده فيهم و تصرف فيه منهم،و أمرهم بالطاعه المطلقه لما يبلغه رسوله و بين وجهه بأنه رسول لا شأن له إلا البلاغ،ثم يكلمهم بحقائق المعارف،و بيان طرق السعاده،و بين الوجه العام فى جميع ذلك ليهتدوا إلى روابط المعارف و طرق السعاده فيتحققوا أصل التوحيد،و ليتأدبوا بهذا الأدب الإلهى فيتسلطوا على سبيل التفكر الصحيح،و يعرفوا طريق التكلم الحق فيكونوا أحياء بالعلم أحرارا من التقليد، و نتيجه ذلك أنهم لو عرفوا وجه الأمر فى شىء من المعارف الثابته الدينيه أو ما يلحق بها أخذوا به،و لو لم يعرفوا وقفوا عن الرد و رجعوا نيله بالبحث و التدبر من غير رد أو اعتراض بعد ثبوته.

و هذا غير أن يقال:إن الدين موضوع على أن لا يقبل شىء حتى من الله و رسوله إلا عن دليل فإن ذلك من أسفه الرأى و أردإ القول،و مرجعه إلى أن الله يريد من عباده أن يطالبوا الدليل بعد وجوده فإن ربوبيته و ملكه أصل كل دليل على وجوب التسليم و نفوذ الحكم.و رساله رسوله هو الدليل على أن ما يؤديه عن الله سبحانه فافهم ذلك،أو مرجعه إلى إلغاء ربوبيته فيما يتصرف فيه بربوبيته و ليس إلا التناقض، و الحاصل أن المسلك الإسلامى و الطريق النبوى ليس إلا الدعوه إلى العلم دون التقليد على ما يزعمه هؤلاء المقلده المتسمون بالناقدين.

و لعل الوجه فى ذكر أن هذا المذكور نعمه(نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)هو الإشاره إلى ما ذكرناه أى إن الدليل على ما ندبناكم إليه من الاتحاد و الاجتماع هو ما شاهدتموه من مراره العداوه و حلاوه المحبه و الألفه و الأخوه و الإشراف على حفره النار و التخلص منها،و إنما نذكركم بهذا الدليل لا ـ لأن علينا أن نؤيد قولنا بما لولاه لم يكن حقا فإنما قولنا حق سواء دللنا عليه أو لا،بل لأن تعلموا أن ذلك نعمه منا عليكم فتعرفوا أن فى هذا الاجتماع كسائر ما نندبكم إليه سعادتكم و راحتكم و مفازتكم.

و ما ذكره تعالى من الدليلين أحدهما و هو قوله: إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ،مبتن على أصل

التجربه،و الثانی و هو قوله: وَ کُنْتُمْ عَلیٰ شَفٰا حُفْرَهٍ ،علی طریقه البیان العقلی کما هو ظاهر.

و فی قوله: فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوٰاناً تکرار للامتنان الذی یدل علیه قوله:

وَ اذْکُرُوا نِعْمَتَ اللّٰهِ عَلَیْکُمْ

،و المراد بالنعمه هو التألیف فالمراد بالأخوه التی توجده و تحققه هذه النعمه أیضا تألف القلوب فالأخوه هاهنا حقیقه ادعائیه.

و یمکن أن یکون إشاره إلی ما یشتمل علیه قوله: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَهٌ» XالآیهX:الحجرات-۱۰،من تشریع الأخوه بینهم فإن بین المؤمنین أخوه مشرعه تتعلق بها حقوق هامه.

قوله تعالی: وَ کُنْتُمْ عَلیٰ شَفٰا حُفْرَهٍ مِنَ النّٰارِ فَأَنْقَذَکُمْ مِنْهٰا ، شفا الحفره طرفها الذی یشرف علی السقوط فیها من کان به.

و المراد من النار إن کان نار الآخره فالمراد بکونهم علی شفا حفرتها أنهم کانوا کافرین لیس بینهم و بین الوقوع فیها إلا الموت الذی هو أقرب إلی الإنسان من سواد العین إلی بیاضها فأنقذهم الله منها بالإیمان.

و إن کان المراد بیان حالهم فی مجتمعهم الفاسد الذی کانوا فیه قبل إیمانهم و تألف قلوبهم،و کان المراد بالنار هی الحروب و المنازعات-و هو من الاستعمالات الشائعه بطریق الاستعاره-فالمقصود أن المجتمع الذی بنی علی تشتت القلوب و اختلاف المقاصد و الأهواء،و لا محاله لا یسیر مثل هذا المجتمع بدلیل واحد یهدیهم إلی غایه واحده بل بأدله شتی تختلف باختلاف المیول الشخصیه و التحکمات الفردیه اللاغیه التی تهدیهم إلی أشد الخلاف و الاختلاف-یشرفهم إلی أردإ التنازع،و یهددهم دائما بالقتال و النزال، و یعدهم الفناء و الزوال،و هی النار التی لا تبقی و لا تذر علی حفره الجهاله التی لا منجا و لا مخلص للساقط فیها.

فهؤلاء هم طائفه من المسلمین کانوا آمنوا قبل نزول الآیه بعد کفرهم،و هم المخاطبون الأقربون بهذه الآیات لم یکونوا یعیشون مدی حیوتهم قبل الإسلام إلا فی حال تهددهم الحروب و المقاتلات آنا بعد آن،فلا أمن و لا راحه و لا فراغ،و لم یکونوا یفقهون ما حقیقه الأمن العام الذی یعم المجتمع بجمیع جهاتها من جاه و مال و عرض و نفس و غیر ذلک.

ثم لما اجتمعوا على الاعتصام بحبل الله،و لاحت لهم آيات السعاده،و ذاقوا شيئا من حلاوه النعم وجدوا صدق ما يذكرهم به الله من هنىء النعمه و لذيذ السعاده فكان الخطاب أوقع فى نفوسهم و نفوس غيرهم.

و لذلك بنى الكلام و وضعت الدعوه على أساس المشاهده و الوجدان دون مجرد التقدير و الفرض فليس العيان كالبيان،و لا التجارب كالفرض و التقدير،و لذلك بعينه أشار فى التحذير الآتى فى قوله: وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا «إلخ»إلى حال من قبلهم فإن مآل حالهم بمرأى و مسمع من المؤمنين فعليهم أن يعتبروا بهم و بما آل إليه أمرهم فلا يجروا مجراهم و لا يسلكوا مسلكهم.

ثم نبههم الله على خصوصيه هذا البيان فقال: كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ آيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

قوله تعالى: وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ «إلخ»،التجربه القطعيه تدل على أن المعلومات التى يهيئها الإنسان لنفسه فى حياته-و لا يهيئ و لا يدخر لنفسه إلا ما ينتفع به-من أى طريق هيأها و بأى وجه ادخرها تزول عنه إذا لم يذكرها و لم يدم على تكرارها بالعمل،و لا نشك أن العمل فى جميع شئونه يدور مدار العلم يقوى بقوته،و يضعف بضعفه و يصلح بصلاحه، و يفسد بفساده،و قد مثل الله سبحانه حالهما فى قوله: «الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبُثَ لاٰ يَخْرُجُ إِلاّٰ نَكِداً،X «Xالآيه X:الأعراف-۵۸.

و لا نشك أن العلم و العمل متعاكسان فى التأثير فالعلم أقوى داع إلى العمل و العمل الواقع المشهود أقوى معلم يعلم الإنسان.

و هذا الذى ذكر هو الذى يدعو المجتمع الصالح الذى عندهم العلم النافع و العمل الصالح أن يتحفظوا على معرفتهم و ثقافتهم،و أن يردوا المتخلف عن طريق الخير المعروف عندهم إليه،و أن لا يدعوا المائل عن طريق الخير المعروف و هو الواقع فى مهبط الشر المنكر عندهم أن يقع فى مهلكه الشر و ينهوه عنه.

و هذه هى الدعوه بالتعليم و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و هى التى يذكرها الله فى هذه الآيه بقوله: يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

و من هنـا يظهر السـر فی تعبيره تعـالی عن الخير و الشـر بالمعروف و المنكر فإن الكلام مبنی علی ما فی الآيه السابقه من قوله: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيعاً وَ لاٰ تَفَرَّقُوا إلخ.

و من المعلوم أن المجتمع الـذی هـذا شـأنه يكون المعروف فيه هو الخير،و المنكر فيه هو الشـر ،و لو لاـ العبره بهـذه النكته لكان الـوجه فی تسـميه الخير و الشـر بـالمعروف و المنكر كـون الخير و الشـر معروفـا و منكرا بحسـب نظر الـدين لاـ بحسـب العمل الخارجی.

و أمـا قوله:« وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ ،فقـد قيـل:«إن»من للتبعيض بنـاء علی أن الأـمر بـالمعروف و النهی عن المنكر و كـذا الـدعوه من الواجبات الكفائيه.

و ربمـا قيـل:إن«من»بيـانيه و المراد منه و لتكونوا بهـذا الاجتمـاع الصالـح أمه يـدعون إلی الخير فيجری الكلاـم علی هـذا مجری قولنا:ليكن لی منك صديق أی كن صديقا لی.و الظاهر أن المراد بكون«من»بيانيه كونها نشوئيه ابتدائيه.

و الذی ينبغی أن يقال:أن البحث فی كون من تبعيضـيه أو بيانيه لا يرجع إلی ثمره محصله فإن الدعوه و الأمر بالمعروف و النهی عن المنكر أمور لو وجبت لكـانت بحسب طبعهـا واجبـات كفـائيه إذ لاـ معنی للـدعوه و الأمر و النهی المـذكورات بعـد حصول الغرض فلو فرضت الأـمه بـأجمعهم داعيه إلی الخير آمره بالمعروف ناهيه عن المنكر كان معناه أن فيهم من يقوم بهـذه الوظائف فالأـمر قـائم بالبعض علی أی حال،و الخطاب إن كان للبعض فهو ذاك،و إن كان للكل كان أيضا باعتبار البعض،و بعباره أخری المسئول بها الكل و المثاب بها البعض،و لذلك عقبه بقوله: وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فالظاهر أن من تبعيضيه،و هو الظاهر من مثل هذا التركيب فی لسان المحاورين و لا يصار إلی غيره إلا بدليل.

و اعلم أن هـذه الموضوعـات الثلاـثه أعنی الـدعوه و الأـمر بـالمعروف و النهی عن المنكر ذوات أبحـاث تفسـيريه طـويله عميقه سنتعرض لها فی موضع آخر يناسبها إن شاء الله تعالی.

و كذا ما يتعلق بها من الأبحاث العلميه و النفسيه و الاجتماعيه.

قوله تعالی: وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْبَيِّنٰاتُ .

لاـ يبعـد أن يكون قوله: مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْبَيِّنٰاتُ متعلقا بقوله: وَ اخْتَلَفُوا فقط و حينئـذ كان المراد بالاختلاف التفرق من حيث الاعتقاد و بالتفرق الاختلاف و التشتت

من حيث الأبـدان و قـدم التفرق على الاختلاـف لأـنه كالمقـدمه المؤديه إليه لأـن القوم مهما كانوا مجتمعين متواصـلين اتصـلت عقائـد بعضـهم ببعض و اتحـدت بالتماس و التفاعل،و حفظهم ذلک من الاختلاف فإذا تفرقوا و انقطع بعضـهم عن بعض أداهم ذلـک إلى اختلاـف المشارب و المسالک،و لم يلبثوا دون أن يسـتقل أفکارهم و آراؤهم بعضـها عن بعض، و برز فيهم الفرقه،و انشق عصـا الوحـده فکـأنه تعـالى يقول:و لاـ تکونوا کالـذين تفرقوا بالأبـدان أولاـو خرجوا من الجمـاعه،و أفضـاهم ذلـک إلى اختلاف العقائد و الآراء أخيرا.

و قد نسب تعالى هذا الاختلاف فى موارد من کلامه إلى البغى.قال تعالى:

«وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» :البقره-۲۱۳،مع أن ظهور الاختلاف فى العقائـد و الآراء ضرورى بين الأفراد لاختلاف الأفهام لکن کما أن ظهور هذا الاختلاف ضـرورى کذلک دفع الاجتماع لذلک،و رده المختلفين إلى ساحه الاتحاد أيضا ضـرورى فرفع الاختلاف ممکن مقـدور بالواسـطه،و إعراض الأمه عن ذلک بغى منهم،و إلقاء لأنفسـهم فى تهلکه الاختلاف.

و قـد أکـد القرآن الـدعوه إلى الاتحـاد،و بالغ فى النهى عن الاختلاف،و ليس ذلک إلا لما کان يتفرس من أمر هـذه الأمه،أنهم سيختلفون کالذين من قبلهم بل يزيدون عليهم فى ذلک،و قد تقدم مرارا أن من دأب القرآن أنه إذا بالغ فى التحذير عن شىء و النهى عن اقترافه کـان ذلک آيه وقوعه و ارتکابه،و هـذا أمر أخبر به النبى ص أيضا کما أخبر به القرآن،و أن الاختلاف سـيدب فى أمته ثم يظهر فى صـوره الفرق المتنـوعه،و أن أمته سـتختلف کمـا اختلفت اليهـود و النصـارى من قبـل و سـيجىء الروايه فى البحث الروائى.

و قـد صـدق جريـان الحوادث هـذه الملحمه القرآنيه فلم تلبث الأمه بعـد رسول الله ص دون أن تفرقوا شـذر مـدر،و اختلفوا فى مـذاهب شتى بعضـهم يکفر بعضا من لـدن عصـر الصـحابه إلى يومنا هذا،و کلما رام أحد أن يوفق بين مختلفين منها أولد ذلک مذهبا ثالثا.

و الـذى يهـدينا إليه البحث بالتحليـل و التجزيه أن أصـل هـذا الاختلاـف ينتهى إلى المنـافقين الـذين يغلظ القرآن القول فيهم و عليهم و يستعظم مکرهم و کيدهم فإنک لو

تـدبرت ما يـذكره الله تعالى فى حقهم فى سور البقره و التوبه و الأحزاب و المنافقين و غيرها لرأيت عجبا،و كان هـذا حالهم فى عهد رسول الله ص و لما ينقطع الوحى ثم لما توفاه الله غاب ذكرهم و سكنت أجراسهم دفعه.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس و لم يسمر بمكه سامر

و لم يلبث الناس دون أن وجدوا أنفسهم و قد تفرقوا أيادى سبإ،و باعدت بينهم شتى المذاهب،و استعبدتهم حكومات التحكم و الاستبداد،و أبدلوا سعاده الحيوه بشقاء الضلال و الغى.و الله المستعان،و المرجو من فضل الله أن يوفقنا لاستيفاء هذا البحث فى تفسير سوره البراءه إن شاء الله.

قوله تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ إلى آخر الآيتين،لما كان المقام مقام الكفر بالنعمه و هو نظير الخيانه مما يوجب خسه الانفعال و الخجل ذكر سبحانه من بين أنواع الآخره ما يناسبها بحسب التمثيل و هو سواد الوجه الذى يكنى به فى الدنيا عن الانفعال و الخجل و نحوهما كما يشعر أو يدل على ذلك قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ .

و كذا ذكر من ثواب الشاكرين لهذه النعمه ما يناسب الشكر و هو بياض الوجه المكنى به فى الدنيا عن الارتضاء و الرضا.

قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ،الظرف متعلق بقوله: نَتْلُوهَا ، و المراد كون التلاوه تلاوه حق من غير أن يكون باطلا شيطانيا،أو متعلق بالآيات باستشمام معنى الوصف فيه أو مستقر متعلق بمقدر،و المعنى أن هذه الآيات الكاشفه عن ما يصنع الله بالطائفتين:الكافرين و الشاكرين مصاحبه للحق من غير أن تجرى على نحو الباطل و الظلم،و هـذا الوجه أوفق لما يتعقبه من قوله: وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً .

قوله تعالى: وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ ،تنكير الظلم و هو فى سياق النفى يفيد الاستغراق،و ظاهر قوله: لِلْعَالَمِينَ و هو جمع محلى باللام أن يفيد الاستغراق،و المعنى على هـذا أن الله لا يريد ظلما أى ظلم فرض لجميع العالمين،و كافه الجماعات،و هو كذلك فإنما التفرق بين الناس أمر يعود أثره المشئوم إلى جميع العالمين و كافه الناس.

قوله تعالى: وَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ،لما ذكر أن

الله لا یرید الظلم علل ذلک بما یزول معه توهم صدور الظلم فذکر أن الله تعالی یملک جمیع الأشیاء من جمیع الجهات فله أن یتصرف فیها کیف یشاء فلا یتصور فی حقه التصرف فیما لا یملکه حتی یکون ظلما و تعدیا.

علی أن الشخص إنما ینحو الظلم إذا کان له حاجه لا یتمکن من رفعها إلا بالتعدی علی ما لا یملکه،و الله الغنی الذی له ما فی السماوات و الأرض هذا ما قرره بعضهم لکنه لا یلائم ظاهر الآیه فإن هذا الجواب یبتنی بالحقیقه علی غناه تعالی دون ملکه،و المذکور فی الآیه هو الملک دون الغنی،و کیف کان فملکه دلیل أنه تعالی لیس بظالم.

و هناک دلیل آخر و هو أن مرجع جمیع الأمور أیا ما کانت إلیه تعالی فلیس لغیره تعالی من الأمر شیء حتی یسلبه الله عنه و ینتزعه من یده و یجری فیه إراده نفسه فیکون بذلک ظالما،و هذا هو الذی یشیر إلیه قوله: وَ إِلَی اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

و الوجهان کما تری متلازمان أحدهما مبنی علی أن کل شیء له تعالی و الثانی مبنی علی أن شیئا من الأمور لیس لغیره تعالی.

قوله تعالی: کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّٰاسِ ،المراد بإخراج الأمه للناس(و الله أعلم)إظهارها لهم،و مزیه هذه اللفظه(الإخراج)أن فیها إشعارا بالحدوث و التکون قال تعالی: «الَّذِی أَخْرَجَ الْمَرْعیٰ» :الأعلی-۴،و الخطاب للمؤمنین فیکون قرینه علی أن المراد بالناس عامه البشر و الفعل أعنی قوله: کُنْتُمْ منسلخ عن الزمان-علی ما قیل-و الأمه إنما تطلق علی الجماعه و الفرد لکونهم ذوی هدف و مقصد یؤمرونه و یقصدونه،و ذکر الإیمان بالله بعد الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر من قبیل ذکر الکل بعد الجزء أو الأصل بعد الفرع.

فمعنی الآیه أنکم معاشر المسلمین خیر أمه أظهرها الله للناس بهدایتها لأنکم علی الجماعه تؤمنون بالله و تأتون بفریضتی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر،و من المعلوم أن انبساط هذا التشریف علی جمیع الأمه لکون البعض متصفین بحقیقه الإیمان و القیام بحق الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر هذا محصل ما ذکروه فی المقام.

و الظاهر(و الله أعلم)أن قوله: کُنْتُمْ غیر منسلخ عن الزمان و الآیه تمدح حال

المؤمنين فی أول ظهور الإسلام من السابقین الأولین من المهاجرین و الأنصار،و المراد بالإیمان هو الإیمان بدعوه الاجتماع علی الاعتصام بحبل الله و عدم التفرق فیه فی مقابل الکفر به علی ما یدل علیه قوله قبل: أَ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِیمٰانِکُمْ الآیه،و کذا المراد بإیمان أهل الکتاب ذلک أیضا فیئول المعنی إلی أنکم معاشر أمه الإسلام کنتم فی أول ما تکونتم و ظهرتم للناس خیر أمه ظهرت لکونکم تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنکر و تعتصمون بحبل الله متفقین متحدین کنفس واحده،و لو کان أهل الکتاب علی هذا الوصف أیضا لکان خیرا لهم لکنهم اختلفوا منهم أمه مؤمنون و أکثرهم فاسقون.

و اعلم أن فی الآیات موارد من التفات من الغیبه إلی الخطاب و من خطاب الجمع إلی خطاب المفرد و بالعکس،و فیها موارد من وضع الظاهر موضع الضمیر کتکرر لفظ الجلاله فی عده مواضع،و النکته فی الجمیع ظاهره للمتأمل.

(بحث روائی)

فی المعانی،و تفسیر العیاشی،عن أبی بصیر قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله عز و جل: اِتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ -قال یطاع فلا یعصی،و یذکر فلا ینسی، و یشکر فلا یکفر.

و فی الدر المنثور،أخرج الحاکم و ابن مردویه من وجه آخر عن ابن مسعود قال:

قال رسول الله ص:

اِتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ

-أن یطاع فلا یعصی،و یذکر فلا ینسی.

و فیه،أخرج الخطیب عن أنس قال:قال رسول الله ص: لا یتقی الله عبد حق تقاته-حتی یعلم أن ما أصابه لم یکن لیخطئه،و ما أخطأه لم یکن لیصیبه.

أقول:قد مر فی البیان المتقدم کیفیه استفاده معنی الحدیثین الأولین من الآیه، و أما الحدیث الثالث فإنما هو تفسیر بلازم المعنی،و هو ظاهر.

و فی تفسیر البرهان،عن ابن شهرآشوب عن تفسیر وکیع،عن عبد خیر قال:

سألت علی بن أبی طالب عن قوله:- یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ قال:و الله ما عمل بها غیر بیت رسول الله-نحن ذکرناه فلا ننساه،و نحن شکرناه فلن نکفره، و نحن أطعناه فلم نعصه.فلما نزلت هذه الآیه قال الصحابه-لا نطیق ذلک فأنزل الله:

فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ -قال وكيع:ما أطقتم الحديث.

و فی تفسیر العیاشی،عن أبی بصیر قال: سألت أبا عبد الله(ع)عن قول الله:- اِتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقٰاتِهِ ،قال:منسوخه،قلت و ما نسختها؟قال:قول الله: فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .

أقول:و یستفاد من روایه وکیع أن المراد بالنسخ فی روایه العیاشی بیان مراتب التقوی،و أما النسخ بمعناه المصطلح کما نقل عن بعض المفسرین فهو معنی یرده ظاهر الکتاب.

و فی المجمع،عن الصادق(ع): فی الآیه:و أنتم مسلمون بالتشدید.

و فی الدر المنثور،: فی قوله تعالی: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِیعاً الآیه:أخرج ابن أبی شیبه و ابن جریر عن أبی سعید الخدری قال:قال رسول الله ص:کتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلی الأرض.

و فیه،أخرج ابن أبی شیبه عن أبی شریح الخزاعی قال:قال رسول الله ص:

إن هذا القرآن سبب طرفه بید الله،و طرفه بأیدیکم فتمسکوا به-فإنکم لن تزالوا و لن تضلوا بعده أبدا.

و فی المعانی،عن السجاد(ع)فی حدیث: و حبل الله هو القرآن.

أقول:و فی هذا المعنی روایات أخری من طرق الفریقین.

و فی تفسیر العیاشی،عن الباقر(ع): آل محمد هم حبل الله الذی أمر بالاعتصام به فقال:- وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِیعاً وَ لاٰ تَفَرَّقُوا .

أقول:و فی هذا المعنی روایات أخر،و قد تقدم فی البیان ما یتأید به معناها، و یؤیدها أیضا ما یأتی من الروایات.

و فی الدر المنثور،أخرج الطبرانی عن زید بن أرقم قال:قال رسول الله ص:

إنی لکم فرط،و إنکم واردون علی الحوض-فانظروا کیف تخلفونی فی الثقلین؟قیل:

و ما الثقلان یا رسول الله؟قال:الأکبر کتاب الله عز و جل سبب طرفه بید الله، و طرفه بأیدیکم فتمسکوا به لن تزالوا و لن تضلوا،و الأصغر عترتی،و إنهما لن یفترقا

حتی یردا علی الحوض.و سألت لهما ذاک ربی فلا تقدموهما فتهلکوا،و لا تعلموهما فإنهما أعلم منکم.

أقول:و حدیث الثقلین من المتواترات التی أجمع علی روایتها الفریقان،و قد تقدم فی أول السوره أن بعض علماء الحدیث أنهی رواته من الصحابه إلی خمس و ثلاثین راویا من الرجال و النساء،و قد رواه عنهم جم غفیر من الرواه و أهل الحدیث.

و فی الدر المنثور،أیضا أخرج ابن ماجه و ابن جریر و ابن أبی حاتم عن، أنس قال:قال رسول الله ص: افترقت بنو إسرائیل علی إحدی و سبعین فرقه، و إن أمتی ستفترق علی اثنتین و سبعین فرقه-کلهم فی النار إلا واحده-قالوا:یا رسول الله و من هذه الواحده؟قال:الجماعه،ثم قال:- اِعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِیعاً :

أقول:و الروایه أیضا من المشهورات،و قد روتها الشیعه بنحو آخر کما فی الخصال،و المعانی،و الاحتجاج،و الأمالی،و کتاب سلیم بن قیس،و تفسیر العیاشی،و اللفظ کما فی الخصال،بإسناده إلی سلیمان بن مهران عن جعفر بن محمد عن آبائه عن أمیر المؤمنین ((ع))قال:سمعت رسول الله ص یقول:إن أمه موسی افترقت بعده علی إحدی و سبعین فرقه، فرقه منها ناجیه،و سبعون فی النار،و افترقت أمه عیسی بعده علی اثنتین و سبعین فرقه،فرقه منها ناجیه،و إحدی و سبعون فی النار،و إن أمتی ستفترق بعدی علی ثلاث و سبعین فرقه،فرقه منها ناجیه،و اثنتان و سبعون فی النار.

أقول:و هی الموافقه لما یأتی.

و فی الدر المنثور،أخرج أبو داود و الترمذی و ابن ماجه و الحاکم و صححه عن أبی هریره،قال:قال رسول الله(ع): افترقت الیهود علی إحدی و سبعین فرقه، و تفرقت النصاری علی اثنتین و سبعین فرقه،و تفترق أمتی علی ثلاث و سبعین فرقه.

أقول:و هذا المعنی مروی بطرق أخری عن معاویه و غیره.

و فیه،أخرج الحاکم عن عبد الله بن عمر قال:قال رسول الله ص: یأتی علی أمتی ما أتی علی بنی إسرائیل-حذو النعل بالنعل-حتی لو کان فیهم من نکح أمه علانیه کان فی أمتی مثله-إن بنی إسرائیل افترقوا علی إحدی و سبعین مله،و تفترق أمتی علی

ثلاث و سبعين مله،کلها فی النار إلا مله واحده،فقیل له:ما الواحده؟قال:ما أنا علیه الیوم و أصحابی).

أقول و عن جامع الأصول،لابن الأثیر عن الترمذی عن ابن عمرو بن العاص عن النبی ص:مثله

و فی کمال الدین،بإسناده عن غیاث بن إبراهیم عن الصادق عن آبائه(ع) قال:قال رسول الله ص: کل ما کان فی الأمم السالفه فإنه یکون فی هذه الأمه- مثله حذو النعل بالنعل،و القذه بالقذه.

و فی تفسیر القمی،عن النبی ص: لترکبن سنه من کان قبلکم حذو النعل بالنعل، و القذه بالقذه،لا تخطئون طریقهم-و لا یخطأ،شبر بشبر،و ذراع بذراع،و باع بباع ،حتی أن لو کان من قبلکم دخل جحر ضب لدخلتموه،قالوا:الیهود و النصاری تعنی یا رسول الله؟قال:فمن أعنی؟لتنقضن عری الإسلام عروه عروه-فیکون أول ما تنقضون من دینکم الأمانه،و آخره الصلوه.

و عن جامع الأصول،فیما استخرجه من الصحاح،و عن صحیح الترمذی،عن النبی ص أنه قال: و الذی نفسی بیده لترکبن سنن من کان قبلکم(و زاد رزین)حذو النعل بالنعل و القذه بالقذه-حتی إن کان فیهم من أتی أمه یکون فیکم-فلا أدری أ تعبدون العجل أم لا؟.

أقول:و هذه الروایه أیضا من المشهورات،رواها أهل السنه فی صحاحهم و غیرهم، و روتها الشیعه فی جوامعهم.

و فی الصحیحین،عن أنس:أن رسول الله ص قال: لیردن علی الحوض رجال ممن صاحبنی-حتی إذا رفعوا اختلجوا دونی،فلأقولن:أی رب أصحابی-فلیقالن إنک لا تدری ما أحدثوا بعدک.

و فی الصحیحین،أیضا عن أبی هریره أن رسول الله ص قال: یرد علی یوم القیامه رهط من أصحابی-أو قال من أمتی-فیحلئون عن الحوض فأقول:یا رب أصحابی فیقول:لا علم لک بما أحدثوا بعدک-ارتدوا علی أعقابهم القهقری فیحلئون.

أقول:و هذا الحدیث أیضا من المشهورات،رواها الفریقان فی صحاحهم

و جوامعهم عن عده من الصحابه کابن مسعود و أنس و سهل بن ساعد و أبی هریره و أبی سعید الخدری و عائشه و أم سلمه و أسماء بنت أبی بکر و غیرهم و عن بعض أئمه أهل البیت(ع).

و الروایات علی کثرتها و تفننها تصدق ما استفدناه من ظاهر الآیات الکریمه، و توالی الحوادث و الفتن یصدق الروایات.

و فی الدر المنثور،أخرج الحاکم و صححه عن ابن عمر أن رسول الله ص قال:

من خرج من الجماعه قید شبر-فقد خلع ربقه الإسلام من عنقه حتی یراجعه،و من مات و لیس علیه إمام جماعه فإن موتته میته جاهلیه.

أقول:و الروایه أیضا من المشهورات مضمونا،

و قد روی الفریقان عنه(ص) أنه قال: من مات و لم یعرف إمام زمانه مات میته جاهلیه.

و عن جامع الأصول،من الترمذی و سنن أبی داود عن النبی ص: لا تزال طائفه من أمتی علی الحق.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی:- أَ کَفَرْتُمْ بَعْدَ إِیمٰانِکُمْ الآیه:عن أمیر المؤمنین(ع):

هم أهل البدع و الأهواء و الآراء الباطله من هذه الأمه.

و فیه،و فی تفسیر العیاشی،: فی قوله تعالی:- کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّٰاسِ الآیه:

عن أبی عمرو الزبیری عن الصادق(ع)قال:یعنی الأمه التی وجبت لها دعوه إبراهیم، و هم الأمه التی بعث الله فیها و منها و إلیها،و هم الأمه الوسطی،و هم خیر أمه أخرجت للناس.

أقول:و قد مر الکلام فی توضیح معنی الروایه فی تفسیر قوله تعالی: «وَ مِنْ ذُرِّیَّتِنٰا أُمَّهً مُسْلِمَهً لَکَ» :البقره-۱۲۸.

و فی الدر المنثور،أخرج ابن أبی حاتم عن أبی جعفر:

کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّٰاسِ

-قال:أهل بیت النبی ص.

و فیه،أخرج أحمد بسند حسن عن علی،قال:قال رسول الله ص: أعطیت ما لم

یعط أحد من الأنبیاء نصرت بالرعب،و أعطیت مفاتیح الأرض،و سمیت أحمد، و جعل التراب لی طهورا،و جعلت أمتی خیر الأمم

[سوره آل عمران (۳): الآیات ۱۱۱ الی ۱۲۰]

اشاره

لَنْ یَضُرُّوکُمْ إِلاّٰ أَذیً وَ إِنْ یُقٰاتِلُوکُمْ یُوَلُّوکُمُ اَلْأَدْبٰارَ ثُمَّ لاٰ یُنْصَرُونَ (۱۱۱) ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ اَلذِّلَّةُ أَیْنَ مٰا ثُقِفُوا إِلاّٰ بِحَبْلٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ حَبْلٍ مِنَ اَلنّٰاسِ وَ بٰاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اَللّٰهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ اَلْمَسْکَنَةُ ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ کٰانُوا یَکْفُرُونَ بِآیٰاتِ اَللّٰهِ وَ یَقْتُلُونَ اَلْأَنْبِیٰاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ ذٰلِکَ بِمٰا عَصَوْا وَ کٰانُوا یَعْتَدُونَ (۱۱۲) لَیْسُوا سَوٰاءً مِنْ أَهْلِ اَلْکِتٰابِ أُمَّةٌ قٰائِمَةٌ یَتْلُونَ آیٰاتِ اَللّٰهِ آنٰاءَ اَللَّیْلِ وَ هُمْ یَسْجُدُونَ (۱۱۳) یُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ یَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهَوْنَ عَنِ اَلْمُنْکَرِ وَ یُسٰارِعُونَ فِی اَلْخَیْرٰاتِ وَ أُولٰئِکَ مِنَ اَلصّٰالِحِینَ (۱۱۴) وَ مٰا یَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَلَنْ یُکْفَرُوهُ وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ بِالْمُتَّقِینَ (۱۱۵) إِنَّ اَلَّذِینَ کَفَرُوا لَنْ تُغْنِیَ عَنْهُمْ أَمْوٰالُهُمْ وَ لاٰ أَوْلاٰدُهُمْ مِنَ اَللّٰهِ شَیْئاً وَ أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ هُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۱۱۶) مَثَلُ مٰا یُنْفِقُونَ فِی هٰذِهِ اَلْحَیٰاةِ اَلدُّنْیٰا کَمَثَلِ رِیحٍ فِیهٰا صِرٌّ أَصٰابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَکَتْهُ وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اَللّٰهُ وَ لٰکِنْ أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۱۱۷) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا بِطٰانَةً مِنْ دُونِکُمْ لاٰ یَأْلُونَکُمْ خَبٰالاً وَدُّوا مٰا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ اَلْبَغْضٰاءُ مِنْ أَفْوٰاهِهِمْ وَ مٰا تُخْفِی صُدُورُهُمْ أَکْبَرُ قَدْ بَیَّنّٰا لَکُمُ اَلْآیٰاتِ إِنْ کُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۱۱۸) هٰا أَنْتُمْ أُولاٰءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لاٰ یُحِبُّونَکُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْکِتٰابِ کُلِّهِ وَ إِذٰا لَقُوکُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَ إِذٰا خَلَوْا عَضُّوا عَلَیْکُمُ اَلْأَنٰامِلَ مِنَ اَلْغَیْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَیْظِکُمْ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِیمٌ بِذٰاتِ اَلصُّدُورِ (۱۱۹) إِنْ تَمْسَسْکُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْکُمْ سَیِّئَةٌ یَفْرَحُوا بِهٰا وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لاٰ یَضُرُّکُمْ کَیْدُهُمْ شَیْئاً إِنَّ اَللّٰهَ بِمٰا یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ (۱۲۰)

بیان

الآیات الکریمه-کما تری-تنعطف إلی ما کان الکلام فیه قبل من التعرض لحال أهل الکتاب و خاصه الیهود فی کفرهم بآیات الله و إغوائهم أنفسهم،و صدهم المؤمنین عن سبیل الله،و إنما کانت الآیات العشر المتقدمه من قبیل الکلام فی طی الکلام،فاتصال الآیات علی حاله.

قوله تعالی: لَنْ یَضُرُّوکُمْ إِلاّ أَذیً «إلخ» الأذی ما یصل إلی الحیوان من الضرر:إما فی نفسه أو جسمه أو تبعاته دنیویا کان أو أخرویا علی ما ذکره الراغب مفردات القرآن.

قوله تعالی: ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ الذِّلَّهُ أَیْنَ مٰا ثُقِفُوا إِلاّ بِحَبْلٍ مِنَ اللّٰهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النّٰاسِ ، الذله بناء نوع من الذل،و الذل بالضم ما کان عن قهر،و بالکسر ما کان عن تصعب و شماس علی ما ذکره الراغب،و معناه العام حال الانکسار و المطاوعه،و یقابله العز و هو الامتناع.

و قوله: ثُقِفُوا أی وجدوا،و الحبل السبب الذی یوجب التمسک به العصمه، و قد أستعیر لکل ما یوجب نوعا من الأمن و العصمه و الوقایه کالعهد و الذمه و الأمان، و المراد(و الله أعلم):أن الذله مضروبه علیهم کضرب السکه علی الفاز أو کضرب

ص:۳۸۳

الخیمه علی الإنسان فهم مکتوب علیهم أو مسلط علیهم الذله إلا بحبل و سبب من الله، و حبل و سبب من الناس.

و قد کرر لفظ الحبل بإضافته إلی الله و إلی الناس لاختلاف المعنی بالإضافه فإنه من الله القضاء و الحکم تکوینا أو تشریعا،و من الناس البناء و العمل.

و المراد بضرب الذله علیهم القضاء التشریعی بذلتهم،و الدلیل علی ذلک قوله:

أَیْنَ مٰا ثُقِفُوا

فإن ظاهر معناه أینما وجدهم المؤمنون أی تسلطوا علیهم،و هو إنما یناسب الذله التشریعیه التی من آثارها الجزیه.

فیئول معنی الآیه إلی أنهم أذلاء بحسب حکم الشرع الإسلامی إلا أن یدخلوا تحت الذمه أو أمان من الناس بنحو من الأنحاء.

و ظاهر بعض المفسرین أن قوله: ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ الذِّلَّهُ ،لیس فی مقام تشریع الحکم بل إخبار عن ما جری علیه أمرهم بقضاء من الله و قدر فإن الإسلام أدرک الیهود و هم یؤدون الجزیه إلی المجوس،و بعض شعبهم کانوا تحت سلطه النصاری.

و هذا المعنی لا بأس به و ربما أیده ذیل الکلام إلی آخر الآیه فإنه ظاهر فی أن السبب فی ضرب الذله و المسکنه علیهم ما کسبته أیدیهم من الکفر بآیات الله،و قتل الأنبیاء،و الاعتداء المستمر إلا أن لازم هذا المعنی اختصاص الکلام فی الآیه بالیهود و لا مخصص ظاهرا،و سیجیء فی ذلک کلام فی تفسیر قوله تعالی: «وَ أَلْقَیْنٰا بَیْنَهُمُ الْعَدٰاوَهَ وَ الْبَغْضٰاءَ» :المائده-۶۴.

قوله تعالی: وَ بٰاؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَیْهِمُ الْمَسْکَنَهُ ، باءوا أی اتخذوا مباءه و مکانا،أو رجعوا،و المسکنه أشد الفقر،و الظاهر أن المسکنه أن لا یجد الإنسان سبیلا إلی النجاه و الخلاص عما یهدده من فقر أو أی عدم،و علی هذا فیتلاءم معنی الآیه صدرا و ذیلا.

قوله تعالی: ذٰلِکَ بِمٰا عَصَوْا وَ کٰانُوا یَعْتَدُونَ ،و المعنی أنهم عصوا و کانوا قبل ذلک یستمرون علی الاعتداء.

قوله تعالی: لَیْسُوا سَوٰاءً -إلی قوله: -بِالْمُتَّقِینَ السواء مصدر أرید به معنی

ص: ۳۸۴

الوصف أی لیسوا مستوین فی الوصف و الحکم فإن منهم أمه قائمه یتلون آیات الله «إلخ»،و من هنا یظهر أن قوله: مِنْ أَهْلِ الْکِتٰابِ «إلخ»فی مقام التعلیل یبین به وجه عدم استواء أهل الکتاب.

و قد اختلف فی قوله: قٰائِمَهٌ فقیل:أی ثابته علی أمر الله،و قیل:أی عادله، و قیل:أی ذو أمه قائمه أی ذو طریقه مستقیمه،و الحق أن اللفظ مطلق یحتمل الجمیع غیر أن ذکر الکتاب و ذکر أعمالهم الصالحه یعین أن المراد هو القیام علی الإیمان و الطاعه.

و الآناء جمع إنی بکسر الهمزه أو فتحها،و قیل:إنو و هو الوقت.

و المسارعه المبادره و هی مفاعله من السرعه قال فی المجمع،:و الفرق بین السرعه و العجله أن السرعه هی التقدم فیما یجوز أن یتقدم فیه،و هی محموده و ضدها الإبطاء، و هو مذموم،و العجله هی التقدم فیما لا ینبغی أن یتقدم فیه و هی مذمومه،و ضدها الأناه و هی محموده،انتهی، و الظاهر أن السرعه فی الأصل وصف للحرکه،و العجله وصف للمتحرک.

و الخیرات مطلق الأعمال الصالحه من عباده أو إنفاق أو عدل أو قضاء حاجه، و هو جمع محلی باللام،و معناه الاستغراق،و یکثر إطلاقه علی الخیرات المالیه کما أن الخیر یکثر إطلاقه علی المال.

و قد عد الله سبحانه لهم جمل مهمات الصالحات،و هی الإیمان،و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر،و المسارعه فی کل خیر،ثم وصفهم بأنهم صالحون فهم أهل الصراط المستقیم و زملاء النبیین و الصدیقین و الشهداء لقوله تعالی: «اهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ صِرٰاطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ غَیْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَ لاَ الضّٰالِّینَ» :الحمد-۷،و قوله تعالی:

«فَأُولٰئِکَ مَعَ الَّذِینَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَیْهِمْ مِنَ النَّبِیِّینَ وَ الصِّدِّیقِینَ وَ الشُّهَدٰاءِ وَ الصّٰالِحِینَ» XالآیهX:ا لنساء-۶۹،قیل:المراد بهؤلاء الممدوحین عبد الله بن سلام و أصحابه.

قوله تعالی: وَ مٰا یَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَلَنْ یُکْفَرُوهُ ،من الکفران مقابل الشکر أی یشکر الله لهم فیرده إلیهم من غیر ضیعه کما قال تعالی: «وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَیْراً فَإِنَّ اللّٰهَ

شَاكِرٌ عَلِيمٌ» :البقره-١٥٨،و قال: «وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ -Xإلى أن قالX- وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ» :البقره-٢٧٢.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ ،ظاهر وحده السياق أن المراد بهؤلاء، اَلَّذِينَ كَفَرُوا هم الطائفه الأخرى من أهل الكتاب الذين لم يستجيبوا دعوه النبوه،و كانوا يوطئون على الإسلام،و لا يألون جهدا فى إطفاء نوره.

و ربما قيل:إن الآيه ناظره إلى حال المشركين فتكون التوطئه لما سيشير إليه من قصه أحد لكن لا يلائمه ما سيأتى من قوله: وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتٰابِ كُلِّهِ وَ إِذٰا لَقُوكُمْ قٰالُوا آمَنّٰا «إلخ»فإن ذلك بيان لحال اليهود مع المسلمين دون حال المشركين،و من هناك يظهر أن اتصال السياق لم ينقطع بعد.

و ربما جمع بعض المفسرين بين حمل هذه الآيه على المشركين و حمل تلك على اليهود،و هو خطأ.

قوله تعالى: مَثَلُ مٰا يُنْفِقُونَ فِي هٰذِهِ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا الآيه الصر البرد الشديد، و إنما قيد الممثل بقوله: فِي هٰذِهِ الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا ليدل على أنهم منقطعون عن الدار الآخره فلا يتعلق إنفاقهم إلا بهذه الحيوه،و قيد حرث القوم بقوله: ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ليحسن ارتباطه بقوله بعده: وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اللّٰهُ .

و محصل الكلام أن إنفاقهم فى هذه الحيوه و هم يريدون به إصلاح شأنهم و نيل مقاصدهم الفاسده لا يثمر لهم إلا الشقاء،و فساد ما يريدونه و يحسبونه سعاده لأنفسهم كالريح التى فيها صر تهلك حرث الظالمين،و ليس ذلك إلا ظلما منهم لأنفسهم فإن العمل الفاسد لا يأتى إلا بالأثر الفاسد.

قوله تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا بِطٰانَةً مِنْ دُونِكُمْ الآيه سميت الوليجه بطانه و هى ما يلى البدن من الثوب و هى خلاف الظهاره لكونها تطلع على باطن الإنسان و ما يضمره و يستسره،و قوله: لاٰ يَأْلُونَكُمْ أى لا يقصرون فيكم،و قوله: خَبٰالاً أى شرا و فسادا،و منه الخبل للجنون لأنه فساد العقل،و قوله: وَدُّوا مٰا عَنِتُّمْ ،ما مصدريه أى ودوا و أحبوا عنتكم و شده ضرركم،و قوله: قَدْ بَدَتِ الْبَغْضٰاءُ مِنْ أَفْوٰاهِهِمْ أريد به ظهور البغضاء و العداوه من لحن قولهم و فلتات لسانهم ففيه استعاره

لطیفه و کنایه،و لم یبین ما فی صدورهم بل أبهم قوله: وَ مٰا تُخْفِی صُدُورُهُمْ أَکْبَرُ للإیماء إلی أنه لا یوصف لتنوعه و عظمته و به یتأکد قوله: أَکْبَرُ .

قوله تعالی: هٰا أَنْتُمْ أُولاٰءِ تُحِبُّونَهُمْ الآیه،الظاهر أن أولاء اسم إشاره و لفظه ها للتنبیه،و قد تخلل لفظه أنتم بین ها و أولاء،و المعنی أنتم هؤلاء علی حد قولهم:

زید هذا و هند هذه کذا و کذا.

و قوله: وَ تُؤْمِنُونَ بِالْکِتٰابِ کُلِّهِ ،اللام للجنس أی و أنتم تؤمنون بجمیع الکتب السماویه النازله من عند الله:کتابهم و کتابکم،و هم لا یؤمنون بکتابکم ،و قوله ،وَ إِذٰا لَقُوکُمْ قٰالُوا آمَنّٰا ،أی إنهم منافقون،و قوله: وَ إِذٰا خَلَوْا عَضُّوا عَلَیْکُمُ الْأَنٰامِلَ مِنَ الْغَیْظِ العض هو الأخذ بالأسنان مع ضغط،و الأنامل جمع أنمله و هی طرف الإصبع.و الغیظ هو الحنق،و عض الأنامل علی شیء مثل یضرب للتحسر و التأسف غضبا و حنقا.

و قوله: قُلْ مُوتُوا بِغَیْظِکُمْ دعاء علیهم فی صوره الأمر و بذلک تتصل الجمله بقوله: إِنَّ اللّٰهَ عَلِیمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ أی اللهم أمتهم بغیظهم إنک علیم بذات الصدور أی القلوب أی النفوس.

قوله تعالی: إِنْ تَمْسَسْکُمْ حَسَنَهٌ تَسُؤْهُمْ ، المساءه خلاف السرور،و فی الآیه دلاله علی أن الأمن من کیدهم مشروط بالصبر و التقوی.

ص :۳۸۷

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:
تأسّس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامى عام ١۴٢۶ الهجرى فى المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فى الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:
نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فى العلوم الإسلامية وتبعثرها فى أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية فى أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فى العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهى منظمة فى برامج إلكترونية وجاهزة فى مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.
وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:
نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبىّ عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فى المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة فى الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين فى الحوازت العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فى ملفات الكترونية

السياسات:
مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمى البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

٤.CHM

٥.PDF

٦.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمية ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

٤.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فی تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزی

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولی.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونی : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزی ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵

هاتف المكتب فی طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱

قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.